المركز القومى للترجمة

تاريخ الحروب الصليبية

الجزء الأول

تحرير
جوناثان رايلى سميث

ترجمة وتقديم وتعليق
قاسم عبده قاسم

المشروع القومى للترجمة

1291





هذه مجموعة من الدراسات الجديدة حول الحروب الصليبية تعكس تزايد الاهتمام بدراسة الجوانب المختلفة لهذه الظاهرة التاريخية الفذة، وقد صحبتها مجموعة من الصور والرسوم المأخوذة عن مخطوطات العصور الوسطى، والحديثة أيضًا. وقد صحبت هذه الصور والرسوم مادة إضافية مهمة عن تاريخ الحروب الصليبية بجوانبها العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

تاريخ

الحروب الصليبية

(الجزء الأول)

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٢٩١
- تاريخ الحروب الصليبية ج١
- جوناثان رايلي سميث
- قاسم عبده قاسم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب :

The Oxford Illustrated History Of The crusades

First Edition

by : Jonathan Riley - Smith

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

تاريخ
الحـــروب الصليبيــة
(الجزء الأول)

تحـــــريـــــر : جوناثان رايلى سميث
ترجمة وتقديم وتعليق : قـاسـم عبـده قـاسـم



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تاريخ الحروب الصليبية
تحرير : جوناثان رايلى سميث ؛ ترجمة وتقديم وتعليق : قاسم عبده قاسم
- ط١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨
٣٣٢ ص ، ج ١ ، ٢٤ سم
١- الحروب الصليبية
(أ) سميث ، جوناثان رايلى (محرر)
(ب) قاسم ، قاسم عبده (مترجم ومقدم ومعلق)
(ج) العنوان ٩٥٣,٧٣٩٣

رقم الإيداع : ٤٤٣٠ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى 977-437-645-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم

هذه مجموعة من الدراسات الجديدة حول الحروب الصليبية تعكس تزايد الاهتمام بدراسة الجوانب المختلفة لهذه الظاهرة التاريخية الفذة، وقد صحبتها مجموعة من الصور والرسوم المأخوذة عن مخطوطات العصور الوسطى، والحديثة أيضًا. وقد صحبت هذه الصور والرسوم مادة إضافية مهمة عن تاريخ الحروب الصليبية بجوانبها العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية.

والحركة الصليبية، بوجه عام، لا تزال تستأثر بجهود الباحثين والمؤرخين فى الغرب الأوربى وفى الشرق العربى الإسلامى على السواء. بيد إن الفرق بين الجانبين يتمثل فى أن الجهود التى تبذل فى العالم العربى لا تزال فردية ومتناثرة، على حين أن جهود الباحثين الغربيين مؤسسية ومتكاملة تقوم بها فرق من الباحثين فى تخصصات مختلفة. وهذا الكتاب الذى نقدمه للقارئ العربى للمرة الأولى، نموذج على العمل الجماعى فى نظام تداخلت فيه الفروع المعرفية للعلم. إذ إن فريق العمل بقيادة المؤرخ الفذ «جوناثان رايلى سميث»، أحد أبرز المتخصصين المعاصرين فى تاريخ الحركة الصليبية، قدم لنا خمس عشرة دراسة ممتعة عن جوانب جديدة تتم دراستها لأول مرة فى تاريخ الحركة الصليبية فى سفر مشترك يحمل اسم أوكسفورد العريق. فالتاريخ والفن التشكيلى، والعمارة، والموسيقى، والآثار، والشعر والرهبنة، والأحوال الاجتماعية، والمعارك العسكرية، والمشاعر الإنسانية – كلها ألوان تكوِّن الصورة البديعة التى يقدمها هذا الكتاب المدهش. ومن ناحية أخرى، فإن هذا العمل نموذج جيد على مدى ما يمكن لفريق عمل من المتخصصين أن يقدمه من خدمات للعلم والثقافة على المستوى الإنسانى .

وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية تستحق مزيداً من الدراسات المتكاملة فإن كتاب أوكسفورد هذا يظل صاحب الفضل فى تقديمها بالشكل الذى يجعل القارئ المثقف العام قادراً على الوصول إلى حقائقها وأسرارها بشكل بسيط ولكنه لايخل بالمحتوى العلمى والأكاديمى الممتاز الذى تمتاز به هذه الدراسات التى يضمها الكتاب.

وقد أخذت على عاتقى مهمة ترجمة الكتاب- وهى مهمة فردية للأسف الشديد- نظراً لأهمية الكتاب من ناحية، وعدم وجود فريق عمل متكامل يقوم على ترجمته من ناحية أخرى. ولأن الكتاب مهم للقارئ العربى العام، وللطلاب والباحثين على السواء، كان لابد من ترجمته بغض النظر عن المصاعب المادية ومشاق الترجمة. ولست فى مجال يسمح لى بعرض مدى الصعاب التى تواجه من يقوم بترجمة عمل يسهم فيه عدد كبير من الباحثين، تتنوع مشاربهم العلمية والثقافية، لأننى أظن أن هذه هى طبيعة العمل العلمى. ولكنى حرصت قدر الإمكان أن أحبس نفسى داخل عقول من كتبوا هذا الكتاب، مع تحسبى لأن الترجمة الدقيقة تكون مثل امرأة جميلة ولكنها خائنة !! وقد راعيت أن تكون الترجمة فى لغة عربية قدر الإمكان. ويبقى الحكم بعد ذلك للقارئ. والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

أول أكتوبر ٢٠٠٧م

مقدمة

إن وضع موضوع الحروب الصليبية فى هذه السلسلة من كتب التاريخ المصورة وحقيقة أن واحداً فقط من المشاركين من خارج بريطانيا يتيح الفرصة للتأمل فى ظاهرة تنامى عدد الباحثين البريطانيين فى الحروب الصليبية منذ أوائل خمسينيات القرن العشرين، حينما لم يكن هناك أكثر من نصف دستة، منهم اثنان فقط كانا من المؤرخين، يدرِّسون فى الجامعات. وبحلول سنة ١٩٩٠م كان هناك تسعة وعشرون قسماً للتاريخ فى الجامعات والكليات البريطانية بها أعضاء فى «جمعية دراسة الحروب الصليبية»، وربما يرجع الفضل فى قوة الموضوع بالدوائر الأكاديمية البريطانية إلى الاهتمام العام به، وهو ولع بالشرق الأدنى له تاريخ طويل، وشهرة هيئة سان چون الطبية التى تربط نفسها بفرسان الاسبتارية (المستشفى) فى العصور الوسطى، والنجاح المستمر المتواصل لكتاب سير ستيفن رنسيمان الذى يحمل عنوان «تاريخ الحروب الصليبية».

هذا المجلد يعكس التطورات الحديثة فى مجال الكتابة التاريخية عن الحروب الصليبية وهى التى عرضنا لها فى الفصل الأول . فهو يغطى الحروب الصليبية فى مسارح جد مختلفة للحرب. كما عرضنا لمفاهيم الكتاب التبريريين، والدعاة، وكتاب الأغانى والشعراء، فضلاً عن رؤى الصليبيين أنفسهم ودوافعهم، وكذلك عرضنا ردود الفعل العاطفية والعقلية للمسلمين تجاه الحرب المسيحية المقدسة (الحرب الصليبية). كذلك فإن التطورات المؤسسية – شرعيا، وماليا وبنائيا– التى كانت ضرورية لبقاء الحركة قد خضعت للتحليل. وهناك عدة فصول تم تكريسها للمستوطنات الغربية التى

تأسست فى منطقة شرق المتوسط فى خضم الحملات الصليبية، وللفن والعمارة الرائعين اللذين ارتبطا بها، وللنظم الرهبانية العسكرية. أما موضوع الحروب الصليبية المتأخرة، بما فى ذلك تاريخ النظم الرهبانية العسكرية من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، فقد نال ما يستحق من الاهتمام، وهكذا اتخذت الخطوات الأولى فى مجال يكاد ألايكون قد كشف عنه اللثام بعد وهو بقاء الأفكار والتصورات الصليبية فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

جوناثان رايلى - سميث

كروكستون- كمبريدج شاير

أبريل ١٩٩٤م

(١)

الحركة الصليبية والمؤرخون

چوناثان رايلى- سميث

فى نوفمبر سنة ١٠٩٥م كان هناك مجمع كنسى منعقد فى كليرمون تحت رئاسة البابا أوربان الثانى. وفى اليوم السابع والعشرين، وعندما كان المجمع يقترب من نهايته، قام رجال الكنيسة ومعهم بعض العلمانيين، ومعظمهم من الريف المحيط بالمكان، بعقد اجتماع فى حقل خارج البلدة وألقى عليهم البابا خطبة دعا فيها الفرسان الفرنجة إلى أن يقسموا على المسير إلى الشرق بهدف مزدوج هو تحرير المسيحيين من نير الحكم الإسلامى وتحرير قبر المسيح، الضريح المقدس فى القدس، من السيطرة الإسلامية. وما إن فرغ من خطبته حتى تقدم أديمار المونتى، أسقف لى بوى، الذى قُيض له أن يُعين ممثلاً لأوربان فى الحملة، وكان أول من أخذ شارة الصليب، على حين كانت الجموع المحتشدة تصيح «الرب يريدها». وعلى الرغم من أن تقارير شهود العيان عن هذا الاجتماع وعن خطبة البابا قد كتبت فى وقت لاحق وتلونت بالنصر الذى تم إحرازه، فإنها تعطى الانطباع الذى تعطيه مسرحية من المسرح العمدى- فهى عملية جسورة، إذا ما حسبنا المخاطرة التى ينطوى عليها تنظيم حدث خارج الديار فى بداية الشتاء- كانت فيها تصرفات الممثلين الرئيسيين وتهليل الجمهور مسألة مرتبة مسبقًا.

لقد بدأت الحركة الصليبية فى أسلوب ميلودرامى قُدِّر له أن يكون أسلوبها النمطى فيما بعد . ولأن البابا نفسه كان من أبناء الطبقة التى رغب فى أن يستنفرها،

فلاشك فى أنه كان يعرف كيف يلعب على عواطف حاملى السلاح . وإذ كان عمره آنذاك حوالى ستين سنة، فقد شرع فى القيام برحلة استغرقت عامًا كاملاً خلال مناطق جنوب ووسط فرنسا. وربما كان فى ذهنه أن يجمع حملة لمساعدة الإمبراطورية البيزنطية على مدى عدة سنوات وانتشرت فى أجواء مجمع بياتشننزا (بياكنزا) فى مارس حيث سُمع طلب الإمبراطور البيزنطى أليكسيوس للمساعدة ضد الأتراك، الذين كانوا على مدى عقدين من الزمان يكتسحون مناطق آسيا الصغرى وأوشكوا أن يصلوا إلى البسفور.

ولابد أن يكون أوربان، بمجرد دخوله الأراضى الفرنسية، قد ناقش خططه مع أديمار أسقف لى بوى ومع ريمون السانچيلى، كونت تولوز، الذى كان يريده أن يكون القائد العسكرى . هذه الاجتماعات لايمكن القول بأنها كانت سرية، وربما كانت هناك بعض الحقيقة فى حكاية شعبية فى بورجندى تقول «إن أيمان القسم الأولى التى أقسمت على الذهاب إلى القدس» قد أخذت فى اجتماع ضم ستة وثلاثين أسقفًا وعُقد فى أوتون فى وقت سابق من سنة ١٠٩٥م . وثمة حكاية شعبية أخرى تقول إن المبشِّر الجوال بطرس الناسك كان يقترح بالفعل شيئًا شبيهًا بالحملة الصليبية قبل الدعوة إليها فى كليرمون. كان بطرس متفاخرًا بطبعه كما أن القصص التى راجت عن حجه إلى القدس، وتوسل البطريرك إليه، ورؤياه التى رأى فيها المسيح، ومقابلته مع البابا فى إيطاليا التى أقنع البابا أثناءها بجمع الرجال لمساعدة القدس، كل هذه القصص يبدو أنها نبعت أصلا من اللورين، ليس بعيدًا عن دير نيموستيير الذى عاش فيه بطرس بعد نهاية الحملة الصليبية. ولكن لابد أنه كان هناك على أقل تقدير كم من الكلام وخطط أولية قبل وصول البابا إلى كليرمون.

ويبدو أن أوربان أتبع إعلانه بالدعوة إلى حمل الصليب حيثما ذهب فى فرنسا . وبحلول الربيع التالى كان الصليبيون يجتمعون لتكوين ما عرف فيما بعد بالحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦-١١٠٢م) والتى كانت ذروتها الاستيلاء على مدينة بيت المقدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م، وهو إنجاز كان فى عيون المعاصرين أكبر من الهزيمة

الكارثية التى ألحقها الأتراك بعد عامين بجيوش الموجة الثالثة من الصليبيين فى آسيا الصغرى.

ولم يكن ممكنًا الاحتفاظ بالقدس معزولة فقد أدى الاستيلاء عليها بالضرورة إلى تأسيس الكيان الاستيطانى الغربى فى شرق المتوسط (وهو ما يعرف بالشرق اللاتينى إجمالا) . وسرعان ما تعرضت هذه المستوطنات للضغط وكان لابد من تنظيم حملات عسكرية، كما تأسست منظمات الرهبان العسكرية لكى تساعدها . وكانت الحملات الصليبية جارية سنة ١١٠٧ / ١١٠٨م على الرغم من أن هذا قد تحول إلى غزو أولى وكارثى للإمبراطورية البيزنطية - وفى سنوات ١١٢٠-١١٢٥م، و١١٢٨-١١٢٩م، و١١٣٩-١١٤٠م، و١١٤٧-١١٤٩م ؛ وقد عُرفت آخر هذه الحملات بالحملة الصليبية الثانية. وفى الوقت نفسه، امتدت الحركة إلى إسبانيا، التى كان أوربان الثانى قد ساوى الفعل بين القتال ضد المسلمين فيها والاستيلاء على القدس[١]. لقد تمت الدعوة إلى الحروب الصليبية فى شبه جزيرة أيبيريا فى سنوات ١١١٤م و١١١٨م و١١٢٢م عندما اقترح البابا كاليكستوس الثانى حربًا على جبهتين بقوات مسلحة تخدم فى وقت واحد فى إسبانيا والشرق. وطوّر البابا إيوجينيوس الثالث سنة ١١٤٧م مبادرة البابا كاليكستوس عندما صرح بحملة صليبية ضد الوند Wends عبر الحدود الألمانية الشمالية الشرقية[٢] فى نفس الوقت الذى كانت فيه الدعوة موجهة إلى حملات صليبية أخرى للخدمة فى إسبانيا وآسيا . وكانت الحملة الصليبية الثانية فشلاً ذريعًا، وعلى الرغم من أنه كانت هناك ثلاث حملات صليبية إلى إسبانيا قبل ١١٨٧م، وحملة

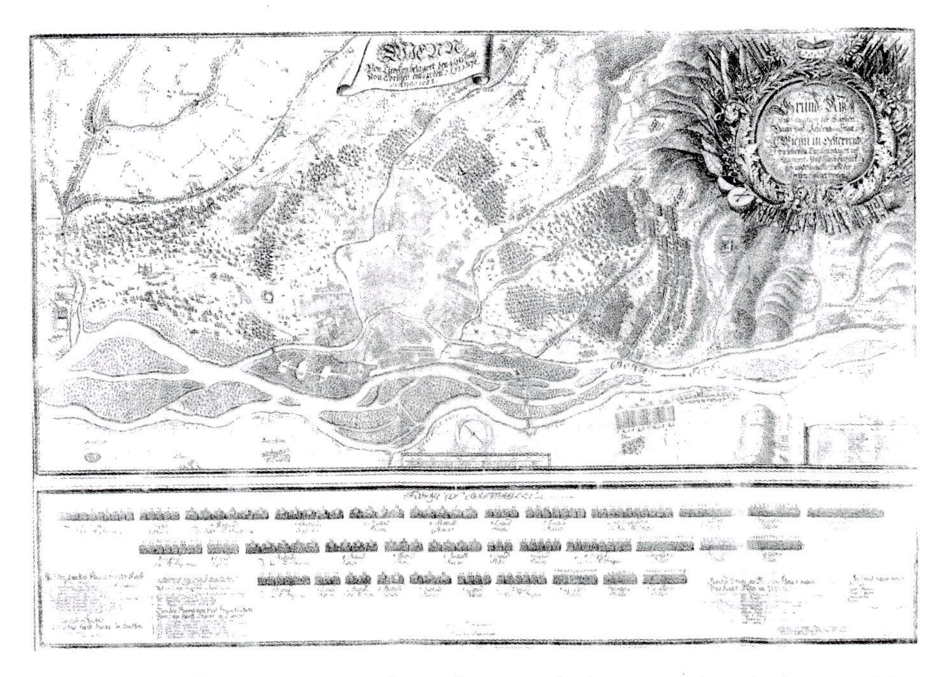
---

(١) ذكر المؤلف العبارة بمصطلحات «استرداد إسبانيا» و«تحرير القدس» والصياغة بالشكل المكتوب تعديل منا . (المترجم)

(٢) الوندز (الفندز) هو الاسم الإجمالى الذى يطلق على الشعوب والقبائل السلافية الشمالية الغربية التى استقرت خلال الفترة من القرن السادس إلى القرن الثامن شرق نهرى الإلب والسال. وفى القرن العاشر شن ملوك ألمانيا السكسكون حربًا لتحويلهم إلى المسيحية بالسيف. وقد دعا إلى حملة ١١٤٧م برنارد الكليرفوى الذى كان من أقوى المبشرين فى زمانه . (المترجم) .

فى شمال أوروبا، وعدد قليل من الحملات، أهمها حملة سنة ١١٧٧م، إلى فلسطين، فإن السنوات الثلاثين التى تلت ذلك كانت أدنى نقطة وصلت إليها الحركة قبل القرن الخامس عشر من عدة نواح.

وعلى أية حال، فإن كل شىء قد تغير مع القلق الذى اجتاح أوربا مع أنباء الانتصار الإسلامى فى حطين واستيلاء صلاح الدين على القدس وفلسطين كلها تقريباً سنة ١١٨٧م . وقد استولت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م) والحملة الصليبية الألمانية (١١٩٧-١١٩٨م) على مُعظم مناطق الساحل، لتضمن بقاء المستوطنات الصليبية فى الوقت الراهن، وغمرت الحماسة كل مستويات المجتمع خلال القرن الثالث عشر . وقد عبَّرت المشاعر السائدة بين الجماهير عن نفسها فى صليبية الأطفال (١٢١٢م) وصليبية الرعاة (١٢٥١م)، على حين أبحرت القوات المسلحة إلى الشرق سنة ١٢٠٢-١٢٠٤م (الحملة الصليبية الرابعة التى غيَّرت اتجاهها وتحولت إلى القسطنطينية، التى استولى عليها الصليبيون وعلى معظم بلاد اليونان) و١٢١٧-١٢٢٩م (الحملة الصليبية الخامسة التى انتهت بأخذ بيت المقدس عن طريق معاهدة عقدها الإمبراطور فردريك الثانى الواقع تحت عقوبة الحرمان الكنسى) ١٢٣٩-١٢٤١م، ١٢٤٨-١٢٥٤م (حملة لويس التاسع الصليبية الأولى التى كان سببها استرداد المسلمين القدس سنة ١٢٤٤م) ١٢٦٩-١٢٧٢م (حملة لويس الثانية) وسنة ١٢٨٧-١٢٩٠م؛ لقد قامت الجيوش الصليبية بغزو مصر سنة ١٢١٨م وسنة ١٢٤٩م، وغزت تونس سنة ١٢٧٠ م .



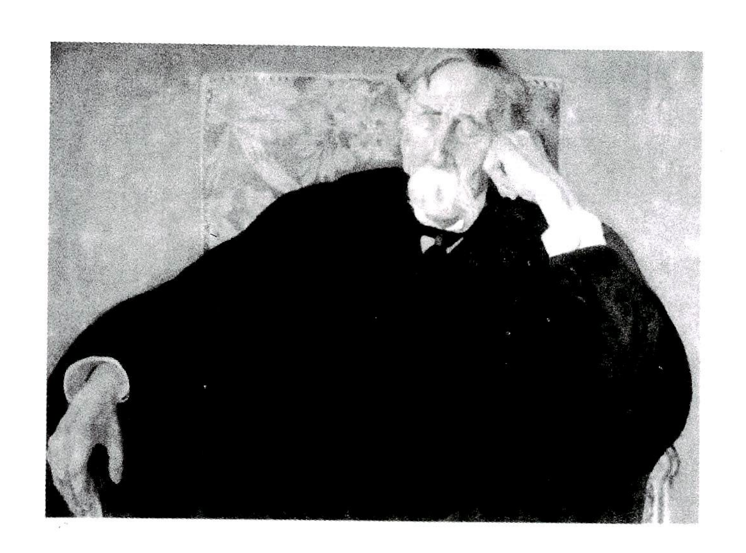
آخر هجوم إسلامى كبير، حصار ڤيينا على أيدى الأتراك العثمانيين فى أوائل سبتمبر ١٦٨٣م مع معسكرات المسلمين تحيط بالمدينة وشبكة عنكبوتية من الخنادق تضغط على التحصينات . وقد رسم هذا الرسم المهندس دانييل سستنجير سنة ١٦٨٧م الذى قام بعمل مسح لأعمال الحصار بعد أن رُفع الحصار. وكان تقدم العثمانيين فى قلب أوربا حافزًا لآخر عصبة صليبية كبرى، تمكنت من أن تسترد أجزاء كبيرة من البلقان لصالح المسيحيين.

كذلك كان هناك تجديد فى النشاط فى إسبانيا بين سنة ١١٨٧م وسنة ١٢٦٠م، حينما امتدت الحركة الصليبية إلى أفريقيا ؛ وكانت أبرز نقاطها انتصار لاس ناڤاس دى تولوزا (١٢١٢م) وغزو ڤالنثيا (١٢٣٢-١٢٥٣م) وقرطبة (١٢٣٦م) وأشبيلية (١٢٤٨م) . وقد استؤنفت الحركة الصليبية فى إسبانيا فى بواكير القرن الرابع عشر، ثم استؤنفت مرة أخرى سنة ١٤٨٢م- ١٤٩٢م، وبعدها، عندما صارت غرناطة وشبه جزيرة أيبيريا كلها فى أيدى المسيحيين، وانسابت إلى شمال أفريقيا مما أدى إلى إقامة مراكز ساحلية وصلت حتى طرابلس بليبيا شرقًا . وفى إقليم البلطيق أرسلت

الحملات الصليبية لمساعدة بعثات التبشير المسيحية فى ليڤونيا فيما بين سنة ١١٩٣م وسنة ١٢٣٠م، وبعدها تولت منظمة الفرسان التيوتون المهمة، وفى بروسيا، حيث قام الفرسان التيوتون بشن «حملة صليبية دائمة» من بولندا. ومنذ سنة ١١٩٩م فصاعدا كانت الحروب الصليبية تُشن ضد خصوم البابوية السياسيين فى إيطاليا- حيث كوّن خصوم البابوية مستوطنة فيما بين سنة ١٢٥٥م وسنة ١٢٧٨م - وفى ألمانيا، وأراجون على حين كان الانشقاق البابوى يولِّد حملات صليبية فى الفلاندرز وإسبانيا فى ثمانينيات القرن الرابع عشر. وكانت أول حملة صليبية ضد الهرطقة، وهى الصليبية الألبيچنسية، هى التى جرت أحداثها فى جنوب غرب فرنسا بين سنة ١٢٠٩م وسنة ١٢٢٩م، كما تم القيام بحملات صليبية أخرى فى البوسنة وألمانيا وإيطاليا وبوهيميا، لاسيما ضد أتباع چون هس فيما بين سنة ١٤٢٠م وسنة ١٤٣١م . كذلك قامت حملات صليبية سنة ١٢٣١م وسنة ١٢٣٩م ضد البيزنطيين الذين كانوا يحاولون استرداد القسطنطينية؛ وضد المغول منذ سنة ١٢٤١م فصاعدا؛ وضد الروس الأرثوذكس فى شمال أوربا من القرن الثالث عشر وضد الإنجليز البروتستانت فى القرن السادس عشر (الأرمادا سنة ١٥٨٨م).

بيد أن مجال النشاط الرئيس ظل فى الشرق. إذ إن ضياع عكا وآخر موطئ قدم للصليبيين فى فلسطين وبلاد الشام سنة ١٢٩١م أهاج موجة أخرى من الحماسة، عبرت عن نفسها من خلال الحملات الصليبية الشعبية سنة ١٣٠٩م وسنة ١٣٢٠م. وكانت الحملات تبحر بانتظام إلى منطقة شرق المتوسط . وقد أرسلت إحداها إلى مدينة المهدية فى شمال أفريقيا سنة ١٣٠٩م، تلتها غزوات كارثية داخل البلقان، بسبب تنامى التهديد التركى العثمانى لأوربا، هى حملة نيقوبوليس الصليبية (١٣٩٦م) وحملة ڤارنا الصليبية (١٤٤٤م)، على الرغم من أن التقدم التركى قد أوقف مؤقتًا عند بلجراد سنة ١٤٣٦م. وفى سنة ١٣٣٢م برز إلى الوجود تعبير جديد عن الحركة الصليبية فى صورة تحالف القوى المهتمة فى عصبة صليبية. وقد ظهر الكثير من هذه العُصب، كان أكثرها نجاحًا تلك التى استولت على سميرنا سنة ١٣٤٤م، والتى كسبت معركة

ليبانتو سنة ١٣٧١م، والتى استردت معظم إقليم البلقان من العثمانيين فيما بين سنة ١٦٨٤م وسنة ١٦٩٧م، على الرغم من أنه كانت هناك حملات صليبية تقليدية ضد شمال أفريقيا فى سنوات ١٥٣٥م، ١٥٤١م، ١٥٧٨م، وعلى أية حال فإن الحركة الصليبية أخذت تخبو منذ أواخر القرن السادس عشر، على الرغم من أن مستشفى سان چون (الاسبتارية) ظل يعمل بوصفه منظمة رهبانية عسكرية فى دولته بمالطا حتى سقطت الجزيرة فى يد نابليون سنة ١٧٩٨م.





مؤرخا الحروب الصليبية رجلان من العصر الذهبى للدراسات الصليبية . (أعلى) جوستاف شلومبرچير (١٨٤٤-١٩٢٩م) أبو الدراسات فى العملة والأختام للمستوطنين الصليبيين فى الشرق. (أسفل) لويس دوماس لاترى (١٨١٥-١٨٩٧م) الذى أرسى أساس كل الدراسات التاريخية اللاحقة عن قبرص اللاتينية.

لقد ضمت الحركة الصليبية كل بلد فى أوربا، بل إنها لامست كل نواحى الحياة تقريبا- الكنيسة والفكر الدينى، والسياسة والاقتصاد والمجتمع- كما أنها أفرزت الأدب الخاص بها . وكان لها تأثير مستمر على تاريخ العالم الإسلامى الغربى وتاريخ منطقة البلطيق . وعلى الرغم من أنها كانت تعتبر حتى وقت قريب نسبيًا حركة خارجية وهامشية فإنها لم تفتقر إلى المؤرخين الذين يكتبون عنها. وقد أرسيت أسس الدراسة الحديثة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر هذا العصر الذهبى، الذى انتهى باندلاع الحرب العالمية الأولى، وتلته فترة توطيد وتعزيز ؛ والواقع أن التواريخ متعددة الأجزاء لستيفن رنسيمان وفريق الباحثين الأمريكيين الذين قادهم كينيث سيتون (والمعروف عموما باسم تاريخ وسكنسون) التى ظهرت، أو بدأت الظهور، فى منتصف خمسينيات القرن العشرين، لم يكن ممكنًا أن يتم التخطيط لها سوى فى بيئة مستقرة.

ومع أوائل خمسينيات القرن العشرين كانت هناك، على أية حال، علامات على أن مسيرة تاريخ الحروب الصليبية قد بدأت تسرع الخطى مرة ثانية. وجاءت العلامات الأولى على الحماسة المتجددة فى دراسة «الشرق اللاتينى»، التى ألقى الضوء عليها مؤرخ فرنسى هو چان ريتشارد ومؤرخ إسرائيلى هو يوشع براور. وقد اقتحم كل من ريتشارد وبراور مناطق جديدة بدراسة المؤسسات وسخَّرا لهذه الدراسة معرفة واسعة بالتطورات التى جرت خارج «الشرق اللاتينى» واهتمامًا بالمادة المستقاة من المصادر، لاسيما المراسيم والقوانين، وتحليلا ذكيًا بحيث سبقت كثيرًا العمل البطئ نسبيًا الذى تم من قبل . ولكن على الرغم من أن هذا قد يكون أعظم إنجازاتهما على المدى الطويل، فإن قدرًا كبيرًا من الإثارة قد تولّد فى ذلك الوقت من خلال النتائج الجانبية لبحثهما . فثمة مشكلة واجهت كل مؤرخى مملكة بيت المقدس، وهى أهم مشكلة للمستوطنين، وتتعلق بأهم مادة مصدرية باقية وهى قوانين بيت المقدس Assises de Jérusalem، وهى عبارة عن مجموعة من الأعمال التشريعية كتبت فى القرن الثالث عشر، وهى ترسم صورة دولة تم فيها فرض نوع من الإقطاع الخالص- إذا كان هناك شىء مثل هذا أبدا- فى زمن الاستيطان حوالى سنة ١١٠٠م وظل باقيًا، فى صورة

أثرية متحجرة، على مدى قرن ونصف القرن. وفى عشرينيات القرن العشرين قام باحث فرنسى يُدعى موريس جراند كلود بفحص هذه القوانين، واستخرج منها إشارات إلى قوانين اعتقد أنه يمكن أن يكون تاريخها راجعًا إلى القرن الثانى عشر. وقد لقيت استنتاجاته تجاهلاً يكاد يكون تامًا، ولكن على أساس الدليل الذى ألقى عليه الضوء تمكن ريشار وبراور من إعادة كتابة تاريخ القدس، لأنه قد صار واضحًا أن كتاب قوانين الدولة الإقطاعية فى القرن الثالث عشر لا ينطبق مع حقيقة القرن الثانى عشر، بل لا يتفق حتى مع حقائق القرن الثالث عشر أيضا. إذ إن كتاب القوانين ينظر إليه بصورة متزايدة ليس باعتباره حجة وإنما باعتباره مقالات سياسية ذكية ولكنها منحازة، كتبها المشاركون فى معركة دستورية كانت متأججة فى فلسطين على مدى عشرات السنين السابقة على تأليف هذا الكتاب. وبدأت مملكة بيت المقدس تبدو «طبيعية» أكثر، مع ملامحها الخصوصية بطبيعة الحال، كما أنها تخضع لنفس التطورات السياسية والدستورية التى تجرى فى أى مكان آخر.

إن التناول «الدستورى» لتاريخ بيت المقدس الذى قدمه ريشار وبراور ظل مهيمنًا طوال حوالى عشرين سنة. وعلى أية حال، ففى منتصف سبعينيات القرن العشرين، بدأ يفسح الطريق لرؤية أخرى للشئون السياسية فى الشرق اللاتينى، كان رائدها هانز ماير. وبمعنى ما، كان هذا رد فعل لايبعد كثيراً عن رد الفعل الذى اتخذه مؤرخو إنجلترا فى العصور الوسطى فى ثلاثينيات القرن العشرين، وحركة بعيدة عن «نظرة الطائر» التى ميزت التناول الدستورى ليصل إلى الجذور وليرى عملية السيادة عمليًا؛ وفى هذا بطبيعة الحال؛ اقترب من الدراسات المهتمة بالمؤسسات، ويبدو أيضا أنها كانت رؤية متناغمة مع حالة يمكن أن نرصدها فى عديد من فروع الدراسات التاريخية وهى فض الاشتباك مع القناعات القديمة بأن الدول الناجحة الوحيدة كانت دولاً مركزية وعودة الاهتمام بالمجتمعات اللامركزية . وكان من سمات البحث الحديث ذلك الاهتمام بطريقة عمل السلطة الملكية من خلال كافة الأساليب الحاذقة والفعالة، على الرغم من صغرها، التى استخدمت فى الهياكل الإقطاعية للمملكة.

وفى الوقت نفسه تم إحراز التقدم فى دراسة الإيديولوچية الصليبية، ومن أسباب نمو الاهتمام العلمى فى هذا المجال ما حدث من تطورات فى علوم أخرى. إذ إن الطب النفسى المتخصص فى القتال قد سار خطوات كبرى خلال الحرب العالمية الثانية كما أن معرفة تأثيرات الضغط على الأفراد والمجموعات كانت قد بدأت تتسرب خلال المجتمع. كان من الصعب بصورة متزايدة تصنيف السلوك فى الحرب بالمصطلحات القديمة القاطعة عن البطولة أو الجسارة؛ فإن الصليبيين أنفسهم بدأوا يجتذبون المزيد من الاهتمام. كما أن النظريات التى تبرز مفهوم الحرب العادلة حظيت باهتمام أكثر كثافة، كذلك فإن محاكمات نورمبرج التى جرت على افتراض أن الجرائم يمكن أن تُرتكب ضد الإنسانية، قد أعادت إحياء الاهتمام بالقانون الطبيعى، والجدل حول ما إذا كانت إطاعة الأوامر أمراً يمكن تبريره، قد أثار أسئلة تتعلق بمعيار الحرب العادلة التقليدية فى تقدير السلطة الشرعية، كما أن مذهب الردع النووى وبدايات الاهتمام بالتوازن كان يطرح معياراً آخر من معايير الحرب العادلة، هو معيار القصد السليم، ليجعله فى مقدمة هذه المعايير.

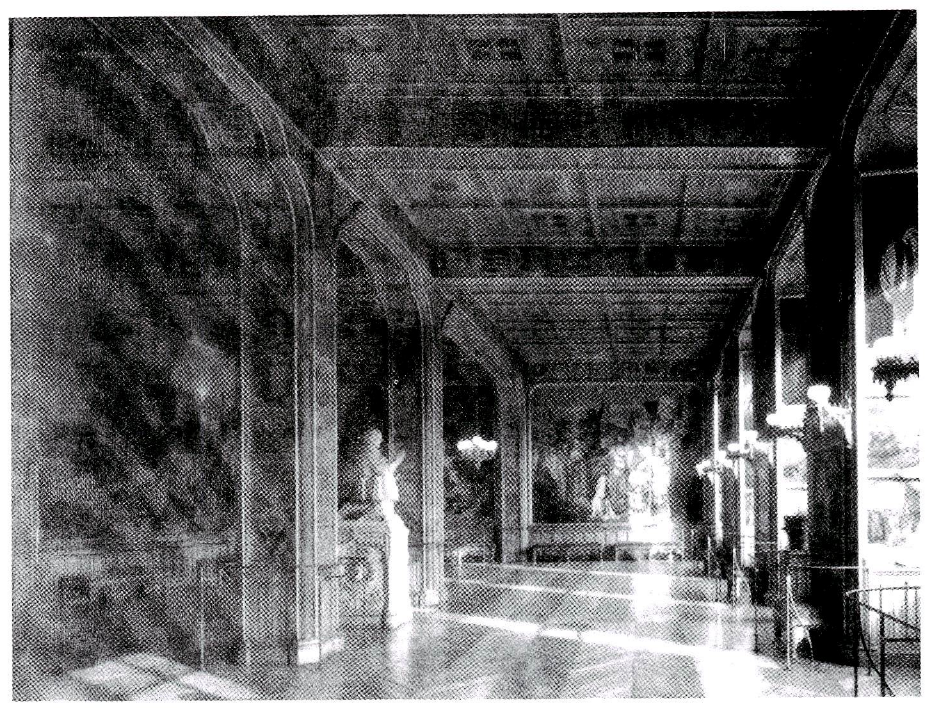
ولكن بينما يحتمل أن تكون التطورات الفكرية قد هيأت الناس للنظر إلى الحروب الصليبية بقدر أكبر من الوجدانية، فإن معظم التفسيرات لتورط مثل هذا العدد الكبير من الناس فى الحركة الصليبية كانت لا تزال تدور حول أنها كانت تفتقر إلى العقلانية أو أنها كانت ترنو إلى المكسب المادى؛ وقد حاز التفسير الأخير على تأييد قوى من اقتراح حاذق، ولكنه يقوم على أساس ضيق للغاية، مؤداه أن الحروب الصليبية تولدت عن استراتيجيات عائلية من أجل البقاء الاقتصادى وكان لا يزال من الممكن لرنسيمان أن ينهى تاريخه بملاحظة قوية عن الشجاعة الأخلاقية.

«لقد كانت انتصارات الحملة الصليبية انتصارات للإيمان . ولكن الإيمان دون حكمة أمر خطير... ففى التتابع الطويل للتفاعل والانصهار بين الشرق والغرب الذى نمت حضارتنا من طياته، كانت الحروب الصليبية تمثل حقبة مأساوية ومدمرة ... إذ كان هناك قدر كبير جدا من الشجاعة وقدر شحيح من الشرف، وكثير من الإخلاص

فى مقابل النزر اليسير من الفهم. وقد تلوثت المثل العليا بالقسوة والطمع، كما تلوثت العزيمة والتحمل بنوع من الاعتقاد الأعمى والغبى بصحة الموقف الذاتى، ولم تكن الحرب المقدسة نفسها أكثر من عمل طويل من التعصب باسم الرب، وهى خطيئة ضد الروح القدس».

والحقيقة أنه كان من الصعب نسبة الفضل للرجال والنساء المؤمنين بإيديولوچية مقيتة مثل الإيديولوچية الصليبية؛ إذ كان من الأسهل أن نعتقد أنهم كانوا على قدر كبير من بساطة الإدراك بحيث لايفهمون ماذا كانوا يفعلونه أو أن نُجادل بأنهم كانوا مدفوعين، مهما كان ما قالوه، بالرغبة فى الأرض أو الغنائم، على الرغم من أن التفسير الأخير لايصمد للنقد. إذ كان كل امرئ يعرف أن شئون الحرب فى العصور الوسطى كانت مكلفة كما أن كمًّا هائلاً من المادة التاريخية كان قد تمت طباعته بالفعل، وإن لم يقرأه أحد، يوضح التضحيات المالية التى كان يجب على الرجال وعائلاتهم أن يقدموها للمشاركة فى الحركة الصليبية.

وفى عبارة أخرى، كان المؤرخون غافلين عن الحقائق والبراهين بسبب نفورهم من العنف الإيديولوچى وعدم قدرتهم على فهم أنها كان يمكن فعلاً أن تكون دعوة مقنعة . إذ إنهم، وكل ما عداهم، قد نسوا كيف كانت النظرية المسيحية عن العنف الإيجابى محترمة فكريًّا. ولايبدو أن أحدًا كان مستعدًّا لإحيائها فى ستينيات القرن العشرين فى الحركات التى شهدتها أمريكا الجنوبية للتحرر المسيحى، والتى كان لبعضها أجنحة عسكرية تبرر استخدام القوة، وهو تمرد فى هذه الحال، باعتباره عملا من أعمال الخير بالتوافق مع مقاصد المسيح للبشرية وباعتباره أمرًا أخلاقيًّا . واكتشف مؤرخو الحروب الصليبية فجأة أنه كان هناك معاصرون مخلصون وأتقياء منهم يقفون مواقف إيديولوچية مشابهة تماما لتلك المواقف التى تبناها الدعاة فى العصور الوسطى الذين يقومون بدراستهم . وإذْ تفتحت عيونهم، فإن الضعف الأساسى فى المجادلات بأن هناك دافعًا ماديًا عامًّا، وتهافت البراهين التى استقروا عليها، بات أشد وضوحًا . وأخيرا بدأ الأبناء الأصاغر المغامرون يركبون مطاياهم ليخرجوا من المشهد، ويبدو أن عددًا قليلاً من المؤرخين ظل يؤمن بهذه التفسيرات.



رواية الحروب الصليبية الخيالية: حجرات مخصصة للحروب الصليبية فى الجناح الجديد بقصر ڤرساى تم تزيينها سنة ١٨٣٩م . عندما سمح الملك لويس فيليب لأولئك الذين حارب أجدادهم فى الحروب الصليبية بوضع معاطفهم الحربية فى الحجرات، قامت هناك سوق للمراسيم المزورة التى يمكن استخدامها دليلاً على أن الأجداد كانوا من الصليبيين.

وإذ كان هناك استعداد للقبول بأن عدداً كبيراً من الصليبيين، ربما معظمهم، كانوا مدفوعين بطرق أخرى، بما فى ذلك المثالية، وجد المؤرخون أنفسهم مجبرين على مواجهة الأفكار الصليبية وفهمها. وجاء أول تعبير عن الاهتمام الجديد بالإيديولوچية مع دراسات تمت عن دوافع الفقراء، الذين شكلوا عنصراً مهماً فى الحملات الصليبية الباكرة كما تجمعوا سوياً بين الحين والآخر فى هبَّات شعبية فى القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر. بيد أن الاهتمام بالصليبيين الفقراء، وهو بحد ذاته طبعاً تعبير عن حماسة لحركات الجماهير التى كانت شائعة فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين،

بدأ يتبخر عندما بات واضحًا أن ما يمكن معرفته عنهم قليل للغاية . ومن ثم، فإن معظم الدراسات بدأت تتركز حيث تكون الأدلة: حيث كتابات المفكرين، ورجال القانون الكنسى وعلماء اللاهوت، وعلى مفاهيم النبلاء والفرسان الهجينة، وانحيازاتهم، وعلى مناقشات البابوات والمبشرين الذين كانوا يتوسطون المجموعتين. من طبيعة العمل الفكرى أن المعرفة والفهم المتزايد يولّد من الأسئلة الكثير بقدر ما يُيسر الإجابة ؛ وفى دراسات الحركة الصليبية لم يلبث السؤال الرئيسى، الذى كان كامنًا بعض الوقت، أن ظهر من جديد: وهو السؤال القائل ماذا كانت الحملة الصليبية ؟

لابد من الاعتراف أنه ليس من السهل تعريف الحملة الصليبية . إذ إن الحركة استمرت زمنًا طويلاً للغاية وتغيرت الآراء والسياسات : فعلى سبيل المثال، كان تطور العُصَب الصليبية تعديلاً للفكرة الصليبية بحيث تتناسب مع بروز الدولة الوطنية . وقد ضمت الحركة الصليبية رجالاً ونساءً من كل منطقة فى أوربا الغربية ومن كافة الطبقات؛ ولم يكن ممكنًا أبدًا أن تكون المواقف متوافقة.كما أنها راقت فى الوقت نفسه للمفكرين ولعامة الجمهور، بحيث إننا نواجه بسلسلة من الأفكار من أكثرها عقلانية إلى أشدها بدائية، من قمم اللاهوت الأخلاقى إلى أغوار الحروب الإقطاعية الدموية المعادية للسامية . وفضلاً عن ذلك، تداخلت الأفكار من مختلف الاتجاهات فى بعضها البعض . ولأن الحروب الصليبية كانت نشاطًا تطوعيًا ، فقد كان على البابوات والمبشرين أن يحولوا اللاهوت فى صياغات شعبية، ولم يكن من غير المألوف على المفاهيم العامة أن تربط نفسها بالتبشير الرسمى للكنيسة . فعلى سبيل المثال، كان لابد من الناحية الفنية أن تكون الحروب الصليبية حروبًا دفاعية – لأن المسيحيين لايمكنهم خوض الحرب من أجل التنصير– ولكن عند المستويات الدنيا كان الناس سيفهمون المسيحية على أنها ديانة ذات عضلات، كما أن العناصر التبشيرية انتشرت وتغلغلت فى الفكر والدعاية الصليبية مرات ومرات.

كانت ثمة قناعة مشتركة بين المؤرخين بأن أية حملة صليبية كانت حربًا مقدسة ، أعلنها البابا لحساب المسيح، والمحاربون فيها أو نسبة معتبرة منهم، قطعوا على

أنفسهم أيمانًا من نوع خاص كما تمتعوا بمزايا دنيوية وروحية معينة، لاسيما الغفران الكنسي. ولكن ترى ماذا كانت وضعية الحملة الصليبية فى أى مكان عدا الأرض المقدسة؟ لقد كان البابا يدعو إلى الحملات الصليبية باسم المسيح، ويقوم بها صليبيون أقسموا على القيام بها وتمتعوا بالامتيازات والغفران الكنسي، وكانت الحرب فيها، كما رأينا ليست فى الشرق فقط وإنما فى أوربا أيضا، وليس ضد المسلمين وحدهم، وإنما كذلك ضد الوثنيين والهراطقة والمنشقين (عن الكنيسة الكاثوليكية) بل حتى ضد الكاثوليك من خصوم البابوية . فهل كانت كل تلك الحملات حملات صليبية؟ أو هل كانت تلك الحملات التى شنت فى أى مكان عدا الشرق صورة مشوهة، أو حتى مسخًا، لنموذج أصلى ينبغى تصنيفه على حدة ؟ وعلى الرغم من أن مؤرخين كثيرين يختارون بشكل تعسفى مدخلاً أو أخر دونما تفسير، فإن المسألة كانت ولا تزال مسألة مهمة . إذ إن التعدديين (أى الذين يتمسكون بالرؤية الواسعة للحروب الصليبية) قد أخذوا فى حسبانهم سلسلة من المصادر التى ربما لم يكلف التقليديون (أى أصحاب الرؤية الضيقة) أنفسهم بقراءتها . والأمر الثانى، إن سياسات البابوية تجاه الحروب الصليبية كانت لها تعقيدات مختلفة إذا اعتقد المرء أن البابوات كانوا يزهون باستراتيجية لها مسارح حرب متنوعة، وإذا لم تكن للحملات ثقل متساو- إذ كان الكل يقبلون فكرة أن الحملات الصليبية الذاهبة إلى الشرق كانت هى الأكثر احترامًا ويقدمون المقياس الذى يقيسون به الحملات الأخرى - فإنها من الناحية الكيفية على الأقل كانت متشابهة . وثمة طريق، وربما كان الطريق الوحيد للتقدم صوب الأمام، هو أن نطرح سؤالاً يبدو بسيطًا، وعلى هذا السؤال تركز الجدل الذى دار. ماذا كان معاصرو تلك الحملات الصليبية يظنون؟ لقد كانت الحملة الصليبية تخرج إلى الوجود عندما كان البابا يقوم بإعلانها، ولاينكر أحد أن البابوات، من الناحية الرسمية على الأقل، لم يفرقوا كثيرًا بين المسارح المختلفة التى جرت عليها الحروب الصليبية. ولكن ما يمكن مناقشته هو مدى اتصالها بالرأى العام المسيحى . ومكمن المتاعب هو أن الأدلة قد برهنت على كونها أدلة مراوغة . لقد كان هناك نقاد ضد الحملات الصليبية التى لم تتوجه إلى الشرق، بيد أنهم لم يكونوا كثيرين كما يصعب أن نقول كيف كانوا

معبرين عن تيار ما، لأن كل واحد منهم تقريباً كان له غرض . إذ كانت هناك بين الحين والآخر تقارير كتبها كبار رجال الكنيسة، مثل الكاردينال ورجل القانون الكنسى هوستينسيس أو متى الباريسى راهب دير سان ألبان، عن عدم الرضا الناشئ من الدعوة إلى حملات صليبية بديلة. ولكن ترى ما الثقل الذى ينبغى أن نعطيه لمثل هذا الدليل ؟ وإلى أى مدى يمكن موازنته بتلك الأعداد الكبيرة من الرجال والنساء الذين شاركوا فى هذه الحملات تحت شارة الصليب؟ وكيف ينبغى للمرء أن يتعامل مع أوصاف مثل تلك التى أمدنا بها چيمس الڤيترى عن الاهتمام الكاسح بالحملة الصليبية الألبيجنسية حتى فى أماكن بعيدة مثل المدعوة سانت مارى فى أوريچين ؟ إذ كانت لمارى رؤى عن المسيح وهو يشاطرها القلق بشأن انتشار الهرطقة فى لانجدوك (بجنوب فرنسا) و «... على الرغم من بعدها النائى، فإنها رأت الملائكة تبتهج وتأخذ أرواح الموتى (الصليبيين) إلى النعيم السماوى دونما تطهر من الذنوب». وقد هام بها الشغف والحماسة بحيث إنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها عن القيام برحلة إلى جنوب غرب فرنسا».

فى سنة ١٩٥٣م أوضح جيلز كونستابل Giles Constable أن جيوش الحملة الصليبية الثانية، التى كانت مشتبكة فى الشرق، وفى إسبانيا، وفى مناطق عبر جبال الألب، كانت تعتبر من جانب المعاصرين تجريدات من نفس الجيش، ولكن بعد ذلك بعشر سنوات تساءل هانز ماير عن مدى صحة التعامل مع الحملات الصليبية البديلة باعتبارها تعبيراً أصيلاً عن الحركة. واعترف بأن البابوات ورجال القانون الكنسى اعتبروها هكذا بشكل واضح، ولكنه اقترح أن يكون ذلك مجرد موقف ديبلوماسى. وفى كتابه «الحروب الصليبية» (نشر لأول مرة باللغة الألمانية سنة ١٩٦٥م وبالإنجليزية سنة ١٩٧٢م) عرّف الحملة الصليبية تحديداً ضيقًا بأنها «حرب تهدف إلى إحراز السيادة المسيحية أو الحفاظ عليها، على ضريح سيدنا فى القدس؛ أى هدف واضح تماما يمكن من الناحية الجغرافية أن نرصده فى منطقة بعينها». وبعد ذلك بأربع سنوات خرج هيلموت روشر ليؤيد التعريف التعددى، كما فعل چوناثان رايلى سميث سنة ١٩٧٧م؛

ودارت مناقشات ساخنة حول الموضوع سنة ١٩٨٣م في أول مؤتمر لجمعية دراسة الحروب الصليبية والشرق اللاتيني . ومنذ ذلك الحين أوضحت إليزابيث سيبيرى أن نقاد القرنين الثانى عشر والثالث عشر الذين عارضوا الحملات الصليبية البديلة كانوا أقل مما كان يبدو من قبل ؛ كما أن نورمان هوسلى، الذى صار زعيم المدافعين عن التعددية، قدم تحليلا شاملاً للحملات الصليبية السياسية فى إيطاليا، أوضح كيف كانت تلك الحملات جزءًا أصيلاً من الحركة الصليبية، كما أنه كتب أول مقالة عن كل الحملات الصليبية فى القرن الرابع عشر وكتب أول تاريخ شامل من وجهة النظر التعددية عن الحروب الصليبية المتأخرة.

كانت أولويات التعدديين أصلاً أن يوضحوا أن البابوات وجماهير المؤمنين ربما تعاملوا مع كافة الحملات الصليبية باعتبارها متماثلة من حيث ماهيتها . ولكن كلما زادت ثقتهم بدأوا يقترحون أن الاختلافات فى التعبيرات المختلفة عن الحركة الصليبية كانت فى مثل أهمية التشابهات، وبدأوا يرسمون صورة أكثر دقة واحتفاء بالتفاصيل . فعلى طول الساحل البلطيقى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر طور الفرسان التيوتون «الحملة الصليبية الدائمة»، دونما حاجة إلى الإعلان المتكرر والمحدد من جانب البابوية . وفى شبه الجزيرة الأيبيرية كانت الحملات الصليبية تحت السيطرة القوية من جانب الملوك، ولاسيما ملك قشتالة، وبدرجة أكبر من أى مكان آخر.

وفى نفس الوقت الذى كان الجدل فيه دائرًا حول التعريف، تزايد عدد المؤرخين الذين أخذوا يتطلعون صوب الغرب. وربما يكون الاهتمام بمسارح القتال الأوربية التى شهدت الحملات الصليبية هو سبب ذلك جزئيًا، بيد أن هناك عاملين آخرين يبدوان أكثر أهمية. أولهما كان التأكد من أن كما ضخمًا من المصادر- حتى بالنسبة للقرنين الثانى عشر والثالث عشر اللذين أجريت عليهما بحوث عديدة- لم تُستخدم . إذ إن الأرشيفات الأوربية الخاصة بالنظم الرهبانية العسكرية لقيت التجاهل بشكل عام بسبب الاهتمام بالأرشيفات الشرقية ذات البريق الأكبر، على الرغم من الحقيقة الواضحة والقائلة بأن الفيالق المحاربة فى الشرق من الداوية ومن الاسبتارية

والفرسان التيوتون، ثم الدول- الرهبانية العسكرية التى ظهرت لاحقًا فى رودس وبروسيا ومالطا، كانت تعتمد على الأموال والمواد والقوة البشرية التى كانت تتدفق إليها من أوربا الغربية، حيث كان يوجد معظم الإخوة الرهبان فى كل حين . وأى اعتبار للحياة الدينية للنظم الرهبانية العسكرية يجب أن يبدأ من حقيقة أن المعتاد لم يكن الخدمة العسكرية أو العلاجية فى فلسطين أو رودس ولكن إدارة الضياع الإقطاعية والحياة الديرية فى الأديرة، وأديرة الراهبات والسيادة الإقليمية فى أوربا، وأن فى هذه المجالات كان الإخوة الرهبان يجدون ما ينجزونه . وكان من الطبيعى أن تبرز مجموعة من المؤرخين، يقودهم آلان فوراى Alan Forey وميشيل جيرڤرز Michael Gervers وأن مارى ليجراس Anne Marie Legras ركزوا انتباههم على الضياع الإقطاعية للنظم الرهبانية فى الغرب . وهناك وجدوا كل المادة التاريخية عن الصليبيين فى المراسيم والسجلات الحكومية، التى كانت تلقى التجاهل عادة حتى لفت جيلز كونستابل الأنظار إليها . وهى مادة تاريخية مصدرية ضخمة . فعلى سبيل المثال، نجد أنه على الأقل، كان ثلث الأفراد الذين نعرف أنهم أخذوا شارة الصليب فى الحملة الصليبية الأولى لم يرد لهم ذكر فى روايات المؤرخين عن الحملة، ولكننا نجد الإشارة إليهم فى الوثائق فقط.

أما العامل الثانى فيتمثل فى الاهتمام المتنامى بدوافع الحركة الصليبية. إذ لايمكن التأكيد بدرجة كافية غالبا على أن الحملات الصليبية كانت مرهقة، مضللة مخيفة وخطيرة ومكلفة بالنسبة للمشاركين فيها، كما أنه لايسهل تفسير الحماسة المستمرة التى تجلت على مر العصور تجاهها. فقد نمت الحركة الصليبية من طيات حركة الإصلاح فى القرن الحادى عشر التى أتاحت صعودًا قويًا، ربما وجدت التعبير فى حروب التحرير أيًا كان الموقف فى الشرق . ومن المؤكد أن التجنيد والحشد قد تولد من خلال إضفاء الطابع الإنجيلى على رجال الكنيسة، وتنظيم الدعوة إلى الحملة الصليبية، والخطب التى ألقيت- أو على الأقل الأمثلة التى بقيت منها- تخضع كلها لدراسات عميقة فى الوقت الراهن. ولكن إذا كان الكثيرون من الصليبيين كانت

تحركهم المُثل العليا، فإن المؤكد أن مُثلهم العليا لم تكن هى نفسها المثل العليا لكبار رجال الكنيسة، كما أن ماهية الأفكار التى كانت تدور بخلد النبلاء والفرسان وماهية حوافزهم قد صارت موضوعات حيوية (بالنسبة للباحثين)، وبعض مؤرخى الحروب الصليبية، من بينهم ماركوس بول Marcus Bull وسيمون لويد Simon Lloyd وچيمس بويل James Powell وجوناثان –رايلى سميث وكريستوفر تايرمان Christopher Tyer-man قد أخذوا يحولون عقولهم صوب هذه المسائل، كما أن اتجاهات قليلة للبحث مستقبلاً قد بانت علاماتها. وكما سنرى، فإنه فى المراحل الباكرة من الحركة يبدو أن تهيئة العائلات، ولاسيما النساء، فى جماعات من الأقارب كان عاملاً مهمًا؛ ومع أواخر القرن الثالث عشر فإن الروابط المحلية التى خلقتها السيادة الإقطاعية، التى كانت مؤثرة على الدوام، كانت تلعب دوراً أكبر. وربما كانت الديانة الشعبية، التى تم تعديلها لكى تناسب مجتمعًا من العائلات الممتدة، هى صاحبة التأثير الرئيسى فى البداية، ولكن بحلول سنة ١٢٠٠م تم تعديلها فى شكل الأفكار الفروسية.

إن التغيرات التى طرأت على توجه اهتمامات المؤرخين كانت مصحوبة بامتداد هائل فى المدى الزمنى الذى يعملون فى إطاره . إذ إن رنسيمان غطى الفترة بعد سنة ١٢٩١م فى أربعين صفحة فى نهاية مجلده الثالث، مختتما دراسته بموت البابا بيوس الثانى فى أنكونا سنة ١٤٦٤م . وفى آخر طبعة إنجليزية لكتابه عن الحروب الصليبية كرسى ماير أقل من صفحة واحدة من بين مائتين وعشرين صفحة للحركة الصليبية بعد سنة ١٢٩١م . ولكن الدراسات الحديثة فى الحروب الصليبية وقفت بالنهاية عند سنة ١٥٢١م، وسنة ١٥٦٠م، وسنة ١٥٨٠م وسنة ١٥٨٨م وسنة ١٧٩٨م . ويجب أن يُعزى إلى كينيث سيتون، قبل غيره، فضل هذا التطور . إن كتابه «البابوية وشرق المتوسط "The Papacy and the levant" الذى يغطى القرون الممتدة ما بين نهب القسطنطينية سنة ١٢٠٤م حتى معركة ليبانتو سنة ١٥٧١م، قد أمد الباحثين بمدخل إلى المجموعة الرئيسية من المصادر المتعلقة بالحروب الصليبية المتأخرة، ومن الواضح الآن أن الحركة الصليبية، الى كانت أبعد ما تكون عن التدهور، كانت نشطة فى القرن

الـــرابع عشـــر بنفس القدر الذى كانت عليه فى القرن الثالث عشر. بل إن الأكثر مدعـــاة للدهشـة مـا حـدث فى بداية القـرن السـادس عشـر. إذ إن أوائل المؤرخين المحدثين قد أشـاروا بين الحين والآخـر إلى الصـراع الإسبانـى الرهيب على الشمـال

Incipit tractatus venerabilis patris Fratris Humberti quondā mgri generalis ordinis predicatorum de p̄dicatiōe crucis. Et primo instructio quedā circa frequens opus.

Capitulum primum.

E a que infra scripta sunt de pertinentibus ad crucis predicationē cōtra sarracenos ad hoc valere possunt vt predicatores crucis nondū in tali predicatiōe exercitati materiam hic inueniant huius exercicij. Qui vero magis sufficientes sunt data sibi occasione plura et meliora superaddent. Alij vero qui in predicatiōe habent gratiā excellentē ex materia eis data sibi preparata tanq̄ prudētes artifices opus pulchriū et magis formatū producent. et hec oīa ad gloriā saluatoris et vtilitatem fidei christiane. Notandū vero q in quolibet paragrapho vbi circa finem inuenit codicis paragraphus et in margine inuitatio. pōt fieri inuitatio ad crucem cū cantu Veni sancte spūs. vel Veni creator spūs. vel Vexilla regis. vel Salue crux sancta. vel alijs huiusmodi. vel sine cantu prosequendo diffusius que sub isto paragrapho ptinent. vel fieri pōt inuitatio post duos vel plures paragraphos prout predicātis discretio visum fuerit expedire. Item sciendū q vbi multa ponunt ad eandem materiā ptinencia nō ad hoc ponunt vt multa in eodem sermone dicant. sed ad hoc vt in diuersis sermonibus occurrente illa materia accipiat qui voluerit de illis aliquid qd suo processui viderit expedire. Vbi vo aliquid minus plene dicit. relinquit arbitrio predicātis vt illud diffusius prosequat sm scientiā et gratiā sibi datam. Item sciendū q inuitatiōes ponunt cū numero vt si aliquid de his que dicunt in prohemijs premissis ad illas necesse fuerit in sequentibus possit ad pcedētes remitti ipis subiecto numero assignatis vl' extra. Item huic opi preponunt tituli sub numeris vt sciatur materia et qd queritur per numeros facilius inueniatur.

Thema cōmune ad totū opus scdm Capitulū.

S Anctus sanctus sanctus dns deus exercituū Esaie. vi. propheta sanctus Esaias in raptu beato in quo vidit regem glorie sedentē in solio suo assistentibus angelis sibi. Inter alia multa gloriosa que vidit. audiuit etiā beatos an

A ij

الارتباط المستمر بالحركة الصليبية . الصفحة الأولى من مقالة المبشر المجرّب هيومبرت الرومانى عن الدعاية De Praedicatione Sancte Crucis المكتوبة سنة ١٢٦٥-١٢٦٦م، ولكنها طبعت فى نورمبرج فى ١٤٩٠م

الأفريقى فى ذلك الوقت باعتباره حربًا صليبية على الرغم من أنه يبدو أنهم كانوا يستخدمون المصطلح بطريقة فضفاضة . وقد أوضح سيتون أن ذلك هو بالضبط ما كان . إذ إنه كتب جدولاً زمنيًا لما حدث فى القرن السابع عشر، وبحوزة المؤرخين الآن دليل على المادة التاريخية، لاسيما دور الحفظ (الأرشيفات) فى إيطاليا حتى سنة ١٧٠٠م. وكان يرتبط بالحملات الصليبية الإسبانية فى حوض البحر المتوسط الدولة التى أقامها فرسان الإسبتارية فى مالطا (فرسان القديس حنا)، والتى أسسها الإمبراطور شارل الخامس لتكون موقعا متقدمًا يغلق الطريق البحرى من القسطنطينية إلى شمال أفريقيا. وقد تمت طباعة كتالوجات أرشيفات الإخوة الرهبان- الفرنسان فى ڤاليتا، مما كشف عن مصادر تاريخ دولة صغيرة بارزة، كانت هى آخر ما بقى من الحركة الصليبية، ولم تسقط حتى سنة ١٧٩٨م. ومن المؤكد أنه سرعان ما سيوجد كم من العمل الأكاديمى يبحث فى قرون من الحركة الصليبية كان نصيبها التجاهل.

وأيا كان ما يجرى تحت السطح منذ أربعين سنة مضت، فإن تاريخ الحروب الصليبية الذى يحظى بقبول عام يتعلق على نحو خاص بالحملات الكبيرة التى تم تجريدها إلى الشرق وإلى المستوطنات اللاتينية فى فلسطين وبلاد الشام. إذ تبخر اهتمام معظم المؤرخين بعد سنة ١٢٩١م، وهو الوقت الذى لحق بالحركة الصليبية تدهور نهائى حسبما كان الظن شائعًا . ومنذ ذلك الحين اتسع الموضوع من حيث مداه الزمنى ومداه المكانى، كما غير طبيعته إلى موضوع يمتد على مدى سبعة قرون وعدد مختلف جدًا من مسارح القتال. وكان من المعتاد أن تكون الاهتمامات السائدة اقتصادية، أو استعمارية نمطية، أو عسكرية، ولكنها الآن دينية وقانونية واجتماعية وهناك تركيز متزايد على أصول واستمرار القوى الدافعة للحروب الصليبية.

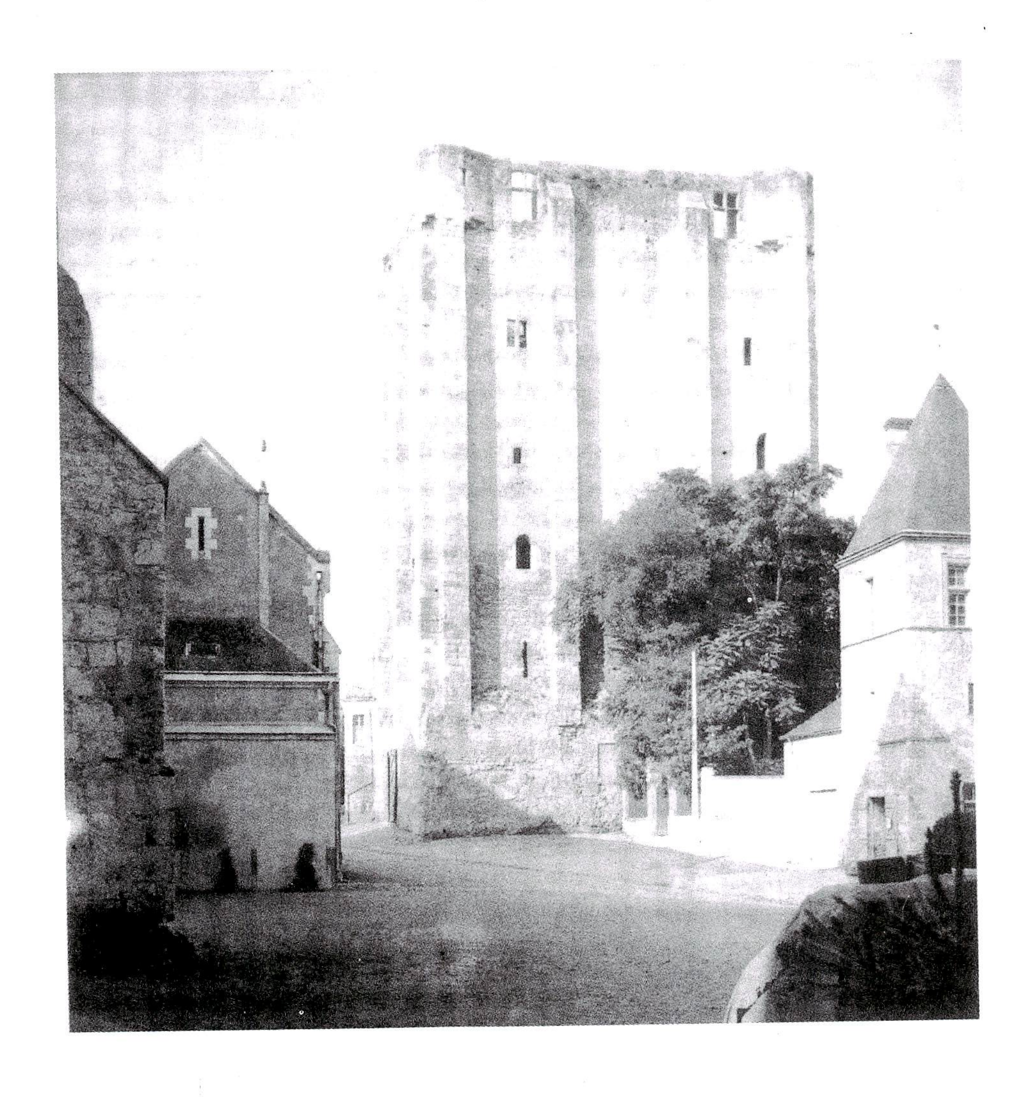
(٢)

الأصـــــول

ماركوس بول

«كان تعطشه للدماء غير مسبوق فى الأزمنة الحديثة بحيث إن أولئك الذين نظنهم قساة يبدون أكثر لطفًا عندما يذبحون الحيوانات منه عندما يقتل الناس. إذ إنه لم يهتم بأن يكون هناك ذنب لضحاياه عن جريمة ما ثم يجهز عليهم بالسيف فى برود، وهو ما يحدث بشكل روتيني. ولكنه بدلاً من ذلك كان يذبحهم ويعذبهم عذابًا رهيبًا. وعندما كان يجبر سجناءه، أيا كانوا، على دفع الجزية، كان يأمر بتعليقهم من خصيتهم- وكان يفعل ذلك بيديه أحيانا- وغالبا ما كان الوزن أكبر من أن يُحتمل، بحيث تنشق أجسادهم وتخرج الأحشاء. ويتم تعليق آخرين من أصابعهم أو أجزاء خاصة ويربط حجرًا على أكتافهم. وقد يمشى تحتهم بخطوات وئيدة، وعندما لايستطيع أن يستخرج منهم ما لم يكن فى الحقيقة بحوزتهم لكى يعطوه، كان من عادته أن يضربهم بالعصى على أجسادهم مرات ومرات حتى يعدوه بما يريد أو يموتوا تحت العقوبة. ولا أحد يعرف عدد أولئك الذين هلكوا فى سجونه بسبب الجوع، أو المرض، والإيذاء البدنى وهم ينهارون فى أغلاله».

هذا الوصف الحى كتبه جيوبرت النوچنتى وهو مقدم دير صغير بالقرب من لاون فى شمال شرق فرنسا. وهو يخص سيداً محليًا بارزًا اسمه توماس المارلى. والفقرة التى اقتبسناها لم ترهق عقل جيوبرت حول توماس، فهناك المزيد من أمثالها؛ وهى مزيج من السخط المبرر والانبهار المذهل الذى يتغير ما بين الواقع الرهيب والبشاعة التشريحية. ومن وجهة نظر الحملة الصليبية الأولى، فإن هذا الوصف يحمل أهمية كبرى بسبب وظيفة كل من الرجلين المرتبطين بهذا الوصف. إذ كان جيوبرت كاتب مؤرخة طويلة عن الحملة الصليبية. والعدد الصغير من المخطوطات الباقية لها توحى بأنها كانت أقل شعبية من بعض التواريخ الأخرى التى كتبها المعاصرون، بيد أنها مع هذا مصدر قيِّم للمؤرخين المحدثين، ليس فقط لأن جيوبرت حاول أن يهول الحقائق - إذ كانت معلوماته مستقاة من مصادر ثانوية- بشرح تجارب الصليبيين فى مصطلحات لاهوتية تدل على تعليمه. أما توماس، من جانبه، فقد كان أحد الذين شاركوا فى الحملة. وفى أثناء العملية كسب لنفسه سمعة طيبة للغاية حاول جيوبرت أن يلتف حولها بالزعم بأنه اعتاد أن يفترس الحجاج الراحلين إلى القدس.



بوچنسى بالقرب من بلوا. منذ حوالى بداية القرن الحادى عشر زاد عدد الحصون فى أوربا زيادة كبيرة. وفى زمن الحملة الصليبية الأولى كانت البنايات الحجرية تحل محل المبانى الخشبية والطينية. وبوچنس مثال باكر على قدرة القلاع الحجرية على تجسيد وكشف قوة النخب العسكرية فى المجتمع.

وغالبا ما كان مصير توماس هو الذى يلقى عليه الضوء باعتباره الشكل النمطى للبارون اللص فى أوربا القرنين الحادى عشر والثانى عشر، وهو نوع من الخطر الاجتماعى غير المروض ازدهر عندما كانت الحكومات ضعيفة والتعاليم الأخلاقية الكنيسة لاتحظى بالاحترام الكامل. وهذا ظلم إذ إن مشكلات توماس يبدو أنها كانت مرتبطة بأسرته الحاكمة أكثر من كونها مشكلات نفسيّة. فقد كان ضحية لأب عدائى وزوجة أب، ولذلك وجد نفسه مكرهًا على النضال من أجل السيطرة على القلاع والأراضى والحقوق التى اعتقد أنها ميراثه الشرعى. وثمة قضية يمكن طرحها للنقاش مؤداها أن سيادة توماس النشطة، التى كانت أبعد ما تكون عن تهديد المجتمع، قد جلبت مقياسًا للاستقرار إلى منطقة فى فرنسا حيث كانت المنافسة بين مختلف السلطات – الملكية، والأسقفية والإقطاعية – قد خلقت إمكانية شيوع الفوضى. وإذا ما أخذنا الصورة التى رسمها جيوبرت بقلمه على أنها جزء من تقرير صحفى فإنه يتضح لنا أنها منحازة ومبالغة. وتكمن أهميتها الحقيقية فى مبالغتها، طالما أن ذلك يكشف ضمنًا عن مقاييس السلوك العادى التى يحكم بها على الآثام الشريرة. ولكى يحط من قدر توماس بطريقة فعَّالة، لم يكن بوسع جيوبرت أن يصوره ببساطة فى صورة الرجل القاسى وإنما باعتباره مفرطًا فى قسوته الجزافية، وبعبارة أخرى، كان توماس وجيوبرت رجلين ارتبطا بالحركة الصليبية ارتباطا وثيقًا وإن اختلفت طريقة كل منهما عن طريقة الآخر، وعاشا فى مجتمع كان العنف فيه متوطنًا ولايسترعى انتباه أحد.

وربما يشكل هذا أعظم مواءمة عقلية لابد لأى مراقب حديث أن يقوم بها عندما يتأمل العصور الوسطى المركزية [(١)]. إذ كان العنف منتشرًا فى كل مكان، يرتطم بجوانب عديدة من الحياة اليومية. إذ كانت المنازعات القانونية، على سبيل المثال، تحل غالبًا بواسطة المحاكمات عن طريق القتال أو باللجوء إلى أنواع من المحن المؤلمة

(١) يقصد المؤلف بذلك الفترة التى تمتد ما بين بداية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر، والتى يسميها بعض المؤرخين العصور الوسطى العالية The High Middle Ages باعتبار أن كل خصائص فترة تاريخ العصور الوسطى فى أوربا قد تجلت فى هذه الفترة. (المترجم)

والمهلكة[1]. وفى الوقت الذى خرجت فيه الحملة الصليبية الأولى تقريباً كان قد صار من الشائع أن يعانى المذنبون المدانون الموت أو بتر بعض أعضائهم، وهو ما يشكل إقلاعاً عن التأكيد التقليدى على تعويض الضحايا أو عائلاتهم.كذلك كانت حالات الثأر بين الأهل والأقارب وفى داخلهم كثيرة ومتواترة، ونادراً ما تم احتواء المعارك الأرستقراطية بشكل محترم، إذ كانت لها أصداء واسعة، لأن الحرب القاسية ذات التأثير الاقتصادى كانت تشن بانتظام على الأصول التى يمتلكها الخصوم، وهذه الأصول هى، الفلاحون والماشية والمحاصيل ومبانى المزرعة. وكانت القسوة شائعة لدرجة أنها كان يمكن أن تكون لها طقوس. ففى حوالى سنة ١١٠٠م، مثلا، أدى فارس من جاسكونى الصلاة فى دير سوردى لكى يساعده الرب فى الإمساك بقاتل أخيه. وتم عمل كمين للضحية المقصودة، وتم تشويه وجهه بصورة مرعبة، وبُترت يداه وقدماه، ثم أخصى. وبهذه الطريقة لحق الدمار بهيبته، وقدرته على القتال، ومكانة أسرته بطريقة لايمكن إصلاحها. وإذ تحرك بدافع من الشعور بالامتنان إزاء ما كان يعتقد أنه مساعدة ربانية، فإن الفارس المنتقم قدم سلاحه ودرعه الملطخ بدم عدوه تقدمة تُعبّر عن تقواه إلى رهبان دير سوردى. وقد قبلوها.

هذه الحالة مثال صغير، ولكنه كاشف، عن عجز الكنيسة فى العصور الوسطى عن أن تنأى بنفسها عن العالم العنيف المحيط بها. وقد اعتاد المؤرخون على الاعتقاد بأن الكنيسة كانت مسالمة فى القرون المسيحية الباكرة، ولكنها كانت قد تلوثت بالقيم السائدة فى المجتمع الذى تعيش فيه فى عملية تصاعدت خلال الفترة التى كانت فيها الحركة الصليبية قد وصلت ذروتها، ولكن فكرة المواقف التى يتم توزيعها على خريطة بطريقة الخطوط الفاصلة غير واقعية، لأن الأفراد والمؤسسات فى أية فترة ندرسها

---

(١) هذا نوع من المحاكمات على الطريقة الجرمانية؛ إذ كان على المتهم من عامة الناس أو الفقراء أن يمر بمحنة حتى تثبت براءته- مثل الإمساك بقطعة من الحديد الساخن، أو المرور داخل النار المشتعلة، أو الإمساك بحجر فى قاع إناء به ماء مغلى- فإذا أصيب بحروق أو جروح كان مذنباً. وبطبيعة الحال، لم يكن أحد ينجو من هذه المحن. أما النبلاء فكانت المبارزة وسيلتهم لنفى التهم. (المترجم)

كانوا قادرين على أن يغيروا من أساليبهم فى التعامل مع العنف. إذ كانت ردود الفعل تعتمد على السياق الموضوعى، فقد كان العامل الحاسم فى علاقة عالم العصور الوسطى بالعنف هو الاختيار. وكان المجتمع العلمانى يعرف هذا بالغريزة عندما يتطلب الأمر تقييم توجه ما. فهل مثلا يرتبط فارس ما بفارس آخر ارتباطا وثيقًا ليضمن انضمامه فى حالة ثأر، سواء كان هو المعتدى أو ضحية محتملة؟ وهل كان يتم تغطية الخدمة العسكرية فى حملة مقترحة من خلال الالتزامات التعاقدية التى كان يدين بها لسيده الإقطاعى؟ وهل كان عدوان المجرم يستحق الإعدام، وهل كانت تتم إدانته من قبل سلطة مختصة؟ ما مدى فداحة الأزمة المهلكة التى يواجهها الفارس فى المعركة، وإلى أى حد تصل حالة اليأس فى قلعة محاصرة قبل أن يكون الاستسلام مقبولاً دون أن يجلب العار؟ إن قائمة تتضمن مثل هذه الأسئلة ربما تكون طويلة للغاية لأن ردود الفعل تجاه العنف كانت تخضع لتفرقة دقيقة بواسطة أحكام القيمة القائمة على أساس عدد هائل من المتغيرات.

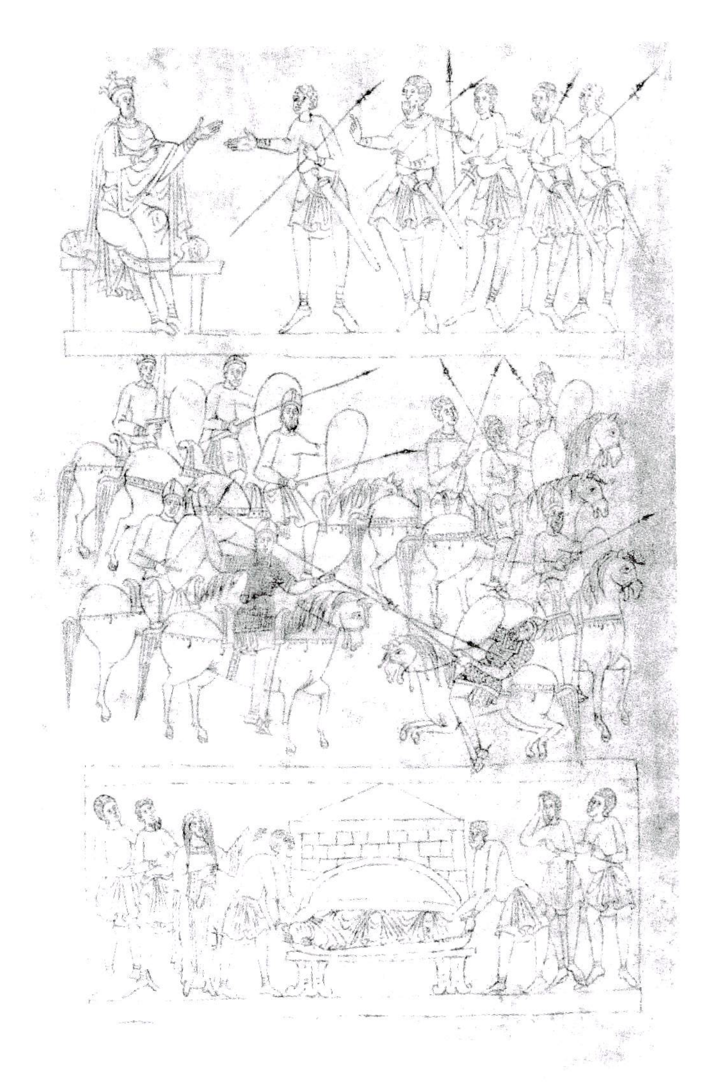
أما الكنيسة فقد قاربت العنف بالطريقة ذاتها أساسًا، مع أن رصيدها من التعليم المتراكم واحتكارها للكلمة المكتوبة تقريبًا قد ساعدها طبعا على أن تتعامل بثقة أكبر من العلمانيين على مستوى النظرية والتجريد. وفوق هذا كله، كانت الكنيسة مجهزة بأن تفرض درجة من التنظيم والاتساق على الموضوعات التى أثارها العنف، إذ إنها كانت قد ورثت من القانون الرومانى والعهد القديم والعهد الجديد، ومن الآباء المسيحيين الأوائل، وعلى رأسهم سان أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠) مصطلحات مرجعية متنوعة يمكن بها أن تحلل حوادث العنف وأن تتحدث عن ماهيتها. فالموقف القياسى الذى صار مرتبطًا بأوغسطين وتمت تنقيته فى القرون اللاحقة، كان مؤداه أنه لايمكن الحكم على مدى الاستقامة الأخلاقية فى أى تصرف بمجرد فحص الحدث المادى منفردًا : أى أن العنف يكتسب درجة أعلى أو درجة أدنى من الشرعية بحسب الحالة العقلية لأولئك الذين يتحملون المسئولية، والهدف المراد تحقيقه، ومدى صلاحية الفرد أو الجماعة الذين أصدروا الأوامر بتنفيذ هذا الفعل.

وهكذا سمحت الكنيسة بقدر من المرونة الإيديولوجية بحيث صارت قادرة على أن تهتم اهتماماً نشطاً بشئون الحرب على عدد من الجبهات، بما فى ذلك تلك المناطق التى كان فيها العالم المسيحى اللاتينى على اتصال مباشر بالعالم الإسلامى. وكان النصف الثانى من القرن الحادى عشر فترة للتوسع اللاتينى. ففى شبه الجزيرة الأيبيرية كانت الدول المسيحية الصغيرة فى الشمال تتعلم كيف تستغل الضعف السياسى فى الأندلس الإسلامية. وكان أكبر مكاسبها تأثيراً هو سقوط طليطلة، التى كانت ذات مرة عاصمة للقيزيقوط، فى يدى الملك ألفونسو السادس ملك ليون- قشتالة سنة ١٠٨٥م. وفى صقلية تمكن سادة الحرب النورمان، الذين كانوا بالفعل القوة السائدة على أراضى جنوب إيطاليا، من استئصال القوة الإسلامية تدريجيًا فيما بين سنة ١٠٦١م وسنة ١٠٩١م. وكان البابوات بصفة عامة مؤيدين لهذا التوسع. ولم يكن تأييدهم هو العنصر الحاسم فى إحراز الانتصارات المسيحية، لأنهم لم يكونوا قادرين سوى على منح تشجيعهم والأمل فى الإشراف على المهمة الصعبة بإعادة تنظيم الكنيسة فى الأراضى التى تم غزوها. بيد أن تجربة صقلية وإسبانيا كانت مهمة لأنها كانت تعنى أنه على مدى جيلين قبل الحملة الصليبية كانت السلطات المركزية قد دأبت على رؤية الغرب وكأنه متورط فى صراع فريد يتميز بلونه الدينى العميق. وكانت ميادين الحرب فى البحر المتوسط تشترك بصفة عامة فى أن الأراضى التى كانت مسيحية من قبل، يجرى انتزاعها من أيدى الكفار، بصرف النظر عن الظروف الخاصة بكل حالة على حدة [1]. وبالتالى، فإن الأرض المقدسة، التى فتحها العرب فى القرن السابع، كان مقيضًا لها أن تجتذب انتباه الكنيسة إن عاجلاً أو آجلاً.

---

(١) القول بأن منطقة حوض البحر المتوسط كانت مسيحية من قبل، وأن الغرب الكاثوليكى يخلصها من «الكفار» (المسلمين) فيه مغالطة تاريخية كبيرة ؛ إذ إن المسيحيين الشرقيين عانوا الكثير تحت حكم البيزنطيين، ثم دخلت غالبيتهم فى الدين الإسلامى ثم إن العداء المذهبى بين المسيحيين الشرقيين والكاثوليك قد أنتج نوعًا من العدوان الأوربى على المسيحيين فى المنطقة العربية لايقل عن العدوان على المسلمين، كما أن الدين لايمكن أن يكون أساس المواطنة أو الحق فى الوطن فى أى عصر. (المترجم)

ومن المهم أن نفرق بين كبار صانعى السياسة الكنسية ممن صاغوا مشروع الحملة الصليبية الأولى والناس العلمانيين الذين تطوعوا للذهاب فيها. كان مشهد الصراع على امتداد البحر المتوسط غير مرئى سوى بالنسبة للمؤسسات التى كانت تمتلك شبكات العمل الذكية، وتستوعب الجغرافيا، ولديها إحساس بالتراث التاريخى الطويل بما يجعلها تملك نظرة عريضة على العالم المسيحى والأزمة التى تتهدده، سواء كانت أزمة حقيقية أو مفترضة، وكانت البابوية أهم تلك المؤسسات. وهذه نقطة تحتاج إلى التأكيد لأن مصطلحات الحروب الصليبية غالبًا ما تُطبق بشكل غير دقيق على كل المناسبات فى العقود السابقة على سنة ١٠٩٥م عندما وجد المسلمون والمسيحيون أنفسهم مشتبكين فى القتال. وثمة فكرة تكمن تحت عدم دقة استخدام المصطلح مؤداها أن الحملة الصليبية الأولى، كانت آخر، كما كانت تتويجًا، لسلسلة من الحروب فى القرن الحادى عشر كانت صليبية الطابع، بل كانت فى الواقع «بروفات» قرَّبت الأوربيين من الملامح الأساسية للحملة الصليبية. وهذه وجهة نظر لايمكن أن تصمد. إذ إن هناك الكثير من الأدلة التى تجعلنا نفترض أن دعوة البابا أوربان الثانى للحملة الصليبية عامى ١٠٩٥-١٠٩٦م كانت نوعا من الصدمة للنظام الكوميونى : وقد تولد الشعور بفعاليتها على وجه التحديد لأنها كانت مختلفة عن أى شئ تمت محاولته من قبل. والمعلقون المعاصرون الذين فكروا فى جاذبية الحملة الصليبية نادرًا ما ناقشوها فى مصطلحات الاستمرارية والتوسع فى النضال الضاغط ضد المسلمين. وإذا فعلوا ذلك فإنهم كانوا يميلون إلى التقهقر إلى عالم شارلمان (مات ٨١٤م) البعيد والذى تم إضفاء الطابع الأسطورى عليه وإلى إمبراطوريته الفرنجية ولايعودون إلى حوادث أكثر حداثة جرت فى إسبانيا أو صقلية.



المحاربون الفرسان فى إسبانيا القرن الحادى عشر. ففى السنوات الثلاثين التى سبقت الحملة الصليبية الأولى، كان تكرار وكثافة الحروب بين المسلمين والمسيحيين اللاتين قد تزايد. والصراعات فى إسبانيا وصقلية، على الرغم من أنها لم تكن حملات صليبية، كانت سوابق مهمة للحدث لدرجة أنها أسهمت فى شيوع حالة من المواجهة الدينية والروح الحربية داخل البابوية.

وينبغى أن نلاحظ أن استجابة الأوربيين الغربيين للحملة الصليبية الأولى لم تعتمد على الكراهية المتصاعدة ضد الإسلام وكل ما هو مسلم. إذ كانت هناك، بالتأكيد أنماط فجة وسوء فهم؛ إذ كان من المفترض أن المسلمين مشركون يعبدون الأصنام، وشاعت قصص خرافية عن حياة النبى محمد. بيد أن مثل هذه الأفكار كانت أقل من أن ترتقى إلى مجموعة متماسكة من الانحيازات التى يمكن أن تحرك الناس لكى ينتزعوا أنفسهم من أوطانهم وعائلاتهم ليذهبوا فى مطاردة خطيرة ومكلفة للأعداء فى أماكن نائية. وأولئك الصليبيون الأوائل الذين كانت لهم خبرة سابقة بالعالم المسلم من المرجح أنهم اكتسبوها فى رحلة حج غير مسلحة وليس فى ميدان القتال. أما معظمهم فلم يكونوا قد رأوا مسلماً من قبل. ومن المهم أن الصليبيين جربوا المشاعر المختلطة عندما اعتادوا على أساليب أعدائهم. إذ إنهم انبهروا بالكفاءة القتالية للأتراك لدرجة أنهم كانوا يفكرون فيما إذا كان أعداؤهم الألداء أقاربهم فى الحقيقة، وأنهم نوع من القبيلة المفقودة كانت قد انحرفت منذ قرون عن الهجرة صوب أوربا والحضارة المسيحية. ولم تكن هذه مجاملة فارغة فى عصر سادت فيه معتقدات بأن خصائص الشخصية يمكن أن تنتقل عن طريق الدم، ووصلت القصص القائلة بانحدار الشعوب من آباء خرافيين أو ذكرهم الكتاب المقدس إلى بؤرة قلب الإحساس الأوربى بالشخصية التاريخية والقيمة الجماعية.

يميل الفهم الشعبى للحروب الصليبية اليوم إلى التفكير فى مصطلحات الصراع الكبير بين الديانات الذى أوجده التعصب. هذه النظرة مرتبطة بالحساسيات الحديثة تجاه التفرقة الدينية، كما أن لها أصداء فى ردود الأفعال تجاه الصراعات السياسية الجارية فى الشرق الأدنى وفى أماكن أخرى. بيد أنها نظرة لابد من رفضها على الأقل فيما يتعلق بالحملة الصليبية الأولى. والاندفاع فى دراسة الحركة الصليبية فى العقود الحديثة قد تركز على بذل مزيد من الاهتمام على الأفكار والمؤسسات فى الغرب بقدر ما اهتم بالحوادث الجارية فى الشرق. وكان من المعتاد اعتبار أن الحركة الصليبية تجرى على هامش التطور التاريخى لأوربا: أى أنها كانت سلسلة من الحوادث الأجنبية والقصص غير المنطقية ذات الأهمية المحدودة. وفضلاً عن ذلك، فإن دراسة الحروب

الصليبية كانت بيد باحثين يقاربون الموضوع من ناحية التخصص فى الثقافة المسيحية الشرقية أو الثقافة الإسلامية، وهو ما كان يعنى أن أحكامهم كانت مفرطة فى قسوتها. ولكن المتخصصين فى العصور الوسطى الآن قد صاروا أكثر اهتمامًا بدمج الحركة الصليبية فى التاريخ الأوسع للحضارة الغربية. وثمة عنصر مهم فى هذا التناول يتمثل فى ملامح التجربة الدينية والثقافية والاجتماعية للأوربيين الغربيين التى يمكن أن تكون السبب فى الحماسة والاهتمام اللذين تبديا بوضوح فى الحملات الصليبية.

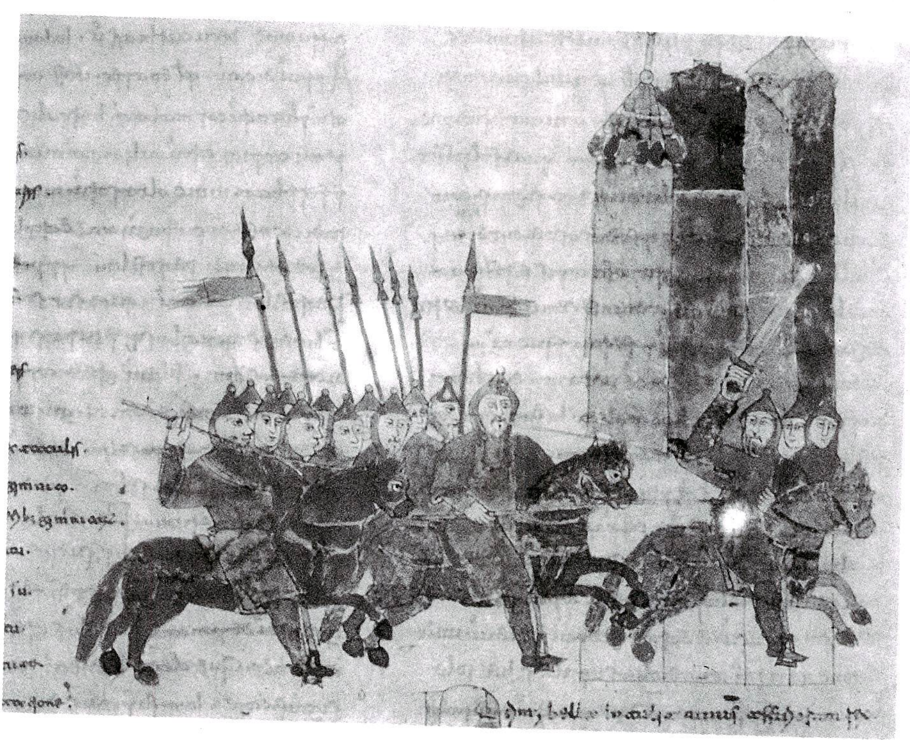
فما الذى إذن جعل الحملة الصليبية الأولى ممكنة فى أوربا أواخر القرن الحادى عشر؟ كان أحد الملامح الأساسية هو العسكرة المطلقة للمجتمع، وهى سمة تضرب بجذورها فى قرون طويلة من التطور. ذلك أن الوحدات السياسية التى برزت من طيات التحلل البطئ والمؤلم للإمبراطورية الرومانية الغربية كانت تحت سيادة السلالات الأرستقراطية التى كانت تستمد ثروتها وسلطانها من السيطرة على الأرض ورسَّخت وضعيتها بالقيادة فى الحرب. وكانت هناك حقيقة لامفر منها فى الحياة فى أوربا العصور الوسطى تتمثل فى أن الحكومات كانت تفتقر إلى الموارد، كما كانت الخبرة الإدارية، والاتصالات لفرض نفسها غير كافية. وكان أفضل ما يمكن أن يأملوا فيه هو أن يصلوا إلى مصالحة مع النخب الحاكمة التى كانت لها السلطة اليومية على الأرض. وكان الترتيب المثالى بالنسبة للسلطة المركزية (يمثلها ملك فى العادة) وزعماء الحرب الإقليميين هو أن يجدوا غرضًا مشتركا بحيث يمكن أن يتم الربط بين التعاون ومراعاة المصالح الشخصية بطريقة تتسم بالانسجام. لقد كانت الأساليب التى بنى بها المجتمع الأوربى عشية الحملة الصليبية الأولى ميراثا من الزمن الماضى كما أن التوفيق بين المركز والأقاليم كانت قد تمت تجربتها على نطاق واسع. ففى القرن الثامن وأوائل القرن التاسع كان الملوك الكارولنجيون الذين حكموا القارة الأوربية الغربية قد طوروا نظامًا سياسيًا عبّأ المجتمع الفرنجى لخوض الحروب الكثيرة للتوسع فى جنوب فرنسا (بلاد الغال) وإيطاليا وإسبانيا ووسط أوربا. فمن ناحية لأن الضحايا المناسبين صاروا أكثر ندرة عن ذى قبل، ومن ناحية أخرى لأن أوربا كانت مرغمة بسبب هجمات الفيكنج والمسلمين على أن تهتم بدفاعاتها الداخلية، وانكسر إيقاع العدوان الموجه عندما كانت

شمس القرن التاسع آخذة فى المغيب، وتصاعدت مشكلات الغرب بسبب الحروب الأهلية المريرة التى نشبت بين أعضاء الأسرة الكارولنجية. وكانت نتيجة ذلك متمثلة فى التخفيف من روابط الولاء والهدف المشترك الذى كان يربط الملك والسلالات المحاربة فى الأقاليم. وبمعنى من المعانى فإن الحياة السياسية ارتدت فى نمطها حيث تركزت السلطة مرة أخرى بأيدى السلالات المسيطرة اقتصاديًا وعسكريًا. ولكن الميراث الكارولنجى قدم مكوّنًا إضافيًا مهمًا- تمثل فى أن النبلاء الكبار- أى «الأمراء» بمعنى «أولئك الذين يحكمون» - تمكنوا من أن يواصلوا ويستغلوا مؤسسات الحكم العام الباقية، مع مرجعية رمزية فقط إلى المركز.

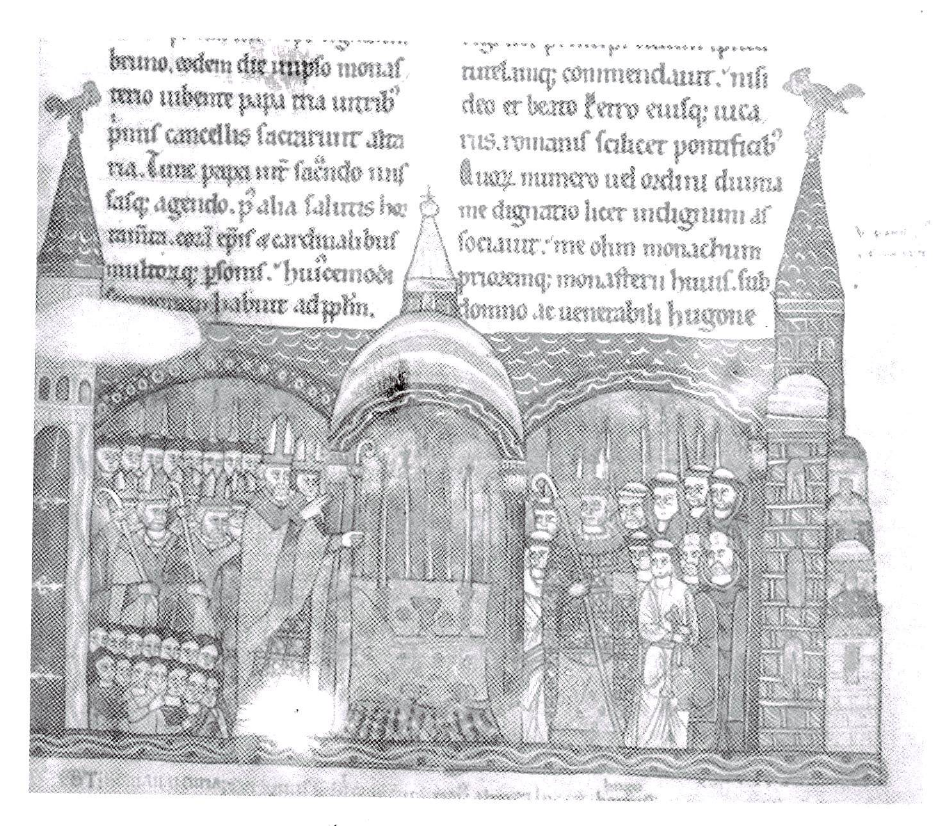
ومنذ خمسينيات القرن العشرين طوّر المؤرخون اتجاهًا يرى فى خلع السلطة الملكية فى القرنين التاسع والعاشر مقدمة لتغيرات أكثر جذرية حدثت خلال العقود التى سبقت سنة ١٠٠٠م وتلتها. ولأن هذا النموذج فى الشرح- الذى يسميه علماء العصور الوسطى الفرنسيون mutation féodale أى التحول الإقطاعى- قد زادت صلابته بحيث تحول إلى نوع من الأرثوذكسية العلمية، فإنه يستحق أن نرسم خطوطه العريضة. فمنذ حوالى منتصف القرن العاشر، وفقًا لوجهة نظر الذين يأخذون بفكرة التحول الإقطاعى، صارت الجماهير المحلية الإقليمية التى كانت من بقايا نظام الحكم الفرنجى عرضة للضغوط من قبل سادة الحرب المشاغبين المعادين للمركزية، والذى برز كثيرون منهم باعتبارهم مندوبى الأمراء فى المحليات. وإذ كرر السادة المحليون نموذج التفتيت والتجزئة القديم، ولكن بمقياس أصغر كثيراً، فإن ازدهارهم جاء نتيجة ربط قوتهم الاقتصادية، بوصفهم من ملاك الأراضى وسلطتهم المستمدة من وجودهم بأراضيهم، بمؤسسة القضاء والمؤسسة العسكرية. ووجد الفلاحون أنفسهم خاضعين بدرجة متزايدة لأعباء الإيجارات الباهظة والتزامات العمل. ولم تعد ساحات القضاء محاكم عامة لخدمة الناس الأحرار فى منطقتها وإنما صارت أدوات للسطوة الأرستقراطية الخاصة، وترقية ممتازة يمكن الحصول عليها بالدخول فى علاقة التبعية للسيد الإقطاعى. وثمة توضيح صارخ لنجاح السادة الإقطاعيين يتمثل فى تكاثر القلاع، لاسيما فى السنوات التى أعقبت سنة ١٠٠٠م. وكانت غالبيتها مبنية من الأخشاب،

ولكن زاد معدل بناء القلاع بالأحجار، وكانت تلك القلاع بمثابة إقرار چيوبولوتيكى بأن السلطة التى كانت مبسوطة على الإمبراطورية الفرنجية القديمة قد باتت ممزقة تمامًا ومتناثرة فى جزئيات.

ومن الجدير بالملاحظة أن الباحثين قد بدأوا حديثًا فى التساؤل عما إذا كانت هذه الأرثوذكسية العلمية السائدة دقيقة أم لا ؟ ذلك أن نموذج التحول الإقطاعى، حسبما دار النقاش، يعتمد على تفسير لتطورات القرنين التاسع والعاشر وهو تفسير مفرط فى ترتيبه من حيث إنه يضع تمييزات واضحة وغير واقعية بين المؤسسات العامة والمؤسسات الخاصة، كما إنه مفرط فى سلبيته، حيث إنه يودع الكارولنجيين الأواخر (كان آخر من توج ملكًا فى فرنسا قد مات سنة ٩٨٧م) ويصورهم فى صورة الخاملين المجردين من السلطة قبل أن يكون هناك دليل يسّوغ ذلك. ومن الواضح أيضا أن الحالة الاقتصادية والاجتماعية لأولئك الذين كان يعملون فى الأرض كانت متباينة تباينًا شديداً. فقد غاص بعضهم فى القنّية تحت ضغط السادة الإقطاعيين المستبدين، ولكن آخرين نعموا بحقوقهم فى ملكية الأرض وبقدر من الاستقلال النسبى.كذلك لم يكن مصير الأمراء واحداً متسقًا؛ إذ كان بعضهم، مثل دوقات نورماندى وأقطانيا وكونتات الفلاندرز وبرشلونة، قد حاربوا بضراوة لصد القشتاليين. بل إن التحول الذى حدث حوالى سنة ١٠٠٠م قد يكون مجرد خداع بصر. إذ إن الوثائق، وهى سجلات



عسكرة المجتمع : الفرسان المدرعون على ظهور الخيل فى مخطوط إيطالى من القرن الحادى عشر. وفى وقت الحملة الصليبية الأولى كان المحاربون الفرسان يشكلون الجزء الأساسى فى الجيوش الغربية، كما أنهم سادوا الحياة الاجتماعية والاقتصادية.



البابا أوربان الثانى فى طريقه إلى كليرمون، والبابا (يسارًا) يبارك المذبح العالى فى الكنيسة الجديدة لدير كلونى فى ٢٥ أكتوبر ١٠٩٥م، أى قبل ثلاثة أسابيع من افتتاح مجمع كليرمون، وأعضاء الحاشية التى صحبته فى رحلته عبر فرنسا، بما فيهم ستة من الكنسيين الكبار، يصطفون خلفه. ويقف هيو رئيس دير كلونى ومعه رهبانه عند الناحية الأخرى من المذبح.

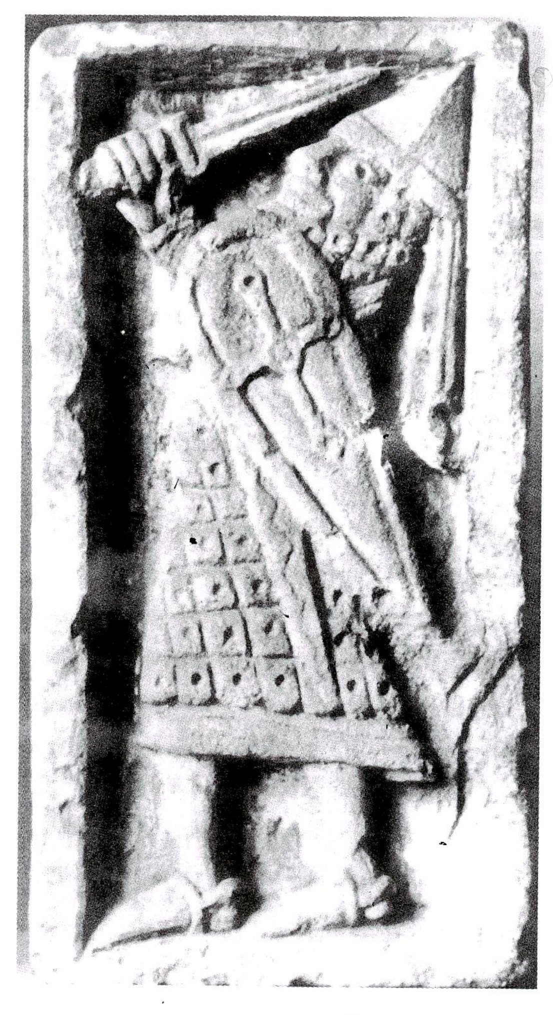
نقل ملكية الأراضى والحقوق والتى هى من أهم مصادرنا، تصبح أقل اهتماما بالصياغة وأكثر تفككًا مع مرور سنوات القرن الحادى عشر بشكل يلفت الانتباه. هذا الرفض الواضح للتقاليد يُفسر عادة على أنه من أعراض التحول من العام والنظامى إلى الخاص لا سيما فى التنظيم القضائى، وهى عملية لها أصداؤها الاجتماعية والسياسية الواسعة. ولكن إذا كان التغير فى الوثائق يمكن تفسيره بعوامل أخرى- ربما كانت الوثائق من النمط القديم تحجب التغيرات الاجتماعية على مدى عشرات السنين ثم اعتبرت فى النهاية غير مناسبة لعالم آخذ فى النمو وأكثر تعقيدًا- فإن نموذج التحول الإقطاعى يحتاج إلى التعديل. وفضلا عن ذلك كله، فإن من الواضح أن دراسة الفترة التى سبقت الحروب الصليبية مباشرة إنما هى الدخول فى فترة تغير. وفى السنوات الحديثة صار المؤرخون الذين يدرسون القرنين التاسع والعاشر أكثر جرأة عموما من رفاقهم الذين يدرسون القرن الحادى عشر من حيث إنهم امتلكوا الجرأة على إعادة التفكير فى فروضهم وإعادة تفسير براهينهم. وكان أثر ذلك يشبه أثر نهر يفيض ويضغط على أحد السدود.

ومن السابق لأوانه أن نتنبأ بالمدى الذى سوف تؤثر به التفسيرات الجديدة على فهمنا لأصول الحملة الصليبية الأولى. فحتى عندما نستجيب تمامًا للرغبة فى المراجعة يبقى من المؤكد أن المؤرخين ليسوا بحاجة إلى التخلى عن اهتمامهم التقليدى فى جانب أساسى من جوانب مجتمع القرن الحادى عشر ؛ سيادة الصفوة من الفرسان. والمصطلحات التى تستخدمها المؤرخات والوثائق تمدنا بالتوجيه فى هذا الخصوص. إذ إنه بحلول القرن الحادى عشر كان المحارب يسمى miles (وجمعها Milites). وفى اللاتينية الكلاسيكية كان المعنى الأصلى لكلمة miles هو جندى المشاة الذى كان بمثابة العمود الفقرى فى الفرق الرومانية العسكرية، ولكن حدث تحول مهم فى معنى الكلمة بحيث صارت تطلق على أولئك الذين يحاربون فوق ظهور جيادهم دون سواهم. وفى سياق التطور أيضا اكتسبت كلمة miles أيضا دلالات اجتماعية جديدة، بما أنها كانت تنطبق على القدرة على الوفاء بالنفقات الكثيرة اللازمة للحصول على الخيول والسلاح باستغلال فائض نتاج الأراضى الشاسعة أو بالدخول فى الخدمة المشرفة لسيد

إقطاعى غنى. وفى تطور يتصل بهذا تغيرت أساليب حرب الفرسان أيضا. ففى زمن الحملة الصليبية الأولى كان من الشائع لدى الفرسان أن يحملوا حربة ثقيلة تحت الذراع وتمتد إلى ما بعد رأس الحصان. كان هذا السلاح مهما من عدة وجوه. إذ كانت الحربة تساعد صفوف الفرسان على القيام بهجمة تستغل قوة الحركة الكاملة لكل من الفرسان وخيولهم. وكان توزيعها بشكل فعال يعتمد على التدريب الشاق والتعاون، مما أنتج التضامن الجماعى، كما كانت لها قيمة رمزية: إذ لم تكن الحربة الثقيلة هى السلاح الوحيد للفارس؛ ولكن بما أنها كانت السلاح الذى يناسب أكثر من غيره قتال الفرسان فإنها كانت علامة على أن حاملها شخص متميز. وهكذا كانت سيادة الفرسان الثقيلة فى ميدان المعركة سببًا ونتيجة أيضا فى مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية الأوسع.



قـوة القـديسين: سـان بندكت النورسـى يشـفى رجـلاً من مـرض جلدى. كـان بندكت راهبًا عاش فى القرن السـادس وضـع قـاعـدة للرهبنة أصـبحت النمـوذج القيـاسـى للحياة الديرية فى غرب أوربا.



فارس فى نحت بارز من القرن الثانى عشر:

معظم العناصر الرئيسية لتجهيزات الفارس ومعداته منقوشة باستثناء الحربة. ويوضح المهماز أن الطريقة المفضلة للقتال كانت من فوق ظهور الخيل، ولكن كان من الممكن أيضا القتال على القدمين، مثلما كان معظم فرسان الحملة الصليبية الأولى قد اضطروا عندما ماتت خيولهم.

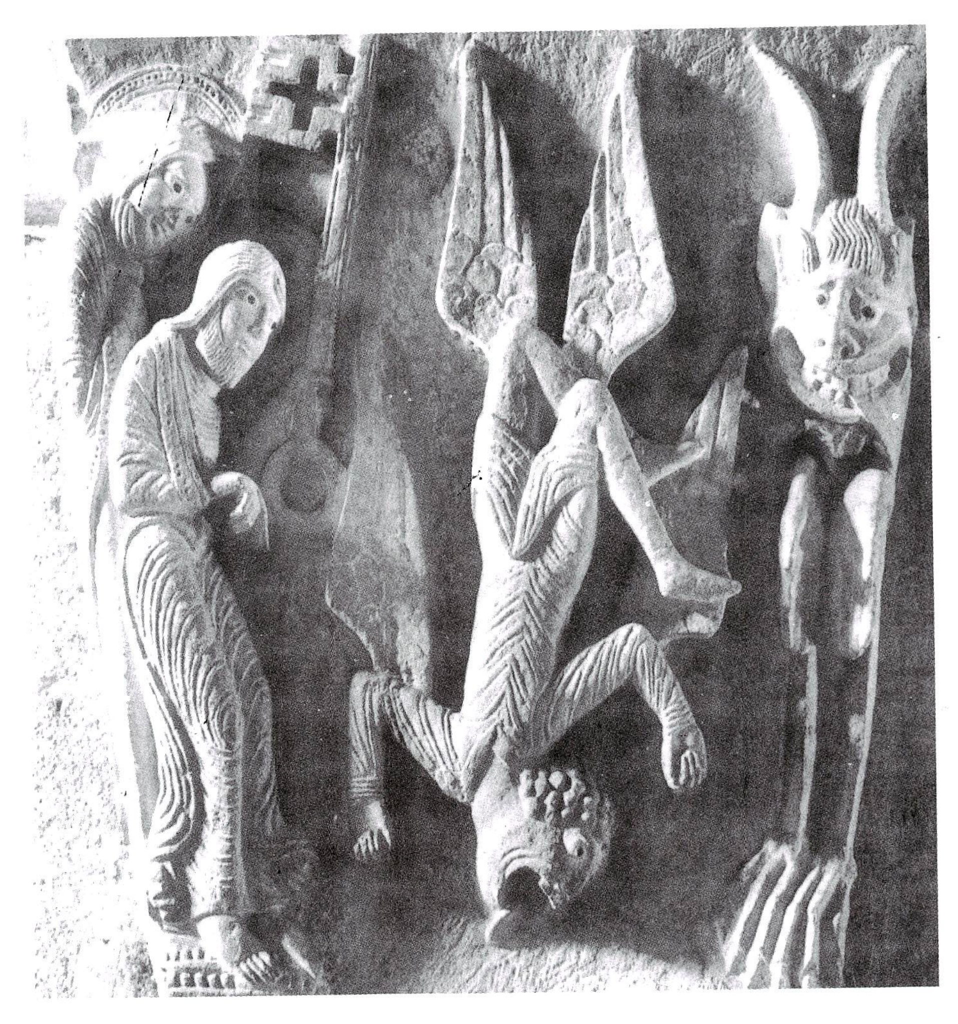
وهناك ملاحظتان تأهيليتان فى النظام، أولا : إنه من المهم أن نتجنب الروابط الرومانسية غير المناسبة والمفرطة عندما نأخذ فى اعتبارنا مرحلة التطور التى كانت الفروسية قد وصلت إليها فى السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر. وتميل فروسية العصور الوسطى إلى إثارة تصورات باهرة عن شهامة الفرسان وأخلاق البلاط، وهو سلوك ونموذج زاه لطبقة عالمية من الفرسان كانت اهتماماتهم ووعيهم الجمعى قوة ثقافية كبرى تتخطى حواجز اللغة، والثروة، والمكانة. ولكن الفروسية الناضجة كانت تطوراً حدث فى القرن الثانى عشر والقرون التى أعقبته وفى سنة ١٠٩٥م كانت لاتزال فى طفولتها. إذ لم يكن هناك نظام لشعارات النسب قد وضع : وهو أمر مهم، إذا ما أخذنا فى اعتبارنا دور الصور فى الإعلام الكلي فى مجتمع كانت غالبيته من الأميين. ولم يكن التعبير الدارج عن قيم الفروسية من خلال الأغنية شيئًا أكثر من بدايات فى طور التكوين. ولم تكن هناك طقوس ثابتة واضحة للبدلية بحيث تبنى أخلاقًا جماعية لكل الفرسان. ومن الأمور ذات الدلالة أن السادة والأمراء كانوا عموما قلقين من أن يوصفوا بأنهم milites دون إضافة صفات تعظيمية، مما يوحى بأنهم شعروا بكونهم جزءًا من عملية عسكرة المجتمع ولكنهم لم يعتبروا أن من المناسب أن يعرِّفوا أنفسهم تعريفًا جامعًا مع رفاقهم فى السلاح ممن يحتلون مرتبة أدنى والذين كان كثير منهم يمثلون الجيل الثالث أو الجيل الرابع من نسل الفلاحين الذين تحسنت أحوالهم. كان كل من السادة الكبار والفرسان Milites الصغار منغمسين فى ثقافة مشتركة عن غلظة المحارب وشرفه والمهارة فى ركوب الخيل. وفيهاتكمن قوة للتلاحم التى قيض لها أن تساعد الصليبيين عندما وجدوا أنفسهم مُعرَّضين لضغوط مادية وعقلية هائلة. بيد أن الحملة الصليبية الأولى لم تكن ممارسة فروسية حسبما كانت الأجيال اللاحقة تفهم الفروسية.

ثانيا، إن سيادة المحارب الراكب على المجتمع لم تنف تمامًا المشاركة المحتملة لأنماط أخرى من الهيئات فى زمن الحرب. فلأن منظمة الغرب العسكرية، شأنها شأن معظم مجتمعات ما قبل التصنيع، كانت مرتبطة بشكل معقد بمؤسسات اقتصادية وإدارية أوسع، كان من المستحيل استخراج قوة فرسان محددة من محيطها الثقافى

والاجتماعى ونتوقع منها أن تؤدى دورها منعزلة. إذ كانت الجيوش بحاجة إلى الإمداد بالخدمات من سائس الخيول والخدم والحدادين وصانعى الأسلحة والطهاة، وكلهم كانوا يمكن أن يتحولوا إلى مقاتلين إذا ما دعت الضرورة. وكان هناك جنود مشاة بمهارات أكثر تحديداً فى استخدام القسى وأسلحة الالتحام المباشر. وقليل من جيوش العصور الوسطى كانت تعمل دون النساء اللاتى كن يلبين حاجات الجنود المختلفة. كما كان القساوسة أيضا موجودين لرعاية الجيش وللصلاة من أجل النصر. وهذا أمر مهم لفهم الاستجابة الواسعة للدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى. فعندما طلب أو أوربان الثانى قوات للاستيلاء على بيت المقدس كان من الواضح أنه يستحيل استبعاد مشاركة غير الفرسان، على الرغم من أنه كان يفكر فى الفرسان Milites فقط كما كان حريصا على ألا تثقل القوات الصليبية كاهلها بعبء الكثيرين من غير المحاربين، على نحو ما أوضحت تصريحاته، وأهمية قصد الفرسان Milites بصفة خاصة تكمن فى أنهم كانوا أفضل جنود الغرب والنواة التى لاغنى عنها التى يمكن أن تتجمع حولها الجيوش القوية.

وقد أمكن شن الحملة الصليبية الأولى من خلال ثورة استولت على الكنيسة الغربية منذ منتصف القرن الحادى عشر. فمنذ أربعينيات القرن الحادى عشر قام مجموعة من المصلحين، بتأييد من الإمبراطور الألمانى هنرى الثالث أولا ثم بمعارضة ابنه هنرى الرابع، بالسيطرة على البابوية. هذه المؤسسة تم تعريفها بذكاء على أنها وسيلة لمتابعة برنامجهم فى استئصال المفاسد داخل الكنيسة. وقد يبدو الاستيلاء على السلطة عند القمة خطوة واضحة تم اتخاذها، بيد أن أساليب المصلحين فى الحقيقة سارت على عكس النموذج المألوف فى تجديد الهيئة الكنسية لنفسها، فمن الناحية التاريخية كانت هيراركية الكنيسة (سلم الوظائف بداخلها) ترى أن دورها هو كبح قوى التغيير، التى كانت تأتى من أسفل عادة. هذا الموقف غالبًا ما جرى تصويره بشكل كاريكاتورى على أنه رجعية جامدة عقديًا، ولكن جذوره تكمن فى أعماق فهم الكنيسة لنفسها. إذ إن الكاثوليك يعتقدون بأن كنيستهم ليست جسداً «مجمعاً» أو مؤسسة تم خلقها بمبادرات إنسانية أو إنها مجرد نتيجة للتطور التاريخى العشوائى

وإنما الكنيسة «رسولية»، بمعنى أنها توجد باعتبارها النتيجة المباشرة والحتمية لمقاصد الرب تجاه البشرية، كما أوصلها المسيح إلى الحواريين ومنهم إلى رجال الكنيسة فى الأجيال المتلاحقة. فإذا ما وضعنا هذه العقيدة فى اعتبارنا، فإن العزوف عن التغيير الكثير والسريع يمكن تبريره باعتباره رعاية سليمة للفعل الإلهى. وعلى أية حال، فإنه عندما تتضمن قوى التغيير عناصر داخل الهيراركية الكنسية نفسها، فإن من المحتمل أن يكون التأثير هائلاً. وهذا ما حدث فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر.



القديس بطرس يطرح سيمون ماجوس (سمعان) الذى طلب أن يشترى هبة الروح القدس. وقد هاجم مصلحو القرن الحادى عشر السيمونية - بيع أو شراء المناصب الكنسية- لكى يحدوا من النفوذ العلمانى فى الكنيسة، ومن هذا التأكيد على الفصل بين العلمانيين والكنسيين، تطورت اهتمامات متجددة بالدور الذى يمكن للعلمانيين أن يلعبوه فى المجتمع المسيحى بشكل قانونى.

غالبًا ما يعرف برنامج الإصلاحيين باسم الإصلاح الجريجورى نسبة إلى واحد من أكثر زعمائهم طاقة وصخبًا، وهو البابا جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م). وقد عمل على مستويين تكميليين. إذ خاطب الجريجوريين أنفسهم فى جوانب تتعلق بتوجيه الكنيسة: الناحية الأخلاقية، لاسيما فى السلوك الجنسى لرجال الكنيسة؛ إنجازات الكنسيين التعليمية وقدراتهم على القيام بواجباتهم الكنسية والطقسية والرعوية؛ والتدخل العلمانى فى إدارة الكنائس وتعيين الموظفين فى الوظائف الكنسية. وإلى هذا المدى كانت أهداف الإصلاحيين دينية، وهى تطهير الكنيسة بحيث يمكن أن تعمل بطريقة مرضية باعتبارها الوسيط فى الطقوس الدينية. أما على المستوى الأبعد، فإن طموحات الجريجوريين كانت تنظيمية أيضا. وكما هو الحال مع الحكومات المدنية كانت المشكلة المزمنة هى تحقيق الانسجام فى النشاط ما بين المستويات المركزية والإقليمية والمحلية.

وفيما يتعلق بهذا الهدف، تحقق القدر الأكبر من الاتساق فى عمليات الكنيسة بفضل المندوبين البابويين المسلحين بالسلطات الإشرافية والتنظيمية، والمجالس الكنسية التى كان يحضرها كبار رجال الكنيسة عادة، إلى جانب مجموعة من القوانين الكنسية المتزايدة بشكل منظم مع التأكيد على السلطة القضائية للبابا. ولم تتحقق الثمار الكاملة للإصلاحات الإدارية حتى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر. ولكن بحلول تسعينيات القرن الحادى عشر كانت ثمة بداية مهمة ومستمرة قد بدأت. وكانت نتيجة من نتائج تلك البداية أنه عندما بدأ البابا أوربان الحملة الصليبية الأولى استطاع أن يعبئ الموارد والحماسة ومهارات الاتصالات لدى كثيرين من أفراد الإكليروس والجماعات الدينية، وتمثل ذلك فى كتلة من التأييد الجمعى الذى كان قد صار بالفعل حساسًا تجاه المبادرات البابوية.

كانت جهود الداعين إلى الحملة الصليبية ستمضى بلا طائل، بطبيعة الحال لو لم يكن كثير من الأوربيين تواقين للاستجابة لما كان ينظر إليه باعتباره عملا تطوعيًا، لقد كان المفترض أن الحملة الصليبية عمل دينى للحج، وهنا تكمن جاذبيتها ويمكن أن تبدو الثقافة الدينية لأوربا العصور الوسطى غريبة فى عيون المراقبين المحدثين: وينبغى أن

نضع في أذهاننا أن الكثير مما يعتبر اليوم كاثوليكيًا متمايزًا كان من نتاج حركة الإصلاح الديني المضاد. وعلاوة على ذلك فإن الموضوع موضوع شاسع وواسع. ومع هذا فمن الممكن عزل بعض العناصر التي تساعد على تفسير جاذبية الحركة الصليبية. وكان أحد الملامح الأصلية لاتجاهات الناس الدينية يتمثل في أنهم محكومون بردود الأفعال تجاه الخطيئة وتقديرهم لعواقبها، ولم يكن أي جانب من السلوك الإنساني والتفاعل الاجتماعي محصنًا ضد وصمة الوقوع في براثن الرذيلة، وأولئك الذين كانت حياتهم موجهة عمدًا في بيئة غير اجتماعية ومنظمة بشكل صارم- مثل القساوسة العزاب، والزهاد والرهبان والراهبات- هم فقط الذين كان يمكنهم أن يأملوا في تجنب بعض السقطات التي لاتحصى في الوجود اليومي. وكان العلمانيون يحترمون الجماعات الديرية ويؤازرونها لأن الجدارة الأخلاقية كانت تعتبر وكأنها وظيفة للسلوك الظاهري. وفي السنوات التي سبقت سنة ١١٠٠م والتي تلتها، كانت هناك بداية لتنمية حساسية أكبر قدرًا تجاه فكرة أن الطبع الداخلي كان أهم جزء في التعبير الديني. ولكن الأفعال، ونحن نتكلم عن الناحية الروحية، استمرت عالية الصوت مثل الأفكار والكلمات على أقل تقدير.

مثل هذا التأكيد على الأفعال- سواء تم التعبير عنها في ضوء كيفية تحديد الخطايا أو كيفية إصلاح هذه الذنوب من خلال التوبة- يمكن أن يبدو آليًا حتى يتأمل المرء القيود التي كانت تعوق حياة الناس، لقد كان الانتباه الحاد للسلوك طبيعيًا تمامًا في البيئة الاجتماعية حيث كان الجميع يعيشون حقًا في مجموعة وثيقة الترابط وفاحصة بحيث لاتوفر أية خصوصية أو قدرًا ضئيلاً منها، وإذ كانت الجماعات تتجمع سويًا في حميمية فإنها كانت بحاجة إلى تنظيم نفسها باستغلال سلطة العرف لتثبيت المبادئ والمعايير، وهي مقاربة تعززت بالاعتقاد في أن السلوك الضال يعرض روح التضامن في الجماعة للخطر. لقد كانت الآثام والذنوب تعتبر من ضمن الطرق التي يمكن بها أن ينقلب التوازن في الجماعات التي تعيش في عالم صغير، ومن ثم كان الحفاظ على التماسك الاجتماعي يتم بعملية مزدوجة : فقد كان يتم تشجيعهم على الإحساس بالذنب؛ وهو رد فعل كان يفرض خاصة من قبل الرهبان الذين قادوا خطوات التدين

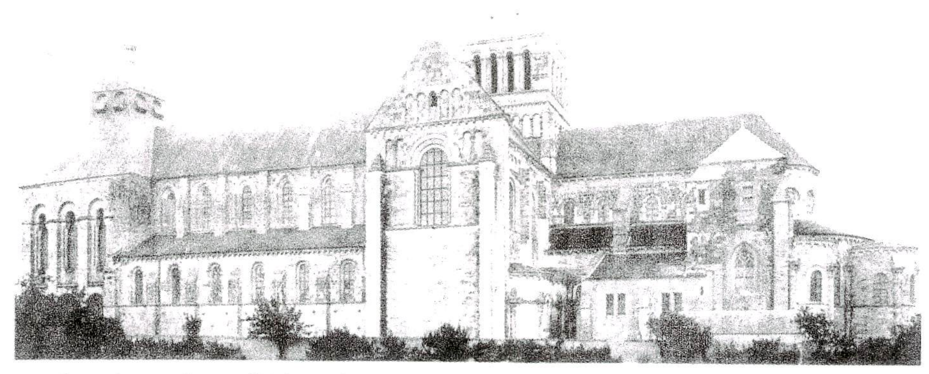
فى القرن الحادى عشر. ومن ثم تمت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى فى وقت كان فيه كثير من العلمانيين حساسين تجاه الضغط الذى تمارسه عليهم الجماعة، معتادين على طول التمعن فى نقائصهم السلوكية ومقتنعين بأن صالحهم الروحى يعتمد على قيامهم بعمل إيجابى.

وثمة ملمح آخر جدير بالملاحظة فى الثقافة الدينية فى العصور الوسطى هو ارتباطها الشامل بالإحساس بالمكان، وبنفس الطريقة التى استطاع بها الباحثون أن يفسروا مجازًا ويستخرجوا الأحكام الأخلاقية من إحدى فقرات الكتاب المقدس على حين يظلون على قناعتهم بدقتها الحقيقية، كذلك كان الناس من جميع الطبقات يدمجون بشكل غريزى التجريدات الدينية والإحساس المادى سويًا. كان هذا الطرح العقلى جليًا واضحًا على نحو خاص فى آلاف الأضرحة للقديسين التى كانت منثورة فى جميع أرجاء العالم المسيحى الغربى؛ فهناك المسيحية، التى صارت تجسيدية ومتاحة، كان يمكن رؤيتها وشمها وسماعها، ولمسها. فقد كان القديسون عنصرا مركزيًا فى السلوك الدينى فى القرن الحادى عشر وأدوا الكثير من الوظائف المفيدة. فقد ساعدوا الكنيسة على أن تمشى على حبل البهلوان ممسكة بإمكانية الخلاص للجماهير المذنبة على حين تؤكد المتطلبات القاسية لدخول السماء. ولأن القديسين أنفسهم كانوا من البشر الفانين ذات مرة وبذلك كانوا عارفين بأوجه القصور الإنسانية، فإنهم كانوا قادرين أيضا على التصرف بوصفهم شفعاء فى ساحة العدالة السماوية. وعلى الأرض كانت بقاياهم المادية والأشياء المرتبطة بحياتهم تبعث الفضيلة **Virtus** وهى قوة روحية خيِّرة يمكن للمتقين أن يعولوا عليها. ومن الناحية النظرية كان القديسون غير محدودين بالحدود الجغرافية، بيد أن الاعتقاد كان مع هذا ضاربًا بجذوره فى الأعماق بأن فضائلهم كانت تتمركز فى الفضاء المحيط بالمواضع التى كانت ذخائرهم المقدسة محفوظة بها ويتم الحفاظ على ذكراهم بالطقوس الدينية بشكل دائم. وامتدادًا لهذا، كانت العلاقة الحميمة بين الفكرة والمكان تنطبق على المسيح. فالحج إلى الأماكن التى كان يعيش فيها، ومات بها، ودفن فى ترابها كان يعتبر تجربة دينية ذات جدارة استثنائية. وفى القرن الحادى عشر كان تحسن المواصلات عبر وسط أوربا وزيادة

حركة النقل البحرى الإيطالى يعنى أن عدداً من الأوربيين أكبر من ذى قبل كانوا قادرين على القيام برحلة الحج إلى الأراضى المقدسة. ولاعجب إذن أن الروايات عن خطبة أوربان الثانى التى أعلنت عن قيام الحملة الصليبية الأولى بكليرمون فى نوفمبر ١٠٩٥م، تحكى أنه قد تحول إلى تراث الحج. فقد قال إن كثيرين كانوا فى الشرق أو يعرفون من قاموا بالرحلة إلى الشرق، وتخبرنا المصادر أن أوربان استخدم أيضاً قصصاً مفزعة عن تلويث الأتراك للأماكن المقدسة. وأيا كان نصيبها من الدقة، فإنها كانت ذات قدرة تحفيزية لأنها كانت تضرب على أوتار اعتياد المعاصرين الربط بين التعبيرات الدينية والفضاء الجغرافى.



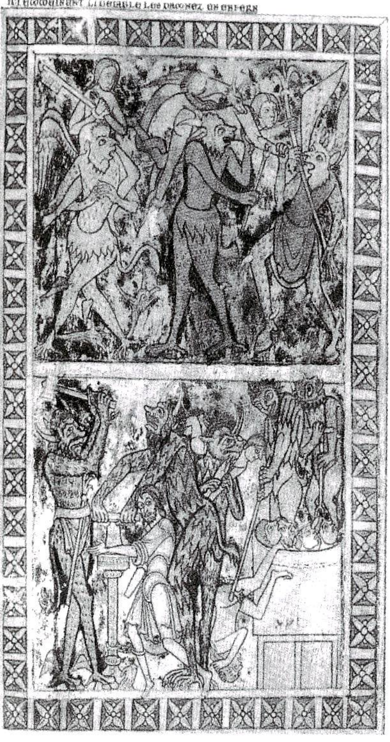
خطيئة العلمانيين : فى هذه الفترة، كان هناك عدد قليل من العلمانيين، غير الملوك والملكات، تم الاعتراف بهم قديسين، أحد الاستثناءات كان چيرالد الأوريلاكى (ت ٩٠٩م)، وهو كونت من فرنسا. من المهم أنه كان يعتقد أنه عاش حياة تأثرت بشدة بنماذج الدور الرهبانى.



الحرب على الخطيئة : الكنيسة الرهبانية لسان بنوا- سور لوار (فليرى) الأديرة مثل دير فليرى اغتنت بسبب الهبات الممنوحة من العلمانيين، ولاسيما أعضاء الطبقات العسكرية، الذين رغبوا فى الارتباط بسمعة الرهبان بقداسة أعمالهم فى الشفاعة.

والقصص الكثيرة الباقية عن المعجزات التى حدثت فى المزارات تقدم إيضاحات مهمة عن حالة الحساسية الدينية فى الوقت الذى أطلق أوربان دعوته تقريبا. وهناك مثال واحد، فهناك قصة عن مزار سان وينوك فى دير بيرجوس شمال شرق فرنسا، تصلح لأن تكون توضيحًا جيداً. وينبغى أن نلاحظ أننا هنا نتعامل مع شكل أدبى، وهو المعجزة miraculum التى كان يتم تأليفها حسب نمط راسخ لهذا النوع الأدبى. ويعنى هذا أن الأحداث لم تجر على نفس المنوال الذى حكيت به بالضبط، على الرغم من أنها ربما كانت تقوم على أساس من الحقيقة. واهتمام القصة الحقيقى منصب على الطريقة التى يمكن للتصوير المثالى للحقيقة فى حد ذاته أن يلقى الضوء على المواقف والسلوك الفعلى. وتمضى الحكاية على النحو التالى. كان ذلك فى عيد الخمسين (عيد العنصرة أى فى أوائل الصيف) وجاءت أعداد غفيرة من الناس إلى كنيسة الدير. وكان بعضهم من أهالى الناحية، والبعض الآخر من الغرباء الذين اجتذبتهم شهرة سان وينوك. وذات يوم وبينما كان المؤمنون يتدافعون نحو الضريح، وجدت فتاة عمياء صغيرة، كانت قد

صارت تميمة تجلب الحظ للجماهير المجتمعة، وجدت نفسها منعزلة فى الخلف. ومن ثم تمَّ تمريرها يداً بيد فوق رؤوس الحشد حتى وصلت إلى المقدمة حيث كانت بعض الذخائر المقدسة لسان وينوك تُعرض على الحشد فى صندوق ذخائر محمول. ونظر الناس باتجاه السماء وصلوا طالبين شفاعة القديس بأن يمنح الرب الفتاة بصرها، وأضافوا أنهم سوف يواظبون حضورهم إلى الكنيسة بقدر أكبر من الالتزام إذا ما منحهم الرب مثل هذه الآية. وفجأة صارت البنت تنتقض بعنف وبدأت مقلتا عينيها تنزفان. وبعد ذلك بوقت قصير أعلنت أنها تستطيع الرؤية.





يمين : عواقب الخطيئة : تعذيب الملعونين. توقع العقاب الخالد، بما فى ذلك الألم الأكبر من أى ألم تم الإحساس به فى أثناء هذه الحياة، كان منتشرا ومحتملاً على نطاق واسع. وقد عزز الاعتقاد فى الحقيقة المادية للعذاب فى الجحيم فكرة أن أعمال التوبة، مثل الحج أو الخروج فى حملة صليبية، لابد وأن يتطلب كذلك التحمل والمعاناة.

شمال : عواقب الخطيئة : ملاك يحبس المذنبين، بما فيهم الملوك والقساوسة، فى الجحيم. وعُرى الملعونين مؤشر على أن السلوك الجنسى، الذى كانت الكنيسة تحاول الحد منه، كان ينظر إليه باعتباره أحد الطرق الرئيسية للخطيئة. وعن طريق التناقض، كان هناك اعتقاد بأن السماء بعد يوم الحساب ستكون ممتلئة بأناس ممن تحرروا من الشرور الجنسية.



الحساب الإلهى : قيام الموتى فى يوم الدينونة (الحساب). كان الاعتقاد شائعًا أن الجنس البشرى سوف يُحاسب على مرحلتين : حساب أولى بعد الموت؛ وسوف يتم بعثه جسديًا ويحاسب بشكل محدد فى يوم الدينونة. وكانت فكرة أن أعمال المرء فى حياته تؤثر على مصيره الخالد هى مركز الإيديولچية الصليبية.

هناك عدة ملامح فى هذه القصة تتصل بالثقافة الدينية التى أنعشت الحماسة الصليبية كما تحظى الطريقة التى توضح بها أفعال الحشد الطبيعية الجماعية المعتادة فى السلوك الدينى باهتمام خاص. لقد كانت البنت هى الشخصية المركزية، بطبيعة الحال، بيد أن المجموعة شاركت مشاركة كاملة عند مفاصل حاسمة: باختيار البنت لجذب الانتباه الخاص، وبالتعاون لكى يعرضوها فى أقصى عرض أمام فضيلة وينوك، وبطلب جماعى لمساعدة القديس. وقد استخدم المشهد الذى جرى فى الكنيسة لتقوية التضامن الموجود- وهو هنا الرابطة التى تجمع أولئك الذين يعيشون بالقرب من بعضهم- كما خلق هوية جماعية جديدة وحدت الأهالى المحليين مع مجموعة الحجاج المتنوعة والقادمة من أماكن بعيدة، وعلاوة على ذلك فإن الرهبان لم يكونوا متفرجين سلبيين. وتمضى القصة لتصف تدفق طاقة دينية فى الحال من العلمانيين، بيد أنه يبدو معقولاً أن نشك فى أن هناك إجراء للتحفيز، ولو فى إدارة خشبة المسرح بالتواطؤ من جانب الرهبان. والتفكير فى أين ومتى حدثت هذه الأحداث يشى بأن رهبان بيرجوس جعلوا مهمتهم أن يخلقوا الظروف التى يمكن فيها تحفيز نبضات الناس الدينية وتوجيهها. كما أن حقيقة أن صندوق الذخائر المقدسة النقال كان يُعرض عندما حدثت المعجزة يعزز هذه النقطة ؛ فقد تم بناء الإثارة حتى انفجرت فى اللحظة الحرجة. وما إن تم الوصول إليها حتى أمكن السيطرة على حالة الاستثارة وتوجيهها فى تأكيد جماعى للعقيدة باستغلال الاتجاه، وهو أمر كان شائعًا جدا فى ذلك الوقت، للرد على الإثارة أو التهييج من خلال التدفق العاطفى المعبّر. لقد فهم كاتب القصة حالة الناس النفسية جيدًا، واستغلها لكن لعمل مقارنة مثيرة وهو يصف كيف أن صلوات المؤمنين، التى كانت بصوت عال وغير منظمة، قد خرجت مع أنشودة منظمة من جانب الرهبان فى جوقة المنشدين. هنا كانت كنيسة القرن الحادى عشر تعمل فى نموذج مصغر : مجموعتين، العلمانيين ورجال الكنيسة، منخرطين فى علاقة تعزيز متبادل لكل منهما الآخر. وقد قامت لكل مجموعة بدور متمايز (ويُرمز إليها هنا بالفصل المكانى بين جوقة المنشدين وصحن الكنيسة) ولكن فى داخل السياق الذى يوحد بينهما من خلال الممارسة الدينية الطقسية والتى تركز على نقاط التواصل (الضريح، صندوق عرض

الـذخـائر المقدسة، والقـديس وينوك) ثم وجهت لكى تولد حـماسة جماعـية والحفاظ عليها.

وثمة عنصر فى القصة ربما يبدو متنافراً هو الوعد الذى قطعه الجمهور المحتشد بأن يصبح أكثر تديناً إذا ما أعطى معجزة، فعلى أحد المستويات يكون هذا من خصائص هذا النوع الأدبى ؛ إذ كان المؤلف يضغط السبب والنتيجة فى تتابع واحد يمكن التحكم فيه بحيث يختصر عملية أطول كثيراً كان يمكن من خلالها أن تتسلل عملية تقديس وينوك بحيث تصير جزءاً من العادات الدينية فى هذا المكان. بيد أن التأكيد على الإشارة لوعد الحشد هناك أيضا حساسية أعمق تجاه وجدان العلمانيين، وهو ما يمكن أن نجد الدليل عليه فى أى مكان آخر. إذ إن چيوبرت النوچنتى مثلاً، يخبرنا بقصة بعض الفرسان الذين تحدوا جماعة من الكهنة من لاون على الإتيان بمعجزة ترعاها مريم العذراء. وقد خارت همة القساوسة، لأن المستفيد المفترض، وهو شاب أخرس، كان يبدو حالة لارجاء فيها. ولكن العذراء جاءت لنجدتهم، وبدأ الشاب ينطق أصواتاً، واعترف الفرسان بخطئهم فى مذلة.كان غرض چيوبرت من حكاية هذه القصة تمجيد العذراء وتوضيح أصالة ذخائرها المقدسة المحفوظة فى لاون. ولكنه، مثل كاتب معجزة بيرجوس، يشير ضمناً إلى قلق الكنيسة من أن العلمانيين كانوا متشبثين بفكرة البدل أو المقابل. وكان الخوف من أن المؤمنين كانوا يميلون إلى تنويع التزامهم الدينى بحسب الكيفية التى يتم بها تناول مشاغلهم المادية، وقلقهم، بل فضولهم، من خلال الاتصال بالدين المؤسسى.



الجلالة الذهبية فى كليرمون- ڤيراند : رسم من القرن العاشر لتمثال شهير للعذراء والطفل لم يعد موجوداً .كانت الأشياء من الفن الدينى بؤرة للحماسة الدينية لكل من رجال الكنيسة والعلمانيين. ولم تُخلق باعتبارها موافقة من الكنيسة على حاجات الناس العاديين ولكنها نقطة اتصال مشتركة.

لقد تمسك النقاد بنوع الخوف الذى ألمح إليه چيوبرت وكاتب بيرجوس لكى يجادلوا بأن هذا التدين العلمانى فى العصور الوسطى كان سطحيًا وحرفيًا، ولم يكن أكثر من بريق حققته الثقافة فوق نبضات نفسية واجتماعية أساسًا. بيد أن هذا التفسير يمكن إخضاعه للتساؤل. إذ إن النقاد يقعون فى خطأ إرساء مستويات قياسية لما يشكل قناعة دينية أصيلة وهى مستويات فى غير مكانها أو زمانها، طالما أنها قائمة على أساس مدى سلوك الناس بإخلاص فى مجتمعات متعددة الديانات فى عالم ما بعد الإصلاح الدينى. وهناك نقاد آخرون يتشبثون بفكرة أن الناس فى العصور الوسطى كانوا قادرين فعلاً على التصرفات الدينية العميقة، ولكنهم كانوا يرضون ببقايا وثنية تخلفت عن عصر ما قبل المسيحية- التعاويذ، الطلاسم، الشعوذة، والعرافة ونحو ذلك- وكانت هى الأقرب إليهم والأولى بثقتهم مما كانت الكنيسة تقدمه. وهنا تكون الغلطة هى تطبيق معايير من فترة لاحقة للحكم على قدرة الكنيسة فى العصور الوسطى على ترجمة مذاهبها إلى سلوك يسير الناس على هديْه. لم يكن الناس فى القرن الحادى عشر استثناء تاريخيًا من حيث إنهم نادرًا ما كانوا قادرين على الحفاظ على الالتزام الدينى طوال حياتهم: فالمرض، وبداية الشيخوخة، والتغيرات التى تطرأ على المكانة الشخصية والأزمات المنزلية والاجتماعية كانت تؤدى بانتظام إلى تصعيد التدين فى كثير من الديانات وفى فترات تاريخية كثيرة. هذه هى طبيعة الأمور. وما يهم هو المستوى الأساسى للعاطفة الدينية التى يشترك فيها غالبية الناس معظم الوقت وبذلك تصير نقطة مرجعية ثقافية ثابتة، وإذا ما اتبعنا هذا المعيار، لبدا المجتمع الأوربى الغربى عشية الحملة الصليبية مجتمعًا مسيحيًا تمامًا.

ويمكن أيضا أن نفسر الحساسية الكنسية تجاه ما يبدو أنه عقلية دينية ترى أن كل شئ بمقابل تفسيرًا إيجابيًا باعتباره علامة على قوة الكنيسة، بما أن نوع التبادلية الذى كان المؤمنون فى بيرجوس يتوقعونه، وهو نوع شاذ قليلاً، كان ناجمًا عن مبدأ أساسى كانت السلطات قد أذاعته بنشاط : فكرة أن العلاقة بين هذا العالم والعالم الآخر محكومة بالسبب والنتيجة. وفى وقت الحملة الصليبية الأولى كانت تعاليم الكنيسة تقول إن الخطايا يمكن التكفير عنها، نظريًا على الأقل، بأعمال التوبة. وبالنسبة للناس

العاديين أخذت التوبة عادة شكل فترات من الامتناع عن ممارسة الجنس والتقشف فى الطعام وقطع الروتين العادى: فلم يكن مسموحًا للتائبين مثلاً، أن يحملوا السلاح. وقد تمت رحلات حج كثيرة بقصد التوبة. وينبغى أن نلاحظ أن المواقف كانت قد بدأت تتغير، عندما كان الناس يتساءلون عما إذا كان البشر الفانون قادرين على التخلص من ذنوبهم بمجهوداتهم الخاصة الضعيفة دون أن تساعدهم يد الرب برحمته اللانهائية. ولكن مفهوم معاملة أعمال التوبة على أنها ببساطة تجليات رمزية للندم الذى يجب إبداؤه بعد أن تتم مسامحة المذنب من خلال الغفران الطقسى- وهو النظام الجارى فى الكنيسة الكاثوليكية الحديثة - كان لايزال رهن التطور. وفى السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر ظل الاعتقاد راسخًا بأن أعمال التوبة يمكن أن تكفى لمحو الذنوب.

وهذا يفيد كثيرًا فى شرح الجاذبية الكامنة فى الحملة الصليبية الأولى، التى رأى فيها أوربان الثانى عملاً مكلفًا للغاية، وطويلاً ومضنيًا من الناحية العاطفية والجسدية بحيث يرقى إلى مستوى التوبة «الكاملة» التى يمكن أن تمحو كل الذنوب التى اعترف بها من ينوون الانضمام إلى الحملة الصليبية. وكان أوربان الثانى على معرفة بالكيفية التى تعمل بها عقول مستمعيه. ذلك أنه ابن لأحد صغار النبلاء من شامبانى، وكان قد خدم فى كاتدرائية ريمس وفى الدير البورجاندى الكبير التابع للنظام الكلونى، قبل أن يواصل مسيرته الوظيفية فى البلاط البابوى وقد زودته خلفيته بما جعله يفهم التناقض فى قلب العاطفة الدينية للعلمانيين، إذ كان الناس العاديون يقدمون برهانًا كبيرًا على وعيهم بذنوبهم، بالقيام برحلات الحج، مثلاً، أو بمنح الرهبان والراهبات الذين يقتربون جدا من المثال المستحيل للسلوك الإنسانى بلاخطيئة. بيد أن انغماسهم الذى لايمكن تجنبه فى الاهتمامات الدنيوية كان يعنى أنه يستحيل عليهم أن يقوموا بأعمال التوبة الدائمة التى تعزلهم اجتماعيًا والتى يمكن أن تسبق أخطاءهم التى تتزايد دائمًا وأبدًا. لقد قطعت الرسالة الصليبية العقدة وحلت المشكلة. فها هنا أخيرًا نشاط فعال روحيًا قصد به على وجه الخصوص أن يخدم الناس العلمانيين، ولاسيما النخب العسكرية المحاربة الذين كانت ذنوبهم من أكثر الذنوب عددًا وأوسعها شهرة. فقد كان يمكن للعلمانيين أن يأملوا، حسبما عبر چيوبرت النوچنتى بذكاء عن الأمور، فى استحقاق الخلاص دونما أن يتخلوا عن ملابسهم المعتادة، وبتوجيه غرائزهم باتجاهات تتوافق مع ظروفهم الاجتماعية الثابتة.

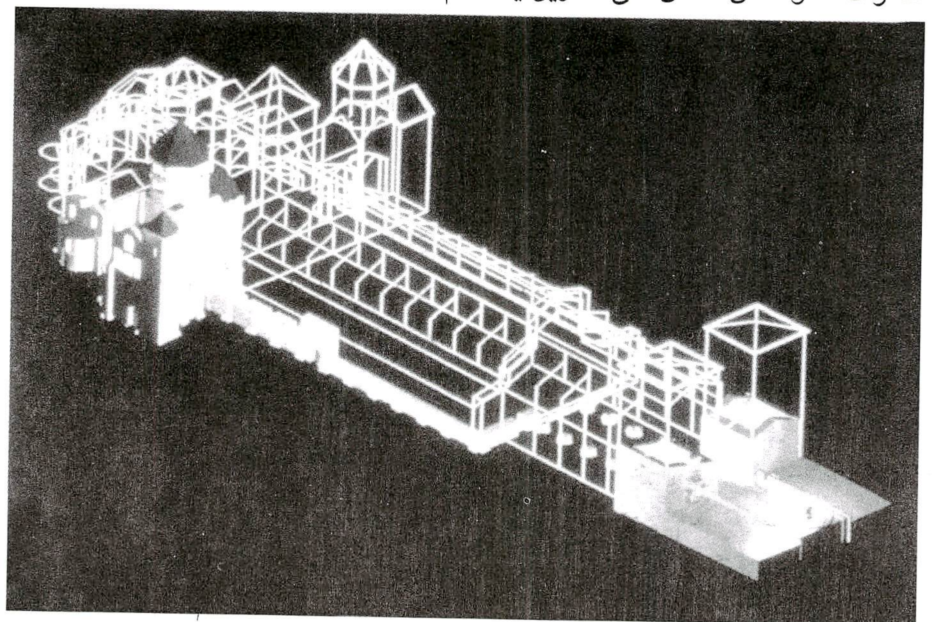
لقد كان الأثر الناجم عن رسالة تم تحديدها بهذه المصطلحات بمثابة صدمة كهربائية. وقد تضاعف الأثر بجولة أوربان الثانى فى جنوب فرنسا وغربها فيما بين خريف سنة ١٠٩٥م وصيف سنة ١٠٩٦م وإذ كان البابا يتحرك بوصفه سلطة حاكمة فى مناطق نادراً ما كانت ترى ملكًا على مدى عشرات السنين، فقد جذب الانتباه إليه بتكريس الكنائس والمذابح الكنسية، وتكريم الأماكن التى كان يمرُّ بها بواسطة احتفالات كنسية فاخرة (مرة أخرى تتضح العلاقة بين الإثارة الدينية الجمعية



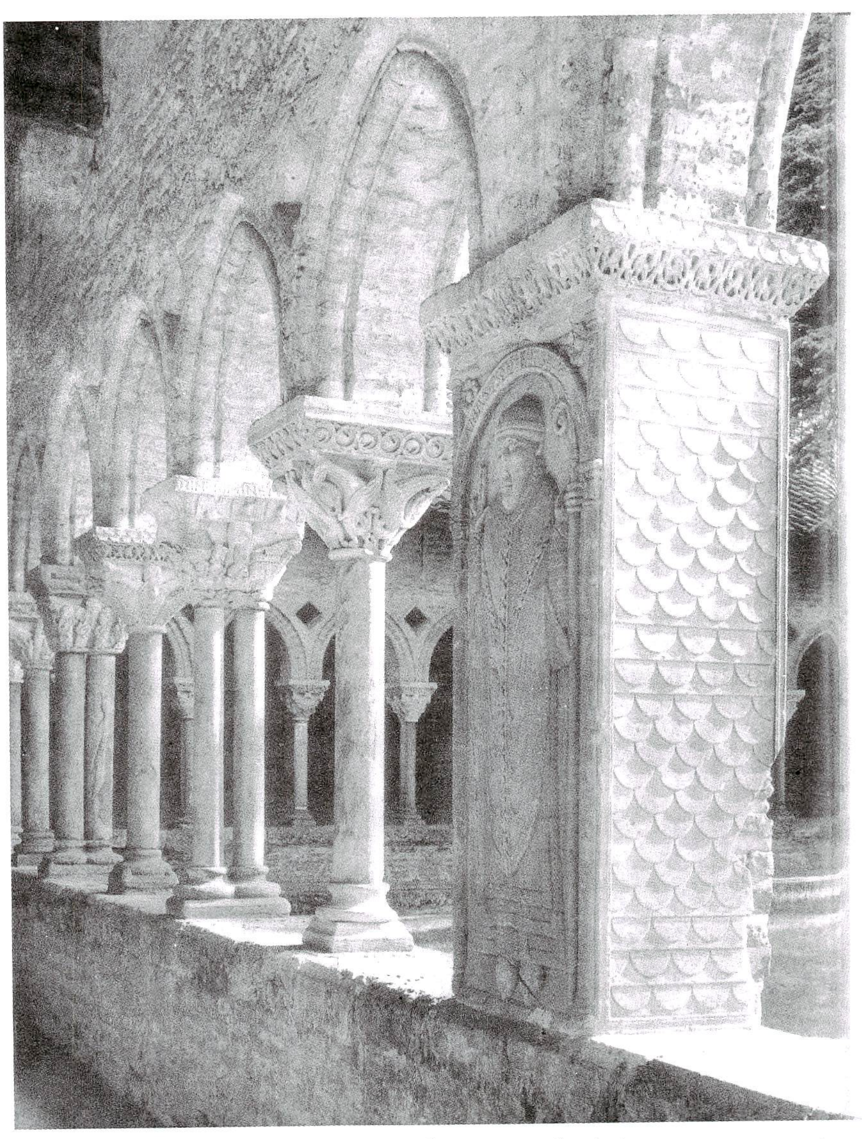
سانت راديجوند : ملكة من القرن السادس تُشفى امرأة عمياء. كانت قوة القديسين تبقى بعد موتهم لكى يعول عليها المؤمنون بهم: وكان شفاء الأمراض الجسدية هو أكثر ما يسعى إليه العامة من تجليات فضائل القديسين. وكانت المساعدة التى يقدمها القديس فى هذه الحياة تؤدى إلى توقع شفاعة القديسين لصالح أتباعهم فى وقت الحساب.

والشعائرية). وكانت أكبر المراكز الحضرية المناسبة مستهدفة لتكون قواعد مؤقتة: ليموج، پواتييه (مرتين) آنچيرس، تور، سانت، بوردو، وغيرها. وكانت الجدارة الخصوصية لهذه الأماكن تتمثل فى أنها كانت بالفعل أماكن توجد بها كنائس مهيبة كانت تلعب منذ زمن

بعيد دور النقاط المركزية للولاء الدينى فى مناطقها. فقد كانت، تماماً مثل كنائس المناطق الريفية، تستخدم فى ذلك الحين باعتبارها مراكز تجنيد للحملة الليبية. وفى المناطق التى لم تشملها جولة البابا انشغل آخرون من رجال الكنيسة فى إذكاء الاهتمام. ويبدو أن الرهبان كانوا من بين أكثر وكلاء التجنيد نشاطًا: إذ تكشف الكثير من الوثائق الباقية عن صليبيين فى طريقهم للرحيل يتجهون صوب الأديرة طلبًا للمساندة الروحية والمساعدة المادية لقد كانت الحماسة للحملة الصليبية على أشدها فى فرنسا وإيطاليا وغرب ألمانيا، ولكن مناطق قليلة فى العالم المسيحى اللاتينى هى التى لم تتأثر على الإطلاق. وعلى حد تعبير أحد المؤرخين الذى يبقى بالذاكرة كان «ثمة وتر عصبى» غمر الغرب بالمشاعر الرائعة. وكان الدليل ملموسًا وواضحًا، ففيما بين الربيع والخريف فى عام ١٠٩٦ كان عشرات الألوف من الناس على الطريق يحدوهم هدف واحد- تحرير القدس.



كنيسة دير كلونى (كلونى٣) فى جنوب بورجندى. تحت البناء زمن الحملة الصليبية الأولى، كانت كلونى ٣ أكبر كنيسة فى غرب أوربا، وهو ما كان يناسب مكانة أحد أكبر النظم الرهبانية مكانة فى العالم المسيحى اللاتينى. وإذ كان البابا أوربان الثانى راهبًا فى دير كلونى، فقد بارك الكنيسة وكرسها أثناء رحلته فى فرنسا.



دير فى جنوب غرب فرنسا زاره أوربان الثانى أثناء جولته فى فرنسا. وقد لعبت الأديرة مثل دير مواساك، التى كانت غالبًا أكثر المؤسسات الدينية شهرة فى أماكنها والتى كان بوسعها أن تعتمد على ركائز راسخة من الاحترام والدعم من العلمانيين، لعبت دورًا مهمًا فى الترويج للدعوة الصليبية.

(٣)

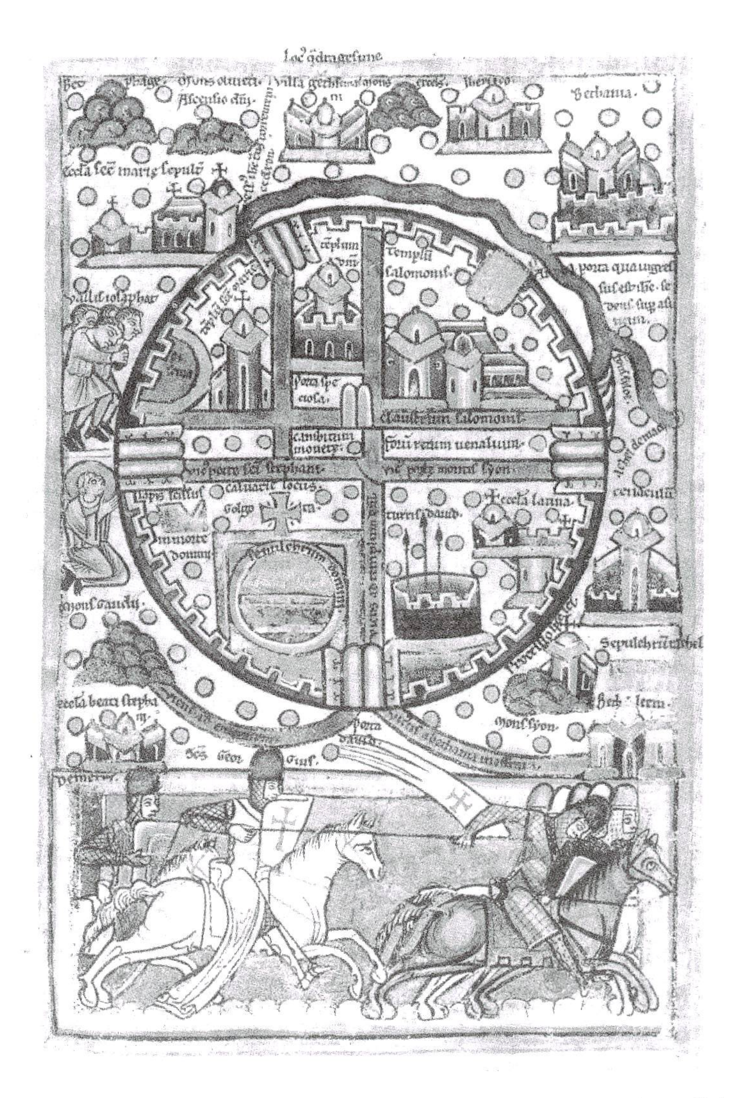
الحركة الصليبية ١٠٩٦م - ١٢٧٤م

سيمون لويد

فى أعقاب مجمع كليرمون ودعوته إلى حمل السلاح (الفصل الأول) بقى البابا أوربان الثانى فى فرنسا حتى سبتمبر سنة ١٠٩٦م. ولم تكن الحملة المزمع إرسالها إلى الشرق هى السبب الوحيد فى بقائه الممتد، ولكن أوربان كان مهتمًا بشكل طبيعى بتوفير القيادة والإرشاد فى المراحل التشكيلية لما سوف يصير الحملة الصليبية الأولى، التى كانت من خلقه هو إلى حد كبير للغاية. وتبادل الرسائل مع الأسقف أديمار أسقف لوبوى، الذى عينه مندوبًا بابويًا فى الجيش، ومع الكونت ريمون الرابع كونت تولوز، الـــذى كان ينوى تعيينه القائد العلمانى للجيش، والذى قابله مرتين على الأقل فى سنة ١٠٩٦م. وحثّ مختلف رجال الكنيسة على الدعوة إلى الصليب فى فرنسا، وكما رأينا، تولى هو نفسه القيادة بإعلان الحملة الصليبية فى عدد من المدن التى زارها خلال جولته المطولة حول جنوب ووسط وغرب فرنسا فى تلك الشهور. كما أرسل خطابات وسفارات فيما وراء حدود فرنسا، وكانت كثير منها محاولة للسيطرة على الاستجابة لخطبه التى دعا فيها إلى الحملة الصليبية.

كان قصد أوربان أن الجيش الصليبى يجب أن يتكون أساسًا من الفرسان وغيرهم من الرتب التى ستكون مفيدة من الناحية العسكرية. وعلى أية حال، فعندما انتشرت أنباء ما أعلنه فى كليرمون فى أرجاء الغرب، أخذ الرجال والنساء من جميع الطبقات ومن جميع المهن والحرف شارة الصليب، لقد فقد أوربان السيطرة فى مسألة الأفراد. وتمثلت إحدى النتائج المباشرة فى العنف المروع الذى انطلق ضد اليهود فى شمال فرنسا وحوض الراين، وكانت تلك هى المذبحة الأولى فى سلسلة من المذابح التى قيض لها أن ترتبط مع أشكال أخرى من العداء ضد اليهود ارتباطًا وثيقًا بالنشاط الصليبى فى الأجيال اللاحقة. وكثير من أولئك المسئولين كانوا ينحدرون بالضبط من تلك الجماعات الاجتماعية التى كان أوربان يرغب فى أن تبقى فى ديارها، ولاسيما عصابات الفقراء من أهل المدن ومن أهل الريف.

هذه العصابات التى كان يقودها رجال من أمثال بطرس الناسك ووالتر المفلس، كانوا هم أول من شكلوا فرقًا وأول من رحلوا فى ربيع سنة ١٠٩٦م وهم معروفون جميعًا، باسم الحملة الصليبية الشعبية تقليديًا، ولكن فى الحقيقة كانوا أساسًا مجموعات مستقلة من الفقراء، يفتقرون إلى المؤن والتجهيزات، على الرغم من أن بعضها كانت تضم فرسانا، أو حتى قادها فرسان. وإذ تدفقوا من شمال فرنسا، ومن الأراضى الواطئة، وحوض الراين، وسكسكونيا بشكل خاص، سعيًا للوصول إلى القسطنطينية، ولكن كثيراً منهم فشلوا فى الوصول إلى هناك. وكان طبيعيا أن تؤدى حاجتهم إلى الطعام وافتقارهم إلى النظام، الذى امتزج بوحشيتهم الواضحة، إلى تحذير السلطات فى الأراضى التى مروا من خلالها وعلى رأسهم البيزنطيون. وقتل



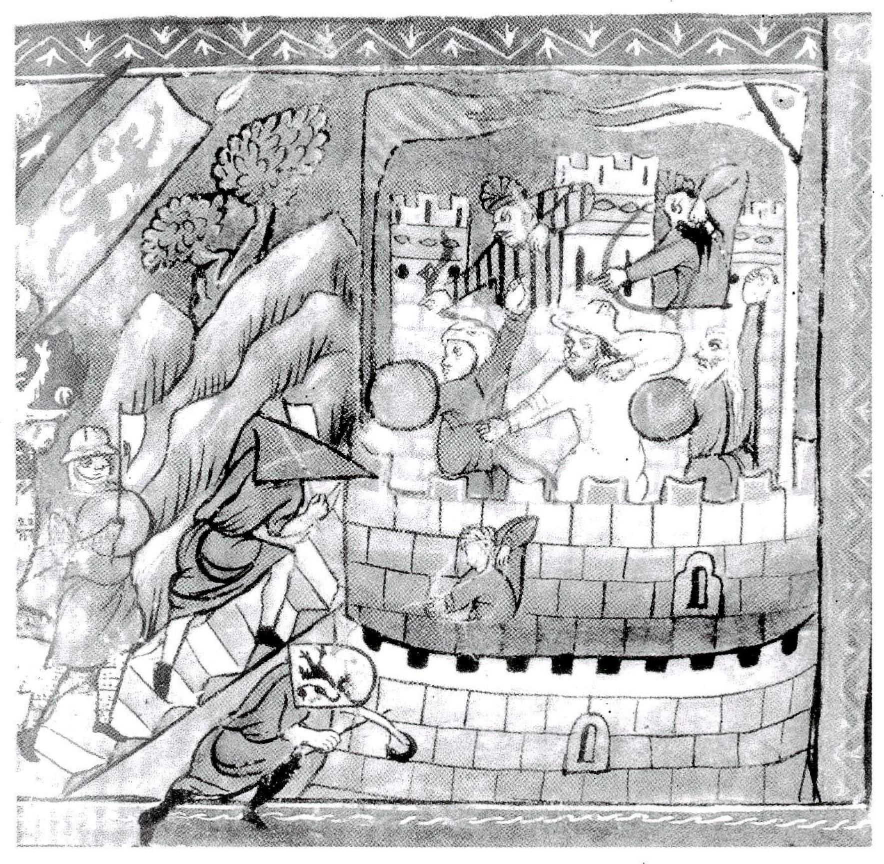
هذا الرسم التخطيطى الذى يشكل بطريقة رائعة القدس وضواحيها (حوالى ١١٧٠م) واحد من المخططات والرسوم التوضيحية الباقية للمدينة المقدسة، دليل على المكانة المهمة جدا التى شغلتها الأماكن المقدسة فى الوجدان الدينى الغربى المعاصر. وهذا الرسم مثير للاهتمام بشكل خاص حيث إنه يظهر فى الأسفل فرسانا صليبيين يدافعون عن الأماكن المقدسة ويطاردون المسلمين خارج ميدان المعركة.

الكثير منهم فى الاشتباكات المسلحة التى لم يكن منها بد. أولئك الذين وصلوا إلى القسطنطينية سرعان ما شحنتهم السفن عبر مضيق البسفور فى أغسطس سنة ١٠٩٦م، وبعد ذلك انقسموا إلى مجموعتين. وحاولت إحداهما الاستيلاء على نيقية وباءت بالفشل، إذ أحاط بهم الأتراك وقتلوا غالبيتهم؛ أما المجموعة الثانية فقد وقعت فى كمين وذبح أفرادها بالقرب من كيفتوت فى أكتوبر وفرَّ الباقون عائدين إلى القسطنطينية لكى ينضموا إلى ما عُرف باسم «الموجة الثانية» من الحملة الصليبية.

وكانت هذه بمثابة العمود الفقرى للحملة وكانت تتألف من فرق منفردة تجمعت كل منها حول واحد أو أكثر من كبار السادة الإقطاعيين، يمثلون نوع القوات العسكرية الفعالة التى كان البابا أوربان والإمبراطور أليكيوس يأملان فيها. وكانت الفرق الكبرى هى فرق كل من : الكونت ريمون الرابع كونت تولوز، التى كانت الفرقة الأكثر عدداً؛ جودفرى البويونى دوق اللورين الأدنى، وأخوه بلدوين البولونى، هيوكونت ڤيرماندوا؛ والدوق روبرت دوق نورماندى، وابن عمه روبرت كونت الفلاندرز وزوج أخته الكونت ستيفن كونت بلوا؛ وبوهيموند حاكم تارانتو وابن أخته تنكرد، الذى كان زعيماً على النورمان فى جنوب إيطاليا. وسوف يكون جودفرى وبوهيموند وبلدوين وريمون على التوالى هم السادة الأوائل على مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكيا وكونتية الرها وكونتية طرابلس. وبدأوا الرحيل صوب الشرق أواخر صيف سنة ١٠٩٦م، ليصلوا تدريجيًا إلى القسطنطينية فى أواخر تلك السنة وأوائل سنة ١٠٩٧م. وانتهت رحلتهم الشاقة فى النهاية بنجاح بعدما يزيد على سنتين عندما سقطت القدس بأيدى الصليبيين فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م. لقد كانت رحلة لاتصدق. فضد كل العوائق، وعلى الرغم من المعاناة المخيفة والحرمان، لاسيما أثناء الحصار المطول المرهق لأنطاكية ١٠٩٧-١٠٩٨م، فإنهم تمكنوا من الاستيلاء على الأماكن المقدسة. ولاعجب أن كثيراً من المعاصرين اعتبروا ذلك أمراً إعجازيًا.

وقد أدى الإنجاز المدهش الذى أنجزته الحملة جزئيًا إلى حفز رحيل «الموجة الثالثة»، وهى ما تعرف باسم حملة ١١٠١م الصليبية الأولى، ولأن الحملة الصليبية

سوف يتم تجريدها فى أى مكان آخر غير الأرض المقدسة ضد خصوم غير المسلمين- باختصار أن تبرز الحركة الصليبية لتصير أحد أهم مكونات الثقافة الغربية فى أواخر العصور الوسطى، وإحدى الخصائص المحددة لها.



حصار أنطاكية (أكتوبر ١٩٠٧- يونيو ١٠٩٨م) كان الاختبار الحرج لجيوش الحملة الصليبية الأولى. هذا الرسم مثال على مدرسة المزخرفين فى عكا قبل سقوطها سنة ١٢٩١م بوقت قصير، وهو يصور بشكل جيد القوة الواضحة لدفاعات أنطاكية، وهو أحد أسباب طول فترة الحصار.

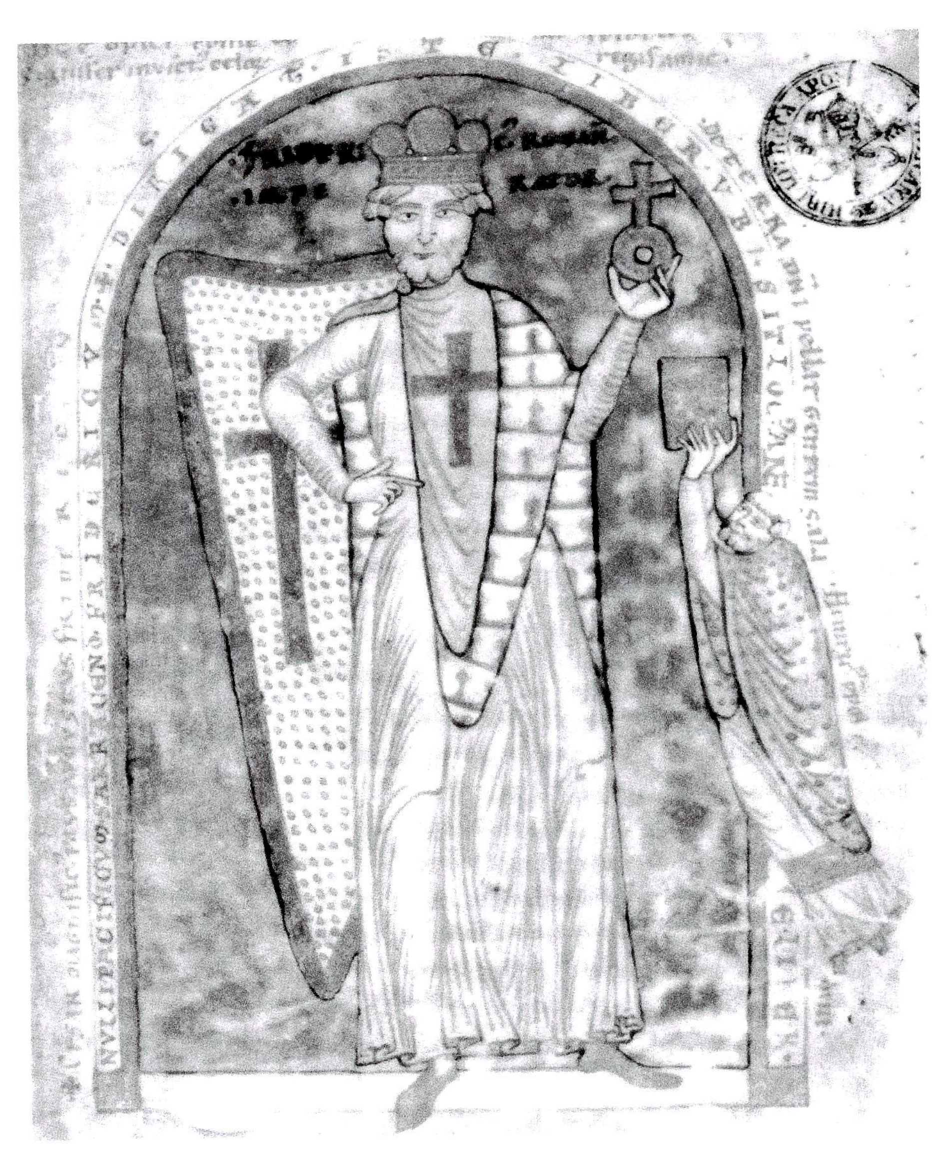


هزيمة صلاح الدين للجيش الميدانى للمملكة اللاتينية فى معركة حطين (٤يوليو ١١٨٧م) كانت كارثة على المملكة وتركتها دونما دفاع. هذا التصوير بالرسم مثير بشكل خاص لأن متى الباريسى اختار أن يجعل فقدان الصليب المقدس الموضوع المركزى. ويظهر صلاح الدين وهو يمزق الصليب الذى يحمله الملك جاى بيده.

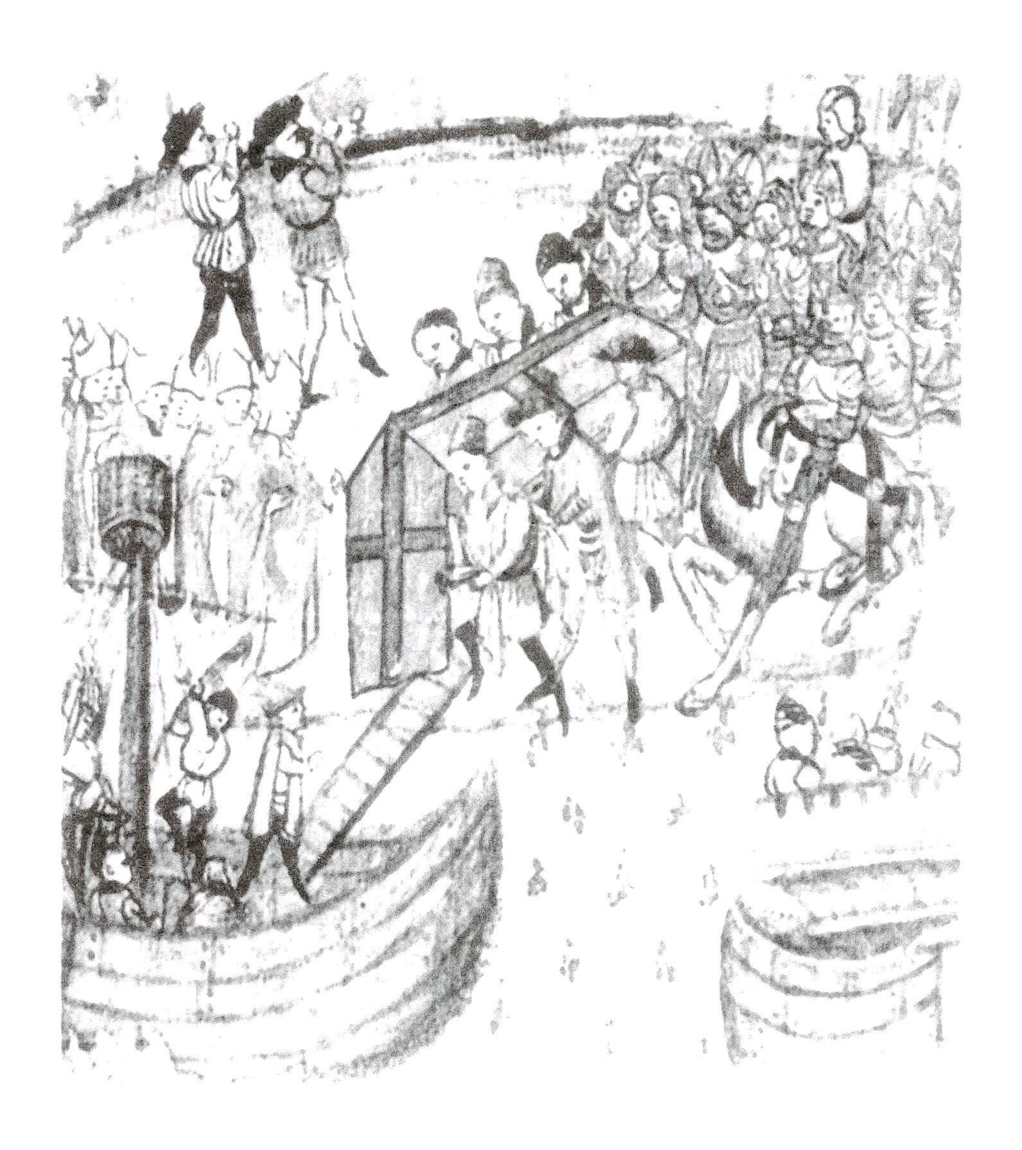
وفيما يتعلق بالحركة الصليبية باتجاه الشرق اللاتينى، كانت الظروف السياسية التى واجهت المستوطنين بعد سنة ١٠٩٩م أساسًا هى التى تتطلب حشد وإرسال المزيد من الحملات لمؤازرتهم. وثمة نموذج ترسخ فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر حيث كانت النكسة فى الشرق تستدعى الدعوات للمساعدة والنجدة من الغرب، الذى كان آنذاك منقادًا للبابوية فى شكل إعلاناتها عن الحملات الصليبية، على الرغم من أن كل المساعدة لم تأخذ شكل الحملة الصليبية وكذلك لم يكن الصليبيون فى الشرق يطلبون دائمًا حملة صليبية فى طلباتهم. هذا النموذج ينطبق على معظم الحملات الصليبية الكبرى التى صارت تحمل رقمًا بشكل تقليدى كما ينطبق على عدد كبير من الحملات الأقل والحملات التى لم يعرف بها الكثيرون التى أظهر البحث الحديث أنها كانت حملات صليبية بنفس قدر الحملات الصليبية الأوسع شهرة. (وهذا ما يجعل الترقيم التقليدى للحملات الصليبية فى غير موضعه). وقد أدى الوضع المتدهور فى الشرق إلى جمع حملة صليبية واحدة على الأقل وتوجيهها فى كل جيل طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر- على الرغم من أنها لم تكن جميعًا دعوات عالمية لحمل السلاح- أولا لمساندة المستوطنين اللاتين، ثم بعد تحرير الرها على يد الأتابك المسلم عماد الدين زنكى سنة ١١٤٤م وتحرير القدس نفسها على يدى صلاح الدين ١١٨٧م لإعادة الاستيلاء عليهما. أما الحملات الصليبية التى أعلنت لصالح الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية (١٢٠٤-١٢٦١م) التى قامت فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة التى نجم عنها نهب المدينة، فكانت تتوافق أيضا مع النموذج : بيد أن هذه الحملات الصليبية كانت موجهة بشكل رئيسى ضد البيزنطيين الذين كانوا قد تمركزوا آنذاك فى نيقية ويسعون لاستعادة ماخسروه سنة ١٢٠٤م.

وينبغى أيضًا أن نلاحظ أن هناك تغيرًا قد جرى على تناول الحركة الصليبية إلى الشرق وعلى استراتيجيتها، فقد اتخذت الحملة الصليبية الأولى الطريق البرى إلى فلسطين عبر الإمبراطورية البيزنطية كما رأينا. وكذلك فعلت قوات الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩م) التى اتجهت شرقًا، تحت قيادة ملك فرنسا لويس السابع والملك الألمانى كونراد الثالث. ولكن قوات الإمبراطور فردريك الأول «بربروسا» فى

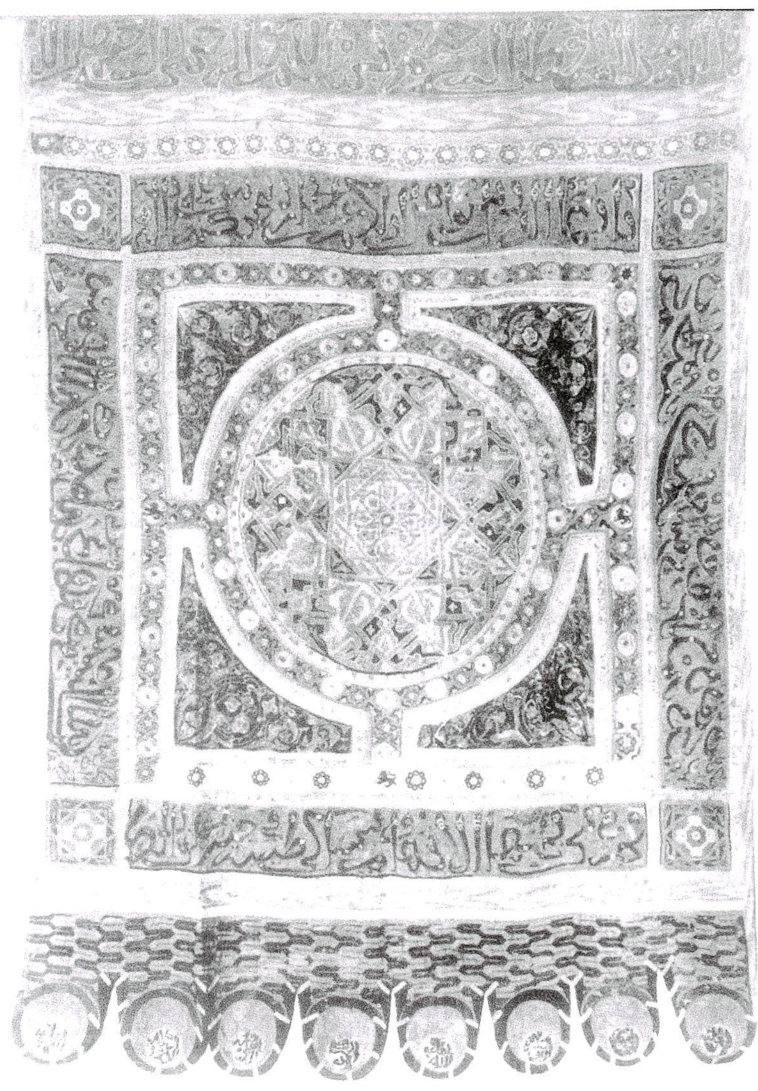
الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م) كانت المحاولة الأخيرة فى هذا الصدد ويفضل الإدراك المتأخر، كان القرار الذى اتخذه شريكاه فى الحملة؛ ريتشارد الأول ملك انجلترا وفيليب الثانى ملك فرنسا بعبور البحر المتوسط إلى الأرض المقدسة يمثل المستقبل. وعلاوة علي ذلك، حدث منذ وقت الحملة الصليبية الثالثة أن فكرة جعل مصر هدف الحملة الصليبية برزت باعتبارها بديلاً خطيراً لشن الحملات فى الشرق اللاتينى نفسه. وكان هذا معقولاً، لأن ثروة مصر وأهميتها السياسية داخل الدولة الأيوبية التى أسسها صلاح الدين الأيوبى كانت تعنى أنه لو أمكن إضعافها، أو حتى الاستيلاء عليها، يمكن إعادة بناء الشرق اللاتينى بسهولة، وكانت أول حملة صليبية ترحل بقصد واضح لتحقيق هذا هى الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤م)، ولكن حدث أن تحولت صوب القسطنطينية، وكانت القوات الأولية للحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧-١٢٢٩م) هى أول قوات تنزل على أرض مصر، فى دمياط، بيد أن كارثة حلت بهم عندما تقدموا تجاه القاهرة. كما حاق نفس المصير بأولى الحملات الصليبية للملك لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٤٨-١٢٥٤م) أما حملته الصليبية الثانية، فقد برهنت على أنها آخر الحملات الصليبية الدولية صوب الشرق قبل سنة ١٣٠٠م، وشهدت موته فى تونس سنة ١٢٧٠م.



الامبراطور فردريك بربروسا، الذى غرق فى الحملة الصليبية الثالثة قبل الوصول إلى الأرض المقدسة. وهو هنا يظهر بوصفه صليبياً يتلقى من هنرى رئيس كنيسة شافتلارن، نسخة من تاريخة روبرت الريمسى عن الحملة الصليبية الأولى، على أمل حفزه بلاشك على أن يحاكى أفعال الصليبيين الأوائل والنقش يحضه على حرب المسلمين.



لويس التاسع، ملك فرنسا، كان هو الأكثر التزامًا من بين كافة الملوك الصليبيين. ومات فى حملته الصليبية الثانية على تونس (٢٥أغسطس ١٢٧٠م) وهى آخر الحملات الصليبية الدولية الكبيرة إلى الأرض المقدسة، وكان موته علامة على نهاية عصر فى تاريخ الحروب الصليبية. وهنا صورة تبين نعشه محمولاً لوضعه على ظهر سفينة فى تونس.



معركة لاس ناڤاس دى تولوزا (١٧يوليو ١٢١٢م) كانت أكثر الاشتباكات حسماً فى تاريخ حروب المسيحية ضد المسلمين فى إسبانيا كله، بحيث أكدت على مكاسب القرنين الحادى عشر والثانى عشر، وفتحت الطريق إلى غرناطة، على الرغم من أنها لم تسقط سوى فى سنة ١٤٩٢م. وفى غمار المعركة استولى ألفونسو الثامن، ملك قشتالة والقائد المسيحى العام، على راية المعركة هذه.

وبعض الحملات الأخرى التى شهدها القرن الثالث عشر لم تبحر مباشرة صوب الأرض المقدسة، ولكن، كما اتضح من الصفحات السابقة، لم تكن الحركة الصليبية أبدًا مرتبطة بالضرورة بالمكان، فالواقع أنه يجب التأكيد على أنه فى نفس الوقت (١٠٩٦م) الذى كان الصليبيون الأوائل فى طريقهم إلى القدس، سمح أوربان الثانى بشكل واضح، بل ربما حرّض، النبلاء القطلانيين الذين كانوا قد أخذوا شارة الصليب نحو الشرق، على أن يوفوا بقسمهم فى إسبانيا. وفى مقابل مساعدة الكنيسة فى تراجونا وعدهم بغفران خطاياهم. إذن، فقد كانت الحملة الصليبية عند نفس نقطة بدايتها، كانت تُطبق فى الوقت نفسه، على يد نفس البابا على كل من طرفى البحر المتوسط ضد المسلمين (فى الأندلس وفى فلسطين). وإذا ما وضعنا هذه السابقة فى حسباننا، فليس مدهشًا أنه بعد الحملة الصليبية الأولى، صارت إسبانيا بسرعة مسرحًا للحملات الصليبية، بادئة بحملة سنة ١١١٤م وحملة سنة ١١١٨م. وقد تغيرت طبيعة معدل سرعة حرب الاسترداد Reconquista أساسًا نتيجة سلسلة الحملات الصليبية على امتداد هذه الفترة وما تلاها.

كما أنه ليس مدهشا أن الحملة الصليبية أيضا قد تم تجريدها بسرعة ضد شعوب أخرى على حدود أخرى فى العالم المسيحى الغربى. وما يلفت النظر منها خصوصا هو امتدادها إلى الصراع بين الألمان والسلاف الوثنيين إلى الشمال والشرق من حركة الاستيطان الألمانى. وكانت حرب السكسون ضد الونديين (وهم شعب سلافى فى الشرق الألمانى) قد ارتفعت إلى مستوى الحملة الصليبية أولاً على يد البابا إيوجينيوس الثالث فى سنة ١١٤٧م، على الرغم من أنه سبق هذا، فى سنة ١١٠٨م، أن كانت الخطب والبلاغة الصليبية قد استخدمت فى محاولة لتجنيد المحاربين. وبينما مضت حركة «الزحف شرقًا Drang nach Osten»، كذلك صارت الحملات الصليبية تُشن مرارًا وتكرارًا فيما وراء الألب بمرور الوقت، وعلى امتداد البحر البلطى: فى بوميرانيا، وبروسيا، وليفونيا، وإستونيا وليتوانيا وفنلندا. ومرة أخرى وفى الجنوب، تسببت وطأة الهجوم المفاجئ الوحشى من جانب المغول على أوربا سنة ١٢٤١م والذى تحمله البولنديون والمجريون التعساء فى إعلان أول حملة صليبية فى الحملات التى تم

تجريدها ضدهم. وسوف تتغير المواقف أواخر القرن الثالث عشر مع التحالف المشترك ضد المسلمين.

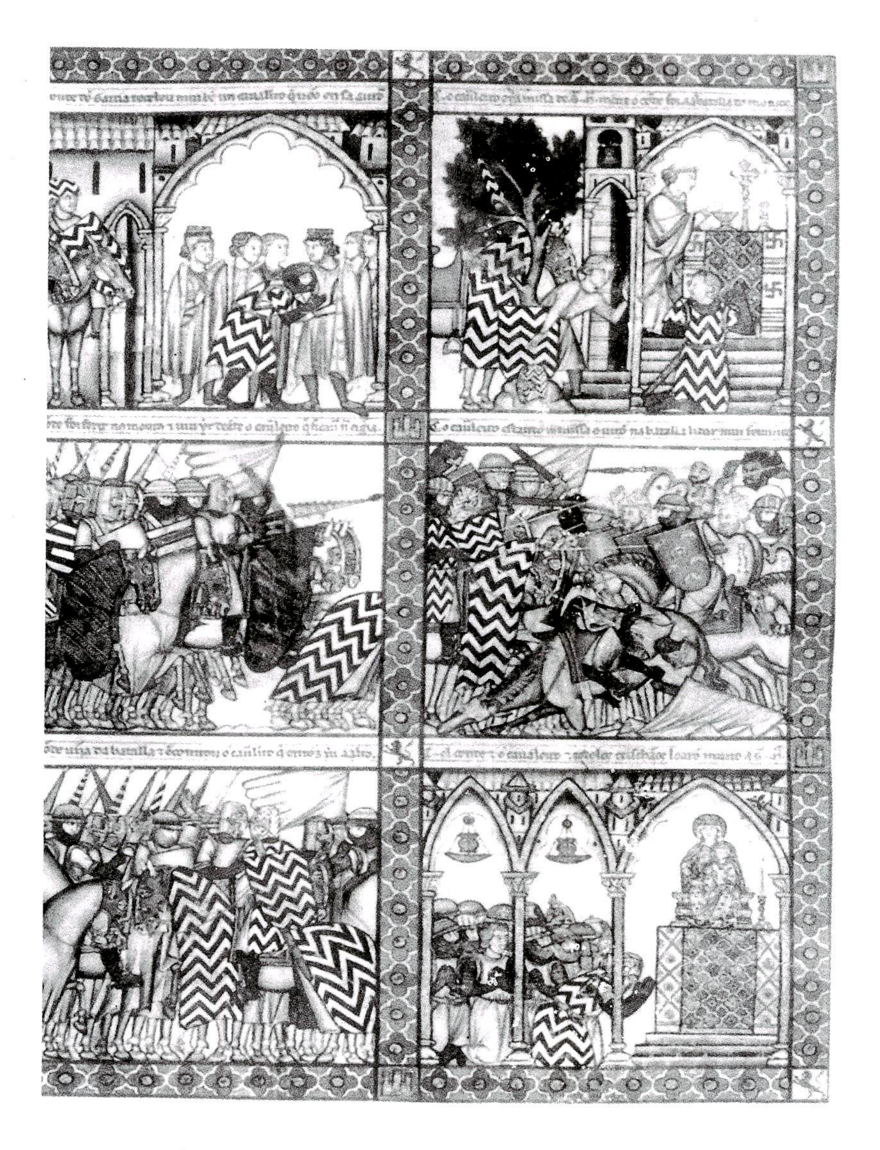
وتبقى عينتان أخريان من الحملات الصليبية ينبغى وضعهما فى الاعتبار. وكانت كلتاهما مثيرة للجدل فى زمانهما واستمرتا كذلك. وتتضمن الحملة الأولى منهما استخدام القوة ضد الخصوم السياسيين للبابوية داخل العالم المسيحى الغربى فى محاولة إزاحتهم من السلطة. وربما كان إنوسنت الثانى هو أول من أعلن مثل هذه الحملة الصليبية فى سنة ١١٣٥م، فى سياق صراعه المرير ضد روجر الثانى ملك النورمان فى صقلية. والدليل لايؤدى إلى الاستدلال الكامل، بيد أنه يشير إلى اتجاه فى التفكير والسياسة كانت له جذوره فى الحروب المقدسة التى أعلنها البابوات الإصلاحيون أواخر القرن الحادى عشر ضد أعدائهم، ولاسيما الإمبراطور هنرى الرابع الألمانى. وأيا كانت الحالة، كانت أول حملة صليبية لا لبس فيها من هذا النمط هى التى شنها البابا إنوسنت الثالث فى سنة ١١٩٩م ضد ماركوارد الآنقيلرى ومؤيديه فى صقلية، الذين كانوا يعارضون السياسة البابوية فى إيطاليا. وإذْ تمت السابقة الحاسمة، أعقبتها «حملات صليبية سياسية» أخرى. ففى إنجلترا مثلاً، تم إعلان حملة صليبية سنة ١٢١٦-١٢١٧م ضد كل من المتمردين الإنجليز الذين كانوا قد أرغموا الملك چون على قبول الوثيقة العظمى Magna Carta وحلفائهم الفرنسيين تحت زعامة الأمير لويس أمير فرنسا، الذى تم اختياره أواخر سنة ١٢١٥م ليكون ملكًا بدلاً من چون. وكانت إنجلترا، مثل صقلية، قد صارت فى ذلك الحين إقطاعية بابوية، وصار ملكها بمثابة (فصل) تابع إقطاعى للبابا، فى أعقاب خضوع چون للبابا إنوسنت الثالث سنة ١٢١٣م، ولذلك كان يمكن تبرير الفعل عندما تستخدم القوة ضد المتمردين الذين هم من الأتباع الإقطاعيين الصغار للبابا. ولكن من بين كل هذه الحملات الصليبية، كانت الحملات الصليبية الأكثر أهمية من حيث عواقبها السياسية الباقية، هى تلك الحملات التى أعلنت ضد أباطرة الهوهنشتاوفن فى ألمانيا وإيطاليا. وإذ كان الصراع ضد الإمبراطور فردريك الثانى قد وصل مرحلة حرجة للغاية، من وجهة نظر البابا، كان لابد من إعلان أول حملة صليبية ضده سنة ١٢٣٩م. وفى ذلك الحين كانت لفردريك

الثانى السيطرة على جنوب إيطاليا وصقلية وكان قد فرغ لتوه من سحق حلفاء البابا فى شمال إيطاليا وفى بواكير سنة ١٢٤٠م كان يهدد روما نفسها. وعند موته سنة ١٢٥٠م، كانت قد أعلنت حملات صليبية أخرى ضد ورثته حتى سنة ١٢٦٨م، عندما تم القبض على آخر أباطرة السلالة المكروهة، كونرادين، وتم إعدامه.

والفترة ما بين ١١٩٩م وحوالى ١٢٤٠م فترة مهمة فى تاريخ الحركة الصليبية، حيث كان قد تم التغلب أخيرا على أية موانع فى الدوائر البابوية تعارض استخدام الحملة الصليبية ضد الخصوم السياسيين. كذلك شهدت الفترة نفسها تحولاً فى سياق آخر مع ظهور الحملات الصليبية ضد المنشقين. ومرة أخرى هناك مؤشرات واضحة على أن مثل هذا الفعل كانت نُذره قد لاحت على يد البابا إنوسنت الثالث، وهو البابا الذى استفز أخيراً سنة ١٢٠٨م بحيث أعلن شن حملة صليبية ضد أتباع المذهب الكاثارى المنشق فى جنوب فرنسا، والذى كان قد رسخ بقوة فى ذلك الحين. والحملة الصليبية الألبيچنسية سيئة الصيت التى فشلت فى اجتثاث الهرطقة ولكنها دمرت الكثير من النسيج الثقافى والاجتماعى والسياسى فى لانجدوك، استمرت بشكل عرضى على مدى السنوات العشرين التالية. ومرة أخرى، أرسيت السابقة، بحيث صار أسهل كثيراً شن الحملات الصليبية ضد المذاهب الكنسية المنشقة، مثل الحملات ضد هراطقة ستدينجر فى ألمانيا سنة ١٢٣٢م، وضد الهراطقة البوسنيين سنة ١٢٢٧م وسنة ١٢٣٤م.

وباختصار، وفيما يتعلق باستخدام الحملات الصليبية، يمكننا أن نميز ونرصد عملية تطور من زمن الحملة الصليبية الأولى. فقد كان أوربان الثانى يرى فرقًا ضئيلاً فى الجدارة التى يمكن كسبها من السعى لإنقاذ الشعب المسيحى والأماكن المسيحية من الضغط الإسلامى فى إسبانيا وشرق البحر المتوسط، وكان يعتبر الحملة الصليبية بمثابة أداة مناسبة للوصول إلى هذه الغاية فى كل من المنطقتين، وتوصل خلفاؤه إلى المنطق فى ذلك الوضع ومدوه ليشمل الخصوم الآخرين للكنيسة. ومجال الحملة الصليبية الثانية، حسبما تطورت فى الممارسة الواقعية، يوضح هذا بشكل تصويرى

واضح فيما يتصل بحدود الغرب: ففى الوقت نفسه كانت العمليات الصليبية توجه فى إسبانيا والبرتغال، وشمال شرق أوربا،كما فى بلاد الشام، وحدثت طفرة كبرى أخرى تحت حكم البابا إنوسنت الثالث مع أول استخدام للحملة الصليبية ضد الهراطقة والخصوم السياسيين للبابا. فقد كان يمكن، وحدث فعلاً، تصوير الهراطقة والخصوم السياسيين للبابوية فى صورة من يضطهدون المسيحيين والكنيسة الأم. ونفس هذا الإطار التبريرى، والعاطفة والتصوير الذى استخدم فى مراسيم البابوية لإعلان الحملة الصليبية ضد المسلمين، أو السلاف، أو المغول، استخدم فى الدعوات إلى الحملات الصليبية ضد أباطرة الهوهنشتاوفن أو الهراطقة الكاثاريين. وكان الأعداء بالداخل يشكلون تهديداً لايقل عن التهديد الذى يمثله العدو فى الخارج؛ والواقع أنه حسبما أكد البابا وغيره كثيراً، أنهم كانوا أشد خطراً. لقد كانت الحملات الصليبية ضد هؤلاء الأعداء تُعتبر أكثر ضرورة من الحملات الذاهبة إلى الأرض المقدسة بالتالى. فالحملة الصليبية، أقوى سلاح فى ترسانة البابوية القوية، ظهر باطراد فى ذلك الحين باعتباره أداة يمكن استخدامها حسبما يرى البابوات وفى الوقت الذى يرونه مناسباً، وضد من يرون أن استخدامها مناسب ضده وحيثما يرون أنها مناسبة. وبحلول منتصف القرن الثالث عشر، كانت هذه الحقيقة بلا نزاع، ولكن ينبغى التأكيد على أنه لم يحدث بأية حال أن كان كل المعاصرين راضين عن كل جانب من جوانب هذا التطور الواسع، لقد كانت السياسة البابوية شيئًا، والرأى العام شيئًا آخر.



منظر معركة فى مجرى حرب الاسترداد Reconquista الإسبانية من عمل أنتج من أجل ألفونسو الخامس ملك قشتالة (١٢٥٢-١٢٨٤م) الذى كان هو نفسه صليبيًا بارزا. مباركة القوات قبل المعركة وصلوات الشكر التى يؤدونها للأم المقدسة وطفلها فيما بعد تكشف عن السياق الدينى لحرب الاسترداد الإسبانية.

وإذا كانت الحملة الصليبية هدفًا متحركًا عبر الزمان والمكان بحسب من سيجرى شنها ضده وفى أى مكان، فإنها إذن كانت تعتبر مؤسسة بالنظر إلى المحتوى، والجوهر والعُدة التى جهزت بها، وهذا ما يمكن أن نراه بوضوح فى حالة المزايا الروحية والزمنية للحملات الصليبية، بيد أننا يمكن أن نرى نموذجًا ثوريًا عريضًا مشابهًا، مثلاً، فى الطريقة التى كان يتم بها التخطيط للحملة الصليبية والدعوة إليها، وكيفية تمويلها وتنظيمها. وعند نهاية هذه الفترة كانت الحملة الصليبية قد صارت عملاً كبيرًا ومركبًا «شغل وأعمال الصليب» حسبما كانت توصف فى ذلك الزمان. وبعض الجوانب الرئيسية فى هذا سوف نضعها فى اعتبارنا فيما يلى.

التأسيس والدعوة

كان الجوهر فى عملية تأسيس كل الحملات الصليبية يتكون من الإعلان البابوى للحملة المقصودة لأن البابوات وحدهم كانوا يمتلكون السلطة اللازمة لإعلان حملة صليبية وتقديم الامتيازات الروحية والمادية التى يتمتع بها الصليبيون، ولكن الإعلان وحده كان نادرًا ما يكفى لتحريك الرجال والنساء لأخذ الصليب إذ كانت هناك حاجة لإجراءات إضافية. وحسب رواية عن مجمع كليرمون، أصدر البابا أوربان الثانى إلى القساوسة المجتمعين بإعلان ما قاله فى جميع الكنائس بأسقفياتهم والدعوة إلى الصليب وأعلن هو نفسه الحملة الصليبية فى سياق رحلته حول فرنسا، كما أرسل وكلاء مخصوصين للدعوة إلى الحملة فى أماكن بعينها. ولاتوحى الأدلة بأن آمال أوربان قد تحققت تمامًا فى الممارسة، على أية حال، لأن القساوسة كانوا يفتقرون إلى الوسائل للدعاية للحملة الصليبية والإعلان عنها بسهولة وبشكل تلقائى فى جميع أنحاء أسقفياتهم، فقد كانت البنى الإدارية الكنسية لا تزال بدائية، كما أن الافتقار إلى مرسوم صليبى أصلى رسمى لم يكن من عوامل التشجيع فى هذه الأمور. والدعوة أيضا كانت لا تزال فى طورها البدائى، وكانت تصرفًا غير مألوف بالنسبة لغالبية رجال الكنيسة. بيد أن الحملة الصليبية الأولى قدمت النموذج وإن كان بدائيًا، الذى

سوف يكبر باطراد ويمتد فى مجرى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر فى محاولة للوصول بتأثير الدعوة الصليبية إلى أقصاه، مع بقاء نشر الإعلانات البابوية والدعوة المحلية مكونات أساسية وهذا ما سندرسه بدوره.



أوربان الثانى يدعو إلى الحملة الصليبية الأولى عن الخلاص الذى سيقدمه المسيح وموته فى القدس، حيث تخيلت الرسوم أن الأماكن المقدسة وقد دنسها المسلمون الذين صورتهم يعبدون الأصنام. وهناك حاج أو صليبى يتعبد فى الضريح المقدس هدف الحملة الصليبية، ومرجعها هو حادثة الصلب المرسومة أعلى يسار الصورة.

لم يصدر مرسوم رسمي ببدء الحملة الصليبية الأولي. ومن هنا تكون هذه حملة غير عادية، إذ كان يتم الإعلان عن معظم الحملات الصليبية الأخرى بمنشور صليبى عام، تم إرساء صيغته الأساسية فى منشور الحملة الصليبية الثانية Quantum Praedecessores (١١٤٥م) ؛ وهذه الصيغة عبارة عن جزء أول سردى يشرح ضرورة شن الحملة الصليبية، ثم يحضٌ على أخذ الصليب وقائمة بالمزايا التى يحصل الصليبى عليها. ويتضح من خطابات سان برنار الكليرڤوى المكلَّف بالدعوة إلى الحملة، ومن أدلة أخرى أنه كان من المفروض تعميم المرسوم، بيد أن النشر يبدو أنه كان عشوائيًا فى الممارسة الفعلية ولم يحدث سوى فى بابوية الكسندر الثالث أن بُذلت المحاولة الأولى لتعميم مراسيم الحملات الصليبية بشكل منتظم محليًا، وكان عنصر الحسم فى ذلك يتمثل فى التكليفات المباشرة الصادرة إلى القساوسة المحليين. وفى سنة ١١٨١م بصفة خاصة، وجَّه البابا تعليماته إلى جميع القساوسة بأن يتأكدوا من أن مرسومه الصادر بشأن الحملة الصليبية Cor nostrum قد تم نشره وتعميمه فى جميع الكنائس وأن يعلنوا الامتيازات الصليبية على المؤمنين، وربما كان هذا يتحقق بإنتاج نسخ من الخطاب فى الكنائس الأسقفية المحلية، ثم توزع بعد ذلك على الكنائس المفردة فى الأسقفية المعنية، وعلى أية حال، بات هذا هو الإجراء المعتاد فى القرن الثالث عشر، ويمكن أن نرصد فى أمثلة قليلة الترتيب الدقيق من البلاط البابوى إلى كبار الأساقفة فى الأقاليم، ومنها إلى الأساقفة التابعين لهم، ونزولاً فى سلم الهيراركية إلى مستوى الكنيسة الأبرشية. والعملية برمتها مؤشر على التعقيد المطرد فى بنية الإدارة الكنسية (وهو ما صار متاحًا من خلال تطبيق المعرفة بالقراءة والكتابة فى فنون الحكم بدرجة أكبر عن ذى قبل) كما أنها مؤشر على التقدم الحاصل فى إرساء مركزية الكنيسة تحت الحكم الفردى البابوى، ففى ذلك الحين كان يعهد إلى القساوسة المحليين بالتصرف فى مسألة الحملة الصليبية، وغيرها من الأعمال، بطريقة أكثر تنظيمًا ووثوقًا عما كان متاحًا فى سنة ١٠٩٥م. ويصدق هذا بنفس القدر على الدعوة إلى الحملة الصليبية.

وربما يمكن التمييز بين نمطين من الدعوة الصليبية بحسب المناسبة، والجمهور، والغرض. كان الأول منهما هو الدعوة أمام الاجتماعات الكنسية أو اجتماعات الدولة، وكان مجمع كليرمون هو النموذج النمطى. وتتضمن النماذج اللاحقة دعوة إنوسنت الثالث للحملة الصليبية أمام مجمع اللاتيران الرابع (١٢١٥م) ودعوة إنوسنت الرابع وجريجورى العاشر للأعيان فى مجمع ليون الأول ومجمع ليون الثانى (١٢٤٥ و ١٢٧٤م). وأمام الاجتماعات العلمانية نجد مثالين شهيرين هما دعوة سان برنار أمام لويس السابع وكبار فرنسا فى ڤيزيلاى سنة ١١٤٦م، ودعوته الدرامية فى بلاط كونراد الثالث ملك ألمانيا فى عيد الميلاد السنة نفسها. والواقع أنه صار من المعتاد تمامًا للمبشرين الداعين إلى الحملة الصليبية أن يستفيدوا من مثل هذه المناسبات، وكذلك من التجمعات الترفيهية مثل مبارزات الفرسان، فى محاولة لضمان أن يقسم الرجال المهمون من بين الحضور على الذهاب فى الحملة الصليبية، ولكى يقوموا بحملات تعبئة على نطاق أوسع، وكثيرا ما حدث منذ الحملة الصليبية الثانية أن حاولوا إعلان أخذ أمير ما شارة الصليب على العموم. وكثيرًا ما كانت الدعوة عبارة عن مسألة إخراج مسرحى تم التخطيط لها قبل أسابيع أو شهور ولايتركون سوى القليل للصدفة. ومثال البرلمان الذى انعقد فى باريس فى مارس سنة ١٢٦٧م مثال جيد على هذا. فهناك أقسم لويس التاسع قسمه الصليبى الثانى، وتبعه فى الحال ثلاثة من أبنائه وغيرهم من المقربين إليه، وكانت الذخائر المقدسة الخاصة بآلام المسيح فى حوزته قد عرضت على الجمهور عن قصد بهذه المناسبة: وكان قد أعلم البابا سرًا بمقاصده فى سبتمبر السابق.

كانت الدعوة من هذا النمط موجهة إلى أعلى شرائح المجتمع وبقصد أن تتناقض مع الرتابة المضجرة التى تجرى فى الميدان. وهنا نرى التقدم الحقيقى الذى تحقق بعد كليرمون. وحتى أواخر القرن الثانى عشر، تشير كل الدلائل إلى أن الدعوة المحلية كانت عشوائية وغير منظمة تفتقر إلى التنسيق المركزى.



فولك النويللى (مات سنة ١٢٠٢م) كان واحداً من أكثر المبشرين الصليبيين غيرة وحماسة وإلهامًا. وقد كلفه البابا إنوسنت الثالث بالدعوة إلى الحملة الصليبية الرابعة، ويظهر فولك هنا يدعو إلى الحملة الصليبية فى شمال فرنسا

وجاءت القفزة الكبيرة إلى الأمام فى بابوية إنوسنت الثالث. فقد حدث بالفعل فى سنة ١١٩٨م أن تم إنشاء منصب تنفيذى عام جديد لأعمال الصليب من أجل الحملة الصليبية الرابعة، وتم تعيين واحد أو أكثر من الموظفين التنفيذيين فى أقاليم كنسية معينة من أجل تكوين الحملة وغير ذلك من الأغراض. ومعهم كان يعمل المبشرون المستقلون مثل فولك النويللى الشهير. وفى سنة ١٢١٣م، ومن أجل الحملة الصليبية الخامسة، تم طرح بنية أكثر توسعًا. إذ تم تأسيس مجلس تنفيذى، فى كل منطقة تقريبا، وله صلاحيات قانونية فى مسألة الحملة الصليبية ولتطبيق سياسة تطويرية، وكان المندوبون الذين عينوا فى الأسقفيات المفردة والمطرانيات داخل الإقليم المعنى. وللمرة الأولى، تم إرساء الخطوط العريضة فيما يتعلق بكيفية الدعوة إلى الصليب. ولم تستخدم هذه البنية العالمية مرة أخرى على الرغم من أنها أرست النموذج لحملات

التعبئة الصليبية الأخرى فى بعض المناطق، مثل إنجلترا، وبدلاً من ذلك كان خلفاء إنوسنت أكثر براجماتية ومحددين فى تناولهم للأمور، وتحكمهم جزئيًا الظروف السياسية فى الغرب بيد أنه ليس هناك شك فى أنه، بعد بابويته، كانت التعبئة المحلية قد صارت أكثر تماسكا وكثافة عما كانت عليه من قبل.

أما التطور الرئيس الثانى فكان يتعلق بالأفراد المبشِّرين، فقد كان يمكن دعوة أى رجل كنيسة، قسيسًا كان أو راهبًا، للتبشير بحملة الصليب، على الرغم من أنه يبدو أن قساوسة الأبرشيات العاديين نادرًا ما كانوا يقومون بذلك. كان هذا هو الحال فى القرن الثانى عشر، وظل كذلك فى القرن الثالث عشر، وإنما مع اختلافين مهمين، أولهما أن التبشير الذى يقوم به المندوبون البابويون، والقساوسة وغيرهم من الأعيان صار أكثر محدودية بعد الحملة الصليبية الخامسة : فقد كان محدودًا فى إطار تلك المناسبات التى يتم الإعداد لها سلفًا وفى حدود شن حملات التعبئة فى أقاليم مفردة أو فى أسقفيات مفردة. وبدلاً من ذلك، حدث بشكل مطرد أن صار العبء واقعًا على كاهل الرهبان المتسولين، مثل الفرنسيسكان والدومينيكان، بعد أن رسخا فى سائر أنحاء العالم المسيحى فى عشرينيات وثلاثينيات القرن الثالث عشر. وفيما بعد حملوا مسئولية التبشير المحلى. وكانوا مجهزين بشكل يدعو إلى الإعجاب للقيام بالمهمة: فقد كانوا مبشرين محترفين بفضل مهمتهم الرسولية، وكانوا يبشرون على أسس منتظمة بين جماهير العامة بخلاف الرهبان المنغلقين فى الديرية التقليدية ؛ فقد كانوا على درجة جيدة من التعليم ؛ كما كانت بيوتهم الديرية تنتشر فى جميع أرجاء الغرب، وهو ما جعلهم يمتلكون شبكة من المراكز التى كان يمكن منها توجيه التبشير المحلى بسهولة كبيرة.

وبعد الحملة الصليبية الثالثة، حدث أن صار التبشير المحلى مخططًا مسبقًا بشكل محكم فى محاولة لتحقيق أقصى تغطية ممكنة، والاستفادة الكاملة من الموارد، وتجنب الازدواجية فى الجهد. ومن حين لآخر، كانت المشكلات السياسية تثور لكى تؤدى إلى تعقيد الأمور، ولكن حملات التبشير نادرًا ما كانت خبط عشواء. فقد كان يتم

ندب الوكلاء الأفراد لكي يبشروا بالحملة الصليبية في أماكن معينة أو في مناطق مخصوصة. ولكي يتم هذا بشكل منتظم، كان يتم الاعتماد على الجولات المخطط لها، وأول جولة موثقة جيداً من هذا النمط كانت تلك التي قادها بلدوين الفوردي، كبير أساقفة كانتربوري، إلى ويلز سنة ١١٨٨م. وكانت الجولات الممتدة مثل هذه قد صارت نادرة في القرن الثالث عشر، وكان من بين أسباب ذلك ما قام به إنوسنت الثالث من إعادة تنظيم كما كان من أسباب ذلك أن المناطق الموكلة إلى أي مبشر فرد قد صارت أقل عندما كان المزيد من الأفراد، ولاسيما الإخوة الرهبان يمارسون عملهم على الأرض. وقد صار نمطياً في أواخر القرن الثالث عشر، أن يكون راهب واحد مسئولاً عن التبشير في مطرانية واحدة أو اثنتين، ولكن حتى في ذلك الحين كان عليه أن يقوم برحلة وجولة لكي يضمن التغطية المنتظمة، وكان التبشير الذي يقوم به ينصبُّ أساساً على المراكز الحضرية، وعلى القرى الكبيرة في المناطق الريفية. وكان هذا ملموساً إذا ما وضعنا في الحسبان مناطق تمركز السكان والعدد المحدود من المبشرين الذي كان متاحاً. فقد كانوا يذهبون، حتماً، إلى أماكن يتوقعون فيها نتائج طيبة. وكانوا في تبشيرهم يلقون المساعدة من القساوسة، الذين كان يتم إرسال إشعارات مسبقة إليهم بأن الإخوة الرهبان ينوون التبشير في يوم محدد ومكان محدد. وكان يتم إجبار قساوسة الأبرشيات ورعاياهم على الحضور تحت وطأة التهديد باللوم الكنسي. وإذا كانت هذه هي العصا، فقد كانت الجزرة قد اتخذت شكل الغفران الجزئي الذي يُمنح لأولئك الذين يحضرون الخطب. وقد صار هذا ممكناً للمرة الأولى على يد إنوسنت الثالث. وكان عدد الأيام المخصصة للتكفير عن الخطايا قد ارتفع إلى مدة أقصاها سنة واحدة وأربعين يوما عند نهاية القرن الثالث عشر.

كان الاتجاه إلى تكثيف جهود التبشير المحلي متوازياً مع التطورات التي جرت على فن الدعوة إلى الحملة الصليبية نفسه. فقد بقيت معظم الموضوعات التي استخدمها البابوات، والأساقفة والرهبان كما هي إلى حد كبير منذ مجمع كليرمون فصاعداً، وهو أمر لايثير الدهشة، ولكن منذ أواخر القرن الثاني عشر تطور التبشير بشكل شامل تماماً، لاسيما مع التأكيد الجديد على التبشير الشعبي. وكان هذا

مصحوبًا بنمو ملحوظ فى إنتاج المساعدات للمبشرين الذين يخاطبون جماهير العامة بشكل منتظم: مجموعات من نماذج الخطب، كتب عن الموضوعات، مجموعات من الأمثلة، وهلم جرا. وكان التبشير بالحملة الصليبية بالتحديد محكومًا بشكل عميق بهذا التطور، مع إنتاج نماذج خطب الحملات الصليبية، مثلا، الكتب التى صُممت لمساعدة المبشر فى مهمته، وكان أكثرها شعبية هى تلك المجموعة التى جمعها الراهب الدومنيكانى هيومبرت الرومانسى حوالى سنة ١٢٦٦-١٢٦٨م وهى مسح مرهق جمع فى عمل واحد تلك المواد والمجادلات التى اعتبرها، بوصفه مبشرًا صليبيًا سابقًا هو نفسه، الأكثر فائدة. وإذ كان المبشرون بالحملات الصليبية فى القرن الثالث عشر مسلحين بهذا النوع من المواد، فإنهم كانوا أفضل تجهيزًا بكثير ممن سبقوهم. وفى هذا الصدد أيضا، صارت تعبئة الحملة الصليبية أكثر احترافًا.

وكانت نتيجة التطورات التى عرضنا لخطوطها العريضة فى السطور السابقة هى أنه بحلول أواخر القرن الثالث عشر كانت الكنيسة قد وسعت بنجاح من وسيلة توصيل الدعوة الصليبية إلى كافة أجزاء الغرب، من خلال نشر تنظيم للمراسيم الخاصة بالحملات الصليبية والامتيازات التى تحتويها، وباستخدام المبشرين المحليين المؤهلين بشكل أفضل عن ذى قبل للتبشير بين الناس. وكان يمكن أن تكون هناك قلة قليلة تجهل السياسة الصليبية الجارية نتيجة لهذا، وهو إنجاز يكشف عن التعقيد الذى وصلت إليه كنيسة القرن الثالث عشر كما يعكس سلطة ونفوذ الملكية البابوية. وعلى أية حال، فإن البابوية حتى فى قمتها تحت حكم إنوسنت الثالث لم تمتلك ناصية الأمور حسب طريقتها تمامًا على الإطلاق. فعلى سبيل المثال، منذ سنة ١٠٩٥م فصاعدًا، تعلق عدد من المبشرين الذين يعملون على هواهم، ولاسيما ذوى الميول الألفية منهم، بالحملة الصليبية، وقد رأينا النتيجة فى عصابات الفقراء فى الحملة الصليبية الأولى، أو ما يسمى صليبية الأطفال سنة ١٢١٢م، أو صليبية الرعاة سنة ١٢٥١م. ويمكن أن نرى قصور الملكية البابوية فى الممارسة فى الصعوبات التى واجهت البابوات وهم يسعون إلى إقامة السلام فى الغرب، والذى كان أمرًا حيويًا فى تعبئة الحملة الصليبية. وعلى سبيل المثال، ومنذ سبعينيات القرن الثانى عشر سعت سلسلة من البابوات المتتابعين

لإقامة السلام بين ملوك فرنسا وإنجلترا المتحاربين بمثابرة لصالح الشرق اللاتينى، ولكن تأثيرهم كان قليلاً. إذ لم يكونوا يخرجون فى الحملة الصليبية إلا عندما يكون ذلك مناسبًا لهم.

الأفراد والتجنيد

وفقًا لأحد التقارير عن مجمع كليرمون، كان أوربان الثانى يسعى بنشاط لإثناء المسنين والعجزة، والنساء والقساوسة والرهبان عن أن يقسموا القسم الصليبى، وهى وقفة أكدتها الوثائق الباقية. فقد كان يعرف أن المساعدة الفعالة للمسيحيين فى الشرق لن تأتى من غير المحاربين، مهما كانت حماستهم، وإنما من الطبقات العسكرية فى المجتمع. لقد كانت شئون الحرب للمحاربين، ولم تكن الحرب المقدسة استثناء فى ذلك، وكان ينبغى على الطبقات الاجتماعية الأخرى أن تحجم عنها. وعلاوة على ذلك، كان لمثل هؤلاء الناس التزامات أولية ومسئوليات تجعلهم غير مؤهلين للقيام بالحملة الصليبية. وعلى سبيل المثال، إذا كان لقس أن يذهب فى حملة صليبية، فإن خلاص أرواح رعيته الأبرشية لابد وأن يتعرض للخطر، على حين كان الرهبان مرتبطين بالقسم الذى قطعوه على أنفسهم بالحرب الروحية لا الحرب الدنيوية لصالح الجميع، ناهيك عن أن رجال الكنيسة كانوا ممنوعين من حمل السلاح. وقد حافظ بابوات القرن الثانى عشر على هذا الموقف، ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك. فقد أخذت أعداد كبيرة من غير المقاتلين شارة الصليب ورحلوا، لاسيما فى الحملات الصليبية المتوجهة إلى الأرض المقدسة، وسببوا بذلك مشكلات هائلة. ولاسيما أنهم فرضوا أعباء لاتحتمل على إمدادات الطعام المتاحة، وأسهموا فى تفاقم مواقف المجاعة، إن لم يكونوا قد تسببوا فيها، وهى المواقف التى طرأت أثناء المسير إلى الشرق وما نتج عن ذلك من ارتفاع أسعار المواد الغذائية. كما أنهم خلقوا مشكلة رئيسية للنظام والانضباط، وأسهموا كثيرًا فى الشقاق والاحتكاك المتنامى مع البيزنطيين، الذين كان يفترض أنهم حلفاء الصليبيين، وكانوا طول الوقت يستهلكون موارد كان يمكن أن تكون متاحة أمام آخرين أكثر فائدة منهم.

وهذا أمر شديد الوضوح من تقارير شهود العيان فى الحملة الصليبية الأولى والثانية، كما أن التجربة دفعت الملوك الذين قادوا الحملة الصليبية الثالثة إلى اتخاذ خطوات لمنع مشاركة جماهير غير المحاربين، بيد أنهم لم ينجحوا هم أو قادة الحملات الصليبية اللاحقة نجاحًا تامًا فى هذا : فقد كانت الامتيازات الصليبية وهالة الأماكن المقدسة قوية جدا بحيث أن الحركة الصليبية، تجاه الشرق اللاتينى على الأقل، احتفظت بجاذبيتها الشعبية الشديدة. وهذا مؤشر آخر على الحدود العملية للسلطة البابوية، يتجلى أمامنا بصورة أوضح عندما نضع فى حسباننا الانحراف الحاد الذى حدث فى بابوية إنوسنت الثالث فى السياسة البابوية بشأن القسم الصليبى.



أثناء القرن الحادى عشر انتشر بسرعة مفهوم أن المجتمع يتكون من ثلاث طبقات تتبادل المساندة : أولئك الذين يحاربون، وأولئك الذين يعملون، وأولئك الذين يصلون، كما هو مرسوم هنا. والفكرة الكامنة وراء سياسة البابوية بخصوص أفراد الحملات الصليبية. فأولئك الذين يصلُّون ويعملون ينبغى أن يبقوا فى الديار، ويجب أن تكون مشاركتهم لأولئك الذين يحاربون لصالح الجميع هى الصلوات وثمار العمل.

وطوال القرن الثانى عشر، كان البابوات بصورة عامة صارمين فيما يخص الوفاء الشخصى بالقسم، وكانوا يسمحون بالتأجيل والاستبدال، أو الإعفاء فى ظروف خاصة فقط، مثل العجز والمرض أو الفقر الذى يحيق بالشخص المعنى. وفيما عدا ذلك، كان يتوقع من القادرين جسديًا الوفاء بقسمهم وإلا تعرضوا للوم الكنسى، وفى سنة

١٢١٣م، على أية حال، دشن إنوسنت الثالث تغيرا جذريًا فى السياسة بشأن تجنيد الصليبيين للحملة الصليبية الخامسة. وإذ قدَّر المشكلات العملية الناجمة عن وجود أعداد كبيرة من غير المحاربين فى الحملة، حكم بأن أى شخص، باستثناء الرهبان فقط، يمكنه أن يأخذ شارة الصليب أنذاك، بيد أن هذا القسم يمكن الإعفاء منه، أو تأجيل الوفاء به، أو استبداله عندما يكون ذلك مناسبًا. وقد سعى خلفاؤه إلى أن يجعلوا تطبيقات هذا جيدة فى واقع الممارسة، وبحلول منتصف القرن الثالث عشر كان هناك نظام للإعفاء من القسم الصليبى فى مقابل المال قد تأسس، وكان جوهره جمع النقود فى مقابل الحصول على الغفران الصليبى. وصار بوسع أى أحد أن يأخذ شارة الصليب، بغض النظر عن قيمته فى ميدان المعركة، ولكن كان يتم حث الغالبية العظمى على دفع المال مقابل الإعفاء من القسم، بل كانوا يُجبرون على هذا. وكانت النقود التى يتم جمعها حينذاك تذهب إلى دعم أولئك الذين تجعلهم مؤهلاتهم الأفضل فى فن الحرب. لقد كان ذلك تطورًا لم يكن ليحدث لو لم تكن الإدارة الكنسية قد وصلت إلى درجة من الكفاءة والكثافة وكذلك لو أن حجم العملات المتداولة عمومًا لم يكن قد زاد بدرجة كافية من خلال النمو القوى للاقتصاد الأوربى.

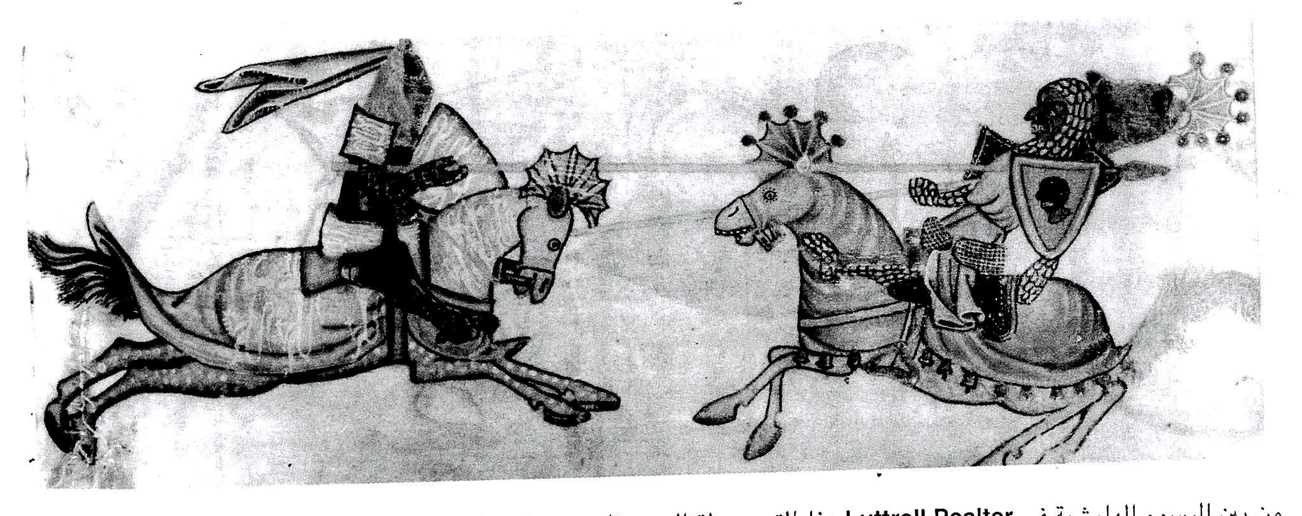
وكان أولئك المؤهلون أفضل من غيرهم لشن الحرب الصليبية يأتون، طبعًا، من الطبقات العسكرية فى الغرب: أى أولئك الذين يحوزون درجة الفارس وما فوقها، طبقة السادة (وفى المصطلحات العسكرية الخالصة، الفرسان الثقيلة) ومساعدوهم التكتيكيون. وكان هؤلاء الأخيرون يتضمنون ضباط الصف من الراكبين والمشاة، ورماة النشب، ومهندسى الحصار، وهلم جرا. والبعض الآخر من الشرائح غير العسكرية فى المجتمع، تكون هناك حاجة إليهم لأغراض محددة: مثل القساوسة لإدارة الصلوات والشعائر، ولأنهم متعلمون لإدارة الشئون الإدارية، أو التجار لإمداد الجيش. ولكن يبدو واضحًا أنه بينما كان الزمن يمضى كان مثل هؤلاء الأفراد، ومعهم الجراحون، وغلمان الاصطبل وغيرهم يتحولون إلى المشاركة باعتبارهم أعضاء فى منزل السيد الصليبى، وكان من الواضح أن البحارة أيضا لهم أهمية حاسمة عدما تتضمن الحملة عملية نقل القوات بحرًا. ولكن قلب الجيوش الصليبية فى هذه الفترة، سواء كانت ذاهبة إلى

الشرق أو إلى أى مكان آخر، كانوا هم الفرسان دائمًا؛ فحولهم ولمساندتهم فى ميدان المعركة، كان يتم تنظيم الصفوف الأخرى. وكانت هذه أيضا الحالة عندما يقود أبناء الطبقة السادة، كان يتبعهم الآخرون، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا الحقائق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المعاصرة، وهو ما يجعل مناقشة تجنيدهم فى الحملات الصليبية أمرًا مناسبًا هنا.

ويجب أن نمايز هنا بين الحافز والقوى الإيديولوچية الفاعلة، والعمليات التى يتضمنها التجنيد. إذ إن الحركة الصليبية سرعان ما تغلغلت فى القيم الثقافية لدى طبقة الفرسان الغربيين، مع المشاركة التى لم تلبث أن باتت مقبولة على نطاق واسع باعتبارها ملمحًا أساسيًا من السلوك المثالى للفرسان. وكان هذا معيارًا يمكن تطبيقه على كل أفراد الطبقة، ولكن على الرغم من هذا لم تذهب إلى الحملة الصليبية فى كل جيل سوى أقلية. وإذا ما نحينا جانبًا الغيرة والحماسة الفردية، أو غيابهما، فإن التحليل يوحى بأن الأفراد المحددين فى كل قوة كان يتم تحديدهم إلى حد كبير بما تمليه فعاليات البناء الاجتماعى والسياسى، وهو الوسط الذى من خلاله مرت الدعوة الصليبية. وقد كانت روابط السيادة الإقطاعية ذات أهمية خاصة بسبب الطريقة التى كان المجتمع منظمًا بها على أسس هيراركية مع تركيز الثروة والسلطة عند القمة بكثافة. فإذا ما أخذ أمير عظيم أو ملك شارة الصليب، فلابد حينئذ أن يتبعه كثير من دائرته بالتالى، بسبب الضغوط والإغراءات التى كان يمكنه توظيفها. وتقرير چون چوانفيل عن المناقشة التى جرت بين اثنين من فرسان لويس التاسع عشية خروجه فى حملة صليبية سنة ١٢٦٧م، ربما يمدنا بأوضح صورة عن المعضلات الرهيبة التى كان البعض قد



رسم بخطوط ملونة، أنتج فى إنجلترا حوالى ١٢٥٠م يصور صليبيًا يبدى ولاءه ربما يمثل الملك هنرى الثالث ملك إنجلترا الذى أخذ شارة الصليب فى تلك السنة، والصورة توضح تمامًا الطريقة التى كانت بها الخدمة العسكرية المثالية للرب والكنيسة قد توغلت فى قيم الفرسان ومثلهم العليا فى جميع أرجاء أوربا فى ذلك الوقت.



من بين الرسوم الهامشية فى **Luttrell Psalter** هذا التصوير لقتال بين فارس مسلم وفارس غربى. والشارة الملكية الإنجليزية على درع الفارس توحى بأن الرسم يصور النزال الأسطورى بين ريتشارد الأول، وصلاح الدين فى الحملة الصليبية الثالثة .

يواجهونها نتيجة لذلك. فقد أبدى أحدهما ملاحظة بقوله : «إذا لم نأخذ شارة الصليب، سنخسر عطف الملك؛ وإذا ما أخذناها بالفعل سنخسر عطف الرب، طالما أننا لن نكون قد أخذنا شارة الصليب من أجله وإنما خوفًا من إغضاب الملك» ويكشف چون جوانڤيل نفسه عن أنه تعرض لضغط شديد لكي ينضم إلى الحملة الصليبية. وكان السادة الإقطاعيون الأقل مرتبة بطبيعة الحال يمارسون نفوذا أقل، بيد أن القوى نفسها هي التي كانت تعمل، وهناك أمثلة لاتحصى ولاتُعد عن كيفية قيام كونت، أو أسقف أو أي سيد إقطاعي آخر، بأخذ شارة الصليب وفي الحال يتبعه أولئك الذين في خدمته، منذ الحملة الصليبية الأولى فصاعداً.كما أنه إذا طلب سيد إقطاعي ما من فرد بعينه أن يبقى في وطنه لخدمته، فإن الرجل كان يمكن أن يرى في هذا إحباطًا لتطلعاته الصليبية بل إن هذا كان يمكن أن يتخذ شكل الرفض الصريح بالسماح بأخذ شارة الصليب ابتداء. وثمة مثال شهير على هذا عندما حال هنرى الثانى بين سامسون مقدم رهبان دير بيورى سانت إيدمونز وبين أخذ شارة الصليب رعاية لمصالح الملك ومملكته.

كذلك لعبت أواصر القرابة دوراً رئيسيًا في التجنيد على امتداد تاريخ الحركة الصليبية، وكان السبب في هذا يرجع بصفة جزئية إلى ميل الرجال إلى التطلع نحو أقاربهم طلبًا للمساندة. ومن ثم كان هناك اتجاه في كافة الحملات الصليبية نحو مصاحبة الأبناء أباءهم، وذهاب الإخوة مع إخوتهم، أو رحيل الأعمام والأخوال في صحبة أبناء إخوتهم وأخواتهم، ولكننا لايجب أن نبالغ في هذا النموذج، والواضح أيضًا أن العائلات كانت تميل إلى تناول مسألة الحملة الصليبية جماعياً، فقد كانت القرارات تُتخذ بشكل مشترك حول من يذهب ومن يبقى من العائلة، إذا ما قرروا أن يشارك أحد في الحملة الصليبية. ومن المؤكد أنه يستحيل أن يكون أحد أبناء فردريك بربروسا قد صحبه في الحملة الصليبية الثالثة، على حين عهد بحكم الإمبراطورية، أثناء الحملة، لابن آخر هو إمبراطور المستقبل هنرى السادس؛ ولابد أن قرارات الأسرة كانت تعلو على قرارات الإخوة والأبناء وأبناء إخوة لويس التاسع ملك فرنسا الذين صحبوه في حملتيه الصليبيتين. وفي بعض الحالات أدت القرارات المتعلقة بالحملة

الصليبية إلى الشقاق داخل العائلة، وثمة حالة شهيرة تمثلت فى غضب هنرى الثانى وردود أفعاله الهائجة تجاه القسم الصليبى الذى قطعه ابنه الأكبر ووريثه هنرى الصغير سنة ١١٨٣م، ثم القسم الذى قطعه ابنه ريتشارد سنة ١١٨٧م.

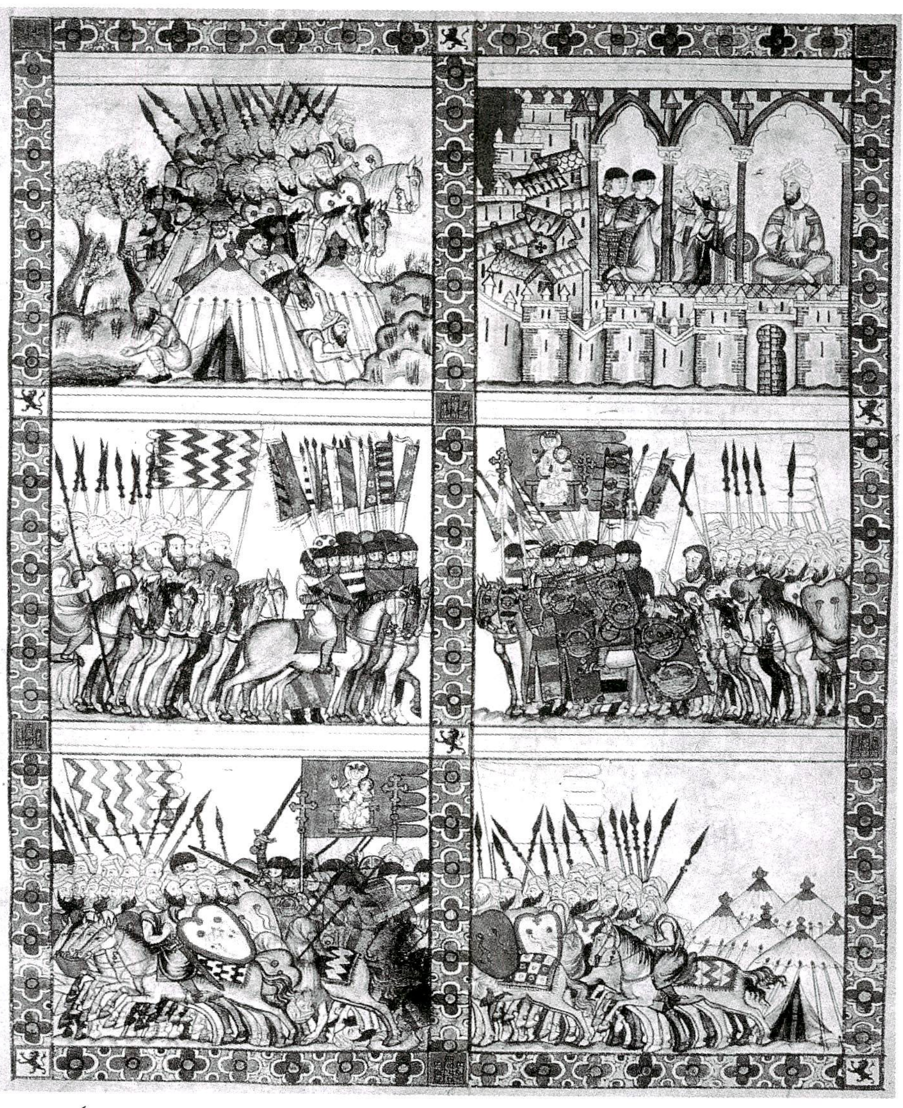
ولايمكن بمثل هذه السهولة أن نقدر قيمة التجنيد فى صلات القرابة الأبعد، لاسيما إذا كانت تمتد إلى ما بعد درجة القرابة الأولى والثانية، بيد أننا يمكن أن نلاحظ من حين لآخر أن أعضاء من العائلة الممتدة كانوا يجتمعون سويًا فى حملة صليبية. ومن غير المحتمل أن هذا كان دائمًا فرصة أو مصادفة كاملة، وإنما كان نتاجًا للقرارات المسبقة بالقيام بالحملة الصليبية سويًا. ولايقول چوانفيل، مثلا، إنه أخذ شارة الصليب بعد أن تشاور مسبقًا مع ابن عمه چون كونت ساريبروك وسيد أبريمونت، ولكن حقيقة أنهما سويًا استأجرا سفينة للرحيل فى حملة لويس التاسع الصليبية الأولى موحية بدرجة كبيرة، ويؤكد چون چوانفيل عمدًا على قرابتهما فى روايته.



المسيح على الصليب على صندوق ذخائر مقدسة من جنوب فرنسا. كانت الحملة الصليبية، مثل الحج، تضرب بجذورها فى الارتباط بمشاهد حكايات الماضى فى التاريخ المسيحى. وباعتبار القدس المكان الذى شهد موت المسيح وقيامته، فإنها كانت ذات جاذبية طاغية: وقد كانت رسومات الصلب، ذات الأهمية فى إلهام المجتمع الذى تغشاه الأمية إلى حد كبير، شائعة ومنتشرة.



عمليات تموين وإمداد الحملات الصليبية، لا سيما تلك الذاهبة إلى الشرق، كانت معقدة. والرسم (حوالى ١٢٥٠م) يصور داود يعطى المؤن لإخوته يعطى فكرة جيدة عن قوافل الأمتعة فى القرن الثالث عشر. عربتان محملتان بالخوذات ومعاطف الزرد، والدروع وأكياس الطعام، وفوق العجل معلق دلو ماء، وخوذة وقدر لطهى الطعام.



حرب الاسترداد الإسبانية، التى استمرت على مدى عدة قرون، تأثرت أساسًا بالحملات الصليبية التى أُعلنت ضد المسلمين، وتكشف هذه المشاهد الحية عن بعض الاختلافات فى فن الحرب بين الجانبين، لاسيما فى الدرع الواقى للجسد، والأسلحة، وتصميم الدروع

وكان للروابط النابعة من المشاركات المحلية والإقليمية أيضًا تأثير على عمليات التجنيد. وربما نرى هذا بأكبر قدر من الوضوح فى الفرق العسكرية القادمة من البلدات والمدن للذهاب فى الحملة: فمثل هؤلاء الرجال، كانوا معتادين على العمل بصورة جماعية، بفضل البنى السياسية والاجتماعية الحضرية. ولكن وشائج الرابطة المحلية والإقليمية أثرت أيضًا على طبقات الفرسان، على الرغم من أنه ليس من السهل دائما أن نحدد دورهم بالضبط لأن هذه الروابط نفسها كانت نابعة جزئيًا من علاقات القرابة وعلاقات السيادة الإقطاعية السارية فى داخل المجتمع الإقليمى المعنى. ومع هذا، فإن چيوفرى الڤيلهاردوينى، الذى كان مشاركًا فى الحملة الصليبية الرابعة وكتب عن تاريخها، يكشف بشكل خاص عن المفاهيم المعاصرة فى هذا الشأن، عندما اختار أن يضع قائمة بأولئك الذين أخذوا الصليب من شمال فرنسا بتقسيمهم حسب المناطق الجغرافية- السياسية المتمايزة. وهو يضع أولاً قائمة بأبناء شمبانى الذين ساروا تحت قيادة الكونت ثيبودى شمبانى، ثم يليهم أولئك الذين خرجوا تحت قيادة الكونت لويس دى بلوا من بلوا وشارترين، ثم القادمين من جزيرة فرنسا، ثم من الفلاندرز وهكذا. ويشير چيوفرى الفيلهاردوينى إلى كل فرقة بعدد من روابط القربى الداخلية، ولكن البحث الحديث عن الأفراد الذين أورد المؤرخ أسماءهم كشف عن روابط داخلية أخرى موجودة داخل هذه القوى. فنحن نجد مزيجًا من الروابط التى تربط طبقات الفرسان فى كل من هذه الأقاليم سويًا برباط وثيق: أواصر القربى، روابط السيادة الإقطاعية، والروابط الأوسع ولكنها ليست أقل أهمية وهى روابط الثقافة والجوار والمعرفة، والتجربة المشتركة، والنظرة السياسية المشتركة. والنموذج، عندما تكون الأدلة كافية لاستنتاج نتائج ثابتة، متكرر فى قوى صليبية أخرى. وباختصار فإنه فى مسألة الحملة الصليبية، كما فى غيرها من المغامرات، كان الرجال الذين ينتمون إلى مجتمع إقليمى محدد ولهم ولاء إقليمى خاص يميلون إلى التصرف سويا باعتبارهم جماعة. ويتضح هذا بشكل أكبر بتشكيلات المعركة فى أية حملة. ففى تونس سنة ١٢٧٠م، مثلاً، كان تشارلز ملك صقلية، وكونت أنچو، وكونت البروڤانس يقودون الإيطاليين والبروڤانسيين والأنچويين، على حين كان أهل ناڤار وشامبانى وبورجندى يخدمون تحت قيادة ثيبو ملك ناڤار

وكونت شامباني. وفي بعض الأحيان كان هذا الانفصال داخل القوات يبدو مرئيًا،كما حدث سنة ١١٨٨م عندما تم الاتفاق على أن الصليبيين من رعايا فيليب الثاني المشاركين في الحملة الصليبية الثالثة يجب أن يرتدوا صلبانًا حمراء اللون، ويرتدي الصليبيون من رعايا ريتشارد الأول الصلبان البيضاء، ويرتدي الصليبيون رعايا كونت الفلاندرز الصلبان الخضراء.

وعلى الرغم من أن نوعية الروابط التي حددنا خطوطها العريضة فيما سبق كان لها تأثير قوي على نموذج تجنيد الصليبيين، فإن من المهم أن نفسح المجال لعوامل أخرى إذا ما أردنا أن نشرح لماذا ذهب بعض الفرسان، من مجتمع إقليمي مخصوص، أو من ذوي الشرف الأرستقراطي الباروني، أو ممن تجمعهم روابط السيادة الإقطاعية، في الحملة الصليبية ولماذا لم يذهب آخرون غيرهم. أولا، ولأسباب متعددة، من المؤكد أنه كان هناك البعض من رجال الدين والعلمانيين على السواء، متشككين، أو معادين للحركة الصليبية. ومن الواضح أيضا أن آخرين كانوا متحمسين للصليبيين، وأوضحهم أولئك الذين ذهبوا في حملة صليبية أو أخذوا شارة الصليب أكثر من مرة في حياتهم : فمن الواضح أنهم وجدوا الحركة الصليبية متوافقة مع مثلهم العليا الروحية وقيم الفروسية لديهم. وثمة نفر آخر وجدوا أنفسهم ورثة تقاليد عائلاتهم في الحركة الصليبية، وكثيرًا ما كانت هذه التقاليد تتعزز بتقاليد أخرى انتقلت من خلال الزواج، وبالنسبة لأولئك الذين ولدوا في عائلات كهذه، فما إن تم إرساء السوابق، حتى كانت جاذبية الحملة الصليبية أعمق وأشمل وأقوى، وأكثر حدة حتما. وربما كان يمكن مقاومة ثقل التقاليد بطبيعة الحال، كما يصدق نفس الشئ على ما يتعلق بالمؤثرات الدافعة الأخرى. ويمكن ألا يكون تجنيد فرد ما مسألة اختيار حر خالص على الإطلاق، ولكن في النهاية كان هذا الفرد هو الذي يقرر أن يستجيب أو لايستجيب للدعوة التي أطلقتها جماعته القريبة ككل.

يمكن للحروب أن تكون مكلفة بشكل يعوق المجتمعات والأفراد الذين يشنونها ولم تكن الحملات الصليبية استثناء في هذا. ومن سوء الحظ أن إجمالي المبالغ التي تم إنفاقها على أية حملة صليبية مفردة لايمكن حصرها بالضبط لأننا نفتقر إلى سجلات

تفصيلية تسمح بذلك، ولكن معلومات كافية وصلت إلينا، وبخاصة عن بعض الحملات الصليبية فى القرن الثالث عشر، بحيث نخرج على الأقل بانطباع عن ضخامة النزيف المالى الذى كانت تمثله هذه الحملات، وربما تكون حملة لويس التاسع الصليبية الأولى الحملة الأفضل توثيقًا، فقد قدرتها الحكومة الفرنسية فى القرن الرابع عشر بتكلفة مبلغ ١,٥٣٧,٥٧٠ جنيه تورى Livres Tournois فيما بين سنة ١٢٤٨م ورجوعه إلى فرنسا فى سنة ١٢٥٤م، فقد وضعت التقارير قوائم بالمبالغ المدفوعة لشراء المؤن والملابس للملك وآل بيته، وأجور الفرسان، ورماة السهام، وضباط الصف والتبديل، وشراء الخيول والبغال والجمال، واستئجار السفن وتأجيرها، والهدايا والقروض الممنوحة للصليبيين، وفدية الملك التى دُفعت بعد أن أسره المسلمون (فى دار ابن لقمان بمدينة المنصورة) سنة ١٢٥٠م، والعمل فى تحصينات الأرض المقدسة، وهكذا. وهذا المبلغ يساوى أكثر من دخله السنوى البالغ ٢٥٠ ألف جنيه بست مرات، ولكن لايمكن اعتبارها التكلفة الإجمالية للملك لأنه كان التقدير أيضا أن لويس كان قد منح حوالى ٥٥ بالمائة من الصليبيين المرافقين له مساعدات مالية على شكل تعاقدات، ومنح وقروض، كما أن هذا المبلغ لايشمل «التكاليف الخفية»، مثل المبالغ الكبيرة المتضمنة فى إنشاء الميناء الملكى الجديد فى أيج مورتيس Aigues Murtes، الذى تم اختياره خصيصًا لرحيل الحملة، أو التكاليف التى تكلفها لويس التاسع وهو يسعى لنشر السلم والاستقرار فى مملكته قبل الرحيل. وربما يكون مبلغ حوالى ثلاثة ملايين جنيه تورى، أو ما يقارب اثنتى عشرة مرة من قيمة دخله السنوى، هو الأقرب إلى الصحة. وأيا كان المبلغ بالضبط، فإن هذا لايشمل طبعًا النفقات الفردية لكبار السادة مثل ألفونسو أمير بواتييه أو تشارلز أمير أنجو، أو الفرسان الأدنى مرتبة، مثل چون چوانڤيل وحواشيهم. لقد كانت التكلفة الإجمالية لحملة لويس التاسع الصليبية بالنسبة لمملكة فرنسا أكبر بكثير مما تشير إليه التقارير الملكية وحدها. وفى ضوء هذه الاعتبارات لاغرابة فى أن التمويل كان على الدوام مصدر قلق بالنسبة لكل الصليبيين على كل المستويات الاجتماعية. وعلاوة على ذلك، لم تكن الحملات الصليبية تمول نفسها بنفسها؛ على الرغم من أن كميات الغنائم والأسلاب كان يمكن أن تكون كبيرة؛ فإنها نادرًا ما فاقت النفقات والخسائر.

كانت محاولة تدبير الميزانيات تحتل مكانة المركز فى الاستعدادات لكل حملة صليبية، وكانت الأولوية الأولى لضمان ميزانية كافية، ولكن الوسائل التى كان الصليبيون يلجأون إليها بالضبط كانت تختلف بطبيعة الحال حسب الظروف الفردية. وربما يمكن مع هذا تعرف نماذج نمطية معينة من السلوك. فإذا كان أى صليبى لديه مدخرات فإنه كان لابد أن يستخدمها، ولكن مجتمع الفروسية لم يكن بصفة عامة مشهوراً بالثراء، على الرغم من أنه عرف عن بعض الأفراد أنهم عندما أخذوا شارة الصليب توقفوا عن الإنفاق فى التو واللحظة. وثمة استجابة أخرى واضحة كانت تتمثل فى اللجوء إلى الديون المستحقة للصليبى قبل الرحيل، أو فض المنازعات مع ملاك الأراضى الآخرين، بحيث يكسبون ضمان الحيازة وكذلك مبلغًا من المال فى مقابل ذلك. وفى حالة المؤسسات الكنسية، كان للصليبى أن يأمل فى كسب الدعم الروحى أيضا على شكل الصلاة من أجله. ويوضح البحث الجارى حاليًا الدور المهم الذى كانت تلعبه عائلة فرد ما، ومعارفه، والسادة الإقطاعيون فى تمويل حملته الصليبية. ومثلما كان يتطلع إلى شبكته الاجتماعية من أجل التجنيد للحملة، كان بوسع الصليبى أن يتوقع قدراً من المساندة المالية من خلال القروض أو المنح المباشرة من معارفه، والأمثلة وفيرة. ويصدق هذا على أبناء الطبقات الاجتماعية الأخرى مثلما يصدق على الفرسان والنبلاء.كذلك وفرت النقابات والجمعيات الخيرية فى المدن المال اللازم لمشاركة أعضائها فى الحملة الصليبية، مثلا. وفضلاً عن ذلك، وكما سنرى فيما بعد، كانت عقود الخدمة فى الحملة الصليبية تستخدم أيضا، فقد كان السيد الإقطاعى يدفع فى مقابل خدمة الفرسان فى الحملة، وبذلك يخففون من مخاوفهم المالية، على الرغم من أنهم لم يكونوا يحلونها مباشرة.

ولكن استغلال الحقوق والأصول المالية هو الذى أتاح منذ البداية أضمن وسيلة لتوفير النقود بمبالغ كافية. أولا، كان هناك بيع المنتجات، والماشية والأغنام؛ أما الأخشاب، بصفة خاصة، فكانت بضاعة غالبًا ما تباع للحصول على المال بسرعة. وكان من أوائل تصرفات إيرل ريتشارد كورنوول عندما أخذ شارة الصليب سنة ١٢٣٦م أن قطع غاباته وباع أخشابها، على حين عُرف عن ألفونس أمير بواتييه أنه

جمع مبلغًا كبيرًا من المال من مبيعاته من الأخشاب في حملته الصليبية الثانية سنة ١٢٧٠م. وربما كان السادة الإقطاعيون يعتقون أقنانهم أيضا لقاء المال، حسبما توضح تصرفات ألفونس أمير بواتييه مرة أخرى، أو يبيعون الحقوق والامتيازات لأهل المدن الذين يعيشون تحت سلطانهم. وفي حالة واحدة، في مارس- أبريل ١٢٠٢م، أسس كونت هيو أمير سان بول، ثلاثة قوميونات وربما أربعة، داخل أراضيه لكي يجمع المال اللازم لمشاركته في الحملة الصليبية الرابعة.كذلك كانت حقوق السيادة متضمنة بطريقة مثيرة عندما قام ريتشارد الأول في سنة ١١٨٩م بالتخفيف من التزامات ملك سكوتلاند الإقطاعية وسلم بعض القلاع في مقابل مبلغ ضخم بلغ عشرة آلاف مارك.

وعلى أية حال، كان بيع الأرض، ولاسيما الممتلكات الموروثة، مسألة أخرى. وعلى العموم كان يتم تجنب هذا لأن مصالح العائلة، على المدى الطويل وشجرة العائلة كانت داخل الموضوع، ولكن في بعض الأحيان كانت الأرض تُباع لأسباب متعددة. وهناك مثالان باكران يمثلهما بيع جودفرى البويونى لكونتية ڤيردون التى كان يملكها لكى يحصل على المال اللازم للحملة الصليبية الأولى، وعملية بيع الڤيسكونت أمير بورج للمدينة والڤيسكونتية للملك فيليب الأول للمساعدة في تمويل مشاركته في الحملة الصليبية سنة ١١٠١م. وبعد ما يقرب من مائة وخمسين سنة، ساعد لويس التاسع چون كونت ماكون، للذهاب في حملة صليبية بشراء إمارته مقابل عشرة آلاف جنيه توريني. ومنذ سنة ١٠٩٥م فصاعدا، كانت الصيغة النمطية لتوفير المال من خلال الأشكال العديدة للقروض، والتى كانت عموما، ولكن ليس دائما، تتخذ من الضيعة الإقطاعية ضمانًا لها. وكان الأكثر شيوعًا هو الرهن أو النظام الذى كان يتيح للدائن أن يسترد دينه من مكاسب الضيعة التى تكون بحوزته. ويبدو أنه في القرن الأول من الحركة الصليبية، لعبت الأديرة الدور الرئيسى في تزويد الصليبيين بالنقود بهذه الطريقة، على الرغم من أننا نجد بالفعل دائنين آخرين. وبين أمثلة المقرضين الذين من داخل عائلات الصليبيين الملك وليم الثانى روفوس ملك إنجلترا، الذى رهن أخوه روبرت دوق نورماندى لديه دوقية نورماندى كلها مقابل عشرة آلاف مارك سنة ١٠٩٦م قبل

رحيله فى الحملة الصليبية الأولى. كما أننا نجد مقرضين آخرين مثل السادة الإقطاعيين للصليبيين والتجار المشتغلين بالأعمال التجارية، ولكن يبدو من الأدلة المتاحة أن الأديرة كانت سيدة الموقف، على الرغم من أن هذا كان يمكن أن يكون نوعًا من الانطباع الزائف الناجم عن بقاء بعض أنماط معينة من السجلات بطريقة عفوية. أما بالنسبة للقرن الثالث عشر فإن الصورة تختلف إلى حد ما. ولأن المؤسسات الكنسية كانت ثرية نسبيًا، فليس من المدهش أنها استمرت فى دورها كمصادر للقروض التى يحتاجها الصليبيون، وغيرهم، ولكن نتيجة النمو الاقتصادى والتطور الاجتماعى كان هناك بديل يتمثل فى مقرضين آخرين يتزايد عددهم باطراد، وكانت النتيجة أن شطرًا أكبر من ترتيبات القروض شملت التجار، والأعيان الكبار والسادة الإقطاعيين للصليبيين، وأقارب الصليبيين، بل والفرسان المتواضعين، وبالفعل كل من كان قادرًا أو مستعدًا لأن يبرم صفقة عمل مع أى صليبى. لقد كان المجتمع والاقتصاد يتغيران، وكذلك كان محتمًا أن يتغير هذا الجانب من جوانب الحركة الصليبية.

وربما كان أهم تغير طرأ على تمويل الحملة الصليبية فى هذه القرون كامنًا فى ظهور الضرائب العلمانية والكنسية التى كانت تفرض تحديدًا لأغراض الحملات الصليبية. وكان هذا فى جزء منه من عمل تجربة الحملات الصليبية الباكرة، وأهمها الحملة الصليبية الأولى، التى علمت الجميع كيف تكون الحملة الصليبية مكلفة فى الممارسة، وأوجدت المركزية والتعقيد، بيد أنه كان أيضا تطورًا لم يكن حدوثه ممكنًا بدون قدر كبير من النمو الذى طرأ على مفاهيم الدولة العلمانية والبابوية وأجهزتها، فضلاً عن تحقيق المركزية وحدوث قدر أكبر لتنقية المفاهيم السائدة عن الحملة الصليبية والعالم المسيحى.

لقد كان فرض الضرائب من جانب الدولة العلمانية أسبق من التدابير البابوية فى هذا السبيل، فقد عول السادة الإقطاعيون الذين عزموا على الخروج فى الحملة الصليبية على العرف الإقطاعى الذى يقضى بأنه يجب على الأتباع الإقطاعيين مساعدة سادتهم وقت الحاجة. وبطبيعة الحال، كانت هناك مقاومة لتأسيس مفهوم أن من حق

السيد الإقطاعي الذاهب في حملة صليبية أن يحصل على مثل هذه المساعدة، كما قوبل سعيه للحصول على منحة تطوعية بالمعارضة، ولكن يبدو أنه في فرنسا على أية حال كان هذا قد رسخ عند نهاية القرن الثاني عشر. ويصدق نفس الشئ على الضرائب التي كانت تُدفع للسادة الإقطاعيين من قبل الحائزين غير الإقطاعيين، مثل أهل المدن والفلاحين الذين يعيشون في أملاك السيد الإقطاعي. وقد أتاح هذا، على سبيل المثال، للويس التاسع أن يجمع على ما يبدو ٢٧٤ ألف جنيه تورى من المدن القائمة في أملاك التاج الفرنسي لحملته الصليبية الأولى. كان بوسع الملوك بوصفهم سادة حاكمين، بصفة استثنائية، أن يسعوا أيضا للحصول على المزيد من الضرائب العامة على رعاياهم جميعًا، على الرغم من أن معظمهم اعتمدوا كثيرا على الظروف السياسية. وربما كان لويس السابع قد فرض أول ضريبة ملكية من هذا النوع سنة ١١٤٦م ولكن الأدلة أبعد ما تكون عن أن نخرج منها بنتائج، وأصول فرض الضرائب العامة في سبيل الأغراض الصليبية ينبغي أن تكون كامنة في الإجراءات التي اتخذها كل من لويس السابع وهنري الثاني لجمع المال من أجل الأرض المقدسة سنة ١١٦٦م عندما تم فرض ضريبة قائمة على أساس دخل الفرد وقيمة الملكية الفردية في مملكتيهما. وقد تبع هذا في سنة ١١٨٥م ضريبة متدرجة في فرنسا وإنجلترا على الدخل والممتلكات المنقولة، لمساعدة الأرض المقدسة أيضًا، ولكن أول ضريبة إجبارية ارتبطت بالضبط بحملة صليبية محددة كانت «عشور صلاح الدين» الشهيرة سنة ١١٨٨م، للمساعدة في تمويل الحملة الصليبية الثالثة. وقد فرضت في كل من المملكتين، ولكن بنسبة أعلى كثيراً عن ذي قبل، فقد كانت بنسبة عُشر قيمة الدخل والممتلكات المنقولة على جميع الرعايا لمدة عام واحد سواء من العلمانيين أو من رجال الكنيسة باستثناء الصليبيين الذين كانوا سيتلقون العشور من أتباعهم غير الذاهبين في الحملة الصليبية. وكانت الحصيلة ضخمة، فهناك مؤرخ قدَّر الحصيلة في إنجلترا وحدها بسبعين ألف جنيه استرليني، على الرغم من أنها ربما لم تكن كبيرة بهذا القدر، ومن الواضح أن المقاومة ضدها في فرنسا قللت الحصيلة لفيليب الثاني. والواقع أنه كان مضطراً إلى أن يعد بأنه لاهو ولاخلفاؤه سوف يفرضون إطلاقًا مثل هذه الضريبة. ومن الواضح أنهم لم

يفعلوا. ومع هذا فإن الإسهام فى تمويل الحملة الصليبية الثالثة كان كبيراً. وفرض الضرائب حسب المناسبة من هذا الطراز حدث فى بعض الدول فى القرن الثالث عشر، مثلاً ضريبة العشرين بالمائة التى فرضت فى إنجلترا لدعم الحملة الصليبية للورد إدوارد سنة ١٢٧٠م، ولكن يبدو أنه لم يحدث أبداً أن فرضت ضريبة على مستوى كثافة «عشور صلاح الدين» ؛ وبصفة عامة كانت هذه ضرائب طوعية لا إجبارية، لها طعم الإحسان والصدقات أكثر من رائحة الضريبة.

ولم تكن تلك هى الحال مع فرض الضرائب البابوية التى فرضتها الكنيسة الكاثوليكية العالمية، فقد عانى رجال الكنيسة والكنائس المفردة من المطالب المالية لتمويل الحملة الصليبية منذ البداية. فقد نهب الملك الإنجليزى وليم روفوس، مثلاً، رجال الكنيسة الإنجليز لكى يدفع لأخيه مبلغ العشرة آلاف مارك التى تم الاتفاق عليها مقابل نورماندى فى سنة ١٠٩٦م. ولكن لم يحدث سوى فى سنة ١١٩٩م، ومن أجل الحملة الصليبية الرابعة، أن كلف البابا إنوسنت الثالث جميع أفراد الكنيسة بدفع ضريبة قدرها أربعون بالمائة من دخلهم لمدة سنة واحدة. ووعد بألا تكون هذه سابقة، ولكنها صارت سابقة طبعا، كما ارتفعت النسبة كذلك. وتم فرض نسبة عشرين بالمائة لمدة ثلاث سنوات فى سنة ١٢١٥م لتمويل الحملة الصليبية الخامسة، ومثلها فى سنة ١٢٤٥م عقب السقوط النهائى للقدس فى أيدى المسلمين، وسرعان ما حلت محلها ضريبة قدرها عشرة بالمائة فى فرنسا وإنجلترا، ثم ضريبة مائة بالمائة مقسمة على خمس سنوات- بما يعادل عشرين بالمائة لسنة واحدة- وضريبة عشرة بالمائة لمدة ست سنوات سنة ١٢٧٤م. كانت هذه الضرائب تشمل الجميع، على الرغم من أن الإعفاءات أخذت تتزايد، ومن أجل الحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة؛ وكانت هناك ضرائب أخرى محلية ولتمويل حملات صليبية أخرى، مثل الضرائب التى فرضت فى فرنسا سنة ١٢٠٩م وسنة ١٢٢٦م لدعم الحملة الصليبية الألبيجنسية.

كان جمع عوائد هذه الضرائب ونقلها مهمة ضخمة تتطلب وجود نظام محكم من الجباة الذين كانت تتم مراقبة تصرفاتهم بعناية كما تتم مراقبة المبالغ التى جمعوها.

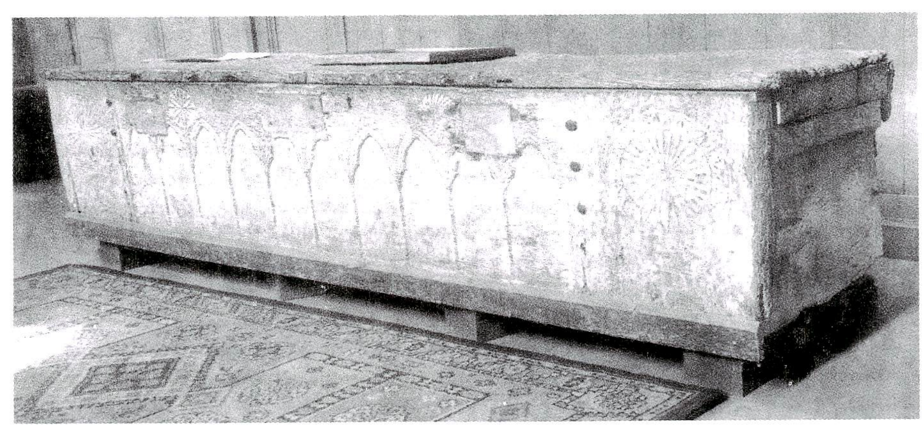
وقد وصل النظام ذروته سنة ١٢٧٤م عندما قام البابا جريجورى العاشر، مكملاً ما بناه أسلافه وخاصة إنوسنت الثالث وهونوريوس الثالث، بتقسيم العالم المسيحى الغربى إلى ست وعشرين منطقة تحصيل يعين فى كل منها مُحصِّل عام. وكانوا بدورهم يعينون محصلين أدنى مرتبة. وبحلول هذا الوقت أيضاً، حل محل التقدير الذاتى للقدرة على دفع الضرائب، حسبما كان إنوسنت الثالث يرى سنة ١١٩٩م، التقدير الخارجى، وبذلك قلَّل من الخداع عن طريق التقليل العمدى من قيمة الممتلكات. وفى البداية كانت الأموال المحصَّلة تُدفع محلياً إلى الصليبيين أو ترسل مباشرة إلى الأرض المقدسة لكى توزع على الصليبيين المشاركين فى الحملة، ولكن بحلول أربعينيات القرن الثالث عشر كان هناك قدر أكبر من المركزية، فقد كان البابوات يسلمون الحصيلة للقادة الصليبيين الأفراد. وكانت المبالغ التى يتم جمعها ضخمة ما لم تكن هناك عقبات فرضتها الظروف السياسية. فقد تم جمع حوالى مليون جنيه تورى من الكنيسة الفرنسية لحملة لويس التاسع الصليبية الأولى مثلا. ولاعجب فى أنه ظل قادراً على الإنفاق طوال السنوات الأربع الأولى من الحملة الصليبية. ولاعجب أيضا أنه كانت هناك كثير من الشكاوى المريرة من رجال الكنيسة طوال القرن الثالث عشر من جراء هذه الضرائب الإجبارية. والواقع أن النظام كان كُفأً، على الرغم من أنه كانت هناك درجة من التزوير والتضليل فى ممارسات تحصيل مثل هذه العوائد الهائلة لايمكن تجنبها.

وينبغى إضافة مبالغ أخرى إلى هذه المبالغ: الهبات الخاصة والتركات التى كان يوصى بها إلى الحملة الصليبية، العملات التى كان المؤمنون يودعونها لحساب الأرض المقدسة فى الصناديق الموضوعة فى جميع الكنائس بعد أن أسس إنوسنت الثالث هذه الممارسة سنة ١١٩٩م، والأموال التى كانت تجبى من فرض شارة الصليب تكفيراً عن طائفة كبيرة من الجرائم، وكان يتم الإعفاء من أخذ شارة الصليب مقابل مبلغ من المال. وفوق هذا وذاك كانت هناك عوائد سياسة الإعفاء من القسم الصليبى التى ناقشناها من قبل. لقد كان يتم جمع مبالغ ضخمة من المال، حسبما يمكن أن نراه من ضخامة الهبات الممنوحة للصليبيين الأفراد من هذه المصادر. كما كان هؤلاء الصليبيون، مثلما رأينا فى القرن الثالث عشر من أبناء الطبقات العسكرية أساساً.

وكان ظهور وتطور عمليات التمويل الصليبية البابوية لساندتهم بمثابة النتيجة الحتمية العملية للمفهوم المركزى القائل بأنه طالما أن الحركة الصليبية تهتم بالصالح العام للكنيسة، وطالما كان الصليبيون يحاربون فى سبيل هذه القضية، فإنه ينبغى على أعضاء كافة المجموعات الاجتماعية أن يسهموا فى مساندة أولئك الذين خاطروا بحياتهم من أجل الصالح العام المسيحى.

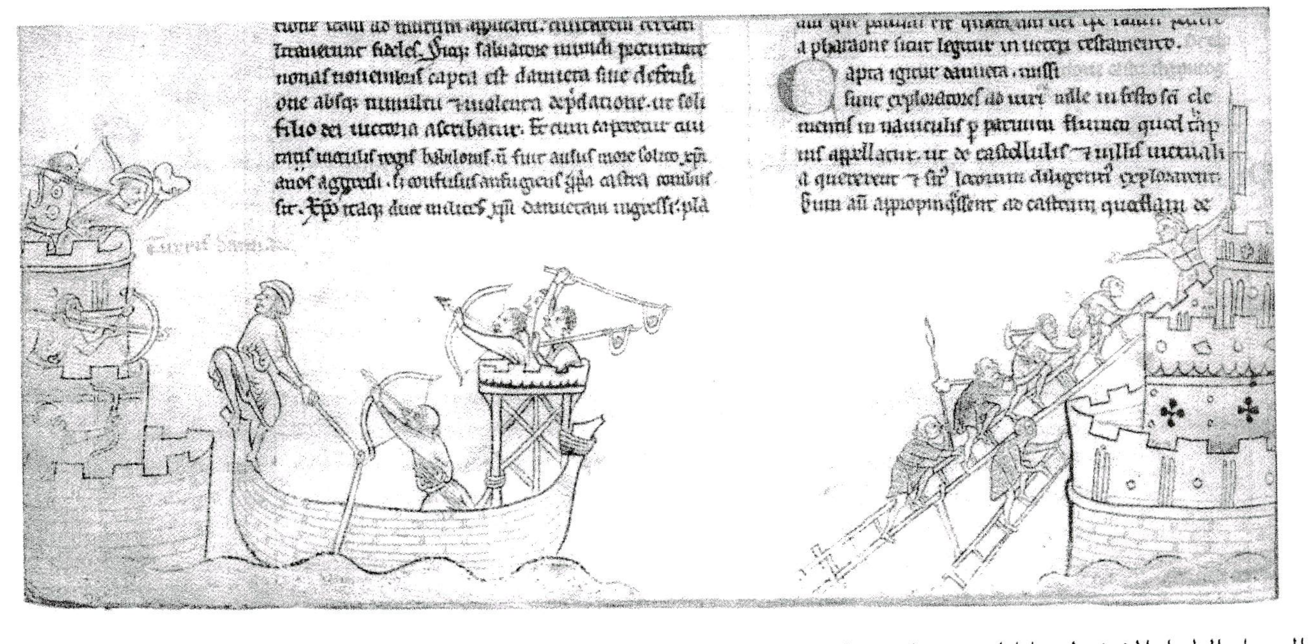
الأمور العملية

ساعد نمو الموارد الخارجية لتمويل الحملات الصليبية، التى قمنا باستعراض مختصر لها فيما سبق، على تسكين أحد مظاهر القلق العظيم الذى كان ينتاب الصليبيين جميعا فى الميدان، ولكن لم تقل عنه فى هذا الصدد تلك المشكلات الحقيقية والعملية جداً التى واجهتها كافة الجيوش: النقل، والإمداد والتموين، النظام، بناء القيادة وتنظيمها، دعك من المسائل التى تخص الخصم بشكل مباشر مثل الاستراتيچية والتكتيكات فى ميدان العمليات بالضبط، والمخابرات وهلم جرا. وبالنسبة للحملات الصليبية الكبرى نحو الشرق، التى تهمنا بصفة خاصة هنا، وطالما أن الأدلة المتعلقة بهذه الشئون تفوق الأدلة الباقية على الحملات الصليبية الأخرى، فإن مثل هذه المشكلات كانت تتفاقم بدرجة كبيرة بفعل المسافات الشاسعة ومدة



فى سنة ١١٩٩م، ولتوسيع قاعدة تمويل الحملات الصليبية، قام إنوسنت الثالث بمبادرتين مهمتين.كانت إحداهما أن يبدأ بفرض الضرائب الإجبارية على رجال الكنيسة لتمويل الحملات الصليبية. وكانت الأخرى إصدار مرسوم بوضع صناديق النذور فى جميع الكنائس فى كافة أرجاء العالم المسيحى الغربى لتلقى الصدقات من المؤمنين لصالح الأرض المقدسة. وهذا الصندوق من كليمبنج فى سسكس أحد الصناديق الباقية.

استمرار الحملات محل الدراسة - كانت تصل إلى ست سنوات فى القرن الثالث عشر- والصعوبات الناجمة عن الطبيعة الدولية لمثل هذه المشروعات، وكانت هذه الصعوبات من بينها التحدى المتمثل فى مزج وترابط قوات تتحدث لغات مختلفة ولها عادات مختلفة، ويحكمها تراث عسكرى وأساليب مختلفة، والتى كانت غالبًا تحت قيادة قادة متكبرين مشاغبين يتشاجرون فيما بينهم. وكانت هذه القوات تأخذ معها أيضا انحيازاتها الموروثة، وربما كانت تمتد بالعداوات السياسية الموجودة فى أوطان الصليبيين إلى الحملة الصليبية المعنية. وثمة حالة فى هذه النقطة تتمثل فى المنافسة المريرة فى الحملة الصليبية الثالثة بين ريتشارد الأول وفيليب الثانى، والعلاقات الكريهة بين قواتهما. وعندما يفسح المجال لمثل هذه الأمور، يكون الإنجاز المدهش الذى حققته الحملة الصليبية الأولى مستحقًا لقدر أكبر من الإنصاف.



الحصار الطويل المضنى لدمياط استمر ما بين مايو ١٢١٨م عندما وصلت أولى فرق الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر، ونوفمبر ١٢١٩م عندما سقطت أخيراً فى أيدى الصليبيين هذا الرسم عن إحدى مراحل الحصار يوضح هجوماً على برج السلسلة .

ولاعجب أن بعض هذه المشكلات قد برهنت على أنها مستعصية على الحل، ولكن، وكما يحدث دائمًا فى التاريخ الإنسانى، فإن بعض الدروس لم تستوعب (أو لم تستوعب تمامًا) ؛ ودروس أخرى تم استيعابها، ومع ذلك لم تنتقل إلى الأجيال اللاحقة، على الرغم من محاولة قام بها بعض المشاركين فى الحملة الصليبية لكى يعلموها لذريتهم من خلال تجاربهم. وأودو دى دويل المؤرخ الفرنسى للحملة الفرنسية الثانية مثال ممتاز على هذا، لأنه كتب وفى ذهنه أن يرشد الأجيال المستقبلية من الصليبيين بوضوح شديد، فقد كان ينبغى أن يتعلموا من الأخطاء التى ارتكبت، حسبما كان يأمل. ومن هنا جاء الكثير من نصائحه العملية حول الطرق التى ينبغى أن يسلكوها، ونمط عربات النقل التى يجب استخدامها مثلاً. ومنذ زمن إنوسنت الثالث على الأقل، أيضا، سعى البابوات بوعى إلى أن يعولوا على التجارب الماضية والنصائح حول كيفية تجريد الحملات الصليبية وتطبيقها بأفضل طريقة. وأشهر توصيات هى المذكرات الباقية التى قدمت إلى البابا جريجورى العاشر قبل مجمع ليون الثانى (١٢٧٤م) الذى كان قد اجتمع للنظر فى أمر حملة صليبية دولية جديدة لإنقاذ الأرض المقدسة.

وعند الوصول إلى مسرح العمليات، لم يكن لدى الصليبيين خيار سوى أن يفكروا فى الحال وأن تكون ردود أفعالهم بحسب الظروف المتغيرة، بغض النظر عن أية استراتيجية تم الاتفاق عليها سلفًا. وبقدر ما كانت مصائرهم بأيديهم، كان التخطيط والتجهيز للتقدم مهمًا بشكل واضح، وهنا يمكن أن نرى درجة من التقدم عن الحملة الصليبية الأولى، وكان هذا نتيجة جزئية لبعض التعلم من خلال التجربة، كما كان نتاجًا جزئيا للتغير الذى طرأ على ممارسة الأعمال الحربية فى الغرب - وقد طبقت هذه التغيرات آنذاك على الحركة الصليبية بشكل محدد- وجزئيًا للتعقيد المتنامى فى فن الحكم والإدارة فى الغرب، مما أتاح المزيد من التخطيط الدقيق والإعداد للحملات الصليبية من جانب قادتها والمشاركين فيها.

وربما يكون السبب هو أن الأدلة لم تبق، ولكن بالنسبة للحملة الصليبية الأولى يبدو أنه كان هناك قدر ضئيل من التخطيط المسبق من جانب القادة. ومن المفترض

أنهم كانوا يتصلون ببعضهم البعض وجعلوا القسطنطينية نقطة التجمع، ولكن لايبدو أنهم قد اتخذوا تصرفًا مسبقًا حول المسألة الحاسمة المتعلقة بالإمدادات عندما تركوا أراضيهم. ومن الأمور ذات الدلالة تلك المصادمات التى حدثت عند الوصول إلى الأراضى البيزنطية، وحقيقة أنه لم يتم التوصل إلى الاتفاق مع الإمبراطور أليكسيوس لإقامة أسواق المؤن والإمدادات وتأمين سلامة الصليبيين ومسيرهم، سوى بعد وصولهم إلى القسطنطينية، كما لايوجد أى مؤشر على أن أولئك الذين عبروا البحر الأدرياتى قد رتبوا النقل بالسفن مسبقًا من مختلف الموانئ؛ كما أن أحداث الحملة الصليبية نفسها توضح بجلاء أنه لم يكن قد تأسس أى بناء رسمى للقيادة قبل الرحيل.

ومع الحملة الصليبية الثانية تأتى علامات قوية على التطور، ومنذ ذلك الحين فصاعداً يمكن التعرف على نموذج واضح بقدر معقول. وفيما يتعلق بالسفر بالسفن أتى أول مؤشر على أن حملة صليبية كاملة يمكن أن ترحل عن طريق البحر المتوسط فى المفاوضات بين لويس السابع وروچر الثانى الصقلى فى سنة ١١٤٦-١١٤٧م عندما عرض روچر أن يوفر أسطوله وإمدادات الطعام. وفى النهاية قرر لويس أن يتبع كونراد الثالث على امتداد الطريق البرى. وبالنسبة للحملة الصليبية الثالثة، كان القصد أن تذهب قوات كل من ريتشارد وفيليب عن طريق البحر من جنوب فرنسا. وجمع ريتشارد أسطولاً معتبراً فى إنجلترا، ونورماندى، وبريتانى وبواتو أبحر فى سنة ١١٩٠م لكى يتقابل مع الملك فى مرسيليا. ولم يتم اللقاء فى الموعد، ولكن فى النهاية انضم هذا الأسطول الشمالى إلى السفن الأخرى التى تم التعاقد معها من الموانئ الإيطالية لنقل قوات ريتشارد إلى الشرق. وغادرت حوالى ٢٠٠ سفينة مسِّينا، حيث كانوا قد أمضوا الشتاء، فى أبريل سنة ١١٩١م. أما منافس ريتشارد، فيليب الثانى، فقد تفاوض على أول عقد لنقل الحملة الصليبية تم التوصل إليه. وفى فبراير سنة ١١٩٠م وفى مقابل ٥٨٥٠ مارك، ضمن النقل على السفن الجنوية لنقل ٦٥٠ فارسًا و١٣٠٠ من المرافقين حاملى الدروع و١٣٠٠ حصان، بالإضافة إلى مؤن لمدة ثمانية أشهر من ساعة الرحيل، ومن النبيذ ما يكفى أربعة أشهر. وبعد ذلك، ذهبت كل الحملات الصليبية التالية إلى

الشرق عن طريق البحر، مع التعاقد مسبقًا على النقل بالسفن مع واحد أو أكثر من موانئ البحر المتوسط، بيزا، وجنوة، والبندقية ومرسيليا التى كان لها نصيب الأسد فى هذه الأعمال.

ولاشك فى أن الصعوبات والإنهاك الذى عانته الأجيال الأولى من الصليبيين، والتى أكدتها المعاناة التى لقيها جيش فردريك بربروسا فى أسيا الصغرى فى الحملة الصليبية الثالثة، كانت وراء هذا التطور المهم. كذلك أدى التحول صوب الاستراتيچية المصرية(*) فى الحركة الصليبية الشرقية واستحالة السفر عبر الأناضول بعد سنة ١٢٠٤م فى أعقاب حكم البيزنطيين المعادين فى نيقية، إلى الاعتماد على النقل بالسفن. ولكن اختيار الطريق البحرى، ومن ثم الاستراتيجية المصرية، لم يكن ممكنًا سوى بسبب التطورات الرئيسية فى السفر بالسفن فوق مياه البحر المتوسط فى تلك الفترة. وبصفة خاصة، صارت الرحلات الطويلة بعرض البحر المتوسط مجدية بعد أن صارت القوة البحرية الغربية سائدة، وبعد أن تزايدت أحجام السفن وطاقتها وإمكانياتها، وكانت الصعوبات الكبيرة التى واجهت نقل الجيوش الكبيرة قد تم حلها أيضا نتيجة للتقدم الفنى والتكنولوچى. ومن الأمور ذات الأهمية الخاصة كان حل مشكلة نقل الخيول بالسفن، لأنه دون هذه الخيول كانت الجيوش التى يشكل الفرسان قلبها تتضاءل بحيث تصبح عديمة الفائدة من الناحية العملية. ويبدو أن الحملة الصليبية التى قام بها البنادقة سنة ١١٢٣م كانت هى الحملة الأولى التى نقلت الخيول مباشرة إلى الأرض المقدسة؛ وعندما جاء زمن الحملة الصليبية الثالثة كانت هذه الممارسة قد باتت مألوفة. وكما لاحظنا من قبل، على أية حال، يجب أن نحترس من تصور منحنى ثابت للتعلم فى ممارسات الحركة الصليبية، فعلى سبيل المثال، من الواضح أنه على الرغم

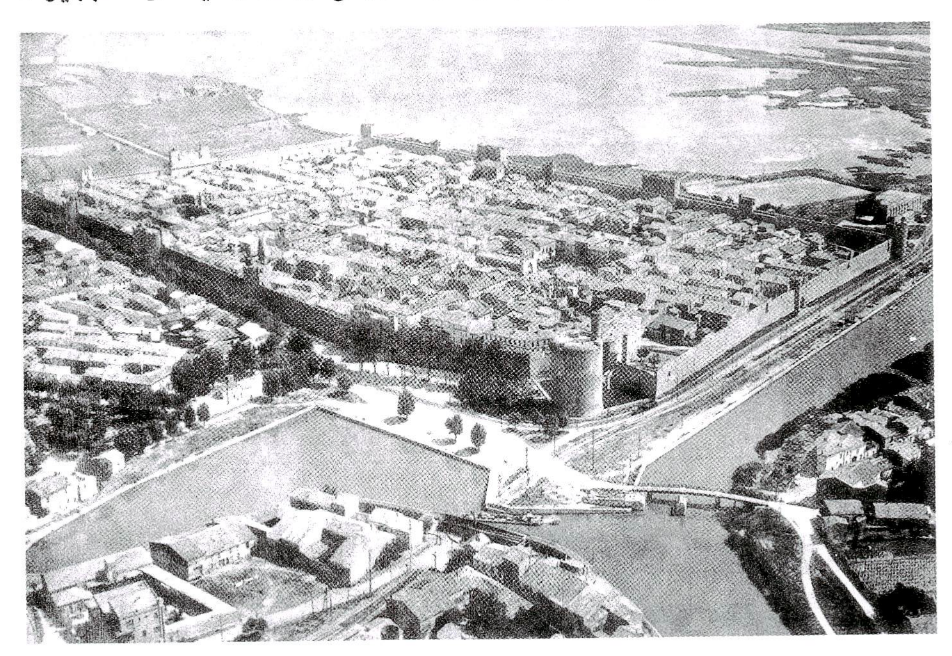
(*) المقصود بالاستراتيجية المصرية هنا، ما حدث بعد الحملة الصليبية الثالثة، عندما صارت مصر هدف الحملات الصليبية التالية كلها على أساس أنها القوة الرئيسة فى المنطقة العربية، وأن احتلالها، أو تحييدها على الأقل، يضمن الأمن للكيان الصليبى فى فلسطين وبلاد الشام. والمثير أن الحركة الصهيونية وحلفاءها من الرأسمالية الأوربية- الأمريكية، يتبعون نفس الاستراتيجية الآن. (المترجم)

من أن التخطيط المسبق للويس التاسع للنزول على الشواطئ المصرية، كان أسطوله في سنة ١٢٤٨م سيئ التجهيز للمهمة لأنه كان مكونًا من السفن الشراعية في معظمه والتي كانت ترسو تمامًا قبل الوصول إلى الأرض الجافة، وكان على الفرسان أن يخوضوا الماء بخيولهم حتى الشاطئ. لقد كان المطلوب هي السفن ذات المجاديف، حسبما كان الإمبراطور فردريك الثاني قد قدّر سنة ١٢٢٤م، عندما كان يستعد لمهاجمة مصر المقصد الأصلي لحملته الصليبية.

فإذا ما تحولنا إلى المؤن والإمدادات، فإنه يبدو أن كلاً من لويس السابع وكونراد الثالث قد تعلما من تجربة الحملة الصليبية الأولى، وعلى كل حال، سعى كلاهما قبل الرحيل إلى ضمان امتياز إمدادات الطعام والمرور الآمن من الحكام الذين كانت أراضيهم ممرًا للقوات. وفي سنة ١١٤٦م، مثلاً، كتب لويس السابع بهذا الخصوص إلى روجر الثاني- وكان الطريق البحري لا يزال خيارًا متاحًا- وإلى الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس، وإلى كونراد نفسه إلى الملك جيزا ملك المجر. كما أن لويس وكونراد وضعا تواريخ مختلفة للرحيل لتسهيل مشكلات الإمداد والتموين والنظام لأنهما كانا سيأخذان نفس الطريق، ولن تنضم قواتهما سوى في القسطنطينية.

وقد أدى التحول للطريق البحري إلى تغير الأمور تغيرًا شديدًا. وتوضح العقود الباقية أنه كان من الأمور العادية أن يوافق أصحاب السفن على تقديم إمدادات الطعام والنبيذ (أو الماء) للقوات المختصة لعدد من الأشهر يتم الاتفاق عليه من لحظة الإبحار. وفي بعض الأحيان كانت المواد الاستهلاكية الأخرى، وعلف الخيول ضمن الاتفاق. وبالإضافة إلى ذلك، كان قادة الحملات الصليبية وكبار السادة الإقطاعيين المرافقين يعملون على توفير الإمدادات من المواد الغذائية مقدمًا ويرسلونها قبلهم إلى ميناء السفر، أو في حالة ريتشارد الأول، ينقلونها إلى الشرق على سفنهم : إذ إن كميات كبيرة من لحم الخنزير، والحبوب، والجبن، والدقيق، والبسكويت، والسمك المقدد، والنبيذ، والعصائر وغيرها من المواد الاستهلاكية كانت قد شحنت على ظهور سفن أسطوله عندما أبحر سنة ١١٩٠م. أما لويس التاسع، فبغض النظر عن جمع المؤن في

ميناء أيجيس مورتيس، فإنه وضع كميات ضخمة من النبيذ والحبوب فى قبرص مقدماً قبل حملته الصليبية الأولى. ويتحدث چون جوانڤيل فى فقرة شهيرة فى عجب عن جبل براميل النبيذ وتلال القمح والشعير. وكان من الطبيعى أن كل وسيلة من التجهيزات



أيجيس مورتيس كانت واحدة من الأماكن القليلة على البحر المتوسط، ولها مرفأ طبيعى، تحت السيطرة المباشرة للملكية الفرنسية فى القرن الثالث عشر. وهذا المكان هو الذى اختاره لويس التاسع لبناء مدينة جديدة خصيصاً لرحيل حملته الصليبية فى سنة ١٢٤٨م. ولكن معظم المدينة آنذاك تم بناؤه من الخشب. والأسوار والأبراج التى تظهر هنا من أعمال ابنه فيليب الثالث فى معظمها.

العسكرية قد جمعت أيضاً فى كميات كبيرة لكى تشحن بالسفن. والتقارير الباقية على الرغم من أنها شذرات متناثرة، تقدم لنا تفاصيل شراء أقواس السهام والنشابيات، والأسهم والدروع، وحدوات الخيول، والعوارض والأوتاد وما إلى ذلك، كما تكشف تقارير المؤرخين عن وجود مواد أخرى فى الحملة. وكان بوسع الصليبيين، بطبيعة

الحال، أن يأملوا فى شراء المؤن والأسلحة والخيول وغيرها من الضروريات فى الأرض المقدسة. ولكن التقارير الباقية تكشف كيف كان يمكن أن تكون هذه غالية مع نزول القوات الصليبية الذى يرفع الأسعار بشكل حاد.

وإذا ما كان هدف الرحلة مصر، فمن الواضح إذن أنه كان ينبغى أن تحمل السفن من الغرب أكبر ما يمكن من المواد. فقد كان يبدو معقولاً بالنسبة لقادة أية حملة صليبية أن يخططوا بشكل مركزى وأن يقدموا مثلا آلات الحصار لقواتهم ككل، وأن تأخذ كل فرقة منفردة معها ما تستطيع حمله.

ويخبرنا چون چوانڤيل،كيف أنه وكونت شاربروك، وفرسانهما الثمانية عشرة قد سافروا فوق سطح نهر الساؤون ونهر الرون إلى مرسيليا سنة ١٢٤٨م، على حين كانت خيول الحرب المملوكة لهم تساق على امتداد ضفة النهر، وهم يصاحبون مؤنهم المحملة فى القوارب. وأخيرًا، كان الصليبيون بحاجة إلى أن يأخذوا من النقود ما يمكنهم لمواجهة النفقات التى كان لابد أن يتكبدوها فى الحملة. وكان هذا الأمر بالنسبة لقادة الصليبيين ذا أهمية خاصة لأن هذه النقود كانت ستكفى، على الأقل، للوفاء ببعض حاجات أتباعهم، كما أن النقود كانت مهمة أيضًا للحفاظ على مستوى قواتهم. وهناك مثال على هذا عندما أخذ ريتشارد الأول على عاتقه أن يدفع فى الحملة الصليبية الثالثة لأولئك الصليبيين الذين كانوا قد استنفدوا مواردهم. وكان يمكن أيضًا أن تكون النقود حاسمة لحفظ النظام الداخلى فى الجيوش الصليبية.

وكان التنظيم، وبناء القيادة، والانضباط موضوعات حرجة على الدوام، لاسيما بالنسبة للحملات الصليبية الكبيرة التى تشترك فيها عدة دول وتضم فرقًا عسكرية جاء أغلبها من الغرب. وكانت الوحدات الأساسية، وحواشى الفرسان الأفراد والسادة الإقطاعيين يخضعون لبنائهم ونظامهم الخاص ؛ ولكن المشكلة كانت تتمثل فى كيفية ربط هذه الوحدات لكى تشكل قسمًا أكبر، ولكى تؤسس بالتالى بناء قيادة راسخًا على

كل الأقسام التى تشكل جيشًا واحدًا . فقد أظهرت المنافسات بين قادة الحملة الصليبية الأولى والملوك الذين قادوا الحملة الصليبية الثانية والثالثة الحاجة للاعتراف بقيادة عليا يتم تعيينها قبل الرحيل، أو على الأقل عند الوصول إلى الشرق. وقد شهدت الحملة الصليبية الأولى أول محاولة فى هذا الاتجاه مع تعيين ثيبو دى شامبانى أولاً، ثم بونيفاس دى مونتفرات بعد موته. وعندما كانت الحملة الصليبية تخرج تحت قيادة حاكم له مكانته، لم تكن تظهر هذه المشكلة. فقد كان لويس التاسع، مثلاً، هو القائد العام بلامنازع فى الحملتين اللتين قام بهما . بيد أن قبول قائد عام لم يكن دائمًا يكفى بحد ذاته لضمان التماسك والنظام. وفى استجابة لهذه المشكلة جزئيًا توصل القادة الصليبيون إلى استخدام العقود الرسمية التى كان يتم تحريرها قبل الرحيل، وفيها كانت تُحدد بدقة التزامات الخدمة فى الحملة الصليبية فى صيغة قانونية مُلزمة. وربما كانوا يستخدمون هذه العقود فى القرن الثانى عشر ؛ وإذا كان ذلك كذلك فإن أيًا من هذه العقود لم يصلنا . وفى غضون القرن الثالث عشر، صارت هذا العقود أكثر شيوعًا، كما انتشرت بالنسبة لأشكال أخرى من الشئون الحربية، وقد وصل هذا التطور مداه فى حملتى لويس التاسع. وعلى كل حال، فإن صليبية ١٢٧٠م كانت منظمة من قمتها إلى أدنى مستوياتها من خلال استخدام العقود. أما بالنسبة لحاشية لويس نفسه فى الحملة الصليبية فقد كان هناك حوالى ٤٠٠ فارس ارتبطوا معه بعقود، وكان على لويس أن يمنح المال، والنقل، والسكن فى بعض الأحيان، فى مقابل خدمة عدد معين من الفرسان يقدمهم المتعاقد.كذلك تعاقد لويس مع قادة الفرق العسكرية، مثل ألفونس دى بواتييه وجاى فلاندرز وروبرت دأرتوا وإدوارد الإنجليزى. وكان عليهم أن يضمنوا خدمة عدد محدد من الفرسان تحت قيادتهم، ولذلك فإنهم بدورهم استخدموا العقود، التى بقى بعضها حتى الآن. وباختصار تقدم حملة سنة ١٢٧٠م الصليبية أكمل صورة لحملة صليبية كبرى متعددة الجنسيات تم بناؤها بواسطة العقود، سواء فيما يتعلق بالنقل بالسفن أو ما يتعلق بتجنيد الرجال. لقد كانت الحركة الصليبية، فى ضوء الاعتبارات التى ذكرناها قد قطعت شوطًا طويلاً فى التطور عن الحملة الصليبية الأولى.



فى هذا العقد الذى يرجع تاريخه إلى يوليو ١٢٧٠م، يوافق فارسان إنجليزيان هما باين دى شاورث وروبرت ثايبتوت، على خدمة إدوارد الإنجليزى فى الحملة الصليبية مع خمسة فرسان بصحبة كل منهما فى مقابل النقل بالسفن والمياه ومبلغ مائة مارك لكل فارس. وقد خُتم العقد بالأختام الخاصة بهم. وفى ذلك الحين كان استخدام العقود فى الأغراض الصليبية قد صار شائعًا.

بعض التأثيرات الناتجة عن ذلك :

إن حركة تنوعت وزادت كثافتها لتصبح ظاهرة على هذا القدر من الاكتمال وتعدد الجوانب مثل الحركة الصليبية لم تكن لتمر دون أن يكون لها عواقب خطيرة فى ذلك الزمان. والواقع أن آثار الحركة الصليبية كانت بلا حدود؛ إذ إن جوانب قليلة من جوانب الحياة فى العالم الغربى المعاصر، ناهيك عن جيرانه المباشرين، هى التى لم تتأثر بطريقة أو بأخرى، وبشكل مباشر أو غير مباشر. فعلى مسرح تاريخ العالم، لعبت

الحركة الصليبية دوراً رئيسيًا فى إعادة رسم الخريطة السياسية والثقافية، لأنها تحكمت بصورة عميقة فى عملية توسع العالم المسيحى اللاتينى، مما أسهم فى ظهور دول لاتينية جديدة فى شمال شرق أوربا، وفى شبه جزيرة أيبيريا، وفى الشرق بطبيعة الحال، على الرغم من أن بعض هذه الدول لم تعمر سوى بصورة مؤقتة. وفى داخل الغرب، أدت تطبيقات الحركة الصليبية المختلفة إلى تشكيل بعض التطورات السياسية، بل حسمتها بشكل قاطع. كان أبرزها انتصار البابوية على أباطرة الهوهنشتاوفن الذين كانوا يهددون بالإطاحة بها. وصار مصير الأجزاء المختلفة من إمبراطوريتهم يمثل الموضوعات الرئيسية فى السياسات الدولية أواخر القرن الثالث عشر وبعده بزمن طويل. ومرة أخرى، فعلى الرغم من أن الحملة الصليبية الألبيچنسية لم تقض تمامًا على المذهب الكاثارى المخالف- فقد كانت أداة عقيمة أكثر من اللازم - فإنها تركت تأثيرات سياسية وثقافية عميقة فى جنوب فرنسا، وكان المستفيد الرئيسى منها هو التاج الفرنسى. فللمرة الأولى، ونتيجة مباشرة للحملة الصليبية، امتدت السلطة الملكية الفرنسية حقًا فى لانجدوك حتى وصلت إلى البحر المتوسط. وكانت البابوية تسعى، من خلال إعلانها للحملات الصليبية، إلى إضفاء الحق على مزاعمها بشأن حقها فى توجيه شئون العالم المسيحى فى تلك الفترة، وهى رؤية كانت أقرب إلى أن تتحقق فى بابوية إنوسنت الثالث.

وعلى مستوى آخر، كانت الحركة الصليبية مهمة فى المساعدة على تغيير آراء الغربيين عن أنفسهم، وزادت من سرعة العملية التى جعلتهم يتوصلون إلى تقدير أنهم يمتلكون هوية مشتركة تضرب بجذورها فى تراث ثقافى مشترك، على الرغم من الصعوبات المحلية التى تواجههم. وبما أن الخاصية المتمايزة والموحدة لهم كانت الثقافة المسيحية اللاتينية، فإن الفجوة الشاسعة التى كانت تفرق بين الغربيين وغير الغربيين كانت دينية فى مفهومها أساسًا. وبهذا المعنى، كانت الحملات الصليبية، بوصفها حروبًا إيديولوچية كلية، قد زادت بشكل واضح من اتجاه معاداة الأجانب فى ثقافة الغرب الأوربى، وهو اتجاه كان ساكنًا حتى ذلك الحين، كما زادت من حدة الصورة

الحصرية للعالم التى كان الغرب يرى من خلالها أن التفوق الثقافى للمسيحية اللاتينية أمر مسلم به. وكانت هناك نتيجة أخرى تتصل بهذا تمثلت فى التغير الخطير الذى طرأ على العلاقات المسيحية- اليهودية داخل الغرب، وكانت مذابح سنة ١٠٩٦م شهادة على موقف اضطهادى جديد سرعان ما أثبت نفسه فى قلب الثقافة الغربية. وثمة تغير آخر فى المفاهيم يكمن فى الطريقة التى كانت بها الحركة الصليبية، باعتبارها نموذجًا وفى الممارسة الواقعية، قد توغلت فى قيم الفروسية، وبذلك أسهمت بحدة فى وعى طبقة الفرسان بذاتها وفى المسافة الثقافية التى فصلت بين أولئك الذين حازوا مرتبة الفروسية والطبقات الاجتماعية الأخرى.

ويمكن أن نرى أثر الحملة الصليبية بطريقة أكثر دنيوية فى كل مكان، بيد أن المساحة لاتسمح سوى بقائمة جزئية للغاية هنا . فمن خلال المسح الذى عرضناه فى الصفحات السابقة، سيكون واضحًا أنه بينما كانت الحركة تتطور، صار المزيد والمزيد من الغربيين يحتكون بها مباشرة. وبحلول منتصف القرن الثالث عشر، مثلاً، كان يمكن أن تكون هناك أقلية من النساء والرجال العاديين هم الذين لم يسمعوا على الأقل موعظة صليبية واحدة، وربما أكثر من ذلك، فى حياتهم؛ وعندما تم تطبيق سياسة الإعفاء من القسم الصليبى مقابل المال والتوسع فيها، زادت أعداد من كانوا يأخذون الصليب من المعاصرين. ومرة أخرى مع التوسع فى فرض الضرائب الصليبية وغيرها من وسائل جمع المال لتمويل الحملات الصليبية، كانت هناك زيادة تدريجية فى عدد الجيوب التى خرجت منها هذه الأموال ؛ سواء كان أصحابها من الفلاحين أو سكان المدن أو رجال الكنيسة، أو غيرهم. ومن الواضح أن عطش الصليبيين إلى المال كان يمثل فرصًا لأولئك الذين كانوا يرغبون فى مد مصالحهم إلى أماكن بعينها، مثلاً لأن أسواق المؤن والإمدادات كانت تروج تمامًا فى أوقات خروج الحملات الصليبية. كذلك تعززت ثروات الجمهوريات البحرية الإيطالية بوضوح بسبب طلبات الصليبيين من النقل بالسفن والإمدادات، كما أن تأسيس المستوطنات اللاتينية فى الشرق أتاح لهذه الجمهوريات مد عملياتها التجارية. كما وفرت الحاجة إلى الأسلحة، والمواد الغذائية

وغيرها من الضروريات نمواً مؤقتًا فى الطلب داخل أوطان الصليبيين على طائفة كبيرة من المواد، على الرغم من أنه يستحيل أن نعرف ما إذا كان الدافع الاقتصادى النابع من الإنفاق على الحملات الصليبية أقل وزنًا من التمزق الذى سببته الحملات الصليبية أيضا فى الحياة الاقتصادية.

وهذه ليست سوى بعض أهم الآثار التى خلفتها الحركة الصليبية فى هذه الفترة وأكثرها وضوحًا، ولكن شيئًا لم يذكر هنا بشكل مباشر عن التأثير على الصليبى نفسه، وعائلته، وأصدقائه ورفاقه. بيد أنه عند هذا المستوى الشخصى والإنسانى نفسه ربما تكون الحركة الصليبية قد تركت أقوى تأثير لها وأكثرها حدة على أولئك الذين وقعوا فى شباكها آنذاك. ومثلما هو الحال فى كل الحروب، عاد كثير من المشاركين بجروح جسدية أو عاهات عقلية ؛ إذا رجعوا أصلاً ؛ ولم يكن ممكنًا أبدا أن تعود حياتهم إلى سيرتها الأولى. ولم يكن ممكنًا أن تعود حياة زوجات الصليبيين وأطفالهم كما كانت أبدًا، وكذلك أولئك الذين ارتبط مصيرهم بمصير الصليبى لسبب أو لآخر. إن البحث التاريخى الحديث يبدأ الآن فقط فى دراسة تأثير الحركة الصليبية على هذا المستوى الأساسى.

(٤)

حالة الصليبيين الذهنية تجاه الشرق ١٠٩٥م - ١٣٠٠ م

جوناثان رايلى سميث

جذبت الحركة الصليبية رجالاً ونساءً من جميع الطبقات. وكان انضمام الجماهير إلى الحملة الصليبية الأولى فى رأى أحد المعاصرين ناتجًا عن الفوضى، وعن تسمم وبائى كان يجتاح غرب أوربا، وعن محنة اقتصادية. وقد وصفت المصادر ما بدا أنه سفر للهجرة، يسير فيه الكثير من الفقراء مرتحلين «وقد أثقلتهم الزوجات، والأطفال، وحاجياتهم المنزلية». ولم يكن البابا أوربان الثانى يريد للرجال والنساء غير اللائقين من هذا النوع أن ينضموا إلى حملة عسكرية - وكان قد كتب سنة ١٠٩٧م أنه كان «يحفز عقول الفرسان» ولكن لأنه كان قد دعا إلى الحملة الصليبية باعتبارها «رحلة حج» بالضبط، أى نشاط دينى مكفول للجميع، فإنه هو وخلفاؤه وجدوا أنه من الصعب منع الرحيل غير الملائم (لغير المقاتلين)، حتى بعد أن كان إنوسنت الثالث قد وجد الحل فى البدل النقدى للذهاب فى الحملة الصليبية. وفى النهاية، أثبتت تكاليف الإسهام فى الحملة أنها أكثر فعالية من التثبيط الرسمى. وبدا أن هناك أعدادًا كبيرة من الفقراء فى الجيوش التى سارت برًا باتجاه الشرق، ولكن ما إن بدأت الحملات تأخذ طريق البحر لم يعد الفقراء قادرين على تحمل نفقات السفر. وعلى الرغم من أنه كان هناك دائمًا بعض منهم يخلقون المشكلات للقادة كما رأينا، فإن أعدادهم تناقصت، على حين أن حملاتهم الصليبية التى كونوها بأنفسهم، التى ربما يكونون قد كونوها ردًا على

استبعادهم من الحملات التى كانت قد بدأت تصبح أكثر احترافًا- حملة الأطفال ١٢١٢م، والحملة الصليبية الشعبية سنة ١٣٠٩م، والحملات الصليبية للرعاة سنة ١٢٥١م وسنة ١٣٢٠م – لم تنجح أبدًا فى الخروج من أوربا الغربية.

لقد كانت الجماهير عنصراً مهمًا، وإن يكن غير منظم، ومن المخيب أنه لايكاد يوجد دليل لدينا على الطريقة التى كانوا يفكرون أو يشعرون بها. وعندما نأتى إلى الصليبيين الأكثرقدرة، مثل التجار، والحرفيين، والمزارعين تبرق ومضات من الضوء بين الحين والحين. فعلى سبيل المثال، حدث فى ديسمبر سنة ١٢١٩م أن حرر بارزيللا مركسادروس، وهو مواطن من بولونيا، وصية عندما كان مريضًا بمرض خطير فى معسكر بدمياط فى مصر. وجعل زوجته جوليتا وريثته فى أية أملاك أو غنائم قد تخصص له وحاول أن يضمن أنها سوف تحتفظ بمكانها فى الخيمة التى كانوا يتشاركون فيها مع صليبيين آخرين. ولكن مثل هذه النظرات الداخلية نادرة، ولانجد من الأدلة الجيدة سوى تلك التى تدل على مشاعر النبلاء من ملاك الأراضى والفرسان فقط. وكان أكثرهم ثراء بارزين بما يكفى لأن يرد ذكرهم مرارًا وتكرارًا فى الروايات السردية، وكانت لهم مواقع اجتماعية يشغلونها ومن ثم فإن تكاليف عائلاتهم فى الحملة الصليبية كانت متوفرة، وبما أنهم كانوا يمتلكون ممتلكات كان يمكن عرضها للبيع فى مقابل الحصول على النقود، فإنهم تركوا وثائق غالبًا ما تحوى معلومات لاتقدر بثمن عن حالاتهم الذهنية.

الصليبيون «أخذوا شارة الصليب» وهو ما كان يتضمن أن يقسموا قسمًا من نوع خاص، غالبًا أمام تجمهر عام عاطفى تحت تأثير المبشرين الذين كان عملهم هو إلهاب مستمعيهم بحماسة مسعورة. وكان هناك افتراض بأنه بحلول الربع الثالث من القرن الثانى عشر كان أخذ راية الصليب والطقس الذى يمنح الحاج رموز الكيس والعكاز قد بدأ يظهر فى احتفال منفرد. وربما يكون هذا هكذا، بيد أن الطقوس كانت أصلاً متمايزة. وقد مرّ الملك لويس السابع ملك فرنسا باثنين منها، ينفصل كل احتفال منهما

زمانًا ومكانًا عن الآخر، عندما كان يجهز للحملة الصليبية الثانية. فقد أقسم على القيام بالحملة الصليبية فى ٣١ مارس ١١٤٦م فى ڤيسيلى، حيث كان قد احتشد جمع كبير. وأخذ لويس وكبار النبلاء شارة الصليب فى احتفال شبه خاص، تم فيه إعطاء الملك الصليب الذى كان البابا قد أرسله. وانضم إلى المبشر سان برنار الكيرڤويى فى الاجتماع العام ووقف على منصة معه مرتديًا الصليب، لتشجيع الحاضرين. هكذا كانت الحماسة التى قوبلت بها خطبة سان برنار قوية لدرجة أن حزمة الصلبان القماش التى كانت قد أعدت للتوزيع نفذت واضطر برنار إلى تمزيق ثياب الرهبنة التى يرتديها إلى شرائط لكى يوفر المزيد من الصلبان القماش. ثم حدث بعد أكثر من سنة فى يونيو ١١٤٧م، وفى كنيسة سان دونى، أن تلقى لويس من يدى البابا رموز الحج الكيس وراية الحرب، وهى راية الحرب الخاصة بالتاج الفرنسى التى كانت تؤخذ بدلاً من العكاز.



أخذ الصليب : صليبى يتلقى صليبه من أسقف ؛ وكان قد أعطى بالفعل الحقيبة (الكيس) وعكاز الحاج.كانت الاحتفالات المنفصلة وتلقى الرموز قد ظهرت أواخر القرن الثانى عشر.

هذه الإجراءات كانت متشابهة فى كل مكان فى العقود الأولى من تاريخ الحركة الصليبية. وبعد أن يكون النبلاء والفرسان قد أخذوا شارة الصليب، كان لابد لهم من القيام بترتيبات خاصة لتلقى الكيس والعكاز، وربما أيضا البركات التى تظهر فى الطقوس، التى جاءت فى الفترة اللاحقة، والتى كانت تتم على يدى أسقف محلى، أو مقدم دير قريب، أو رئيس رهبان. وفى بعض الأحيان كان الاحتفال الثانى مرتبطا بترتيبات مالية مع الجماعة الدينية، أو بمنح هبة لها. فعلى سبيل المثال، حدث فى يوم ٢٢ مايو سنة ١٠٩٦م بقاعة الاجتماعات فى دير ليرين Lérine، أن منح فولك دون، أمير شاتو رينار قدراً كبيراً من الممتلكات لهذا الدير. وتسلم منديل مائدة (بدلاً من كيس الحجاج) وعكازا من مقدم رهبان الدير الذى ضمه إلى الحملة الصليبية كنوع من التوبة والتكفير عن الذنوب، كما أعطاه بغلاً. هذه النوعية من الاحتفالات ربما تكون قد استمرت زمنًا طويلاً بعد أن ضُم الطقسان سويًا: ففي سنة ١٢٤٨م تلقى چون چوانڤيل رموز الحج، ومن الواضح أنه تلقاها وحدها من مقدم رهبان دير شمينون.

وبتقديم الصليب رمزًا مرئيًا لقسم الالتزام (بالرحلة الصليبية)، ربط أوربان بين أخذ الصليب وارتدائه، بطريقة مشحونة للغاية، وبين تعاليم المسيح «**وكل من ترك بيوتا أو إخوة أو أخوات أو أبًا أو أمًا أو امرأة أو أولادًا أو حقولاً من أجل اسمى يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية**» (متى ١٩:٢٩) و« ... **إن أراد أحدكم أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى**» (متى ١٦ : ٢٤) ومن بلاد الشام كتب زعماء الحملة إليه باعتباره «أنت يا من جعلتنا خطبك نترك جميعًا بلادنا وما فيها وأمرتنا بأن نتبع المسيح بأن نأخذ صلباننا».

وقد استجاب بعض الرجال بطريقة هيستيرية، فوسموا أجسادهم بالصلبان، بيد أن مرأى صلبان القماش المعتادة لابد أنه كان مذهلاً بما يكفى. وثمة تمثال يرجع إلى أوائل القرن الثانى عشر من دير بلڤال فى اللورين يوضح أحد الصليبيين مرتديًا على صدره صليبًا مصنوعًا من شريط قماش عرضه ٥ سم، ويبدو الصليب وكأن مقاسه ١٥×١٥سم. وسرعان ما صارت الفرق العسكرية تميز نفسها بطراز الصليب الذى

ترتديه أو لونه- ويبدو أن هذه الممارسة قد استحدثت فى أواخر أربعينيات القرن الثانى عشر، لأن الصليبيين الونديين (من شرق ألمانيا)، كانوا يضعون شارة عليها صورة الصليب مركبًا فوق كرة- وكما رأينا بالفعل، فى اجتماع التخطيط للحملة الصليبية الثالثة تقرر أن يضع الفرنسيون المشاركون فى الحملة الصليبية صلبانًا حمراء، ويضع الإنجليز صلبانًا بيضاء، على حين يرتدى الفلمنكيون الصلبان الخضراء.

وكان من المتوقع أن يضع الصليبيون صلبانهم على ملابسهم فى جميع الأوقات حتى يعودوا إلى بلادهم عندما يبرون بالقسم الذى قطعوه على أنفسهم: فى سنة ١١٢٣م أشار الأساقفة فى مجمع اللاتيران الأول إلى أولئك «الذين خلعوا صلبانهم دون أن يرحلوا». ومن ثم فلابد أنه كان يمكن تمييز من هو الصليبى وكان هذا أمرًا مهمًا. وقد كان زعماء الحملة الصليبية الأولى مقتنعين أنه كان هناك احتياطى من القوة البشرية الإضافية فى الغرب لايمكن الاستغناء عنها سوى إذا أرغمت الكنيسة المتقاعسين على الوفاء بأيمانهم وكانت المطالب من هذا النوع على مدى تاريخ الحركة الصليبية وبذلت محاولات من فترة لأخرى لتقدير حجم الاحتياطى من «الصليبيين الزائفين». ولكن كان من الأسهل كثيرًا الوقوف فى وجه أولئك الذين عاودوا التفكير من أن يجعلوهم يقومون بما كانوا قد وعدوا به.

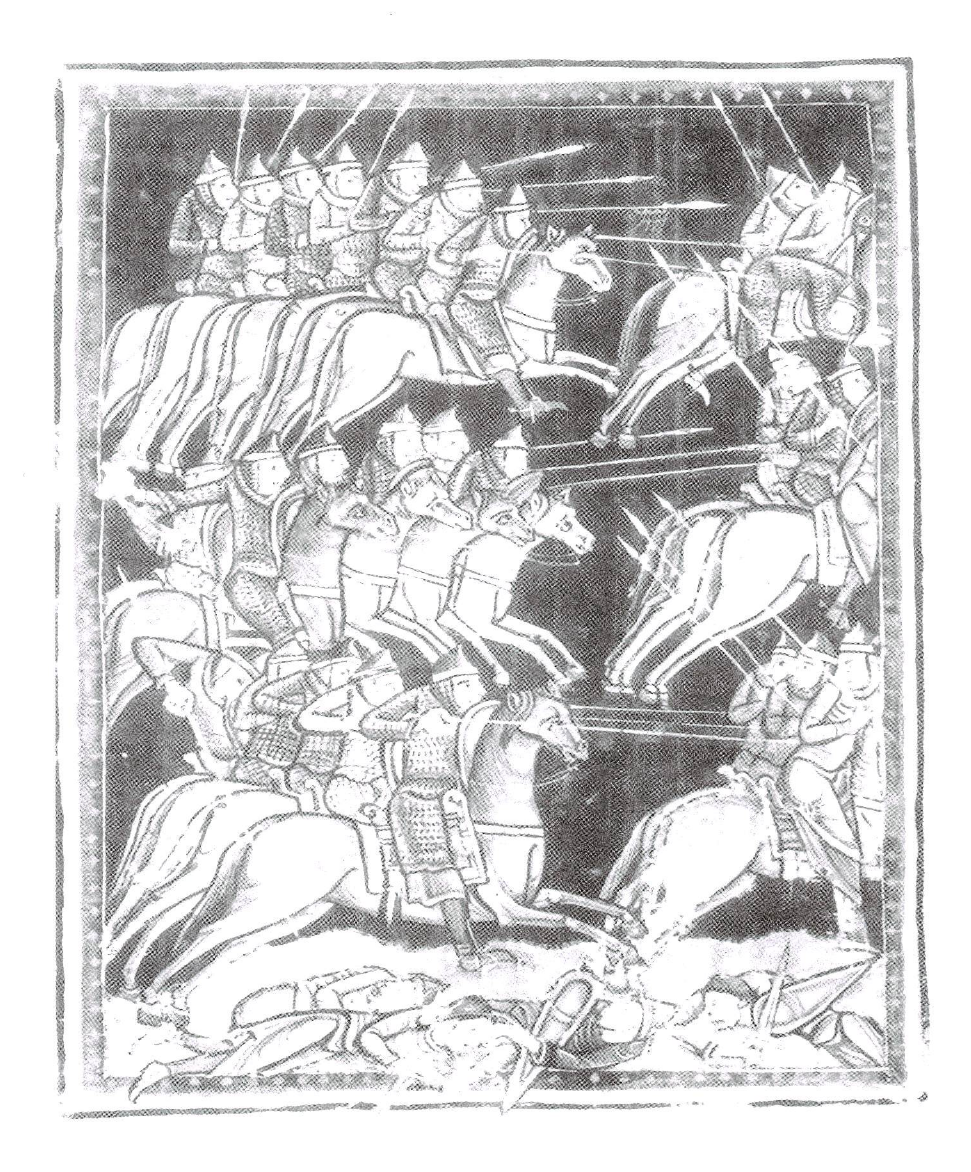


صورة صليبى تحضنه زوجته : تمثال يرجع إلى أوائل القرن الثانى عشر من رواق دير بلڤال فى اللورين. ويرتدى الصليبى ثياب الحاج ومعه الكيس والعكاز، والصليب القماش على صدره، وكان عليه أن يرتديه حتى يتم الوفاء بالقسم الذى قطعه، واضح تماماً.

وكان هناك سبب آخر لأهمية معرفة من الذى كان قد أخذ الصليب وهو أن الصليبيين كانوا يتمتعون بحقوق خاصة. وفى البداية كانت هناك فوضى، حتى بين كبار رجال الكنيسة، بشأن أحد الامتيازات التى منحها لهم مجمع كليرمون على الأقل، وهو التزام الكنيسة بحماية عائلاتهم وأملاكهم فى فترة غيابهم، وقد أحس هيو الثانى أمير لابوسيه، والذى كان قد أخذ الصليب للاشتراك فى الحملة الصليبية سنة ١١٠٧م، أنه مهدد من قبل قلعة شيدها الكونت روترو دى مورتانى على أرض مزرعة فى ڤيسكونتيته، والذى كان بالصدفة مشاركًا فى الحملة الصليبية الأولى. وقام أسقف هيو،المدعو إيڤو الشارترى، على الرغم من كونه أحد كبار رجال القانون الكنسى فى زمانه، بتمرير القضية إلى القضاء العلمانى. واندلع العنف ولجأ هيو إلى البابا الذى أعاد فتح القضية، وأوضح إيڤو أن رجال الكنيسة لم يتمكنوا من الاتفاق على ما ينبغى عمله، لأن «هذا القانون الذى يقضى بحماية الكنيسة أملاك الفرسان الذاهبين إلى القدس كان جديداً. ولم يعرفوا ما إذا كانت الحماية تنطبق فقط على ممتلكات الصليبيين أم أنها تنسحب أيضًا على تحصيناتهم».

وبحلول القرن الثالث عشر، على أية حال، كان قد تم تحديد الامتيازات بوضوح، بحيث تعطى الصليبيين امتيازًا فى القانون، لأن الكثير منها كانت ذات مضامين قانونية. وإلى جانب الغفران، الذى سنتحدث عنه كثيرًا فيما يلى، والحماية، كانت هذه الامتيازات تتضمن تأخير القيام بالخدمة الإقطاعية أو الفصل فى القضايا حتى العودة أو الفصل بسرعة فى القضية المعروضة أمام المحكمة قبل الرحيل؛ أو قرارًا بتأجيل الوفاء بالدين أو دفع الفوائد: والإعفاء من الرسوم والضرائب؛ حرية القسيس فى التمتع بدخل وظيفته وهو غائب in Absentia، وحرية الفارس فى بيع أو رهن الضياع الإقطاعية أو الممتلكات غير القابلة للتحويل لكى يحصل على النقود؛ التصريح بعقد صفقات مع الواقعين تحت عقوبة الحرمان والتحرر من عواقب الحرمان؛ القدرة على استخدام القسم الصليبى بديلاً عن قسم آخر لم يتم الوفاء به بعد؛ والحق فى الحصول على الاعتراف أمام شخص ذى صلاحيات واسعة فى الغفران.

وكان من الواضح أن الصليبيين كانت لهم صورة سامية، ولم يقم أحد حتى الآن بدراسة التأثيرات على مكانتهم الاجتماعية من جراء انغماسهم فى مثيل هذا النشاط المهيب، وليس هناك سوى قدر قليل من الشك فى أن لقب «المقدٍّس أو القدسى Jerusol-imitanus»، الذى اتخذوه، كان يجلب عليهم الشرف فى المناطق المجاورة لهم بل على المستوى الدولى. وعندما قام بوهيموند بجولة فى فرنسا سنة ١١٠٦م، فى انتصار بلغ أوجه فى زواجه من ابنة ملك فرنسا فى كاتدرائية شارتر، أراد كثير من النبلاء الفرنسيين أن يكون كل منهم الأب الروحى لأطفاله. وتحدث عن مغامراته إلى جمهور كبير من السامعين كما أن تجاربه كسجين لدى المسلمين قد أُدمجت فى معجزات mira-cula سان ليونار، الذى تباهى بزيارة ضريحه. وبعد جيلين أو ثلاثة أجيال من الحملة الصليبية الأولى كانت العائلات لا تزال تفخر بأجدادها الذين كانوا قد حاربوا فى صفوف هذه الحملة.



مذبحة الحرب : مشهد معركة من كتاب إنجليزى عن حياة سانت إدموند، تم تزيينه بالرسوم سنة ١١٣٥م وهناك الكثير من الأدلة على أن الصليبيين غالبًا ما كانوا خائفين وقلقين.

وكانت هناك نتيجة أخرى من عواقب حمل شارة الصليب لم تكن محل حفاوة، وهى نتيجة غالبًا ما تجسدت فى الخزى والعار. ولم تشهد العصور الوسطى جماعة انصبت على رؤوسها مثل هذه الانتقادات الشنيعة مثلما حدث للصليبيين. وكان سبب ذلك،، أنه لم يكن ممكنًا أن تُعزى الهزيمة أو الفشل فى حرب جرت باسم الرب إلى الرب نفسه، وإنما كان يمكن فقط نسبتها إلى عدم جدارة أدوات الرب، مثلما جاء فى العهد القديم، وهم هنا جنود المسيح. ولأن الضرورة الإيديولوچية كانت تقتضى توجيه اللوم إليهم عند كل هزيمة أو إخفاق، فقد خضع الصليبيون لسيول من الإساءة الناجمة عن ردود الأفعال فى بلادهم إزاء الكوارث التى وقعت منذ سنة ١١٠١م، فصاعداً.

ولكن، أسواء كانت الحملة الصليبية ناجحة أم فاشلة، فقد خاطر كل صليبى بالموت، أو الإصابة أو الخراب المالى، كما أن الوعى بهذا ظلل الوثائق التى أصدرها الصليبيون قبل رحيلهم كما لو كان سحابة. ففى سنة ١٠٩٦م منح «ستيفن بلوا» غابة من أملاكه لدير «مار موتييه» «... لكى يغفر لى الرب، بشفاعة سان مارتان ورهبانه، ما فعلت ويرشدنى فى الرحلة خارج موطنى ويعيدنى سالمًا معافى، ويرعى زوجتى أديلا وأطفالنا». لقد كان هو وكثير غيره يجدون الراحة فى فكرة أن صلوات طلب الشفاعة كانت تُتلى من أجلهم فى الوطن. ويجب أن نعزو هذا إلى ما قاله طالبو الشفاعة أنفسهم، فقد روى رانولف الشسترى، أنه كان عائداً من دمياط سنة ١٢٢٠م على متن سفينة وضربتها عاصفة كادت أن تغرقها، وظل ساكنا بلا حراك حتى منتصف الليل، عندما دب فيه النشاط فجأة، وكان السبب آنذاك هو «... أن رهبانى، وغيرهم من رجال الدين، الذين أقامهم أجدادى وأنا فى مختلف البقاع، بدأوا ينشدون ترانيم القداس ويذكروننى فى صلواتهم».

وقلق ستيفن بلوا بشأن أمن الأسرة عندما كان سيتركها خلفه قد تردد صداه فى كثير من الوثائق، على الرغم من دور الحامى الذى اضطلعت به الكنيسة. وغالبًا ما كتب الباحثون أن البابا أوربان كان يأمل فى توجيه النزعة الحربية لحاملى السلاح بعيداً عن أوربا الغربية وأنه فى هذا الشأن كانت الحملة الصليبية أداة للسلام المحلى.

ولكن لابد أن الكل كانوا يعرفون أن غياب الأقطاب الكبار عن المشهد لابد وأن يكون له الأثر العكسى وربما كان هذا السبب فى أن الدعوة إلى الحملة الصليبية كانت مصحوبة بتجديد مراسيم السلام فى المجامع الكنسية. فقد عانت الفلاندرز من جراء غياب الكونت روبرت فى الحملة الصليبية الأولى. وعندما عاد جاى الروشفورتى راكبًا فى قلعته سنة ١١٠٢م واجهته حزمة من الشكاوى؛ فعندما كان غائبا «لم يمكن أن يخضع أحد لحكم العدالة إلا فيما ندر»، وفى سنة ١١٢٨م توصل بلدوين أمير «ڤيرن دانجو» إلى ترتيب مفصل تماماً مع أخيه راؤل «بخصوص أرضه وكل ممتلكاته وزوجته وابنتهما الوحيدة». وقد وعد راؤول بأن يتعامل دائما بإخلاص مع المرأتين، وألا يحاول أبداً أن ينتزع منهما ممتلكاتهما، وأن يساعدهما ضد من يؤذيهما «حتى لو شن الحرب بنفسه». وقد شهد على الاتفاق، الذى يوضح بجلاء التهديد الذى كان يشكله الأخ الأصغر، وربما غير المتزوج، على زوجة أخيه الصليبى وابنته والحاجة إلى اتخاذ خطوات لمواجهته، عشرة رجال وضمنه السيد الإقطاعى المباشر لبلدوين.

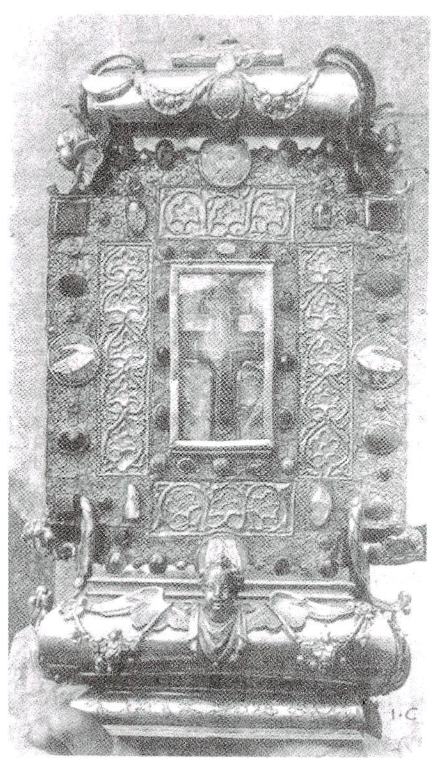
والحقيقة هى أنه حتى فى القرن الثالث عشر، وفى إنجلترا، حيث تولى التاج حماية أملاك الصليبيين، فإن تجارب الأقارب، ولاسيما الزوجات، الذين يبقون فى بلادهم لعدة سنوات لإدارة الضياع ورعاية الأسر، وهم محاطون بجيران نهابين وأقارب مشاغبين، كان يمكن أن تسبب الرعب، وتكشف التقارير القضائية عن قائمة محبطة لشتى أنواع الأذى الذى كانوا يتعرضون له. فقد تم اغتيال زوجة وليم تروسل بعد ستة أسابيع بعد أن رحل ليشارك فى الحملة الصليبية سنة ١١٩٠م ورميت جثتها فى حفرة سباخ. أما زوجة بيتر دوفيلد فقد خنقت عندما كان يشارك فى الحملة الصليبية الخامسة، وعاد «رالف هودينج» إلى وطنه ليجد ابنته ووريثته قد تزوجت من أحد الفلاحين فى أرضه. وليس من المدهش أن الصليبيين كانوا يشعرون أنه من الأسلم أن يتخذوا ما يناسبهم من إجراءات. فعلى سبيل المثال، حدث فى سنة ١١٢٠م، أن وضع «چيوفرى دى لالوى» زوجته تحت رعاية راهبات دير «لورونسرى دانجير» فى مقابل رسوم يدفعها ؛ ووعد بأن يزيد المبلغ ليكون هبة دخول إذا ما صارت هى نفسها راهبة. وفى الوقت نفسه

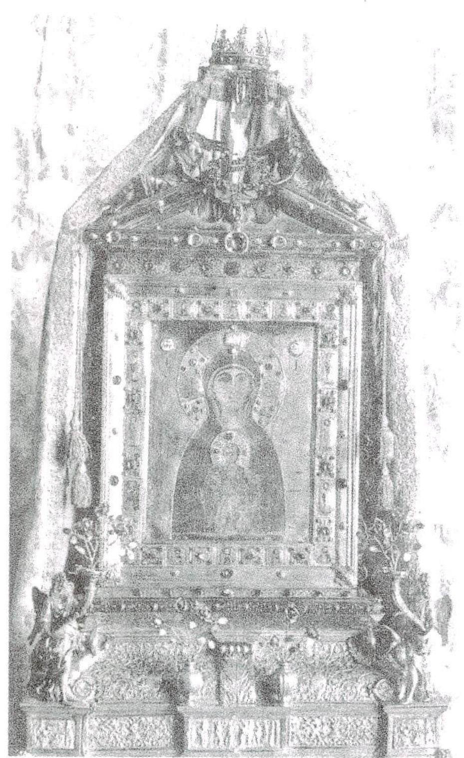
رتب «فولك من لابليسيس ماسيه» رعاية الراهبات لابنته. فإذا لم تقدر له العودة، يكون عليهن السماح لها بأن تتزوج، أو أن تصير راهبة «حسب إرادتها وإرادة إخوتها وغيرهم من الأصدقاء» وفى حال أن قررت ألا تدخل الدير وعد الراهبات بأن ينذر لهن واحدة من بنات إخوته مع ضمان هبة الدخول التى سيمنحها للدير. وهناك ترتيبات مؤثرة قام بها أحد المجندين فى الحملة الصليبية الثانية، وهو «هيو روفوس» من شامبالنت، كان له أخ مريض جدا وعاجز اسمه «جاى». وقد منح هيو منحة من أملاكه إلى رهبان ديركوربينى، يُمنح «جاى» من إيجارها معاشًا نقديًا وعينيًا، يدفع له فى أوقات محددة من السنة، فإذا مات يجب على الرهبان أن يدفنوه فى مقابرهم.

كذلك كانت الترتيبات التى كان على الصليبيين أن يقوموا بها لإدارة ممتلكاتهم أثناء غيابهم الطويل المرتقب على نفس مستوى الأهمية الحيوية بالنسبة لهم ولمصالحهم؛ ففى زمن الحملة الصليبية الأولى يبدو أنه كان هناك كلام بالفعل عن حملة تمتد إلى ثلاث سنوات وفى سنة ١١٢٠م كان «فولك من لابلسيس ماسيه» يتحدث عن أنه ربما يغيب فترة مماثلة. وكان يمكن أن يُعهد بمسئولية إدارة الممتلكات لأعضاء من العائلة، أو الجيران، أو الأتباع الإقطاعيين (الأفصال). وكان يمكن أن يكون المسئول عن إدارة الأملاك من أفراد العائلة هو الابن الأكبر أو ابنًا أصغر منه، فعلى سبيل المثال، ترك جيرالد الأندرونى، الذى خرج فى الحملة الصليبية الأولى، قلاعه وأبناءه فى عهدة أخيه أوجير مقدم دير سان بيير دى لاريول. وكان من الشائع تماما كذلك بالنسبة للزوجات والأمهات أن تتحملن هذه المسئوليات، ولكن فى بعض الأحيان يبدو أنه لم يكن هناك أحد فى العائلة يعتبر قادرًا على تحمل هذه المهمة، ففى سنة ١١٠١م عهد «جاى دى برى» بمسئولية الوصاية على أرضه وعلى ابنته إلى أحد جيرانه، وهو أوليفر دى لاستورس، الذى كان أبوه وعمه قد ذهبا فى الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٦م-١٠٩٩م، وقد تزوجها أوليفر فيما بعد. ومن بين الصليبيين الأوائل الآخرين، ترك چيوفرى الإيسودونى قلعته فى يدى أحد أتباعه الإقطاعيين، كما عهد هيو اجالاردونى بقلعته وابنته إلى فرسانه. ومنذ أواخر القرن الثانى عشر كان الصليبيون الإنجليز يعينون وكلاء قانونيين لرعاية مصالحهم.

كان الصليبيون يعرفون أنهم يزجون بأنفسهم فى شئ سيكون مكلفًا للغاية، وقد رأينا بالفعل كم كانت رحلة المشاركة فى الحملة الصليبية مكلفة. وهناك أدلة قليلة للغاية على أن المشاركين فى الحملة الصليبية الأولى عادوا لبلادهم أثرياء بعد النفقات الباهظة والخدمات المرهقة التى تطلبتها الحملة، على الرغم من أنهم عادوا بالتأكيد ومعهم الذخائر المقدسة التى غمروا بها الكنائس. وقد قيل إن جاى الروشفورتى قد عاد سنة ١١٠٢م « فى مجد وثروة»، أيا كان معنى هذه العبارة. وهناك فارس اسمه جريمالد، مرَّ بدير كلونى، وأصبح راهبًا شرفيا Confrater، حرر وصية لصالح الدير وقدمها مع أوقية من الذهب. أما «هادڤيدى الشينى» التى كانت قد شاركت فى الحملة الصليبية مع زوجها «دودو من كونس لاجراندڤيل»، فقد أعطت دير سان هوبير فى أردن طاقمًا كاملاً من الأردية من القماش الفاخر وكأس قربان مصنوعًا من أوقيات لطيفة من الذهب ومرصعًا بالجواهر. بيد أن هذه هى الإشارات الوحيدة المعروفة إلى الثروات التى يحتمل أن يكون قد تم الحصول عليها فى الحملات الأولى وليس من المحتمل أن يكون هناك المزيد من هذه الإشارات، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا نفقات رحلة العودة وانعدام الجدوى عمليًا فى حمل كميات من المتاع الغالى والمواد الثمينة على امتداد مثل هذه المسافة الطويلة.

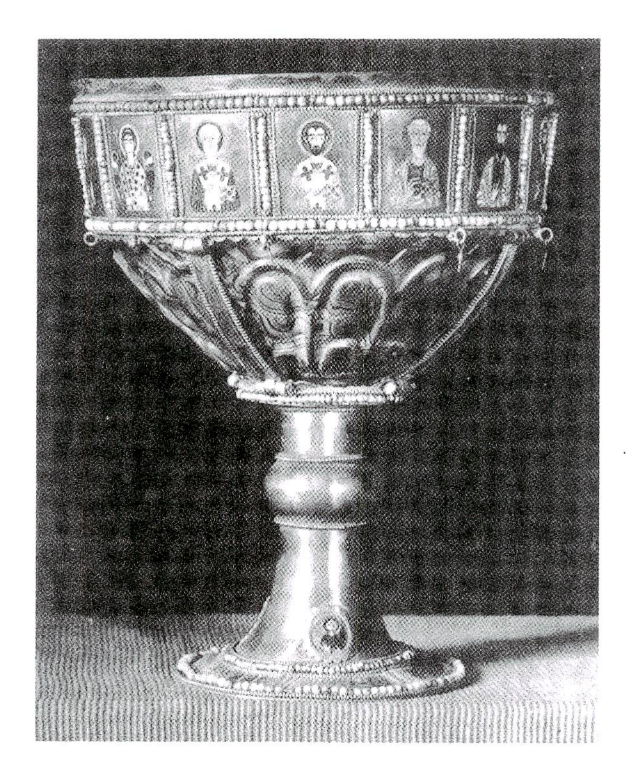
ومن ناحية أخرى، كان على الناجين وعائلاتهم التزامات ينبغى أداؤها وديون يجب الوفاء بها، كما أن الحاجة الملحة قادت بعض الرجال، وربما بعض أقاربهم، إلى محاولة تقليل الضرر باللجوء إلى أية إجراءات متاحة أمامهم. فعندما عاد فولك الأول أمير ماثيفلون من الشرق سنة ١١٠٠م حاول أن يفرض رسوم عبور على قنطرة كان قد بناها وأن يفرض ضريبة أخرى على الخنازير، حول النزاع القديم مع راهبات دير «لورنسرى دانجير» لصالحه بدهاء ففى أوائل القرن الحادى عشر كان قد تم منح قرية سيش على نهر من قبل الكونتيسة هيلدجارد الآنجوية. وكانت قلعة ما ثيفلون قد شُيدت





يسـارًا : قطعـة من الصليب الحـقـيـقى، هذه القطعـة قـد جُلبت إلى أوربا على يد الصليبى برتولد سبربرسك سنة ١١٢٩م. وكـانت من قـبل ملكًا للصليبى چيرالد شافهاوزن عندما كان مسئول خزانة الضريح المقدس فى القدس.

يمينًا : عذراء نيقوبيا : أيقونة من القرن العاشر مزخرفة بالمينا والأحجار الكريمة.



كأس قربان بيزنطى يرجع تاريخه إلى القرن الحادى عشر

الغنائم : كانت الحروب الصليبية دائمًا مقترنة بالنهب والسلب للوفاء بالحاجات المباشرة، ولكن عندما نهبت الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينية سنة ١٢٠٤م، التى كانت أعظم كنز فى أوربا، تم إرسال المنهوبات إلى أوربا فى احتفال بالنصر. وتعتبر كاتدرائية سان مارك بالبندقية مخزنًا للكثير من الأمثلة الرائعة على هذا النهب، الذى قدم هدية للقديس فى مرقده.

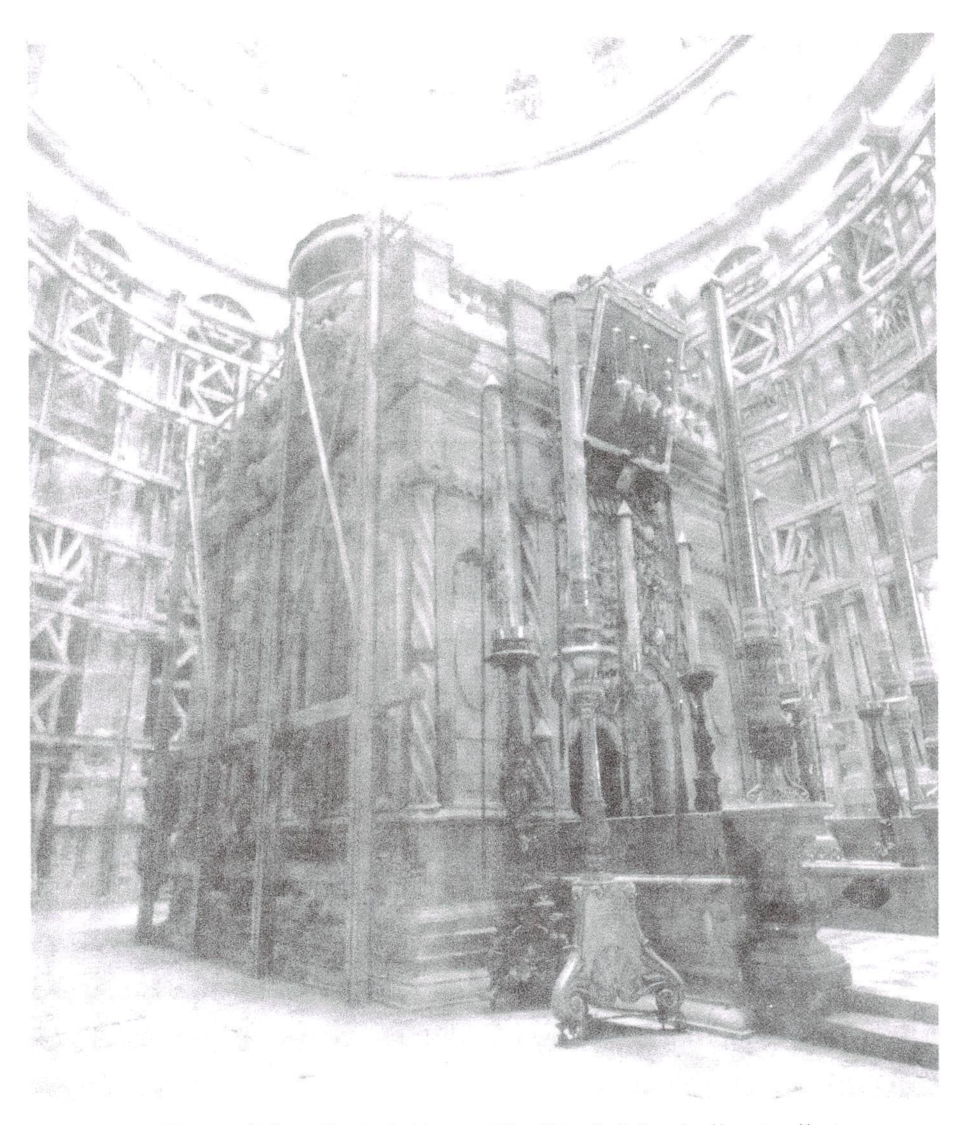
آنذاك فى الأبرشية وفى داخل سورها تم بناء كنيسة خشبية. ولكن عدد السكان كان قد زاد وكان ڤولك قد اتفق مع دير لورونسرى على بناء كنيسة مكانها بالحجارة. وتم بناء الكنيسة ووافق ڤولك على أن يسلم نصيبه فى العشور متنازلاً وكما وافق على دفع راتب قسيس على الرغم من حصوله على مبلغ كبير لقاء هذا. ولم يحافظ على

تعهداته فى الصفقة على أية حال، واستولى على العشور مما أدى إلى خلاف بينه وبين دير الراهبات حتى وقت رحيله فى الحملة الصليبية الأولى. وعندما كان غائبًا حدث أن عرف ابنه هيو أن الراهبات لهن قضية، وطالبن بالحق فى العشور مقابل مبلغ كبير آخر، ووافق على إعادته إذا ما رفض أبوه ما فعله. وحين عاد فولك أراد أو تظاهر بأنه يريد، أن يبطل الاتفاقية، ولكن تم إقناعه بأن يصادق عليها مقابل مبلغ أكبر.

وقد كلف نصيب فولك من العشور الراهبات كثيراً، وربما كان هذا هو السبب فى أنهن تشددن فى قضية أخرى مرتبطة بهذه القضية. وكانت القضية تخص رجلاً يدعى چيوفرى لورال، كان قد باع عشور طاحونة سيش إلى دير لوروِنسرى عندما كان يجمع المال للقيام برحلته الصليبية. وعند عودته قرر أن يبيع الطاحونة نفسها، لتسوية ديونه على ما يبدو، ولكنه أراد بيع العشور معها- ومن الواضح أن العشور كانت ستزيد من قيمتها - واشتعل غضبه عندما رفض الدير أن يشترك فى عملية البيع. وقد استولى على الطاحونة، ولكنه أوقف أمام محكمة الدير، حيث اعترف بأنه مذنب وحكم عليه بالغرامة.

لقد كان الاشتراك فى الحملة الصليبية أمرًا غير مفرح، وخطيراً ومكلفًا بحيث إنه كلما زاد تفكير المرء فى الصليبيين كلما صارت دوافعهم أشد إثارة للدهشة. ما الذى كانوا يظنون أنهم فاعلون؟ ولماذا لم تؤد الكوارث، التى ربما كانت متوقعة، إلى التشاؤم، واللامبالاة واليأس، وإنما زادت من حماستهم؟ ما الذى كان يدور بفكرهم؟

على مدى السنوات الستين الماضية خضع لاهوت العنف المسيحى، والطريقة التى أسهم بها، على المستوى الفكرى، فى أفكار الحرب المقدسة المسيحية عموما، وعلى الفكر الصليبى بصفة خاصة لدراسات مكثفة وهو ما صار واضحًا بدرجة معقولة. إن ردود أفعال الرجال والنساء تجاه الدعوة إلى الحملة الصليبية قد بدأ تفسيرها باعتبارها استجابات لشيوع ذلك اللاهوت الذى طرحه المبشرون أمامهم بطريقة تتصل باهتماماتهم الدينية اليومية. ولكن حتى فى ضوء تاريخ النظريات الخاصة بالعنف المسيحى كانت الحركة الصليبية تطوراً مروعًا.



هدف الحملات الصليبية الباكرة إلى الشرق : المرقد فى كنيسة الضريح المقدس، بالقدس. البناء الصغير تحت قبة القاعة المستديرة تحتوى بقايا المقبرة الكهف والتى كان المصريون قد خربوها سنة ١٠٠٩م



الحج: حاج من أوائل القرن الثانى عشر فى طريق عودته إلى الوطن يصوره رسم حائطى فى كنيسة سان نيكولاس بتاڤان، فرنسا. وكيسه مُعلق على كتفه. فى يده اليمنى يحمل عكازه وفى يده اليسرى سعفة النخيل التى عاد بها من القدس.

لقد كانت الحملة الصليبية الأولى قمة النضج فى موجات عبادة الضريح المقدس المتوجهة إلى الأراضى المقدسة، والتى كانت قد أفرخت باستمرار أعداداً غفيرة من الحجاج إلى بيت المقدس طوال القرن الحادى عشر، بيد أنها لم تكن فقط أكبر رحلات الحج هذه ؛ فقد اختلفت أيضًا عن رحلات الحج الأخرى من حيث كونها حربًا فى الوقت نفسه. لقد أخذ أخوان من البروڤنسال شارة الصليب، وهما چيوفرى وجاى دى سيجنيس «... من ناحية من أجل نعمة الحج ومن ناحية أخرى، لكى يقوما تحت حماية

الرب بمسح دنس الوثنيين والجنون المطبق الذى عانت منه أعداد لاتحصى من المسيحيين بالفعل، وعانوا الأسر والقتل بوحشية بربرية». وفى الليموزين كان إيمرى برونوس «مشغول البال بخطاياى ورغبت فى الذهاب لمحاربة المسلمين مع الشعب المسيحى، ولكى أزور ضريح الرب الموجود بالقدس».

والقيام برحلة الحج فعل دينى تكفيرى، يستدعى إطاراً ذهنيًا يقع تقليديًا على الطرف النقيض من منظور ذهنية المحارب. لقد كانت مقاصد حجاج القرن الحادى عشر من الطبقات التى تحمل السلاح، ممن كانوا يستطيعون بالتأكيد أن يسافروا بأبهة وزينة، مقاصد سلمية خالصة بشكل عام. أما الصليبيون من ناحية أخرى، فقد قصدوا أن تكون الحرب جزءًا أصليا من تجربتهم فى التكفير عن ذنوبهم. وقد وُصفت رسميًا بأنها تعبير عن حبهم لأخواتهم وإخوتهم المسيحيين وحبهم لربهم، وكان الالتزام بالحملة الصليبية يعتبر «قربانًا حقيقيًا»، تضحية بالنفس في سبيل الرب. وعلى الرغم من زخارفها المتوهجة، كانت الحملة الصليبية نشاطًا دينيًا بقدر ما كانت نشاطًا عسكريًا ويشى مفهوم الحرب الدينية بشكل من أشكال الخدمة العسكرية يمكن مقارنتها بتلاوة الصلاة.

ومن ثم، فإن البابا أوربان الثانى، وهو يدعو إلى الحملة الصليبية الأولى، كان قد قام بدعوة ثورية. ويبدو أن المفهوم القائل بأن شن الحرب يمكن أن يكون عملا من أعمال التوبة قد تطور فى سبعينيات القرن الحادى عشر وثمانينياته من خلال الحوار بين البابا جريجورى السابع وحلقة من المنظرين الإصلاحيين الذين كانوا قد تجمعوا حول ماتيلدا أميرة تسكانيا التى كانت من مؤيديه. وأخذ أوربان الفكرة، التى لم تكن لها سابقة، وجعل من الممكن تبريرها فكريًا من خلال ربط الحرب بالحج إلى بيت المقدس. وقد وصف كاتب مؤرخة مونت كاسينو، وربما كان موظفًا مهمًا صحب البابا فى رحلته إلى فرنسا مبادرته بأنها حركة رعوية، تمنح حاملى السلاح الفرصة للإسهام فى خلاصهم بالقيام بعمل من أعمال التوبة القاسية لايتطلب أن يتخلوا عن مهنة الحرب التى امتهنوها أو خسارة مكانتهم على نحو مُهين إذا ما انخرطوا فى الحج دون



الحاجة إلى الأسرار المقدسة فى زمن الحرب: فارس يرتدى لباسه العسكرى كاملاً يتلقى تناول العشاء الربانى من قسيس، جزء من تفصيل على باب بكتدرائية ريمس. كان الصليبيون يقومون بالاعتراف والتناول قبل كل اشتباك عسكرى.

الأسلحة والمعدات والخيول. ويمكن أن نجد تعليقًا على الحملة الصليبية باعتبارها شيئا تم خلقه عمداً حتى يتمكن النبلاء والفرسان أن يتصرفوا باعتبارهم جنوداً ليس من حيث الفائدة وحدها وإنما على مستوى دينى - يمكن أن نجد هذا التعليق فى عبارة جيوبرت النوچنتى، التى أشرنا إليها بالفعل : «لقد أرسى الرب فى زماننا أسس الحروب المقدسة بحيث إن صفوف الفرسان والجماهير التى تجرى فى إثرها ... ربما يجدون طريقًا جديداً لنيل الخلاص وهكذا فإنهم ليسوا مجبرين على هجرة الشئون الدنيوية تماماً باختيار حياة الرهبنة أو أية وظيفة دينية، حسبما جرت العادة، وإنما يمكنهم أن ينالوا نعمة الرب بشكل ما على حين يواصلون حياتهم المهنية، بالحرية وبالملابس التى اعتادوها ».

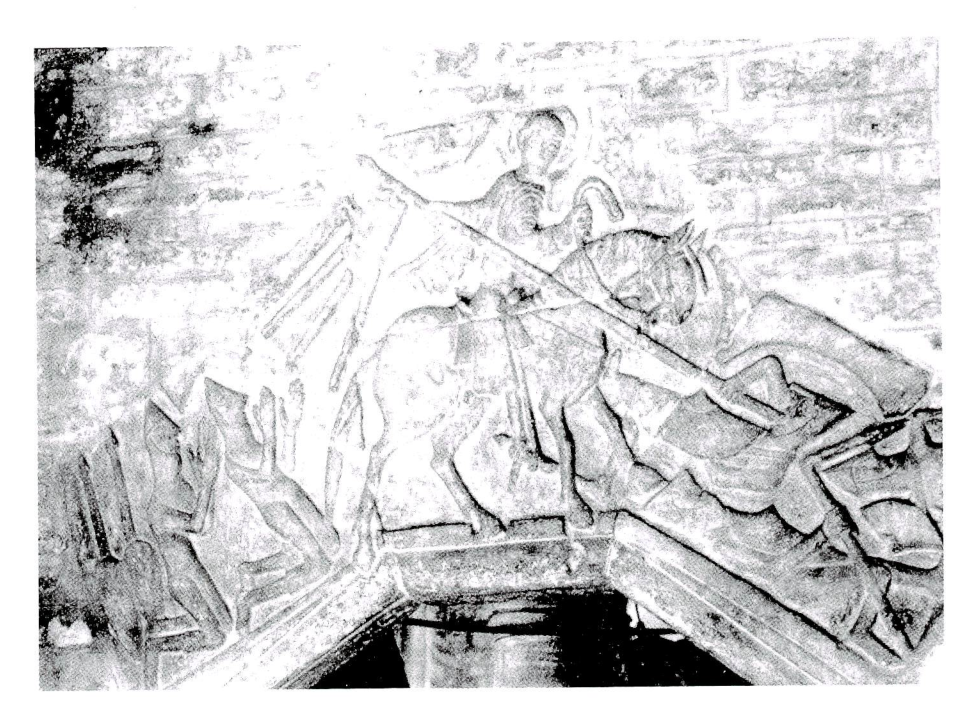


الشهادة : غالبًا ما وصفت الدعاية الصليبين الذين ماتوا فى الحملة بأنهم شهداء، على الرغم من أن الكنيسة لم تكن مرتاحة أبدًا تمامًا كما أن أسماءهم لم تظهر أبدًا فى تقويم القديسيين بسبب استشهادهم وحده. فى هذا الرسم لموت الإمبراطور فردريك الأول غرقًا فى الحملة الصليبية الثالثة، يمكن أن نراه ينهض من جسده صاعدًا إلى السماء.

ومن المؤكد أن الناس كانوا يستجيبون لهذا. ففى إقليم الليموزين، كان برونيه الترويلى قد نوى أن يدخل دير أوريل، ولكنه غير رأيه آنذاك : ولابد أنه رأى فى الحملة الصليبية وسيلة لإشباع رغبته فى حياة أكثر إيجابية على حين يبقى فى العالم. وأقنع الدير بأن يستخدم ريع هبة الدخول التى قدمها لكى يشترى لنفسه السلاح كما وجد أحد أقربائه على استعداد لأن يحل محله فى جماعة الرهبان. وربما كانت قضية أودو بيقين من شاتودون القريبة قضية مشابهة، فقد تورط فى نزاع طويل مع دير مارموتييه حول الممتلكات. وسقط أودو مريضًا وأخبر رئيس الدير المحلى أنه كان يريد الدخول

وأنه سوف يتنازل عن دعاواه بشأن الممتلكات ويعتبرها منحة دخوله الدير. ولكن عندما رجع رئيس الدير من مارموتييه وجد أوتو قد عوفى من مرضه ويقول إنه يفضل أن يذهب إلى القدس. وفى جنوب إيطاليا، كان الفارس النورمانى تنكرد قد انزعج من التناقضات التى تعتور المسيحى بشأن الحياة التى كان يحياها، فقد كان ذهنه «مشتتا، وليس متأكداً ما إذا كان ينبغى أن يحذو حذو الإنجيل أم العالم». وقد استعاد معنوياته » بعد الدعوة إلى حمل السلاح فى خدمة المسيح وهى الدعوة التى... ألهبت حماسته بشكل لايصدق».

لقد كان مفهوم الحرب الدينية جذريا لدرجة أنه من المدهش ألا يبدو أنه كانت هناك احتجاجات من قبل كبار رجال الكنيسة. ولو كانت الحملة الصليبية الأولى قد فشلت، لكان من المؤكد أن تثور الانتقادات ضد الربط بين الحرب والحج، بيد أن انتصارها أكد للمشاركين والمراقبين سوياً أنها حقاً كانت تجلياً لإرادة الرب. وقد كتب البابا باسكال الثانى : «من المؤكد أن الرب قد أحيا معجزاته القديمة». وإحدى السمات المذهلة جدا فى الخطابات الواردة من الصليبيين ومن حكايات شهود العيان تتمثل فى الشعور المتنامى بالدهشة التى سادت فى الجيش الذى دخل بلاد الشام سنة ١٠٩٧م ليمضى إلى أنطاكية ثم إلى القدس فى نهاية المطاف، فالسماء تتلألأ مصادفة، ولكن فعلاً بالمظاهر النارية – الشهب والشفق، والنجوم المنطلقة– كما أن الليل تقطعه الزيارات: المسيح، والقديسون، وأشباح الصليبيين الذين ماتوا ثم عادوا ليؤكدوا صلاحية الذخائر المقدسة أو المكافآت السماوية. وقد صار الصليبيون على قناعة بأن التفسير الوحيد لتقدمهم الظاهر هو أن يد الرب كانت تتدخل لمساعدتهم مادياً وأن الرب كان يوافق بالفعل على ربط الحرب المقدسة بالتوبة والحج. وتوصل شهود العيان الذين كتبوا عن الحملة الصليبية إلى استخدام عبارات فى الحديث عنها كانت حتى ذلك الحين تنطبق عادة على الرهبان وحدهم – فرسان المسيح، طريق الصليب، القدس السماوية، الحرب الروحية، ومعظم هذه العبارات التقطها المعلقون وهذبوها، وقد عولوا على خاصية التوبة فى الحملة الصليبية وأكدوا على كيفية كونها تجلياً للموافقة الإلهية. وقد تجلى ضعف اللاهوت التقليدى فى مواجهة كل تلك



المساعدة الإلهية : كانت نقطة التحول فى الحملة الصليبية الأولى الانتصار الذى تحقق فى أنطاكية فى ٢٨ يونيو ١٠٩٨م، والذى كان بالنسبة لكثير من الصليبيين قد تم بمساعدة من جيش من الملائكة والقديسين، وأشباح موتاهم. ولم يمض وقت طويل بعد المعركة حتى تم حفرها على باب كنيسة سان چورچ فى فوردينجتون فى دور ست.

الحيوية فى الخطاب الذى كتبه سيجبرت دى چامبلو سنة ١١٠٣م فقد كان سيجبرت على الدوام معارضاً للإصلاح الجذرى، ولهذا هاجم فكرة اعتبار الحرب عملاً من أعمال التوبة حسبما ورد فى خطاب من «باسكال الثانى» إلى روبرت أمير الفلاندرز. وعلى الرغم من أن سيجبرت اقتبس خطاب باسكال الذى أشار تحديداً إلى عودة روبرت من تحرير القدس، فإنه لم يذكر القدس مرة واحدة.

لقد انعطفت أوربا منعطفًا غير متوقع، كما مضى الصليبيون خطوة فى المجهول، عندما ظهرت الدعوة إلى الحرب باعتبارها عملاً من أعمال التدين سنة ١٠٩٦م واستجاب عدد كبير جدًا من المؤمنين لها. وقد اتضح فى الفصل الثانى أنهم فعلوا هذا بسبب قناعتهم بأن الجهد والمعاناة سوف تجلب لهم الخير، كما أن جهودهم ستعود بالنفع على أقاربهم : ففى سنة ١١٠٠م، كان هربرت الثوارسى، الذى ذهب إلى أسقف بواتييه ليتلقى «رداء الحج»، يريد ضمانًا وتأكيدًا بأن مصاعب الحملة القادمة وقسوتها سوف تساعد روح أبيه.كان مجمع كليرمون والبابا أوربان قد لخصا الفوائد التى يمكن جنيها من وراء هذا العمل التكفيرى فى الغفران. ويبدو، كما رأينا، أن أوربان كان يقصد بهذا الإقرار قانونا أن التكفير عن الذنوب متمثلاً فى الحملة التى كان الصليبيون على وشك القيام بها ربما يكون قاسيًا بما يكفى لتسديد ديونهم التى يستحقون عقاب الرب عليها من جراء خطاياهم الأخيرة التى لم يكفروا عنها، فضلاً عن بقايا ذنوب قديمة لم تكن توبتهم عنها كافية.

وعلى أية حال، فإن المرء يحمل الانطباع بأنه فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى صارت الفكرة الصليبية ساكنة فى جزء كبير من أوربا الغربية بعد كل الجهود التى ارتبطت بتحرير القدس، لكى يعاد إحياؤها بعد أربع وأربعين سنة فى غمرة عمليات التجنيد للحملة الصليبية الثانية. لقد كانت الدعوة إلى القيام بحملات صليبية إلى الشرق قائمة، حسبما رأينا، فى سنوات ١١٠٦- ١١٠٧م، و١١٢٠-١١٢٨م، و١١٣٩م وإلى إسبانيا فى سنوات ١١١٤م، و١١١٨م، و ١١٢٢م، بيد أن الاستجابة المنتظمة والمتسقة لهذه الدعوات لم تكن توجد سوى فى الفلاندرز وفى حزام من الأرض يمتد من شمال بواتو عبر آنجو إلى شارتران، وجنوب نورماندى، إلى جزيرة فرنسا. ولابد أنه تم الحفاظ على التقاليد حية فى هذين الإقليمين. وفى الأماكن الأخرى كان تجنيد من يذهبون فى الحملة الصليبية معزولاً ومنقطعًا أو غير موجود. أما فى إقليم الليموزين، حيث كانت هناك استجابة كبرى للدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى، فيبدو أنها لم تخرج صليبيًا فيما بعد سنة ١١٠٢م وسنة ١١٤٦م. ولايبدو الأمر كما لو أن الاهتمام

بالضريح المقدس قد تبخر- فإن الإقليم يمدنا بأسماء كثير من الحجاج إلى القدس أوائل القرن الثاني عشر- ولكن يبدو كما لو أن التراث القديم الذى يعود إلى القرن الحادى عشر عن الحج السلمي قد عاد يفرض نفسه مجدداً. وكان الأمر نفسه يصدق على شامبانى، التى كانت مركزًا آخر من مراكز تجنيد الصليبيين للحملة الصليبية الأولى. ولايمكن أن نجد صليبيًا واحداً فيما بين سنة ١١٠٢م وسنة ١١٤٦م، ولكن كانت هناك حماسة للحج إلى بيت المقدس. ومن بين الحجاج الكثيرين من ذوى المكانة العالية كان الكونت هيو أمير ترويس الذى أمضى أربع سنوات فى القدس من ١١٠٤ إلى ١١٠٨م، وذهب مرة أخرى سنة ١١١٤م ثم سنة ١١٢٥م، حيث صار من فرسان الداوية. وخلال الفترة نفسها لم يتم التعرف على أى صليبى من البروڤانس، التى كانت هى الأخرى قد استجابت بكرم سنة ١٠٩٦م، على الرغم من أنه كان هناك حجاج كثيرون إلى بيت المقدس، لاسيما من بين كبار السادة فى نواحى مرسيليا.

وهناك صورة مشابهة يمكن أن نجدها إذا ما تحول المرء من جغرافيا التجنيد إلى العائلات، فقد كان الصليبيون الأوائل يميلون إلى التمركز فى جماعات معينة من الأقارب، وربما يقود هذا المرء إلى أن يفترض أن تقاليد العائلة فى الالتزام بالحركة الصليبية قد تأسست فى حملات سنة ١٠٩٦م وسنة ١١٠١م؛ ومن المؤكد أن كثيراً من أولئك الذين كانوا يأخذون الصليب للحملة الصليبية الثانية كانوا يتبعون، أو كانت نيتهم أن يتبعوا، خطوات الآباء والأجداد. ولكن فى كثير من العائلات التى كان بها تركيز من الصليبيين فى سنة ١٠٩٦م لم يكن هناك سوى عدد قليل ممن ذهبوا فى الحملات اللاحقة أو لم يكن هناك أحد، حتى سنة ١١٤٦م. فقد أرسلت عائلة برنار من بريه فى الليموزين أربعة رجال فى الحملة الصليبية الأولى، وأربعة آخرين فى الثانية، ولكن من الواضح أنها لم ترسل أحداً فيما بين الحملتين، ومن نسل الكونت وليم تيت هاردى أمير بورجندى، كان هناك عدة من البارزين فى الحملة الصليبية الأولى كما ساد منهم سبعة أفراد فى الحملة الصليبية الثانية، ولكن يبدو أن واحداً فقط اشترك فى حملة صليبية بين سنة ١١٠٢م وسنة ١١٤٦م. وفى هذه المجموعات العائلية يبدو

الأمر كما لو أن الحماسة التى وجدت سنة ١٠٩٦م لم تتولد مجدداً إلا فى سنة ١١٤٦م.

ويبدو من المحتمل أنه بالنسبة لكثير ممن كانوا يحملون السلاح فى بواكير القرن الثانى عشر كانت الحملة الصليبية الأولى مجهوداً لمرة واحدة وفرصة لاتتكرر للتوبة بهذا الشكل الفريد، وثوابها فريد فى بابه، من نوع لن يحدث ثانية أبداً. وبعد سنة ١١٠٢م عادوا إلى أنشطتهم الدينية التقليدية. وربما يكشف البحث عن صورة مشابهة فيما بعد ١١٤٩م وسنة ١١٨٧م، ومن الممكن أن يكون تاريخ الحركة الصليبية بوصفها مؤسسة راسخة لم يبدأ سوى مع الحملة الصليبية الثالثة.

وعلى أية حال فإن الموقف بين سنة ١١٠٢م وسنة ١١٤٦م يفسر لماذا قدم سان برنار الحملة الصليبية الثانية باعتبارها فرصة خاصة للخلاص مفتوحة لأولئك الذين أخذوا الصليب: «**إن الرب يضع نفسه فى موقف الحاجة، أو يتظاهر بأنه فى هذا الموقف، على حين يريد طوال الوقت أن يساعدكم فى حاجتكم. إنه يريد أن يتم التفكير فيه باعتباره المدين، حتى يمكنه مكافأة أولئك الذين يحاربون من أجله بأجورهم : غفران خطاياهم والمجد الخالد. لهذا السبب أسميتكم جيلاً مباركًا، أنتم الذين تم جمعكم فى زمن على هذا القدر من الثراء فى الغفران وأنتم أحياء فى هذا السنة السارة جدًا بالنسبة للرب إنها حقًا سنة الغفران**». وكان تناول برنارد البلاغى للغفران رائعًا : «**خذوا شارة الصليب وسوف تحصلون فى المقابل على غفران لكل الذنوب التى اعترفتم بها بقلوب خاشعة. إن القماش (الذى صنع منه الصلبان) لايساوى الكثير إذا ما بيع ؛ أما إذا تم ارتداؤه على كتف مخلص مؤمن فمن المؤكد أنه سوف يساوى مملكة الرب**». بيد أنه كان يقترح تفسيراً سابقًا لأوانه، تأجل قبوله بسبب الحذر الذى تناولت به البابوية إيديولوجية جديدة للتوبة كانت فيها التوبة الحقة تُعتبر من المستحيلات. ولم يتبناها بشكل محدد سوى البابا إنوسنت الثالث بعد ذلك بخمسين سنة. فمع إنوسنت لم يعد الغفران تصريحاً عن الثواب مقابل التوبة الحقة، وإنما صار ضمانا لفعل النعمة، والرحمة والحب الذى يرضى الرب أن يعامل به التوبة وكأنها توبة

مقبولة. وربما لا نغالى إذا افترضنا أن الغفران الصليبى جاء فى القرن الثالث عشر، عندما تمت صياغته بطريقة استطاع الناس فهمها، على الرغم من أنه كان لا يزال هناك بعض الارتباك بشأنه وكان على سان توماس أكويناس أن يجيب على الأسئلة القلقة عن متى صار نافذ المفعول.



القانون الكنسى والحركة الصليبية : فى منتصف القرن الثالث عشر، توماس الأكوينى، الذى تم رسم صورته فى رسم من القرن الخامس عشر على أساس نسخة أسبق زمنًا، عرقلته مخاوف الصليبيين بشأن النقطة التى يصبح غفران خطاياهم ساريًا عندها.

ولكن منذ البداية فهم الرجال والنساء، الذين شعروا أنهم محبوسون فى عالم من الرذيلة لايمكنهم الفرار منه فهما كاملاً أن الحملة الصليبية توفر لهم فرصة البداية من جديد. وكانت الوثائق التى أصدروها بمنح هبات للكنائس والأديرة تميل إلى التعبير عن مضمونها فى ضوء مصطلحات التوبة والتواضع. وكذلك كانت تعبيرات التنازلات التى رفض بها السادة الممتلكات أو الحقوق التى عادت إليهم من رجال الكنيسة أو انتزعوها بالقوة. وباعتبارهم حجاجًا، بطبيعة الحال، كانوا يرفضون أن يتركوا وراءهم رجالاً ونساءً، ولاسيما الجماعات الدينية الرهبانية، وهم يحملون ضدهم شكاوى أو ضغائن. ففى سنة ١١٠١م، قام أودو الأول أمير بورجاندى وتبعته حاشية من كبار أتباعه الإقطاعيين بالدخول إلى «... مبنى الاجتماعات فى دير سان بيني دى چوان، والرهبان جالسون حول الحجرة، وأعضاء كثيرون من الساكنين معهم واقفون، وصححت الأذى الذى كنت معتادًا على فعله حتى الآن. وقد اعترفت بخطئي، ولأننى كنت أسعى إلى الرحمة، سألتهم أن يسامحونى. كما أننى وعدتهم بأن أصلح من سلوكى فى المستقبل إذا ما قُيِّض لى أن أرجع (من الحملة الصليبية)..». ويبدو أنه قد رتب احتفالاً ميلودراميًا آخر فى جيڤرى - شامبرتن عندما تنازل عن مزاعمه التى كان قد فرضها ظلمًا على الرهبان الكلونيين هناك.

كانت الاستعدادات لحملة صليبية مغلَّفة دائمًا بجو من التوبة. ففى وقت الحملة الصليبية الثانية انتشرت شائعات عن أن ملك فرنسا لويس السابع، كان قد أخذ الصليب أسفًا على الخسائر فى الأرواح التى حدثت عندما أحرقت إحدى الكنائس أثناء هجومه على ڤيترى سنة ١١٤٤م، أو لتعديل رفضه لقبول كبير أساقفة جديد من بورچ. وقد تم إقناع كونراد الثالث ملك ألمانيا بالانضمام إلى الحملة بعد موعظة من سان برنار ذكرته بأنه يجب أن يخضع للحكم الإلهى. ومن الواضح أن فيليب جلوسستر قد أقسم على القيام بالحملة بعد مرض عطّل عملية كان طرفًا فيها. كما أخذ هيومبرت البوچى الصليب بعد أن رأى رؤيا تحذره بوجوب إصلاح سلوكه. ووصلت لغة التوبة والتكفير عن الذنوب ذروتها عندما كانت المسيحية الغربية فى حالة

صدمة بسبب فتح صلاح الدين القدس سنة ١١٨٧م. وقد أرسى هذه النغمة الخطاب البابوى الذى يحمل عنوان Audito tremendi، الذى أعلن عن الحملة الصليبية الثالثة:
«إنه إلزام علينا جميعًا لأن نتأمل وأن نختار أن نعدل عن خطايانا بالتأديب الطوعى وأن نتحول إلى الرب إلهنا فى توبة وتقوى؛ وينبغى أولاً أن نقوِّم فى داخلنا ما ارتكبناه من خطأ ثم نحول انتباهنا إلى خيانة العدو وشره ». ويمضى الخطاب ليصف الحملة الصليبية بأنها «فرصة للتكفير عن الذنوب وعمل الخير»؛ وعلى نهجه تمت الدعوة إلى الحملة الصليبية فى كل مكان بمصطلحات التوبة، ولاعجب أن نجد بعد مرور ستين سنة أن الملك لويس التاسع ملك فرنسا يتحرك بدافع من رغبة صليبى فى ألا يترك خلفه أحدا يحمل ضغينة ليؤسس مجلس تحقيق من الإخوة الرهبان لجمع الشكاوى ضد الموظفين الملكيين والحكم فيها، ويقوم رفيقه چون الچوانفيلى بدعوة محكمته الإقطاعية لكى يسمح لأتباعه الإقطاعيين بالإعراب عن أية شكاوى قد تكون لديهم ضده.



عاقبة الخطيئة : الشياطين والملعونون على حشوة باب كاتدرائية أوتون، نحتها چيسلبرتوس فى الربع الثانى من القرن الثانى عشر، ويكشف بقوة تفوق أية قوة أخرى كلمات القلق بشأن الخطيئة وعقابها حسبما كان كثير من الصليبيين يشعرون به.

وفى ذلك الوقت، على أية حال، كان هناك عنصر آخر ظاهراً:

«وصل على نحو أكثر نبلاً من الجميع، لأن سفينته جاءت مطلية تحت خط الماء وفوقه بشعارات أسلحته : وكانت لديه على الأقل ٣٠٠ من المجذفين فى سفينته، كل منهم يحتمى بدرع عليه شعاراته؛ وكان متصلاً بكل درع راية مثلثة عليها شعاره مطبوعًا بالذهب. وعندما اقترب بدا كما لو أن سفينته تطير عندما كان المجذفون يدفعونها إلى الأمام، وبدا وكأن البرق يتساقط من السماء، وكأن الأصوات التى تحدثها المجاذيف والصنوج، أصوات طبول وأبواق المسلمين».

وهكذا وصف چوانڤيل وصول چون إبلين، كونت يافا، إلى مصر محاطًا ببطانة تزينه من الفرسان، وكان البابوات قد حاولوا عدم تشجيع الفخامة والأبهة- إذ كانت الخطابات التى أعلنت الحملة الصليبية الثانية والحملة الصليبية الثالثة تحتوى على عبارات صارمة بخصوص إنفاق المال- ولكن نمو طبقة الفرسان، التى عن طريقها تم بناء مسيحية علمانية أكثر منها كنسية بفعل توغل عناصر عسكرية وأرستقراطية فيها، كان من الطبيعى أن يقوى اتجاهات مثل الرغبة فى الشرف والسمعة وهى اتجاهات كانت موجودة فى الحركة الصليبية منذ البداية. ومنذ وقت الحملة الصليبية الرابعة على الأقل كانت الحركة الصليبية فى طريقها لأن تصير ملمحًا عاديًا فى المشهد الأوربى، وكانت تتلون بالمثل العلمانية، كما كان التوازن داخلها بين الحرب الدينية ومشروع الفرسان آخذًا فى التحول.

وبطبيعة الحال، ربما كان السبب هو أنها كانت دائمًا ذات اتجاه دنيوى أكثر مما تكشف المصادر. إذ إن معظم حكايات الحملات الصليبية الأولى والثانية والثالثة قد كتبها رجال الكنيسة، ولم يحدث سوى فى القرن الثالث عشر، عندما دخلت مجموعة الحكايات الأسطورية الصليبية المسماة Chevalier de Cygne التى ربطت بين الحركة الصليبية والسحر، مجموعة أدب الفروسية، أن وجد الفرسان- چيوفرى ڤيلهاردوين، وروبرت كلارى، وكونون البيثونى، وثيبو الشمبانى، وچون الچوانڤيلى- صوتا متمايزًا فى الحكاية وفى القصائد الشعرية. بيد أن هناك ثلاثة عوامل كان يمكن أن تسهم فى

تقوية العناصر الفروسية بشكل ما. أولها كان ممارسة ارتبطت بالحركة، وهى الخدمة المؤقتة للمحاربين فى الشرق، ليس باعتبارهم صليبيين وإنما باعتبارهم فرسانا علمانيين. وقد بدأ تقليد تخصيص وقت للمســاعـــدة فى الدفاع عن الأماكن المقدسة أو القواعد العسكرية المسيحية هناك، بجالديمار كارنبيل الدارجوارى ووليم الخامس أمير مونبلييه سنة ١٠٩٩م، ووصل إلى ذروته فى حياة چيفورى السرچينى أواخر القرن الثالث عشر. وكان لا يزال سارياً فى الخدمة مع فرسان الاسبتارية فى رودس حتى القرن السادس عشر. وكان يتم وصفه بمصطلحات فروسية أولية منذ عشرينيات القرن الثانى عشر، عندما تم تصوير إقامة شارل الطيب أمير الفلاندرز فى الأرض المقدسة لسنوات قليلة بعد سنة ١١٠٢م فى لغة تكاد تماثل لغة القرن الرابع عشر باعتبارها مهمة فى خدمة الرب، فبعد أن كان قد تم تدينه فارساً، ذهب شارل إلى القدس «... وهناك حمل السلاح ضد أعداء ديننا الوثنيين... وحارب بحمية زائدة من أجل السيد المسيح... وكرّس له الثمار الأولى من أعماله وجهوده».

وكان العامل الثانى يمثل فى القدر المتزايد من السيادة الذى يبدو أنه يؤثر على عمليات تجنيد الصليبيين وفى الفصل الثالث تم شرح العلاقة المركبة والدقيقة بين الدافع ومختلف روابط المشاركة. وبطبيعة الحال كانت السيادة الإقطاعية دائما قوة دافعة مهمة، ولكن أحد ملامح الاستجابات للدعوات الصليبية الباكرة كانت تتمثل فى أنها كانت متمركزة فى عائلات بعينها من دوائر الأتباع الإقطاعيين. وفى وقت الحملة الصليبية الأولى كان يمكن أن نجد جماعات من الصليبيين من بين العائلات النبيلة التى تمتلك القلاع من عائلات الفرسان فى مناطق الليموزين والفلاندرز والبروڤانس، وجزيرة فرنسا (المنطقة المحيطة بباريس) ونورماندى وبورجندى. والأمثلة البارزة كانت هى البيت الراقى فى بورجندى وعائلة أصحاب القلاع فى مونتليرى فى جزيرة فرنسا. ومن بين الأبناء الخمسة للكونت وليم تيت هاردى أمير بورجندى، كان ثلاثة منهم صليبيين، والرابع، وهو البابا كاليكستوس الثانى، كان صاحب الدعوة إلى الحملة الصليبية سنة ١١٢٠-١١٢٤م.كذلك شارك فى الحملة أحد أحفاده وإحدى حفيداته. وكان أعضاء بيت مونتليرى مشاركين فى الحملة الصليبية الأولى، جنباً إلى جنب مع أعضاء مجموعة

مدهشة من العائلات ذات الصلة، ومنها عائلة شومونت آن ڤيكسان التى أرسلت أربعة صليبيين، وأرسلت سان ڤاليرى ثلاثة، وأرسلت كل من برويس، ولوبورك من ريثيليه، ولوبوسيه اثنين. والواقع أن الجيلين اللذين كانا نشطين من هذه العشيرة فى ذلك الوقت أخرجا ثلاثة وعشرين صليبياً ومستوطناً، وكلهم ذوو قربى حميمة، وصار ستة منهم من الشخصيات الرئيسية فى الشرق اللاتينى: ويمكن أن نرسم سلسلة من الحماسة تمتد عبر شمال فرنسا وما وراءها، فقد كان هناك ثلاثة صليبيين من ذوى القربى الأبعد من عائلة كونتات بولونيا بما فيهم جودفرى البويونى فى اللورين، وثمانية من عائلة هوتڤيل جنوب إيطاليا.



القدس ضريحا ومزاراً يموت المرء فيه : كان الرجال والنساء بما فيهم الصليبيون، يأتون إلى القدس لختام حياتهم. وغرف الدفن فى مقبرة الاسبتارية التى بقيت خرائبها منذ القرن الثانى عشر بكنيسة تقع خارج القدس مباشرة، لا تزال مليئة بعظام المسيحيين الأتقياء.

ويتضح التزام العائلات بالحملة الصليبية فى استجابتهم لموضوع التكاليف. فعندما كان الأمر يتعلق بتوفير الأموال، كانت هذه العائلات تتقاسم العبء الناجم عن تحويل ملكية أراضيهم لآخرين. ويمكن توضيح أن كثيراً منهم انتهجوا سياسات ذات نتائج ملموسة فتخلصوا من الممتلكات، مثل الكنائس والعشور، التى كانت حقوقهم عليها محل تساؤلات متزايدة كلما سارت حركة الإصلاح خطوات أبعد. وهذا يوحى بأنه لابد أن كانت هناك اجتماعات كثيرة بين الأقارب الذين كانوا يتجمعون ليقرروا ما إذا كان يمكن الحفاظ على الأصول، وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، ما نوع الملكية التى ينبغى أن تقدم للرهن أو للبيع. وثمة تقرير عن أحد مثل هذه الاجتماعات العائلية يظهر فى وثيقة بريتونية. وقد أخبر الصليبى ثيبو البلواسمى أخاه وليم أنه إذا لم يتلق المساعدة ماليًا فإنه كان سيضطر إلى بيع ميراثه. ولم يكن وليم يريد لنصيب ثيبو فى الضيعة أن يضيع، ولذلك حصل على المال بأن باع جزءًا من نصيبه فى طاحونة كانت فى الواقع، مرهونة فعلاً. وهناك ترتيبات عائلية أخرى مبكرة غاية فى التعقيد بدرجة توحى بأن مثل هذه المناقشات. وقد رهن هيو دى شومون سير لوار، سيد أمبواز، سيادته الإقطاعية لدى ابن عمه روبرت الروشكوربونى سنة ١٠٩٦م، ولكن بالإضافة إلى ذلك تم منحه مبلغًا كبيراً من المال من جانب خاله. وكان تنكرد النورمانى من جنوب إيطاليا قد تلقى العون من الوصى عليه وبذلك لم يكن مضطراً إلى بيع ميراثه. وقد اشترى سڤاريك الڤيرچى ضيعة ابن أخيه ثم رهنها لكى يحصل على المال الذى يدفعه له. وقبل أن يرحل فانتين وابنه چيوفرى من ثوارس، ترك فانتين مساحة من الأرض لزوجته ولچيوفرى، الذى باع نصيبه حينئذ إلى أمه.

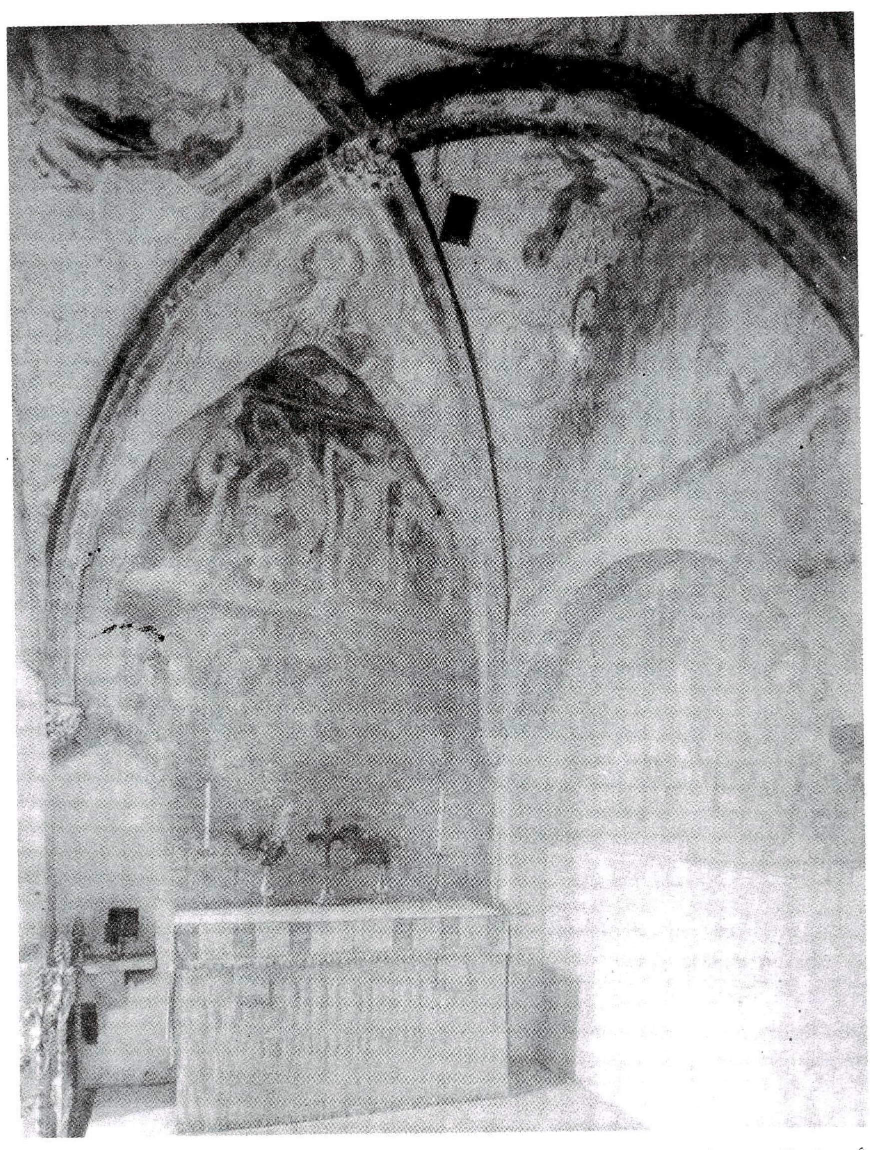
ويمكن للمرء أن يحدد العناصر التى ربما تساعد على شرح السبب فى أن بعض مجموعات الأقارب كانت ميَّالة للاستجابة بقوة للدعوة إلى الحملة الصليبية، ومن بين هذه العناصر التقاليد العائلية فى الحج إلى القدس، والارتباط بالديرية الكلونية والبابوية الإصلاحية، وتبجيل بعض القديسين. أما العناصر النسائية بين هؤلاء الأقارب، فيبدو أنهن علاوة على ذلك، قد حملن الرسالة إلى العائلات التى تزوجن منها، فمن بين أربع أخوات فى بيت بورجندى الحاكم، كانت ثلاث زوجات لثلاثة من

الصليبيين الأوائل، وكانت الرابعة أمًا لأحد الصليبيين، وعلى الرغم من أنه ربما كانت هناك تقاليد مستقلة فى عشيرة لابويسيه، فإن الأم الكبرى فيها كانت هى إحدى الأخوات مونتليرى الأربع، وكن كلهن زوجات أو أمهات لصليبيين، وكذلك كانت ابنتاها الاثنتان.

وعلى أية حال، فإنه بحلول القرن الثالث عشر يبدو أن القوة المحركة الرئيسية كانت هى السيادة الإقطاعية. وكانت العائلات بطبيعة الحال لا تزال مهمة جدًا، وتقاليد الالتزام التى تنتقل من جيل إلى جيل، تضغط بشدة على أولئك المؤهلين لحمل شارة الصليب، ولكن فى عصر كانت فيه الروابط الإقطاعية فى أقوى حال كانت الحماية والتبعية، التى غالبا ما كانت تعمل على المستوى الإقليمى، هى التى لها التأثير الأقوى من هذا كله. ويبدو أن هذا قد أثر على صورة المسيح التى كانت تقدم فى الدعاية، والتى كانت على الدوام استجابة للقيم الاجتماعية لدى الجمهور الذى تخاطبه. وعندما كان المسيح يوصف عمومًا باعتباره الأب الذى فقد أملاكه وينادى أبناءه لكى يستعيدوها له، غالبًا ما كانت تتراءى صورة ملك أوسيد إقطاعى يطلب الخدمة من رعاياه. وصورة المسيح كسيد إقطاعى، كما سنرى، يمكن أن نجدها دائمًا فى أغنية يعود تاريخها إلى الحملة الصليبية الثانية، ولكنها انتشرت فى كل مكان بحلول سنة ١٢٠٠م.

«لقد كان الرب قد تضرر حقًا من فقدان ميراثه، وهو يريد أن يختبر أصدقاءه وأن يرى ما إذا كان أتباعه مخلصين. وإذا ما كان أحد يحوز ضيعة إقطاعية من سيد: ارتبط به ثم تخلى عنه عندما يهاجم ويخسر ميراثه، فإن هذا التابع الإقطاعى ينبغى أن يُجرَّد بحق من ضيعته. إنك تحوز جسدك، وروحك وكل ما تملكه من الإمبراطور الأعلى، واليوم ها هو يدعوك لأن تسرع لمساعدته فى المعركة، وعلى الرغم من أنك لست مرتبطا معه بالقانون الإقطاعى، فإنه يقدم لك الكثير من المكافآت العظيمة، أى غفران جميع خطاياك وذنوبك، مهما كان حجم العقاب والجزاء الذى تستحقه، وكذلك الحياة الخالدة، مما يستوجب أن تسارع إليه بإرادتك الحرة».

كان العنصر الثالث هو شعبية الحركة الصليبية فى مسارح الحرب الأخرى. فغالبًا ما كان الصليبيون الحماسيون جاهزين للخدمة على عدة جبهات: إذ قام ليوپولد السادس أمير النمسا بحملة صليبية فى إسبانيا ولانجدوك؛ إلى جانب القتال فى الحملة الصليبية الثالثة والحملة الصليبية الخامسة وأخذ شارة الصليب للاشتراك فى الحملة الصليبية الرابعة ؛ وكان الفارس الفرنسى بيتر بيلار قد انضم إلى حملة لويس التاسع الصليبية إلى الشرق وحملة شارل أنچو فى جنوب إيطاليا.. وبحلول القرن الرابع عشر كان من ملامح موقف النبلاء من الحركة الصليبية أن مكان المعركة التى كانوا سيذهبون للاشتراك فيها كان ذا أهمية ثانوية. أما ما كان يهمهم فكان قتال أعداء المسيح، وفى بعض الأوقات «كانوا يظهرون لا مبالاة غريبة بشأن المكان الذى سيحاربون فيه، وضد من ». ولأسباب واضحة، لم تكن ميادين المعارك البديلة كلها تشترك فى تقاليد حج التوبة والتكفير عن الذنوب الذى ارتبط بالقدس، على الرغم من أنه فى أوائل القرن الثالث عشر كانت هناك محاولة من جانب قائد حملة صليبية من البلطيق لخلق عبادة السيدة العذراء فى ريجا وترويج أسطورة مؤداها أن أرضها التى ورثتها، التى توازى ميراث المسيح، كانت فى ليڤونيا. وبمرور الزمن كان هناك تحول فى هدف الحركة الصليبية من تحرير القدس أو الدفاع عنها (أو مساعدة الأرض المقدسة) إلى الدفاع عن العالم المسيحى عامة. وكان شن الحملات لصالح الجمهورية المسيحية، وهو الاسم الذى كان يستخدم غالبًا للدلالة على العالم المسيحى يتخذ باطراد شكل الحرب دفاعًا عن دولة بدلاً من الحرب باعتبارها عملاً دينيًا. وفى القرن الرابع عشر، كانت خدمة الرب من خلال إظهار القوة، وقد انفصلت تقريبا عن فكرة التوبة، هى التى تميز موقف الصليبيين الذين شاركوا فى الحملات فى شمال أفريقيا أو فى أوربا.



أصداء القدس : كنيسة الضريح المقدس بكتدرائية وينشستر. تحت صورة ضخمة للمسيح صور تمثل نقله ودفنه وربما كانت الحوائط قد رسمت فى زمن الأسقف بطرس الروشيسى وحملته الصليبية عام ١٢٢٧م، وربما كانت الكنيسة الصغيرة مكانًا يتجمع فيه الصليبيون المحليون للصلاة قبل الرحيل.

ويحتمل أيضا أن السبب الأعظم Cause célébre فى أزمة الحركة الصليبية بعد سنة ١٢٩١م، وسقوط فرسان الداوية الذى نصفه فى الفصل التاسع، قد أسهم فى علمنة الحركة الصليبية جزئيًا. إن سلسلة التهم التى وجهت ضدهم بدأت بالمقالات التى تنسب إليهم إنكار ألوهية المسيح، والصلب والصليب. وقد اتهموا بأنهم يبصقون على المصلوب عند استقبالهم فى المنظمة الرهبانية، وبأنهم يدوسون عليه بالأقدام، ويبولون عليه. وفى أى مجتمع مسيحى لابد أن هذه التهم كانت مرعبة، بيد أنها تشى أيضا بأن ثمة تحدٍ عنيف للنظرية والتقاليد الصليبية التى كانت سلطة المسيح وصورة الصليب تحتل مكان المركز فيها. وقد تم الترويج على نطاق واسع لهذه التهم من جانب الحكومة الفرنسية وكان العامة يستقبلون الصورة المرعبة لنظام رهبانى مسلح مهيب، كان يزعم أنه يجسد مُثُل الحملة الصليبية فى شكل دينى منتظم، فإذا هو ينكر فى كفر عقائدها المركزية. ومن المستحيل قياس الدمار الذى سببته هذه الاتهامات للحركة الصليبية، ولكن لابد أنها سببت بعض الضرر.

وإذ صارت الحركة الصليبية حركة مؤسسة وخيارًا دينيًا للفرسان فى القرن الثالث عشر، فقد كان مصيرها على أية حال أن تصبح أقل جذرية. وكلما زادت المثل العلمانية للفرسان كلما أسهمت فى إضعاف النموذج الثورى الذى تم الإعلان عنه سنة ١٠٩٥م، ولو بقدر ضئيل فقط. وقد تراخى مفهوم الحرب باعتبارها توبة وعملاً دينيًا بطبيعة الحال وكان فرسان الاسبتارية فى مالطا لا يزالون يعبرون عنه فى القرن الثامن عشر وإن كان ذلك بطريقة مظهرية متزايدة، ولكنها تخلت عن مكانها للصورة الأكثر تقليدية عن الخدمة العسكرية فى سبيل الرب. لقد كانت فكرة الحرب تكفيرًا عن الذنوب، وهى إحدى التعبيرات الأكثر راديكالية عن الفكر الأوربى، غير مريحة بدرجة جعلتها تعجز عن أن تؤمن لنفسها مكانا دائمًا فى لاهوت العنف المسيحى وممارسته.

(٥)

الأغـــانـــى

ميخائيل روتليدج

إن أدب أية فترة يعكس بالضرورة ما كان يشغل تلك الفترة من اهتمامات، أو يفشل فى اكتساب الشعبية إن لم يفعل هذا. وعلى أية حال، ففى العصور الوسطى لم تكن كلمة «أدب» وكلمة «شعبى» تعنيان تمامًا ما تعنيه هاتان الكلمتان الآن. إذ إن الأغانى الشعبية عن الحربين العالميتين الأولى والثانية، مثلا، كانت ذات شعبية لأنه كان هناك شكل ما من أشكال الإذاعة الجماهيرية : فى الحرب الأولى كانت الموسيقى الصحفية، التى كانت تعتمد على انتشار القراءة بين الجماهير وعدد كبير نسبيًا من الناس العارفين بالموسيقى، وصالات الموسيقى، بحيث أن أغنية Tipperary وصلت ملايين الناس فى زمن قصير نسبيًا. وفى حالة الحرب العالمية الثانية كانت إذاعة هذا النوع من المواد عن طريق تسجيلات الجراموفون والراديو أكثر انتشارًا وتتم فى الحال عمليًا. ومع هذا فإن مثل هذه المادة يصعب تسميتها «أدبا» شعبيًا على الرغم من أنها كانت كذلك. ومن ناحية أخرى، لايمكن لأحد أن ينكر القيمة الأدبية لقصائد الحرب لويلفريد أوين أو روبرت بروك، وروايات مثل:

All Quiet on the Western front أو Le Silence de la mer أو For Whom the Bell tolls كل شئ هادئ على الجبهة الغربية، «صمت البحر» لمن تدق الأجراس.

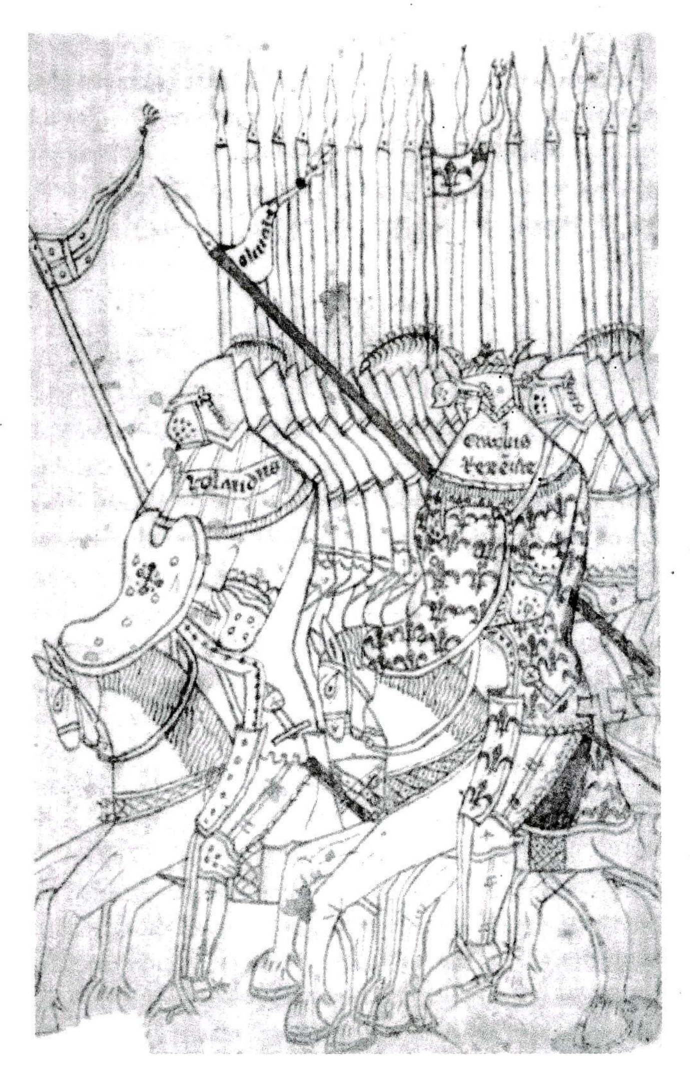
على الرغم من أن توزيعها كان أكثر محدودية.

والفرق فى العصور الوسطى أن محدودية معرفة القراءة كانت تعنى محدودية الانتشار: وهكذا فإن الأدب سوف يعكس اهتمامات الطبقة المتعلمة : أى الطبقة التى يُنتج الأدب من أجلها وبواسطتها. وكلمة «شعبى» تعنى شعبيًا فى دوائر البلاط الأرستقراطى، وتعنى كلمة «أدب» كل ما كان الرجل المتعلم يكتبه لكى يستمع إليه جمهوره. بيد أنه كان هناك نوع آخر من الكتابة أيضًا: فقد كانت الكتابة باللاتينية تحمل مادة موجهة إلى القساوسة وكتبة البلاط ذوى التعليم الراقى. وليست هذه ولا الأشكال «الرسمية» للكتابة مثل الحوليات، والتواريخ، والمؤرخات هى موضوع هذا الفصل. فنحن مهتمون هنا بما يستمع إليه الناس، الذى يتم بالقول المأثور، ويعتبر أساسًا بمثابة تسلية، على الرغم من أننا لم نستبعد إمكانية الوظائف الأخرى له مثل التوجيه، والتحريض والدعاية.

وقد تصادفت فترة الحملات الصليبية الأربع الأولى مع تطور أدب محلى غنى فى فرنسا وألمانيا يعكس الحملات الصليبية حقًا. وتسمى هذه الفترة، «نهضة القرن الثانى عشر» فيما يتعلق بالأدب، وهى تسمية منصفة. وفى كل من فرنسا وألمانيا تأسس التراث الملحمى العظيم: وأنشودة رولان Chanson de Roland، أقدم ملحمة فى فرنسا، يكاد يكون من المؤكد أن تاريخها يرجع إلى زمن الحملة الصليبية الأولى، وهناك نصوص فى كل من اللغة الفرنسية والأوكسيتانية، وهى اللغة الأدبية فى جنوب فرنسا، لأنشودة أنطاكية Chanson d'Antioche، وهى قصة حصار أنطاكية فى سنة ١٠٩٨م وتحكى أنشودة الحملة الصليبية Canso de la Grotzada فى النسخة الأوكسيتانية عما يسمى الحملة الصليبية الألبيچنسية. وهناك بالإضافة إلى هذا التقارير التاريخية الأكثر تمسكًا بالقواعد التى كتبها روبرت دى كلارى وچيوفرى دى ڤيلهاردوين.

وكانت الملاحم الفرنسية الباكرة تعرف باسم chanson de geste (من الكلمة اللاتينية gesta ومعناها المآثر، وقد توسع معناها ليعنى المآثر التى أنجزها بطل أو مجموعة أو عشيرة). ومدى ما تعكسه عن الحملات الصليبية مسألة تثير بعض الجدل.

والفعل فى ملحمة رولان الأقدم والأشهر يقوم على أساس حادث تاريخى حقيقى، على الرغم من أن الشك يحوم حول تفاصيله. ففى سنة ٧٧٨م كانت قوات شارلمان عائدة من حملة عسكرية ناجحة فى إسبانيا عندما حدث فى رانسفال فى جبال البيرينيس، أن تعرضت لهجوم (حسب المؤرخين المسيحيين فى القرن التاسع) من جانب الباسك المتمردين، أو (حسب رواية ابن الأثير المؤرخ العربى الذى عاش فى القرن الثالث عشر) من جانب مسلمى سرقسطة. وقد هلكت مؤخرة الجيش بأسرها بمن فيها إيجيهارد وكيل شارلمان، وأنسلم قائد الحرس الإمبراطورى، ورولان دوق بريتانى. ومن المستحيل عند هذه المسافة من الزمن ومن خلال ضباب الدعاية أن نعرف ما إذا كان المسلمون متورطين حقًا أو ما إذا كان القتال مجرد مناوشة. وما هو واضح أنه بحلول القرن الحادي عشر كان قد حدث تغير مذهل فى الموازين : ذلك أن رواية الأحداث فى أنشودة رولان حولت الحادثة إلى مواجهة رئيسية بين إمبراطورية شارلمان وقوى الإسلام، الذى توجه غزو شارلمان الناجح لإسبانيا كلها وتحويل أهالى سرقسطة المسلمين غصبًا إلى المسيحية.



هذا الرسم الذى يصور شارلمان ورولان فى طريقهما إلى المعركة ضد المسلمين يرجع إلى القرن الرابع عشر.

مخطوط **Roman d'Arles** من عمل برتران بويسيه الآرلى. ونوعية التصميم هنا ربما تكون مرتبطة بحقيقة أن بويسيه كانت مهمته مساح أراض.

«استولى الإمبراطور على سرقسطة وجعل ألفًا من الفرنجة الموالين له يفتشونها. وفى معابد محمد، وبالهراوات الحديد والبُلط، هشموا صنم محمد وغيره من الأصنام حتى لايبقى أى شر أو خرافة، والملك شارلمان مؤمن حقًا ويخدم الرب. وأساقفته يباركون المياه ويقودون الوثنيين إلى التعميد. وإذا ما عارض أحدهم إرادة شارل، فإنه كان يأمر بسجنه، أو حرقه، أو ذبحه، وهكذا تم تعميد أكثر من مائة ألف، وحولوا إلى مسيحيين حقيقيين، باستثناء ملكة سرقوسة وحدها: فقد كان لابد من أن تساق أسيرة إلى فرنسا، لأن الملك يرغب فى أن تعتنق المسيحية عن حب»(*).

ولايرد ذكر للحملة الصليبية فى أنشودة رولان، وقد ثار الجدل بشكل مقنع بأن صورة المسلمين التى تقدمها الأنشودة مشوشة عمدًا ولاصلة لها البتة بما كان سيعرفه شاعر عاش فى القرن الحادى عشر عن المسلمين فى إسبانيا أو فلسطين. ومع هذا، وكما سنرى، فإن الصورة التى تقدمها أنشودة رولان عن المسلمين باعتبارهم وحوشا وعبدة أصنام كان لها بالفعل أصداء فى أماكن أخرى. وعلاوة على ذلك، يبدو مقنعًا أن الشاعر كان مدركًا أن روايته ستكون لها جاذبية خاصة فى الدعاية. ويجب الاعتراف، مع ذلك، أن التلميحات المحددة إلى الحملات الصليبية فى فلسطين نادرة فى الملحمة الفرنسية القديمة.

بيد أن هناك شكلاً من أشكال الكتابة المحلية فى هذه الفترة تظهر فيها الحملات الصليبية باعتبارها موضوعًا منذ حوالى منتصف القرن الثانى عشر فصاعداً، وهذه هى «أغانى الحروب الصليبية»، وليست هناك كتابة مماثلة باقية منذ وقت الحملة الصليبية الأولى - ولكن لم يبق من الكتابة المحلية أيا كان نوعها من هذه الفترة سوى قدر قليل نسبيًا، وأقدم ما وصلنا مرتبط بالحملة الصليبية الثانية أو بحركة الاسترداد

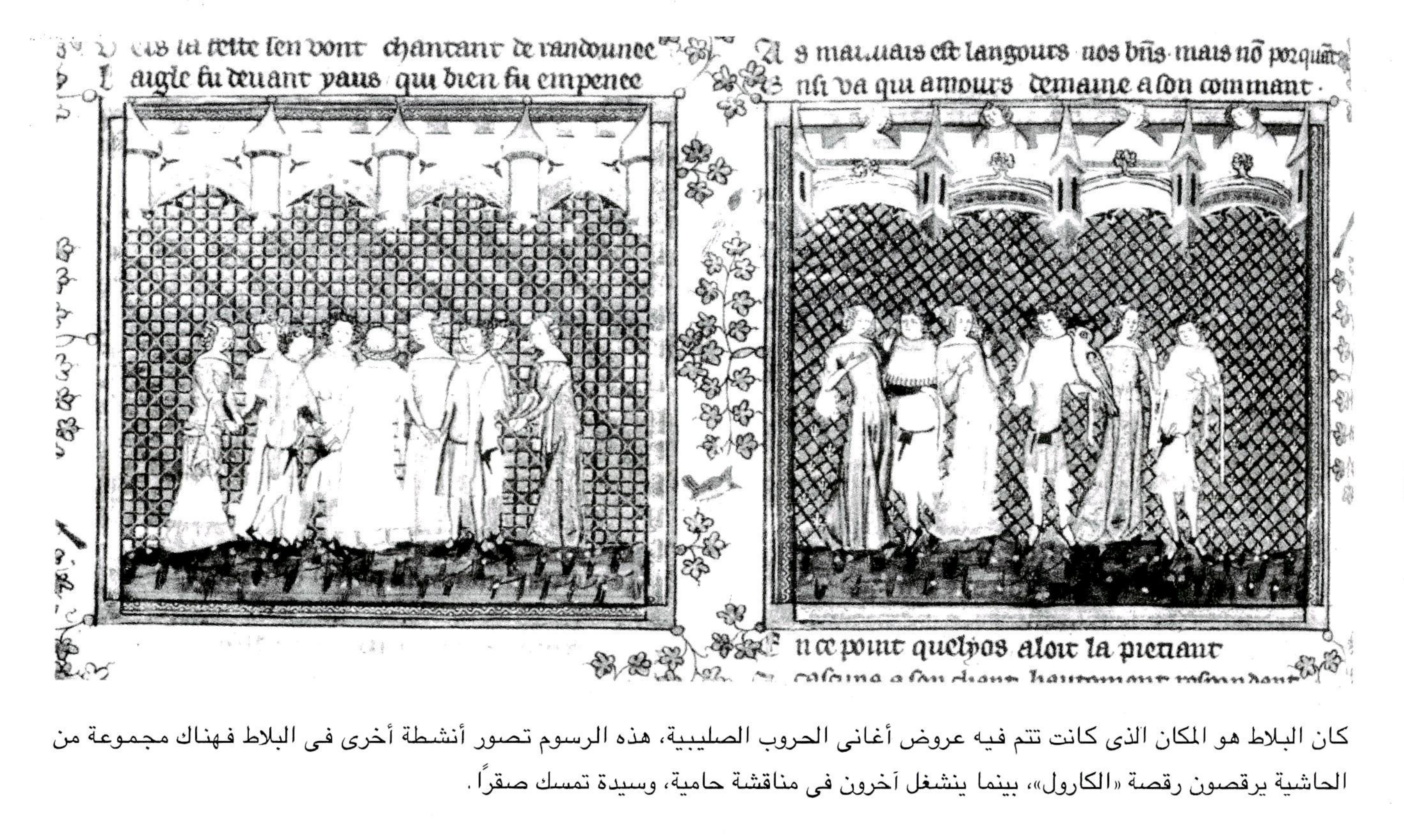
(*) هذا نص خيالى لايعبر عن الواقع التاريخى؛ ولكنه يعبر عن الوجدان العام فى أوربا الغربية آنذاك، وعن تأثير الدعاية الكنسية النزقة ضد الإسلام والمسلمين، وضد (النبى عليه الصلاة والسلام) الذى تصور الغربيون أن له صنمًا يعبده المسلمون؛ وهى خيالات المهزوم أمام المسلمين الغالبين آنذاك وقد رأيت وضع النص كما هو لبيان الصورة القبيحة التى رسمتها الكنيسة للمسلمين. (المترجم)

الإسبانية وباللغة الأوكسيتانية أو الفرنسية القديمة. وكانت هناك مناقشات كثيرة حول ماهية الـ «أغنية صليبية»، وإنه لحق «أن الأغانى التى اتخذت من الحركة الصليبية موضوعها الوحيد نادرة نسبيًا، ولكن هناك أغنيات كثيرة باقية تلعب فيها الحملة الصليبية دورًا ما، موضوعًا، قصة مجازية، أو تطورًا لفكرة أخرى؛ وهناك ١٠٦ أمثلة باللغة الأوكسيتانية، وحوالى أربعين مثالاً بالفرنسية، وثلاثون بالألمانية ومثال واحد بالإسبانية ومثالان بالإيطالية وبينما ونحن إذ نعترف بمشكلة التعريف، فإننا سوف نستخدم مصطلح «الأغنية الصليبية» لتسهيل الإشارة إلى أية أغنية تذكر الحملات الصليبية ؛ سواء تلك الذاهبة إلى الشرق أو إلى إسبانيا، أو فرنسا، أو إيطاليا.

لن يساعدنا كثيرًا أن نتحدث عن أغانى الحملات الصليبية باعتبارها نوعًا أدبيًا. والحقيقة أن الشعراء ضمَّنوا إشارات إلى الحملات الصليبية فى تنويعة كبيرة من الأشكال الشعرية، ومن الأغانى الأولى فى هذا النوع الأغنية التى كتبها شاعرا التروبادور ماركوبرو وسيركامون، يمكن أن نجد أغانى السيرفنتيس Sirvents – وهى أغان تضع نقاطا أخلاقية، أو سياسية أو شخصية – وشكلاً من أغانى الباستوريلا Pastorela– وهى أغنية فيها يواجه الشاعر غادة تنعى حبيبها الغائب، أما الأمثلة اللاحقة فتضمنت أغانى غرام البلاط مثل أغنية كوسى أنا أحبك أكثر من كل الناس « A vous, amant , plus k'a nulle autre gent، وكل الأغانى الألمانية تقريبا، مراثٍ للأبطال الذين سقطوا مثل أغنية جوسلم فيديت التى يرثى فيها ريتشارد الأول ملك إنجلترا (١١٩٩م)، وأغانى المديح مثل أغنية روتيبيف Complainte de Monsegneur Joffroi de Sergines (١٢٥٥–١٢٥٦م) وأغانى الجدل مثل أغنية راهب مونتاودو L'au-trier fui en paradis (١١٩٤م) وباختصار، لايوجد دليل على أن الشعراء ابتكروا أشكالاً جديدة أو أنواعًا شعرية جديدة للحديث عن الحملات الصليبية. وقد صارت هذه موضوعًا للأغانى والمصادر الشعرية.

وعدد الأغنيات الباقية من فترة الحملة الصليبية الثانية صغير : واحدة بالفرنسية وربما عشر أغنيات بالأوكسيتانية. وتلك الأغنيات الباقيات من هذه الفترة ومن السنوات

التالية تهتم فى غالبيتها بإسبانيا بقدر اهتمامها بالحملات الذاهبة إلى الشرق. ففى الفترة بعد سنة ١١٦٠م، كان ازدياد عدد شعراء التروبادور واتساع شعبيتهم هم ونظراؤهم فى جنوب فرنسا، أى شعراء التروڤير Trouvéres، يعنى أن الحملة الصليبية الثالثة والحملة الصليبية الرابعة تنعكسان بشكل أكبر فى الأغنيات. ومعظم أغانى الحروب الصليبية التى كتبها الشعراء الألمان Minnesänger تتصل بهاتين الحملتين كذلك. وفى جنوب فرنسا هناك تلميحات، وهى غالبًا غير مباشرة، إلى الحملة الصليبية الألبيچنسية. أما الحملات التى تمت فى القرن الثالث عشر فهى منعكسة فى تيار ثابت من الأغانى، معظمه بالفرنسية والألمانية.



كان البلاط هو المكان الذى كانت تتم فيه عروض أغانى الحروب الصليبية، هذه الرسوم تصور أنشطة أخرى فى البلاط فهناك مجموعة من الحاشية يرقصون رقصة «الكارول»، بينما ينشغل آخرون فى مناقشة حامية، وسيدة تمسك صقراً.

وإذا مــا صــدقت عبــارتنا الافــتـــاحيـــة فسيكون من نافلة القول أن نسأل لمــاذا كــانت الحــمـلات الصلـيــبـية منعكسـة بهذه الكثرة فى الأغنية، لقد كـان السبب فى ذلك أن عدة شعراء كانوا يقودون الحملات الصليبية. فهناك أغانٍ ألفها أمثال ثيبو الرابع أمير شمبانى، وڤولكيه أسقف تولوز زمن الحملة الصليبية الألبيچنسية، وأخرى كتبها أعيان كبار بارزون مثل كونون البثونى وجاى الكوس. وعلاوة على ذلك، كان كثير من الشعراء يعتمدون فى معيشتهم، بصورة جزئية على الأقل، على حماية الصليبيين البارزين ورعايتهم. فشاعر التروبادور ريمبو دى ڤاكيراس، مثلاً، فى «خطاب - أغنية» إلى بونيفاس المونتفراتى، يُذَّكِر راعيه بلطفه فى الماضى: «إننى أحمد الرب أنه ساعدنى بالقدر الذى وجدت فيك سيداً خيراً، ربيتنى بهذا القدر من النبل وأعطيتنى السلاح وأسديت لى خيراً جزيلاً ورفعتنى من أسفل إلى أعلى،



الأشخاص فى صنـدوق المجوهرات هذا الخاص بالزواج، ربما يمثلون الچونجلير Jongleurs، وهم الممثلون المحترفون الذين، بالإضافة إلى العزف على الآلات الموسيقية، والألعاب البهلوانية كانوا يساعدون بعروضهم على نشر أغانى الحملات الصليبية التى يؤلفها شعراء التروبادور، والتروڤير (الفرنسيون) والمينيسنجر (الألمان).

ومن النكرة الذى كنته صنعت منى فارسًا ذا قدر، يتم استقباله فى البلاط وتمتدحه السيدات Valen Marques , Senher de Montferrat II. 5-10 ويستطرد ريمبو ليتذكر كيف أنه حارب مع بونيفاس فى حصار القسطنطينية ولكنه يذكر راعيه أنك لايمكن أن تعيش على الذكريات :

«معك حاصرت الكثير من القلاع القوية، وكثيراً من الحصون المنيعة وكثيرا من القصور المنيعة التى يمتلكها الإمبراطور، أو ملك، أو أمير، ولاسكاريس والبروتوستوار المحاصر فى بتريون، وغيرهم كثير من الأقوياء، معك طاردت إمبراطور رومانيا، الذى خلعته عن العرش وتوجت غيره بدلاً منه. ولكن إذا لم تكافئنى بسخاء، فسوف يبدو وكأنى لم أكن أبدًا معك بقدر ما حاولت أن أذكرك، وأنت تعرف يا سيدى الماركيز أننى أقول الحق»

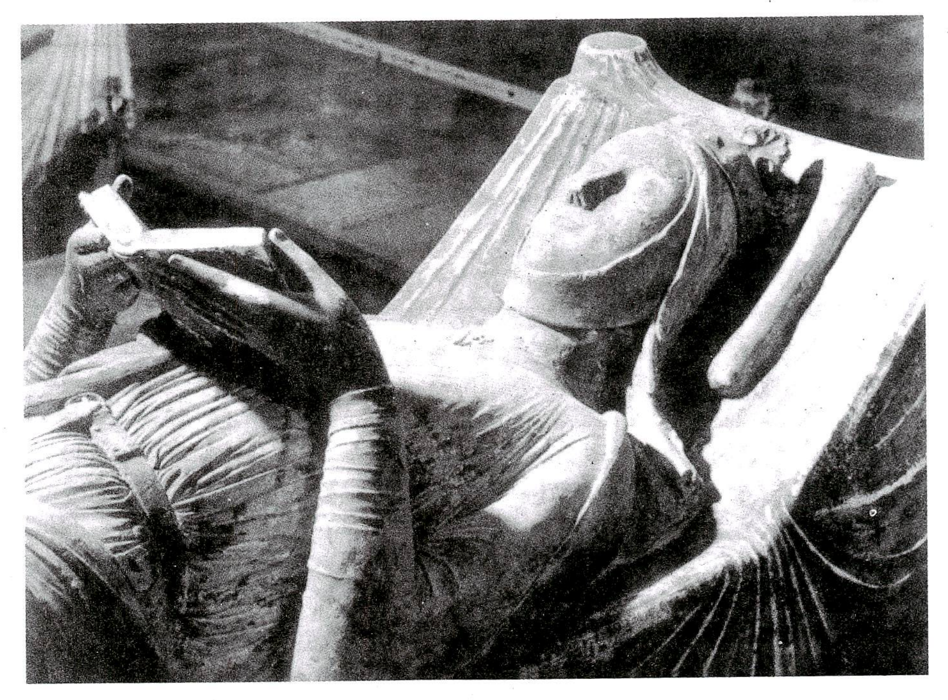
وبالمثل تميل القصائد التى تمدح أبطال الحملة الفرنسية إلى الإشارة إلى كرمهم كرعاة وكذلك إلى مآثرهم الحربية، وثمة جدل خيالى بين الرب والراهب الذى تحول إلى شاعر تروبادور، راهب مونتودو، ويسأل الرب الراهب لماذا أخفق فى مساعدة الملك ريتشارد ؟.

«أيها الراهب، لقد أخطأت بعدم الذهاب بسرعة قدر إمكانك للملك الذى يمسك أوليرون الذى كان صديقًا خيرًا لك، وهذا هو السبب الذى أظن فى أنه كان على حق لينهى صداقته معك، أوه ! كم خسر من النقود فى هداياه لك ! لأنه كان هو الذى رفعك من الطين. ربى، لقد كنت سأذهب إليه فعلا لولا غلطتك أنت : لأنك سمحت بأن يُسجن. ولكن سفينة المسلمين– هل نسيت كيف تبحر ؟ إذا ما وصلت إلى عكا فسيكون هناك الكثير من الأتراك الأشرار. إن الأحمق هو الذى يدخل فى جدال معك».

(L'autrier fui en paradis , 11, 33-48) .

والإشارة هنا إلى سجن ريتشارد على يد ليوپولد حاكم النمسا أثناء عودته من عكا فى سنة ١١٩٢م. وهناك فكرة مماثلة، تم التعبير عنها بنفس النغمة المرحة، تتجلى فى قصيدة عنوانها (1270) On his poverty، كتبها الشاعر الباريسى روتبييف : «إن

الموت قد سبب لى خسارة كبيرة وأنت أيضا، أيها الملك الطيب، فى رحلتين، فقد انتزع أناسًا صالحين منى، كما فعل الحج إلى تونس البعيدة، وهو مكان همجى، وكذلك فعل الناس الأشرار الذين لا رب لهم...»، وهنا يشكو روتيبيف من حملة لويس التاسع الصليبية.



التماثيل الأربعة فى دير فونتفرولت تصور أعضاء من أسرة آنجو القوية: هنرى الثانى، إليانور الأقطانية، ريتشارد الأول، وإيزابيلا دأنجوليم. ومن المناسب أن نذكر أن اليانور حفيدة أول شاعر تروبادور معروف، وليم التاسع أمير أقطانيا، وكانت هى نفسها راعية للشعراء، كان يجب تصويرها تقرأ كتابًا.

لقد كان الشعراء ورعاتهم على صلة بالأحداث. بيد أن هناك أسبابًا أخرى للدور الذى لعبه الصليبيون فى شعر البلاط فى تلك الفترة. ولاعجب أنه يبالغ فى مديح القيم والفضائل التى كانت الأرستقراطية تدعيها، وهى فضائل كانوا يشعرون أنها تميزهم عن أبناء الطبقات الأخرى. وبما أنه كان هناك رباط وثيق بين مفهوم النبالة ومسألة

ملكية الأرض، فربما تدخل بعض هذه الفضائل تحت مصطلح إقطاعى. وهى تتضمن الالتزام تجاه السيد الإقطاعى، وقبول الواجبات الإقطاعية المسماة auxilium (وهى المساعدة المسلحة عندما يكون هناك هجوم من العدو) وواجب المشورة Consilium (وهى المشورة وتحقيق العدالة). وغالبًا ما يعبر الشعراء عن الحملة الصليبية بمصطلحات تعبر عن هذا. ويُنظر إلى الأرض المقدسة على أنها أملاك الرب الحقة، التى اغتصبها الناهبون، ومن ثم يجب على أفصاله (أتباعه الإقطاعيين) أن يبذلوا ما بوسعهم لكى يعيدوها إليه. فإذا أخفقوا فى القيام بهذا، فإنهم بذلك لايقومون بواجبهم الإقــطاعى: «... يجب حقًا إدانة ذلك الذى يتخلى عن سيده فى ساعة الحاجة....» (vos ki ameis , II, 11-12) حسبما تقول أغنية مجهولة المؤلف ترجع إلى سنة ١١٨٩م تقريبًا. وأول أغنية من أغانى الحروب الصليبية بالفرنسية، من تأليف شاعر مجهول حوالى سنة ١١٤٣-١١٤٦م تزيد الأمور وضوحًا.

أيها الفارس إنك حقًا محظوظ

لأن الرب دعاك إلى مساعدته

ضد الأتراك والمسلمين

الذين ارتكبوا مثل هذه الأمور الفظيعة ضده

فقد استولوا على ضيعته دون وجه حق

ويجب حقًا أن نأسى لهذا

لأنه حدث هناك لأول مرة

أن عُبد الرب وتم الاعتراف به ربًا

والقصيدة تدور فى مصطلحات عن الواجبات الإقطاعية، وهى تصور الرب سيدا إقطاعيًا والفرسان فى صورة من يدينون له بنوع الحماية التى يدينون بها لسادتهم الإقطاعيين. واللازمة فى القصيدة تعد بالفردوس أولئك الذين يرافقون الملك فى الحملة الصليبية.

كل من يرافق لويس الآن

لن يخشى نار الجحيم

لأن روحه ستكون فى الفردوس

مع ملائكة الرب سيدنا (II . 9-12)

ويتم تذكير الفرسان بمهارتهم فى استخدام السلاح وبالدين الذى يدينون به للمسيح: «اعتبروا جيدا أيها الفرسان، أنتم يا من تحظون بالتقدير بسبب مهارتكم فى استخدام السلاح، أعطوا أجسادكم هبة للذى وُضع على الصليب من أجلكم ». ويتم اتخاذ لويس السابع مثالاً ؛ فيتم تصويره ينبذ الثروة، والسلطة، والأراضى مثل رجل يتخلى عن العالم لكى يعيش حياة القديسين. ويتم تذكر جراح المسيح ومعاناته، وليست هذه مجرد تذكرة دينية: إنها مقصودة لإلهاب رغبة السامعين للأخذ بالثأر من أعداء الرب الذين حقَّ عليهم الانتقام.



تمثال ريتشارد الأول، مثل أمه وإخوته، هنرى وجيوفرى الذين كانوا رعاة عدد من الشعراء، أشهرهم راهب مونتودو الذى يأسى لأسر ريتشارد وجوسيلم فيديت الذى يحثه على أن يفى بوعده بالرحيل إلى فلسطين.

«إنه يدعوم الآن لأن الكنعانيين وأتباع زنكى الأشرار قد لعبوا كثيرا من الحيل الشريرة عليه: والآن كافئوهم بما يستحقون (II. 41-4) ويُنظر إلى الصراع باعتباره مبارزة بين الجحيم والسماء: يدعو الرب أصدقاءه للانضمام إلى فريقه: وقد حدد الموعد والمكان – الرها– للمبارزة؛ وسيكون الخلاص هو المكافأة، وسيتم انتقام الرب على أيدى الصليبيين. ويذكرهم بموسى الذى شق البحر الأحمر وكيف أن فرعون وأتباعه قد غرقوا ؛ وهى مناسبة بين عدد من المناسبات فى أغنيات الحملات الصليبية التى يتم فيها مساواة المسلمين بأتباع فرعون.

وفى عدة أغان، يتم تصوير الحملة الصليبية على أنها الفرصة المتاحة للفرسان والبارونات لكى يظهروا أنهم لايمتلكون فحسب الخصال التى تميز طبقتهم وإنما يتميزون فيها.

«أيها الرب، لقد كنا زمنًا طويلاً شجعانًا فيما لانفع فيه ! وسنرى الآن من سيكون شجاعًا حقًا ؛ وسوف نذهب للانتقام من العار المشين الذى يوجب على كل امرئ أن يكون آسفًا يملؤه الأسى؛ لأنه فى زماننا ضاعت الأرض المقدسة التى فيها عانى الرب الموت عذابًا من أجلنا ؛ فإذا ما سمحنا الآن لأعدائنا الفانين أن يبقوا هناك، ستكون حياتنا عارًا إلى الأبد».

«إن الرب محاصر فى أرض ميراثه المقدس؛ وسنرى الآن كيف سيساعده أولئك الناس الذين حررهم من السجن المظلم عندما مات على ذلك الصليب الذى هو الآن فى أيدى الأتراك. واعلموا جيداً، أن أولئك الذين لايذهبون سيجللهم العار ما لم يكن الفقر، أو كبر السن، أو المرض يمنعهم من الذهاب؛ ولكن أولئك الأصحاء، الشباب، والأغنياء لايمكن أن يبقوا متخلفين دون أن ينالهم الخزى».

(Conon of Béthune, Ahi, Amours! com dure departié , II , 25-40)

كان على طبقة الفرسان والبارونات تجنب العار والتسكع دون عمل ونقص الشجاعة بكل ثمن وكانت هذه الأغانى تخاطبهم (فهى تبدأ غالبًا بكلمة أيها الفارس Chevalier... أو كلمة أيها السيد Seigneur... أو البارون Baron...) ومثل هذه التلازمات لاتخدم فقط باعتبارها موضوعا مناسبًا لأغنية صليبية، فهى تتوافق بصورة تامة مع مطلب شعرى مهم. وكان شعراء العصور الوسطى وعلماؤها قد تعلموا أن الوظيفتين الأساسيتين للبلاغة هما المديح واللوم. كما تعلموا أيضًا أن يفكروا ويتدبروا وفق نماذج جدلية، ومن ثم فإن إيديولوجية الحروب الصليبية قدمت بناءً تامًا : أولئك الذين لبوا الدعوة يحظون بالمديح، وأولئك الذين صموا آذانهم عنها حقً عليهم اللوم.

«كل الجـبنــاء سوف يبقون هنا، أولئك الذين لايحبون الرب أو الفضيلة، أو الحب أو الجدارة. ويقول كل منهم: ولكن ماذا عن زوجتي ؟ إنني لن أترك أصدقائي بأي ثمن، مثل هؤلاء الناس سقطوا في طريق تفكير أحمق، لأنه لاصديق في الحقيقة سوى ذلك الذي وُضع على الصليب من أجلنا.

والآن فإن أولئك الفرسان الجسورين الذين يحبون الرب وشرف هذه الدنيا سوف ينطلقون، لأنهم بحكمتـهم يودون الذهاب إلى الرب ؛ ولكن المتكبـرين ذوي الوجـوه الشـاحبة مثل الموتى سـوف يتخلفون. إنهم لايبصـرون، ولاشك عندي في ذلك، أولئك الناس الذين يرفضـون أن يسـاعدوا الرب مـرة واحدة في حياتهم ويخسـرون مـجد الدنيا بسبب مثل هذا الشئ الصغير».

(Thibaut of Chapmagne," Seigneur, Sachiez, qui or ne S'en ira, II, 8-21) .

كان شاعر التروبادور ماركابرو أستاذًا في هذا الأسلوب الفني.

«لأن الرب الذي يعلم كل ما هو كائن، وما سيكون، وما كان منذ الأزل، وعدنا بتاج ويلقب الإمبراطور. وجمـال أولئك الذاهبين إلى مكان الاغتسـال سيكون– هل تعرف من أي نوع؟ – سيكون أكثر من جمال نجمة الصباح؛ بشرط وحيد هو أن ننتقم من الخطأ الذي اقترف في حق الرب هنا وهناك صوب دمشق».

«هناك أقوام كثيرة قريبة من نسل قابيل، المجرم الأول، وليس منهم شعب واحد يمجد الرب يمجد الرب. وسوف نرى من هـو صديقه الحقيقي، لأنه من خلال قوة المطهر، سوف يسكن المسيح بيننا، وسوف يضطر إلى الهرب الأوغاد الذين يؤمنون بالكهانة والعرافة».

«وسوف يبقى في مكان الجبناء من يتجرعون الخمر، ويزدردون العشاء، ومن يستدفئون بالنار، والذين يحتلون جوانب الطرق؛ إن الرب يرغب في أن يختبر الشجعان والأصحاء في مطهره؛ والآخرون سيحرسون مساكنهم الخاصة وسيجدون عقبة كؤودًا : وهذا هو السبب في أنني أبعث بهم إلى عارهم».(Marcabru, "Pax in nomine Domin," II, 28-54).





إلى اليسار: كان ماركابرو واحدًا من أكثر المبتكرين والمبدعين بين أوائل شعراء التروبادور. وذمه لأولئك الذين فشلوا فى أن يعيشوا وفقًا للمثل العليا فى البلاط Cortezia، فى سياق الحركة الصليبية عمليًا عنيف وغالبًا ما يتم التعبير عنه فى لغة قاسية متعمدة.

يمينًا هنا ريتشارد مرسوم فى وضع يعبر عن التزامه بالحملة الصليبية : ففى إحدى يديه الكنيسة، وفى اليد الأخرى السيف الذى يدافع عنها، هذه هى الصورة البطولية التى تنعكس فى المراثى التى كتبها من أجل ريتشارد الشاعران جوسيلم فيديت وبيرول.

إن «مكان - الاغتسال» (أو المطهر) الذى يتحدث عنه ماركابرو هو تصوير مجازى للحملة الصليبية فى إسبانيا. وهذه الأغنية واحدة من أولى الأغانى (حوالى ١١٤٠م) ومن أشهر أغانى الحروب الصليبية. وهى تعبر بوضوح أكثر من أية أغنية أخرى عن الرابطة التى يصنعها الشاعر بين قيم الكياسة الاجتماعية **Cortezia** والحملة الصليبية باعتبارها المحك الأخلاقى. ويرى ماركبارو أن عدم مساندة بعض البارونات للحملة الإسبانية عرض من أعراض تدهور الشباب **Joven**، بيد أنه ليس مجرد الشباب

الزمنى : لأن مصطلح Joven يغطى عدداً كبيراً من السجايا التى ربط ماركابرو وغيره بينها وبين نموذجهم الإيجابى عن الفارس أو البارون الشاب وهى: كرم الروح، الطاقة الشبابية، الإخلاص، وأولئك الذين لايقدمون العون «منكسرون، مخيبون للآمال، مرهقون ومهارتهم الحربية Proeza واهنة، لايحبون الفرح أو المتعة» (Ibid, ll. 62-3) وتعنى كلمة proeza الشجاعة والمهارة الحربية، ولكنها ترتبط أيضا بالحماسة والسعى المشرِّف نحو المجد. ويتوقع ماركابرو أن يجد هذه السجايا والخصال بين البارونات وأتباعهم المقربين. ويزرع فى أغانيه صورة أخلاقى صارم يدين الكسل والضعف الجسدى تماماً وكذلك ما يسبب ضعف الهيراركية. ويخلق صورة للبارون النموذجي تصوره مُفعمًا بالطاقة والحيوية، زاهداً متحمسًا للمجد والفضيلة، مدركًا لما يفرضه موقعه الاجتماعى من التزامات. كما يمزج هذه الصورة بالمجاز الدينى والبناء الجدلى لأغانى السرڤنتيس Sireventes الأخلاقية المضمون، بحيث يكون شرف السيد الإقطاعى المثالى والتزاماته هى ذات المطالب الدينية ومجد الحملة الصليبية. والذين لايذهبون فى الحملة الصليبية ليسوا صادقين فى قيم طبقتهم.

سيكون الفرنسيون غير طبيعيين Desnaturat son li Frances

إذا ما رفضوا عمل الرب... Si de L'afar Deu dizon no

ولكن، وحسبما يجب أن نتوقع، كانت الحروب الصليبية فى عيونهم محك الالتزام الأخلاقى كما كانت معياراً اجتماعيًا باتفاق الجميع. ويرى سيركامون، الذى كان معاصراً لماركبارو، أن المشاركة فى الحملة الصليبية مؤشر على الحياة النزيهة أخلاقيًا ووسيلة لتجنب الشر؛ «والآن، قد يُطهِّر الرجل نفسه ويحررها من اللوم العظيم، وكل ما يحمل عبئه؛ وإذا ما كان جديراً فإنه سوف يرحل باتجاه الرها تاركًا الدنيا المهلكة وراءه : لأنه بمثل هذا يخلِّص نفسه من العبء الذى يجعل الكثير من الناس يأثمون ويهلكون Cercamon , " Puois nostre temps comen'a brwnzin" وتوحى بقية القصيدة بأن «العبء» هو عبء الإثم malvestatz، الذى يصوره

سيركامون مزيجًا من الجشع، والكبر، والزيف والشبق الجنسي والجبن. وترى أغنية بيرڤيال وعنوانها: "Baron, Jhesus , qu'en crotz fon mer " (1202)"، الحملة الصليبية على أنها رد لتضحية المسيح: «أيها البارونات، إن يسوع الذى وُضع على الصليب لإنقاذ الشعب المسيحى، يدعونا جميعًا لكى نذهب ونستعيد الأرض المقدسة التى جاء إليها ليموت حبًا لنا» وجزاء عدم استجابة لهذه الدعوة سوف يكون اللوم والتوبيخ بعد موتنا وفقدان الفردوس، وهذا هو الوعد لأولئك الذين يذهبون فى الحملة الصليبية. وأن تفعل ذلك يعنى التخلى عن الدنيا التى لايعول عليها، وهى مناسبة للخطيئة، وهى مكان يخون فيه الرجال حتى أصدقاءهم. أما الشاعر الباڤارى ألبرخت ڤون يوها نسدورف، الذى كتب خمس أغان عن موضوعات الحركة الصليبية، فيقدم تطورًا مثيرًا لهذه الفكرة. فهو يوضح أن الأرض المقدسة لم تكن أكثر حاجة للمساعدة فى أى وقت مثلما هى الآن– وهو يكتب عقب انتصار صلاح الدين فى حطين – ولكن بعض الحمقى يقولون «لماذا لايعتنى بها الرب دون مساعدتنا؟» والإجابة تتمثل فى تضحية المسيح، التى لم تتم بدافع الضرورة وإنما بدافع الشفقة : «إنه لم يكن بحاجة إلى أن يجلب هذه المعاناة الكبيرة على نفسه ولكنه كان يفيض شفقة علينا فى محنتنا. وإذ لم يكن لأى رجل الآن شفقة على صليبه وعلى ضريحه، فإنه لن يحصل على النعمة السماوية» (Die hinnen varn, ll. 8-11). وتتم المساواة بين فعل الصليبى وبين خلاص المسيح للخطاة، فالحملة الصليبية تُشن بدافع من الشفقة وبدافع من الحب. وثمة شاعر مجهول من شعراء التروڤير فى القرن الثانى عشر يثير نفس النقطة «أنتم يا من تحبون حبًا حقًا، استيقظوا، لاتناموا ! فالقنبرة تسحب النهار نحونا كما تخبرنا بكلامها أن يوم السلام قد جاء وفيه سوف يمنح الرب بكل حلاوته أولئك الذين سوف يذهبون لأخذ الصليب حبًا فيه والذين سوف يعانون الألم ليلاً ونهارًا من خلال أعمالهم. وحينئذ سيرى من يحبه حقا».

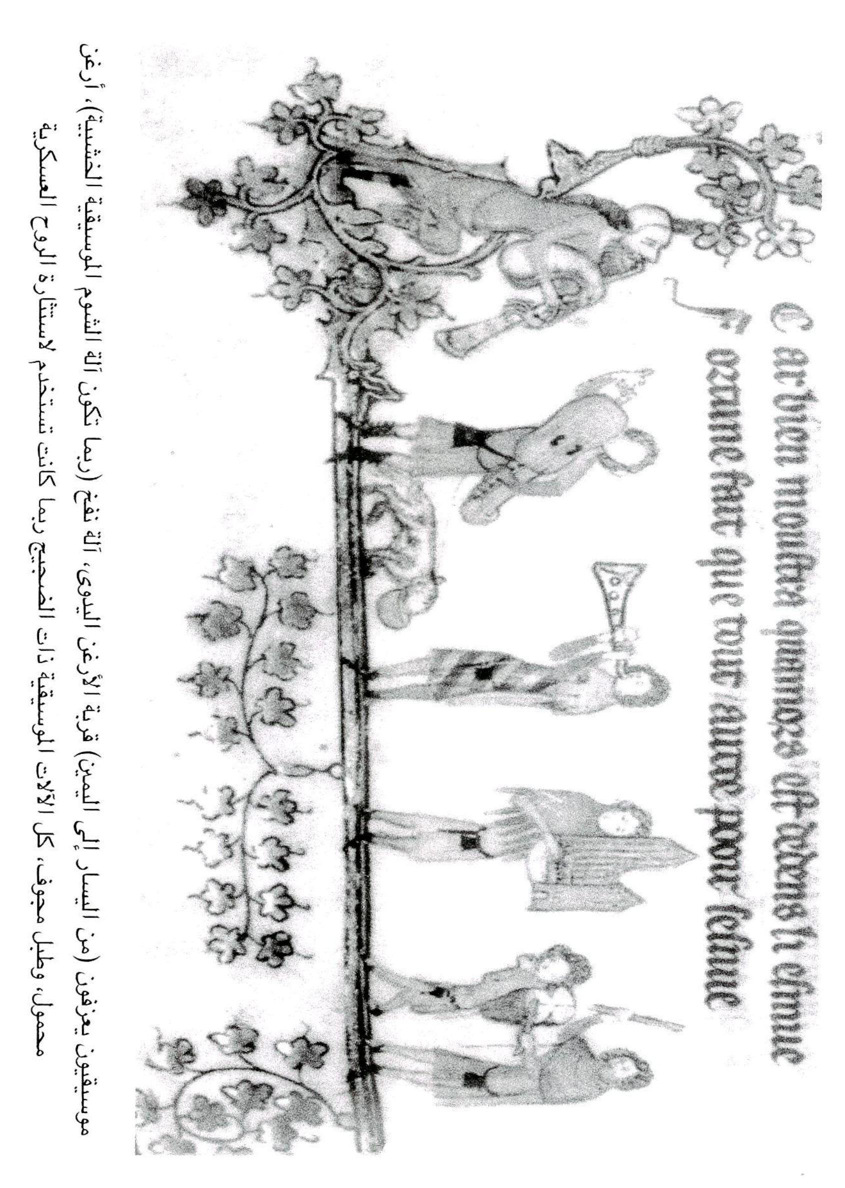
«ذلك الذى صُلب من أجلنا لم يكن تعوزه الحماسة لنا بل أحبنا مثل محب مخلص، ومن أجلنا حمل الصليب المقدس فى معاناة كبرى، فى يديه بحلاوة، وعلى صدره، مثل حمل وديع، بسيط وتقى، ثم سمروه بمسامير ثلاثة، بقوة فى يديه وفى قدميه»

(Vous qui ameis", II . 1-10, 21-30).

وفكرة أن الحملة الصليبية عمل من أعمال الحب هى جزء من الأرثوذكسية الدينية فى ذلك الزمان، ولكن ثمة رابطة أخرى بين الحملات الصليبية والحب مستمدة من مصدر أدبى وليس من مصدر كنسى. فأحد الموضوعات الرئيسية فى الشعر فى العصور الوسطى هو الحب. والواقع أنه فى حالة الشعراء الألمان، فإن الاسم الذى به يعرفون– Minnesäger– معناه «أولئك الذين يغنون عن الحب». ونمطيًا يتقمص الشاعر شخصية رجل عاشق– وعادة يحب دون أمل – لسيدة اسمها غير معروف. والملامح التى تميز التعبير عن هذا الحب fin'amor فى أغانى التروبادور، والترڤير، والمينيسانجير، هى الشوق والتوتر الذى لاينتهى وامتداح المحبوب. ويمكن تطوير هذه الملامح بعدة طرق. فمثلاً، إذا كان التوتر لايزال قائمًا، قد نعرف السبب فى ذلك: أن السيدة ذات مكانة وشخصية راقية، و«بعيدة» عن المحبوب بدرجة أنه يستسلم لليأس من أنه لن يصل أبدًا إلى مكانتها السامية. وربما تكون هناك عقبات أخرى ومخاطر أخرى: المسافة البعيدة فعلاً، المنافسون الساعون بالنميمة (المعروفون باسم Losen-giers) أو حياء العاشق، وليس من الصعب أن نرى كيف أن مثل هذه العناصر فى أغنية الحب يمكن أن تنتقل إلى فكرة الحملة الصليبية. وقد يعبر الشوق المستمر عن القصد، الذى لم يتحقق بعد، بالذهاب إلى الحملة الصليبية، أو ربما تستخدم لاقتراح فكرة الرحلة التى تبدو طويلة جدًا والتى لايمكن رؤية نهاية لها بشكل واضح. ويربط هارتمان ڤون أوى، فى أغنية كتبت فى وقت الحملة الصليبية الثالثة تقريبًا، بشكل متعمد بين الحب Minne وحب الرب، كما تعبر عنه الحملة الصليبية باعتباره «حجًا بدافع الحب» : «أيها السادة والأقارب، إننى ذاهب فى رحلة؛ فلتحل البركات على

أرضى وناسى لا حاجة للسؤال إلى أين أنا ذاهب: أقول لكم بوضوح إلى أين تقودنى الرحلة. لقد أسرنى الحب وحررنى فى القول. والآن بعثت إلىّ برسالة تقول إن على أن أنطلق من أجل حبها. إنه أمر محتوم، يجب أن أذهب إلى هناك؛ كيف يمكننى أن أحنث بوعدى وألا أصدُق وعدى (II, 1-8).

وهو لايكشف سوى قرب نهاية المقطع الثانى أنه يشير إلى الحملة الصليبية. وعلى أية حال، بدلاً من استكشاف الإمكانيات البلاغية والمجازية، فغالبا ما تكون الحال هى أن الشعراء يربطون بين فكرة الحملة الصليبية وفكرة الحب البشرى، وذلك عن طريق اتخاذ لغة المواقف التقليدية فى شعر الحب. هذه هى الحال التى كانت تتصاعد بمرور الزمن. فبالنسبة للحملة الصليبية الثانية، نجد قصيدة واحدة فقط تقوم بهذا الربط، ولكن مع نهاية القرن، ولاسيما فى ألمانيا، صار ذلك شائعًا جدًا. فالأمثلة الأولى ترى الأمور من وجهة نظر المرأة التى تركها الصليبى وراءه. وتبدأ أغنية ماركابرو "A La fontana del vergir" (حوالى سنة ١١٤٧م) بالتلميح إلى الربيع والطبيعة وهى من الملامح التقليدية فى أغانى البلاط. وفى الأغانى المعتادة تكون كلمة «أنا» فى القصيدة - الذى يقدم عموما باعتباره فارسًا - فى مقابل فتاة، وهى تغنى عن أفراح الحب أو آلامه. ويحاول الفارس إغراءها ولكنه يُقابل بالرفض. وفى هذه الحال يكون لأسف الفتاة أساس محدد.



موسيقيون يعزفون (من اليسار إلى اليمين) قربة الأرغن اليدوى، آلة نفخ (ربما تكون آلة الشوم الموسيقية الخشبية)، أرغن محمول، وطبل مجوف، كل الآلات الموسيقية ذات الضجيج ربما كانت تستخدم لاستثارة الروح العسكرية

«كانت فتاة صغيرة، جميلة الشكل، ابنة سيد قلعة، وعندما توقعت أن الطيور والخضرة تجلب لها المسرة، وأنها بسبب الفصل الجديد الحلو كذلك، قد تكون على استعداد للاستماع لمحاولاتى إقناعها، غيرت حالها بسرعة.

«بكت إلى جوار النبع وخرجت منها تنهيدة تثير القلب. قالت « يا يسوع يا ملك العالم، إن حزنى الكبير يكبر بسببك، لأن الخزى الذى ارتكب ضدك يسبب لى غمًا عظيمًا: إن أفضل الرجال فى هذا العالم كله راحلون لخدمتك، ولكن هذا ما يسرُّك".

«معك يرحل حبيبى، الوسيم النبيل، الجدير، والقوى؛ وكل ما بقى لى هو ورطتى المؤسفة، وشوقى المبرح، ودموعى، أوه، كم كان الملك لويس قاسيًا عندما أصدر الأوامر بالتجمع والمراسيم التى من خلالها دخل الأسى إلى قلبى».(II . 8-28)

لقد أُعطى الملك والحملة الصليبية الدور الذى يقوم به الواشون Losengiers فى أغانى الحب القياسية : أى تفريق العشاق المخلصين. وتقدم القصيدة تحولاً مثيراً يتمثل فى الأسى على الخزى الذى سببه ضياع الأماكن المقدسة والحب الضائع معًا، أى أن المرأة تشكو مما هو محل مديح عادة. وثمة مثال لاحق زمنيًا يتبنى الموضوعات التقليدية فى أغانى المرأة Chanson de femme ؛ وهو نمط من الأغانى تشكو فيه المرأة من تعاستها فى الحب، عادة بسبب أنها قد أُجبرت على الزواج من رجل لاتحبه، ولكنها تجد العزاء فى التفكير فى عاشق مُحرَّم. هذه الأغنية، التى كتبها Guiot de Dijon جويو دى ديچون (حوالى ١١٩٠م) ذات جوهر عاطفى قوى يتصل بتقليد شعرى هو «الحب عن بعد». والحكاية التى تتضمنها هى نفسها مثل أغانى المرأة، ولكن العقبة فى سبيل السعادة هنا هى حقيقة غياب حبيبها الصليبى. ويكمن تحديها للفراق فى أفكارها الشهوانية عنه وفى التذكار غير التقليدى الذى تركه لها.

«سأغنى لأربح قلبى. لأننى لا أريد أن أموت أو أُجن بسبب خسارتى الفادحة عندما لا أرى أحداً يعود من تلك الأرض الأجنبية حيث الرجل الذى يجلب إلى قلبى السلوى عندما يرد ذكره على ما معى. أيها الرب، عندما تصيح «إلى الأمام» أسبغ مساعدتك على ذلك الحاج الذى يرجف قلبى من أجله،لأن المسلمين قوم أشرار.

«سأتحمل خسارتى حتى تنقضى سنة، إنه فى رحلة حج؛ يا رب أنعم علىّ رجوعه فيها ؛ ولكن على الرغم من كل عائلتى، فإننى لا أنوى أن أتزوج أحدا غيره. بل ن أى أحد يحدثنى فى ذلك أحمق. أيها الرب، عندما تصيح... إلخ» «على أية حال،

يملؤنى الأمل لأننى قبلت رحيله. وعندما تهب الريح الحلوة القادمة من ذلك البلد الحلو حيث يوجد الرجل الذى أرغبه، فإننى أحول وجهى ناحيتها مبتهجة، ويبدو لى أننى أشعر به تحت غطائى الفرو. أيها الرب عندما تصيح...إلخ».

"إننى أتحسر كثيرًا على أننى لم أكن هناك لكى أودعه فى طريقه، لقد أرسل لى قميصه الذى كان قد ارتداه، لكى أحتضنه بين ذراعى. وفى الليل، عندما يعذبنى حبى له، أضعه فى السرير بجانبى وأحتضنه طوال الليل على لحمى العارى ليخفف من آلامى، أيها الرب، عندما تصيح...إلخ».

"Chanterai por mon corage", (II . 1-20 , 33-56) .

إن الخطوط التقليدية فى أغنية المرأة تتقاطع مع اللازمة التى تضع بشكل حرفى تمامًا هدف حبها، الحج، فى سياق الحملة الصليبية.

.. كانت من التقاليد الشعرية المفضلة لدى الشعراء فكرة قلب العاشق القادر على أن ينفصل عن جسده، متخطيًا المسافة التى تفرق بين العشاق. ويقدم فريدريش ڤون هاوزن، الذى كان شاعرًا فى حاشية فردريك بربروسا وقُتل فى الحملة الصليبية الثالثة، الكثير من هذا فى أغانيه، وأكثرها وضوحًا أغنية «قلبى وجسدى، اللذان توحدا زمنًا طويلاً».

"Min herz und min lip diu wellent scheiden" «إن قلبى وجسدى اللذين توحدا زمنًا طويلاً، يناضلان للفراق. جسدى يتحرق لقتال الكفار، على حين أن قلبى اختار امرأة فضلها على العالم بأسره » (II . 1-2). وربما كان نموذج أغنية فريدريخ هى أغنية كونون البيثونى (حالى ١١٨٨م) **Ahi, Amours! com dure departie**: «أيها الحب، كم سيصعب على ترك أفضل امرأة يمكن أن يحبها أحد على الإطلاق. وربما يعيدنى الرب إليها مثلما تركتها فى غمرة الأسف. وأسفاه، ما الذى قلته؟ إننى فى الحقيقة لا أتركها إطلاقا. فإذا ما كان جسدى راحلاً لخدمة سيدنا، فإن قلبى يبقى خاضعًا لحكمها». (II . 1-2)

وثمة موضوع مشترك آخر هو «الموت من أجل الحب». وفى أغنية لمؤلف مجهول من أغانى المرأة chanson de femme عنوانها "Jerusalem, grant damage me fais" ربما يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثالث عشر، مرتبطة بنقل مثير لفكرة الخروج فى حملة صليبية كعمل من أعمال الحب ؛ «ولذلك ساعدنى يا رب، فلا مهرب أمامى: يجب أن أموت، فهذا هو قدرى ؛ ولكننى أدرك جيداً، أن المرء الذى يموت من أجل الحب، فما هى إلا رحلة يوم إلى الرب. واأسفاه كان على أن أرحل ذلك اليوم لو أننى وجدت حبى الحلو بدلاً من أبقى هنا محروما تمامًا». (II . 15-21) «الموت فى سبيل الحب» عبارة تحمل معنيين : المعنى التقليدى «الموت كسير القلب» الذى ينطبق على المرأة من أجل موت حبيبها المسافر فى حملة صليبية والذى مات حبًا فى الرب. وبهذا سيكون موتها موازيًا لموته وسيقوم كلاهما برحلة يوم واحد إلى الرب. والمقطع الشعرى نوع ما من الأيقونة التى تصور مجمل العلاقة بين أغانى الحب واستقامة الحملة الصليبية. إنها تعالج الموقف الذى يقترب من الجرأة الذى تعبر عنه المرأة فى المقطع الشعرى الأول : «يا قدس، إنك تخطئين فى حقى كثيراً »، وهو موقف بمثابة رجع الصدى لموقف تلك الفتاة فى أغانى الباستوريلا Pastorela لماركابرو ويمكن أن نجده أيضا فى أغنية رينالدو أكونيو (حوالى ١٢٢٨م) وعنوانها "Giâ mai non uni comfortto" إن الصليب يخلِّصُ الناس.



أصحاب الآلات من الموضوعات التى تتكرر كثيرًا لدى المزخرفين فى المخطوطات المكتوبة باللاتينية وباللهجات المحلية على السواء، ولكن من الصعب التأكد ما إذا كان القصد أن تكون أغانى الحروب الصليبية مصحوبة بهذه الآلات أم أن القصد كان الصوت وحده. فى هذه النمنمة العازف الأساسى الذى يعزف على أرغن الأجراس، ربما يصور الملك داود، باعتباره كاتب المزامير»

ولكنه يقودنى إلى الجنون

والصليب يغمرنى بالأسى

فيدفعنى إلى أن أصلى للرب طالبًا ألا يساعدنى

واأسفاه يا صليب الحاج

لقد ضيعتنى بهذه الطريقة **(II. 25-30)**

أما هارتمان ڤون آوى، فيرى أن للمرأة دورًا أكثر إيجابية: **«إن المرأة التى ترسل زوجها العزيز فى مثل هذه الرحلة بملء إرادتها، شريطة أن تعيش فى الوطن عيشة فاضلة بإجماع الكل، تكون قد اشترت بهذا نصف ثوابه. فإنها سوف تصلى من**

أجلهما سويًا هنا، وهو سوف يذهب ويحارب من أجلهما سويًا هناك "Swelch vrowe Sendet lieben man" (II.1-7).

لقد تأملنا بالدراسة حتى الآن الطريقة التى تعكس بها أغانى الحركة الصليبية التطلعات الاجتماعية، والاستقامة الدينية، والتقاليد والأعراف الأدبية فى ذلك الزمان، ولكن ترى ما الذى كانت تقوله هذه الأغانى عن حقيقة الحملات الصليبية؟ لقد كانت مخاطر الرحلة أحد الجوانب التى يتردد ذكرها أكثر من غيرها فى أغانى الحركة الصليبية، وهو أمر لايبدو مدهشًا عندما يتذكر المرء أن أول شعراء التروبادور المعروفين، وهو وليم التاسع أمير أقطانيا، قد خسر جميع رجاله تقريبًا فى الطريق إلى الأرض المقدسة.كما يحتفل بوسيلم فيديت، الذى شارك فى الحملة الصليبية الثالثة، بعودته من الحملة سالمًا فى الأغنية التى وضع عنوانها Del gran golfe de mar (1192 / 3). وهو لايلقى بالاً للرحلة، إنما يفرح بعودته إلى المحيط الذى يألفه. فقد كانت الرحلة البحرية خاصة هى سبب وجيعته: **«ليس علىّ الآن أن أخاف الرياح من الشمال، أو الجنوب، أو الغرب، لأن سفينتى كفت عن التأرجح والتمايل، كما أننى لم أعد أخشى السفن السريعة، أو سفن القراصنة»** (II. 32-6) **ومع أنه يعترف بجدارة الصليبيين، فإنه يستهجن الحقيقة القائلة بأن البعض لايركبون البحر سوى من أجل النهب والقرصنة «إن أى رجل يمرُّ بمثل هذه المتاعب لكى يكسب الرب أو لكى ينقذ روحه، إنما يفعل الصواب وليس الخطأ ؛ ولكن من يركب البحر، حيث يعانى المرء مثل هذه المنغصات، لكى ينهب وبنية شريرة، وهو ما يحدث غالبًا، وعندما يظن أنه فى الأعالى يكون فى طريق السقوط، بحيث يجعله اليأس يتخلى عن كل شئ ويلقى به بعيدًا: الروح والجسد، والذهب والفضة** (II. 37-48). والصرامة الأخلاقية واضحة، ولكن ربما يكون هناك أيضا نص أدبى هزلى: أولئك الذين يركبون البحر بنية سيئة سوف يعانون من دوار البحر !!

فى أغنية تحمل عنوان "Ez gruonet wol dui giede" ربما تكون قد كتبت فى وقت حملة فريدريك الثانى سنة (١٢٢٨-١٢٢٩م)، يتصور نيدهارت ڤون رونيتال أنه يكتب من فلسطين إلى وطنه، خطابًا يفيض بالشكوى : **«إذا ما سألوك كيف تجرى**



بينما يتم تصوير الموسيقى العلمانية والموسيقيين العلمانيين باعتبارهم فرصاً خطيرة للخطيئة، فإن هذا الحرف المزخرف بالصور من نسخة من الكتاب المقدس ترجع إلى القرن الثانى عشر يصوِّر مغنياً جوالاً Jongleur، فى مثال مبكر مثير عن انتشار الفن والحماسة الدينية التى تجسدها أغانى الحركة الصليبية

الأمور معنا نحن الحجاج، فأخبرهم مدى سوء المعاملة التى لقيناها من الفرنسيين والإيطاليين: وهذا هو سبب تعبنا فى هذا المكان... فكلنا نعيش فى بؤس : لقد مات أكثر من نصف الجيش...» (II., 38-42-53-4). وهو متحرر تماماً من الأوهام المتعلقة بكل

هذا العمل، وهو لن يرحل عائدًا إلى وطنه بوسيلة غير ضارة نسبيًا سوى الرحلة البحرية : «يبدو لى أن من يبقى هنا فى شهر أغسطس هذا شخص أحمق، ونصيحتى أنه يجب عليه ألا يتأخر أكثر من ذلك ليعود لوطنه بطريق البحر ؛ إن هذا ليس مؤلمًا. لايكون المرء فى أى مكان أفضل مما هو فى وطنه وفى كنيسته (ll. 71-7).

ونادرًا ما جاء وصف القتال الفعلى فى أغنية. أما أعمال المسلمين فعادة ما يُشار إليها باختصار أو فى مصطلحات عامة «... الكنائس محترقة ومهجورة : ولم يعد الرب يُعبد هناك...» عن أخذ مدينة الرها "Chevalier mut estes quariz" 1113-16 والأغنية الوحيدة الباقية من الأغانى الصليبية بالإسبانية، تقدم على أية حال، رواية أكثر تفصيلاً عن الظروف التى جاءت عقب استرداد الخوارزمية لبيت المقدس سنة ١٢٤٤م، على الرغم من احتمال أن مؤلفها لم يكن شاهد عيان. ويزعم الشاعر المجهول أنه يكتب لكى يُسمِع مجمع ليون الكنسى الثانى سنة ١٢٧٤م؛ ولاشك فى أن التفاصيل الدموية مقصودة لأغراض الدعاية؛ **«ثم جاءت الحسناوات الرقيقات، مكبلات بالأغلال يثقلهن العذاب، وهن يبكين بحرقة فى أساهن وبلواهن بالقدس. ويرى المسيحيون أطفالهم يشوون على النار، ويرون زوجاتهم وقد تم تشريح صدورهن ونزعت من أماكنها وهن لايزلن على قيد الحياة. ومن الملابس يصنعون بطاطين، ويجعلون من الضريح المقدس إصطبلاً؛ ومن الصلبان المقدسة أوتادًا فى القدس».** (iAy , Iherusalem" 11. 91-105).

والمصطلحات التى يتم بها الحديث عن الخوارزمية فى أغنية iAy, Iherusalem تذكرنا بالأغانى الصليبية الأقدم زمنا : **«هؤلاء الكلاب المور سيطروا على المكان المقدس سبع سنوات ونصف ؛ وهم لايخشون الموت فى سبيل فتح القدس[*]. ويساعدهم أولئك**

(*) تستخدم الأغنية لفظ المور Moorish للدلالة على المسلمين؛ ولأن الأغنية إسبانية فإن الكلمة التى تشير إلى المغاربة أصلاً تم تعميمها للإشارة إلى المسلمين. ومن ناحية أخرى فإن هذه الشتائم التى تحملها الأغنية تكشف عن مدى الحقد والعدوانية التى سيطرت على مشاعر أبناء الغرب الأوربى نتيجة الدعاية الصليبية؛ ونتيجة استرداد الخوارزمية لمدينة القدس بعد أن كان السلطان الكامل الأيوبى قد سلمها للإمبراطور فردريك الثانى دونما قتال فى حملته التى عرفت بالصليبية السادسة. واللافت للنظر هنا أنه لم يرد على بالهم أن المسلمين كانوا يدافعون عن بلادهم، ولم يكونوا هم الذين جاؤوا إلى بلاد الصليبيين. (المترجم)

القادمون من بابليون [مصر] ومعهم الأفارقة (المغرب العربى) والقادمون من الحبشة... والآن بسبب خطايانا فإن اليوم الأسود جلب علينا جيوش المسلمين... إن المسيحيين قلة، أقل من قطيع أغنام. والمسلمون كُثُر، أكثر من نجوم السماء » " iAy , Iherusalem
(II . 21-7, 71-2).

كما أن جاڤودان، فى أغنية (1195) "Senhor, per los nostres Peccatz" يربط انتصارات المسلمين فى الأرض المقدسة بخطايا المسيحيين، ويخشى من أن مثل هذه الانتصارات قد تشجعهم على أن يحاولوا تحقيق النصر فى إسبانيا : **«سادتى، بسبب خطايانا، تتزايد قوة المسلمين؛ استولى صلاح الدين على القدس؛ ولم نستردها حتى الآن؛ وهذا هو السبب فى أن ملك مراكش أرسل رسالة مؤداها أنه، مع الأندلسيين والعــرب الغادريــن، والمسلحين ضد دين المسيح، سيحارب جميع الملوك المسيحيين».** (II. 1-9). ثم تلى ذلك رواية عن الأعداد الضخمة المتورطة فى الحرب والجشع الوحشى للعدو؛ وهم أكثر عدداً من حبات المطر، وقد انطلقوا فى الحقول لكى يطعموا أنفسهم بالجيف، ولايبقون على شئ، وهو يتحدث عن كبريائهم: يظنون أن كل شئ ملك لهم وسوف ينحنى أمامهم. وإشاراته إلى وطن سامعيه يكشف بوضوح أنه يسعى إلى حفزهم أو تجنيدهم بواسطة الإرهاب : **«... المراكشيون والمغاربة يحتلون الجبال والحقول وهم يتباهون بكل منهم الآخر: أيها الفرنجة شقوا طريقكم إلينا ! فالبروڤانس والتولوزيون أهلنا وكل الأرض التى تمتد من هنا إلى لابوى لنا». لم يحدث أبداً أن كانت هناك مثل هذه المباهاة الوحشية نسمعها من مثل هؤلاء الكلاب المزيفين، أولئك الكفرة الملعونين »** (II.21-7)، وهو يحثُّ سامعيه على ألايتركوا حقهم الذى اكتسبوه بالمولد «للكلاب الأجنبية السوداء as negres autramaris، وينقذوا سكان إسبانيا الذين يحيط بهم الخطر. والمسلمون هنا يتم التعامل معهم بنفس طريقة أنشودة رولان Chan-son de Roland **«أولا أجسادهم أجساد البيوتنتروت، وثانيًا رؤوسهم هى رؤوس المسينيين الضخمة؛ وعلى العمود الفقرى فى منتصف ظهورهم لديهم شعر خشن مثل شعر الخنزير... وعاشراً فإن أولئك القادمين من صحراء المغرب؛ وهم جنس لم يعبد**

ربنا إطلاقًا؛ ولم نعرف شعبًا أكثر منهم شرًا : وجلدهم أصلب من الحديد، ولايستخدمون خوذة أو درعًا، وهم فى المعركة بلا إيمان وقساة» (Chanson de Ro- land. II . 3220-3, 3246- 51). وخطاياهم هى الكبرياء وانعدام الإيمان؛ وهم أشبه بالحيوانات ؛ وتكمن قوتهم فى الأعداد التى يتم التعبير عنها، ليس بالأرقام، وإنما بسرد أصولهم القبلية؛ ويذهب فخرهم ومباهاتهم إلى قلب المخاوف المسيحية من الغزو والخضوع.

ولأن الأغانى الصليبية كثيرا ما تتخذ شكل الأغانى الأخلاقية Sirventes، حيث المديح أو النقد للأفراد وللأحداث السياسية شائع فيها. وتحث أغانى ماركابرو اللاڤادور على شن الحملات الصليبية إلى إسبانيا بدلاً من الشرق. وموضوع المزاعم التنافسية لكل من الحملة الصليبية الإسبانية والحملة الصليبية الشرقية يتجلى فى أغنية جاڤودان التى تتوسل إلى الإمبراطور، وإلى فيليب الثانى ملك فرنسا ونبلائه، وإلى ريتشارد الأول ملك إنجلترا لمساعدة إسبانيا. فالخلاص يعتمد على اختيار الطريق القويم: «إن يسوع المسيح الذى بشرنا بأن نهايتنا يمكن أن تكون نهاية طيبة، يرشدنا إلى الطريق القويم». (Senhor, per los nostres peccatz, II. 37-9). و«الطريق القويم» هنا أكثر من المجاز المسيحى المعتاد عن الطريق إلى الخلاص : إنه الطريق الذى يؤدى إلى إسبانيا.

وكثيرًا ما يحضُّ الشعراء البارونات أو الملوك على أخذ الصليب، وعلى الانطلاق، وأن يفعلوا أكثر مما فعلوا. ويتحدث جوسيلم فيديت فى قصيدة "Tant sui ferms e fis vas Amor"(1188 / 9) عن الخزى الذى ينبغى أن يعانيه الجميع...

«... لأن الجنس المزيف الذى لايؤمن بالرب ويهينه فى ذلك المكان الذى شهد معاناته وموته. وينبغى على كل واحد أن يفكر فى الذهاب إلى هناك، وعلى رأسهم الأمراء بحكم مكانتهم السامية، لأنه ليس هناك واحد يمكن أن يزعم أنه مؤمن ومطيع للرب إذا لم يساعده فى هذا المشروع».

«وأريد أن أقول لسيدى الكونت، إنه لكونه أول من نال هذا الشرف، فينبغى عليه أن يكون هناك سبب لدى الرب لكى يشكره، بسبب المديح الذى يتأتى مع الرحيل ذاته» (II. 54-64).

وربما يكون «الكونت» هو ريتشارد كونت بواتو (وهو ملك إنجلترا أيضا) أحد أوائل الذين أخذوا الصليب بعد معركة حطين. وبالفعل ربما يكون قد تم التعرف على سيرة ريتشارد فيما يتعلق بالحملة الصليبية من خلال أغانى التروبادور وقصيدته التى تحمل عنوان: "Ja nus om pris ne dira sa raison" ليست أغنية صليبية بالضبط، ولكنها مكتوبة باعتبارها صادرة عن سجنه فى ڤيينا.

«ولايستطيع أى رجل مسجون حقًا أن يفصح عما بذهنه سوى بالأسف ؛ ولكن لكى يواسى نفسه ربما يكتب أغنية. لى من الأصدقاء كثرة لكن عطاياهم فقيرة ؛ سيلحقهم الخزى، إذا ما بقيت سجينًا، بسبب فديتى، على مدى شتائين فى هذا المكان».

«ولاعجب أن يغصَّ قلبى بالحزن عندما يجثم سيدى الأعلى على أرضى. وإذا كان الآن واعيًا للقسم الذى أقسمناه سويًا، فأنا أعرف يقينًا أننى لن أبقى سجينًا» ,96-II.1) 19-24



ريتشارد الأول يتم أسره فى طريق عودته من فلسطين إلى وطنه ويظهر راكعًا أمام هنرى السادس. وأغنيته الوحيدة الباقية هى توسل لمؤيديه لكى يدفعوا فديته ممتزجة بشكوى ضد سيده الإقطاعى الأعلى فيليب الثانى (أغسطس) ملك فرنسا الذى كان قد استولى على بعض ممتلكات ريتشارد فى نورماندى. وهناك قصة لشاعر، هو «بولونديل »، كشف مكان أسر ريتشارد بإنشاد إحدى أغنيات الملك التى ألفها خارج نافذته، ثبت أنها قصة زائفة.



صورة البلاط من **Contigas de Santa Maria** . تأثير الثقافة الأدبية والموسيقية المزدهرة فى بلاطات أوكستانيا كان قد انتشر على نطاق واسع فى جميع أنحاء الغرب فى القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر. وقد دمرت الحملة الصليبية الألبيچنسية بشدة سلطة السادة الجنوبيين وثروتهم، كما أنها كانت علامة البداية على تدهور أغانى البلاط فى أوكسيتانيا»

وسيده الأعلى هو فيليب الثانى ملك فرنسا الذى انتهز فرصة سجن ريتشارد لكى يقوم بغزو نورماندى على الرغم من القسم الذى كانا قد أقسماه فى ديسمبر سنة ١١٩٠م بأن يحمى كل منهما أرض الآخر طوال فترة الحملة الصليبية. وينعى جوسيلم فيديت موت ريتشارد وكذلك ينعاه بيرول: ولكليهما رأى سيئ فى قادة صليبيين آخرين بعينهم : **«ليس لدى إنجلترا سوى تعويض هزيل عن الملك ريتشارد؛ وفرنسا بزهورها معتادة على أن يكون لديها ملك جيد وسادة جيدون، ولدى إسبانيا ملك جيد آخر، وكذلك لدى مونتفرات ماركيز جيد، وكان لدى الإمبراطورية إمبراطور ذو قدر ومكانة؛ لا أعرف كيف سيتصرف أولئك الموجودون هنا الآن»** (peirol , pus flum Jordam, ll. 15-21)، كان بيرول يكتب هذا فى سنة ١٢٢١م أو ١٢٢٢م، ولكنه كان لا يزال يشعر بأن ملوك زمانه كانوا أدنى كثيراً من الملوك الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية الثالثة.

لقد أنتجت الحملة الصليبية الألبيچنسية موقفاً مثيراً للشعراء. فإذا كان الرب، فى الحملات الصليبية الشرقية، هو الضحية الذى تم اغتصاب أراضيه وميراثه بأيدى المسلمين، فإن كونت تولوز قد بات فى موضعه. وإذا كانت الحدود الخارجية التى تمثل تهديداً، فى الأغانى المرتبطة بحركة الـ Reconquista الإسبانية (حركة الاسترداد ضد المسلمين)، هى حدود المناطق الإسلامية، فقد كان الغزاة بالنسبة لبعض الشعراء فى لانجدوك هم الفرنسيين. وفى سنة ١٢٠٩، انتشرت شائعة عن أن ريمون روچر ترنكاڤل، ڤيسكونت بيزييرس، قد اغتيل بأمر من سيمون مونتفورت، ومرثية جوللام أوجييه نوڤيلا عنه تتعامل مع الفرنسيين بنفس الطريقة التى تتعامل بها الأغنيات الصليبية الأخرى مع المسلمين. **«فقد قتلوه. ولم يشهد أحد أبداً مثل هذا الغضب العارم، ولم يحدث أبداً أن ارتكب مثل هذا الخطأ الجسيم، أو مثل هذا الزيغ الكبير عن إرادة الرب إلهنا، مثل فعل الكلاب، المرتدون الذين ارتكبوا هذا الإثم، أولئك الذين ينحدرون من سلالة بيلاطس الخائن، أولئك الذين قتلوه».** (Quascus plor e planh ll. 11-16) أما جوليام فيجويرا، فى أغنيته الأخلاقية الشهيرة، فقد اتهم روما أولاً بالمسئولية عن خسارة دمياط بسبب «مفاوضات البابا التى اتسمت بالجبن»، ثم

بتقديم عفو زائف للصليبيين الفرنسيين: «روما، أعرف حقا، دونما شك، أن العفو الزائف الذى قدمتيه خداعًا إلى بارونات فرنسا سيكون عذابًا أبعد ما يكون عن الفردوس، وأنت يا روما قتلت ملك فرنسا الطيب بإغوائه بعيدًا عن باريس بمواعظك الزائفة (D'un sirventis far", 11-36-42). إن «العفو الزائف» و«المواعظ الزائفة» تعكس رأى جوليام فى أن الحملة الصليبية (الألبيچنسية) ضد الأطهار (الكاثاريين) لم تكن حملة صليبية حقيقية ولم يكن ممكنًا أن تجلب الغفران عن الذنوب. لقد مات لويس الثامن فى مونتبنسييه سنة ١٢٢٦م من مرض أصابه فى لانجدوك. وحيث تجعل الأغانى الصليبية التقليدية الطريق إلى الفردوس هو الحملة الصليبية، يوضح جوليام أن هذه الحملة حاجز يحول دون الخلاص : «وهكذا، فى الشتاء وفى الصيف كذلك، يكون الرجل الذى يتبع مسارك تابعًا لمرشد سيئ، لأن الشيطان سوف يحمله إلى نيران جهنم». (Ibid., II., 54-6)

والتلميحات السياسية أكثر ندرة فى الأغانى الفرنسية والألمانية حتى نصل إلى الأغانى التى ألفها روتبيف أواخر القرن الثالث عشر. إذ إن الشكل الجديد الذى استخدمه، وهو ما يسمى أغانى الـ dit، أطول كثيرًا من أغانى التروڤير، مما منحه مجالاً يعبر فيه عما يجول بخاطره، وأن يشير صراحة إلى الأحداث، والأشخاص، والمواقف، وأن يشجب هدفه المحبب، أى نظم الرهبان المتسولين، التى كان يرى أنها تشتت انتباه كل من لويس التاسع، كما تشتت التمويل الذى كانت الحملة الصليبية فى أمسِّ الحاجة إليه.

وفى إيجاز، إذن، يمكننا القول إن أغانى الحملات الصليبية خدمت أغراضًا متعددة. فمن وجهة نظر الشاعر – المؤدى، كانت الحملات الصليبية تقدم المادة للأغانى الأخلاقية Sirventes وهى موضوع معادل ومصدر للتنويعات حول موضوع حب البلاط، ومجال للاستعارات وأبنية الفكر. ومن وجهة نظر السامعين – لأننا يجب ألا ننسى أن هذه الأغانى كانت تكتب بقصد أن تؤدى بشكل تمثيلى– كانت هذه الأغانى تقدم بطرق مستساغة قاصرة على الوسط الذى تؤدى فيه، وعلى المذهب،

والإعلام والدعاية التى كانت تتم على أيدى المبشِّرين الكنسيين أو القساوسة. وفى الوقت نفسه، كانت الأغانى تعزز صورة السامعين عن أنفسهم وتظهر زيف أن الحملة الصليبية نفسها كان يمكن أن تؤكد امتلاكهم لفضائل النبلاء، وحيازتهم لنماذج يحاكونها ويستلهمون منها روح التضامن esprit de corps، ولكن الأغانى كان يمكن أن تعبر أيضا عن قلقهم وشكوكهم إذا ما ساءت الأحوال، وعن احتجاجاتهم ضد الظلم، أو ضد إساءة استخدام مشروع الرب.

(٦)

الشـــــرق اللاتينـــــى
١٠٩٨- ١٢٩١م

جوناثان فيليبس

أسست الحملة الصليبية الأولى وجوداً مسيحيًا لاتينيًا على الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط استمر حوالى مائتى سنة. كانت الحملة تتكون من فيالق جاءت من مناطق كثيرة فى أوربا، بما فى ذلك الفلاندرز، ونورماندى، ولانجدوك واللورين. وعلى الرغم من أصول الصليبيين المختلفة، فإن الصليبيين الذين استوطنوا فى شرق المتوسط كانوا يعرفون باسم «الفرنج» لدى معاصريهم من المسلمين واللاتين فى الشرق. وقد أدى الاستيلاء على قبرص سنة ١١٩١م إلى تقوية مجتمعهم فى شرق المتوسط وبقيت الجزيرة مركزًا مسيحيًا بعد سقوط المستوطنات على أرض فلسطين فترة طويلة. وفى أعقاب نهب القسطنطينية سنة ١٢٠٤م سيطر الصليبيون على معظم أراضى الإمبراطورية البيزنطية السابقة. وقد استعاد البيزنطيون معظم أراضيهم بسرعة كبيرة ولكن كريت بقيت تحت حكم البندقية وكذلك بقيت إمارة أخايا اللاتينية. وكانت لكل من هذه المستوطنات الشرقية هويتها المتمايزة. وسوف يدرس هذا الفصل شخصيتها وتأثيرها على الأراضى المفتوحة.

فيما بين سنة ١٠٩٨م وسنة ١١٠٩م بنى الفرنج أربع مستوطنات فى شرق المتوسط، كونتية الرها، وإمارة أنطاكية، ومملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس. وهناك جدل حول ما إذا كانت هذه الأراضى مثالاً باكرًا لحركة الاستعمار الأوربى الغربى. ويعتقد بعض المؤرخين أن مفهوم الاستعمار يحمل من الروابط العاطفية قدرًا يجعلها غير مفيدة عند مناقشة تاريخ الحملات الصليبية لأنه يميل إلى استثارة صور قائمة على أساس سلسلة من الأحداث مثل الاستيطان البريطانى فى أمريكا الشمالية أو الغزو الإسبانى للعالم الجديد. وهم يصرُّون على أن التعريفات التقليدية تشى بأن المستعمرة تُوجه سياسيًا، أو تُستغل اقتصاديًا، لصالح وطن آخر أو تخضع لهجرة واسعة النطاق حقًا. وهذه التعريفات لاتتناسب مع المستوطنات اللاتينية فى شرق المتوسط قبل سنة ١٢٩١م.

وقد وصف جيوبرت النوچنتى، الذى كتب حوالى سنة ١١٠٨م المستوطنين الفرنج بأنهم «المستعمرون الجدد للعالم المسيحى المقدس». وكاتب L'estoire de Eracles فى القرن الثالث عشر (تكملة تاريخ وليم الصورى) زعم أنه «عندما غزوا هذه الأرض كانت دون سيد رئيسى يحكمها، ولكن كانت محكومة بالحملة الصليبية وبحركة الحجاج والشعب المجتمع سويًا». لقد تم الغزو لاستعادة السيطرة المسيحية وضمان تأمينها على الضريح المقدس فى القدس، ومن ثم ربما يجدر بنا أن نوضح مفهوم الاستعمار الدينى. إذ إن «المستعمرة» التى نتجت عن هذا يمكن تعريفها بأنها أراض تم غزوها واستيطانها أساسًا لأسباب دينية، كما أن سكانها حافظوا على الصلة الوثيقة بوطنهم مبدئيًا بسبب الديانة المشتركة، ولحاجتهم إلى المساعدة المالية والعسكرية.

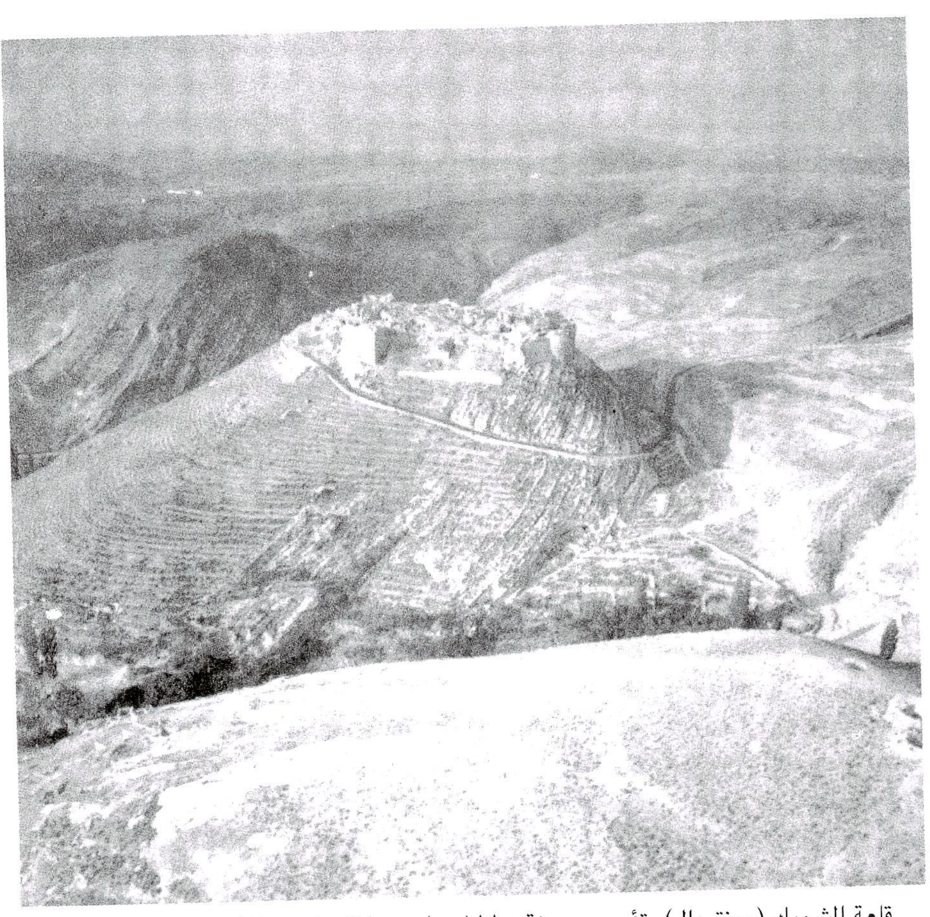
وبعد الاستيلاء على القدس أملت الاعتبارات الاستراتيجية والاقتصادية أن تكون الأولوية الأساسية للفرنج هى الاستيلاء على المدن الساحلية فى شرق المتوسط. ففى سنة ١١٠١م سقطت أرسوف وقيصرية، وتم الاستيلاء على حيفا وعكا سنة ١١٠٤م، وفى سنة ١١١٠م أُخذت بيروت وصيدا، ثم استولوا على صور سنة ١١٢٤م. وكان

الميناء الكبير الوحيد الذى ما زال يستعصى على سيطرتهم هو ميناء عسقلان، وكان هذا الميناء يشكل خطورة خاصة على الفرنج لأنه كان قاعدة للأسطول المصرى يغير منها على الساحل كما كان مصدرا لاختراقات كثيرة فى المنطقة الجنوبية من مملكة بيت المقدس. وقد قلل الملك فولك (١١٣١-١١٤٣م) من الخطر ببناء قلاع فى المناطق المجاورة لعسقلان وزاد هذا من الضغط على المدينة وكان مقدمة لفرض حصار ناجح عليها سنة ١١٥٣م. وكان تأسيس السلطة الفرنجية على بعض مناطق الداخل عملية بطيئة كما كان الانتشار الشرقى للمستوطنات الصليبية محكومًا بل وتتم عرقلته أحيانًا بالقوى المسلمة المجاورة ؛ إذ إن أنطاكية مثلاً واجهت سلسلة من الهجمات من جنب الأتراك السلاجقة بين سنة ١١١٠م وسنة ١١١٥م وكان الفرنج قد غزوا أجزاء من قليقية أثناء الحملة الصليبية الأولى ولكن قبضتهم على الإقليم نادرًا ما كانت آمنة؛ إذ كانت عرضة للغزوات البيزنطية، على حين كان الأمراء الأرمن المحليون يبسطون سيطرتهم أيضًا ومع أواخر ثلاثينيات القرن الثانى عشر كانت لهم اليد العليا على اللاتين. وكان التوسع الفرنجى إلى الجنوب والشرق من البحر الميت قد تم بمبادرة من الملك بلدوين الأول وتم تأسيس إمارة شرق الأردن التى كان حصن الشوبك قاعدتها.

وكان الغزاة قد غزوا منطقة تسكنها تنويعة محيِّرة من الأجناس والأعراق. كان هناك سكان يهود محليون؛ ودروز ؛ وزرادشتيون، ومسيحيون مثل الأرمن، والموارنة، واليعاقبة، والنساطرة، وكانت هناك جماعة كبيرة من الروم الأرثوذكس.كذلك كان هناك المسلمون من السنة والشيعة على السواء. وكان بعض الأوربيين على ألفة بشرق المتوسط بسبب الحج والتجارة، ولكن لأن الصليبيين أرادوا الاستيلاء على الأرض المقدسة والاستيطان فيها، كانت العلاقة بين الفرنج والسكان الأصليين مختلفة تمامًا عن أية علاقة أقامها نظراؤهم من قبل.

وثمة عنصر مهم فى عملية الاستيطان تمثَّل فى معاملة اللاتين للسكان الأصليين. فقد تميزت السنوات الباكرة من الغزو بسلسلة من المذابح، وربما كان ذلك نتيجة لسياسة رأت أن تحتفظ بالمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية أو الدينية للمسيحيين. ولكن سرعان ما ظهر واضحًا أن هذه السياسة تؤتى عكس المرجو منها، إذ كان الفرنج قد

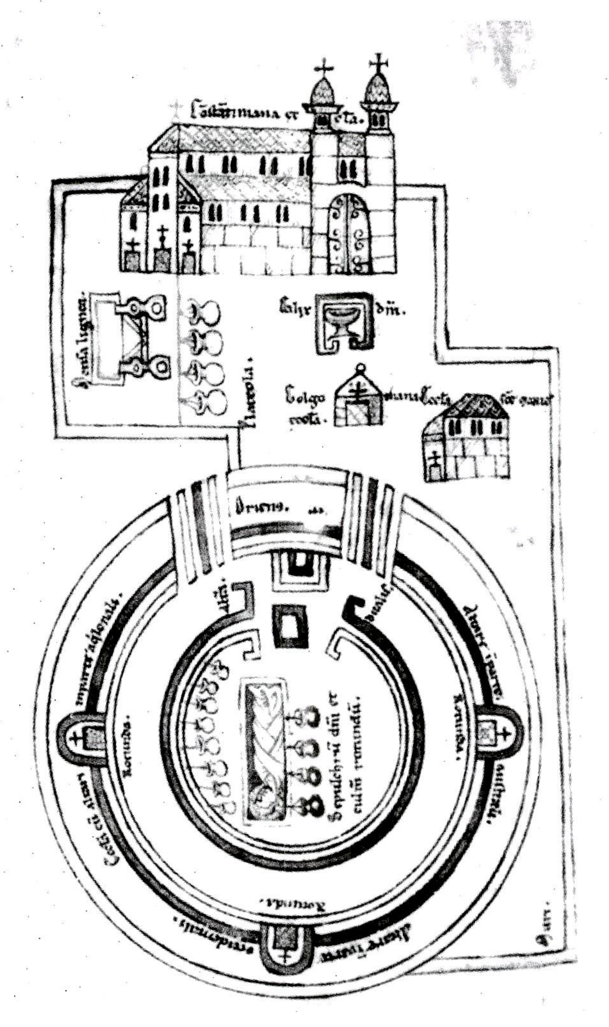
سيطروا على مساحة كبيرة من الأرض؛ ومن المؤكد أنها كانت مساحة أكبر من أن يحتلوها بأنفسهم. إذ حدث بعد الاستيلاء على بيت المقدس أن عاد كثير من الصليبيين إلى أوطانهم، ووصلت موجة ثانية من الصليبيين سنة ١١٠١م ولكن أقلية نسبية منهم هى التى بقيت فى الشرق اللاتينى. وعلى الرغم من أن فيضًا ثابتًا من أبناء الغرب الأوربى جاءوا للاستيطان، فقد كان واضحًا أن الفرنج يفتقرون إلى القوة البشرية الكافية لإعادة بناء المجتمعات الحضرية والدفاع عنها. ونتيجة لذلك تغيرت معاملتهم للسكان المحليين. ففى صيدا سنة ١١١٠م تفاوض المسلمون حول فرصة بقائهم على أرضهم وزراعتها لصالح الفرنج. وإلى الشمال، كان الأمير تنكرد حاكم أنطاكية يولى اهتماما فائقًا ببقاء المزارعين المحليين فى أرضه لدرجة أنه رتب لزوجات المزارعين المحليين العودة من حلب حيث كن قد فررن طلبًا للسلامة. مثل هذه الأحداث لاتمثل علامة على نقطة تحول فارقة فى معاملة السكان المحليين ولكن من الواضح أن الفرنج صاروا يدركون الحاجة إلى شكل من أشكال أسلوب التعايش **modus vivendi** معهم. وثمة شعور متنام بالواقعية امتد إلى العلاقات بين الفرنج وجيرانهم المسلمين. فلم يكن ممكنًا القيام بالأنشطة المهمة ما لم يكن هناك مستوى عال من التفاعل فيما بينهم وتم الاتفاق على هدنات كثيرة لأنه لم يكن ممكنا استمرار القتال طوال الوقت. وفى بعض الأحوال تطور الاتصال بين المسلمين والمسيحيين بدرجة أكبر وفى مناسبات نادرة يوجد دليل على قيام علاقات وثيقة. فعلى سبيل المثال، كان أسامة بن منقذ، وهو شاعر وكاتب مسلم معاصر، على علاقة صداقة بمجموعة من فرسان الداوية الذين تولوا حمايته من تحرشات الغربيين المفرطين فى حماستهم.



قلعة الشوبك (مونتريال)، تأسست سنة ١١١٥م على يد الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس فى محاولة لمد السلطة الفرنجية بإقليم شرق الأردن. وهى تسيطر أيضا على طرق القوافل المهمة من دمشق إلى مصر أو البحر الأحمر

وتكشف هذه الحادثة أيضًا كيف تعسَّر على الصليبى الطارئ فهم قدرة الصليبيين المستوطنين على التعايش مع المسلمين أحيانًا وخوض الحرب ضدهم أحيانًا أخرى بزعم الحرب المقدسة.

ولأنه لم يكن عمليًا بالنسبة للفرنج أن يطردوا أو أن يضطهدوا كل من لايدينون بالمذهب اللاتينى، فإنهم تبنوا موقفًا يتسم بالتسامح النسبى تجاه الأعراق الأخرى،



مخطط على أرضية من القرن الثانى عشر لكنيسة الضريح المقدس بالقدس تُظهر مقبرة المسيح فى المركز أسفل الصورة والمخطط الدائرى للموقع تم تقليده على نطاق واسع فى كل مكان بالعالم المسيحى اللاتينى خلال فترة العصور الوسطى. وكنيسة المعبد فى لندن تمثل أحد الأمثلة الباقية.

سواء كانوا من المسيحيين الشرقيين، أو اليهود، أو المسلمين. فقد كان مسموحًا للجميع أن يمارسوا ديانتهم، على الرغم من أن ذلك كان يتم فى إطار بعض القيود؛ فمثلاً، فإن

المسلمين واليهود، الذين كانت لهم، كما سنرى مكانة شبيهة بمكانة المسيحيين واليهود فى الدول الإسلامية، كان بوسعهم زيارة القدس، ولكنهم كانوا ممنوعين نظرياً من الإقامة فى المدينة المقدسة. إذ كان المسلمون واليهود يشكلون أدنى مستوى فى مجتمع الشرق اللاتينى، على الأقل عندما كان يتم التعبير عن ذلك فى مصطلحات قانونية. وفوقهم كان المسيحيون الشرقيون وعلى القمة كان الفرنج الكاثوليك. ومن بين السكان المحليين المسيحيين، كان اليعاقبة أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، والأرمن، والموارنة (قبل سنة ١١٨١م عندما انضمت كنيستهم إلى كنيسة روما) يتمتعون بالحفاظ على استقلالهم الذاتى دينيًا، ولكن على الرغم من كونهم نصارى فإن عقائدهم المخالفة (لعقائد الفرنج الكاثوليك) كانت تعنى أنهم مستبعدون من الأراضى المجاورة للضريح المقدس. وعلى الرغم من الفروق الدينية، فقد تمت بعض الزيجات المختلطة بين المسيحيين الشرقيين والفرنج، لاسيما فى كونتية الرها حيث كانت غالبية السكان من الأرمن. وكان يُنظر إلى النبلاء المحليين باعتبارهم جديرين بأن يكونوا أقران زيجات مع الفرنج وصارت الدوقية بمثابة مقاطعة فرنجية - أرمنية. وكان المجتمع فى بقية أنحاء الشرق اللاتينى أكثر تنوعًا لغويًا وربما كان أقل اندماجًا من الرها.

وكانت جماعة الروم الأرثوذكس تشكل عنصراً مهمًا من عناصر السكان، وخاصة فى إمارة أنطاكية، وعندما انطلقت الحملة الصليبية الأولى فمن المحتمل أن البابا أوربان الثانى والصليبيين أنفسهم كانوا ينوون أن يحتفظ بطاركة الروم الأرثوذكس فى القدس وأنطاكية بسلطاتهم الكنسية؛ ولكن الضرورة العسكرية والعلاقات المتفاقمة مع البيزنطيين أرغمت قادة المستوطنات الجديدة، والذين لم يكونوا متعاطفين مع المذهب الأرثوذكسى بأية حال، على تعيين بطاركتهم اللاتين وأساقفتهم.

وقد تسببت أنباء المذابح التى وقعت فى حوض نهر الراين فى زرع الخوف فى نفوس يهود المنطقة العربية من وصول الحملة الصليبية الأولى. وقد اختار كثير منهم أن يقاوموا وأن يحاربوا ويموتوا بجانب المسلمين فى السنوات الباكرة بعد الغزو. وما إن

هدأت الحال، حتى اختار معظمهم أن يعيشوا بالمناطق التى سيطر عليها الفرنج(*). ومثل جميع غير الكاثوليك لم يكن بوسعهم حيازة الإقطاعيات، ولكن كثيرين منهم كانوا فلاحين(**)؛ بينما انخرط غيرهم فى أعمال الصباغة وصناعة الزجاج. ومن جوانب عديدة كان اليهود فى الشرق اللاتينى يلقون معاملة أفضل من تلك التى كان يتلقاها نظراؤهم فى أوربا الغربية. إذ كان بوسعهم ممارسة شعائر دينهم فى حرية نسبية ولم يكونوا خاضعين لقيــود الملابس الشديدة التى كانت ترغمهم على ارتداء شارات أو ملابس ذات ألوان خاصة تعلن عن ديانتهم وتستدعى العداوة والعزل. ومن اللافت للنظر أنه لم تحدث أية مذابح ضد اليهود فى الشرق اللاتينى على النقيض من الموقف فى الغرب.

وقد حسم نموذج الاستيطان الفرنجى بنقص القوى البشرية لدى الغربيين، ولكن بينما عاش عدد كبير من المستوطنين فى المناطق الحضرية، فإن الصورة الشائعة تقليديًا عن أن غالبية الفرنج عاشوا بأمان داخل قلاعهم أو مدنهم ليست دقيقة تمامًا. إذ يبدو الآن أن نسبة كبيرة منهم عاشوا فى القرى وفى بيوت الضياع الريفية. أما البلدات الجديدة "villeneuves" التى كان يمكن فيها منح الأراضى للفلاحين الغربيين الأحرار من جانب سيد إقطاعى محلى مقابل عشرة بالمائة من الإنتاج، فيبدو أنها منتشرة تمامًا.

وكانت السهول الساحلية شرق المتوسط مناطق خصبة قادرة على إنتاج طائفة متنوعة من المحاصيل. أما المناطق الداخلية مثل المنطقة المحيطة ببحر الجليل فكانت

(*) هذه الفقرة تحمل تناقضًا صارخًا بين الزعم بأن اليهود قاوموا الحملة الصليبية وحاربوها إلى جانب المسلمين وماتوا معهم، وهو زعم خيالى لم يثبت من أى مصدر تاريخى. وبين القول بأنهم اختاروا العيش بالمناطق التى سيطر عليها الفرنج. حقا إن اليهود قتلوا فى المذبحة التى جرت بالقدس بعد الاستيلاء عليها إلى جانب سكانها المسلمين والمسيحيين الشرقيين بسبب ملابسهم التى جعلت الصليبيين لايفرقون بينهم؛ ولكن هذا لايعنى أنهم حاربوا. فمن المفارقات أن الحامية العسكرية الفاطمية خرجت سالمة على حين راح المدنيون ضحية وحشية الصليبيين: من المسلمين والمسيحيين واليهود دون تمييز. (المترجم)

(**) هذا أمر يصعب إثباته تاريخيًا.

تستطيع أيضًا أن تنتج محصولات وافرة. وقد أتاح المناخ الملائم واستخدام الآبار الرومانية القديمة وقنوات الرى للفلاحين أن يستكملوا إنتاجهم الرئيسى من الحبوب بمحاصيل صيفية سريعة النضوج مثل الدخن والذرة. أما الكروم وبساتين الزيتون وبساتين الفاكهة فقد لعبت هى الأخرى دورًا مهمًا، كما كان يتم زراعة المحصولات الأكثر تخصصًا مثل قصب السكر والقطن من أجل أسواق التصدير خصوصًا. وربما كانت الصناعات الصغيرة قد وجدت أيضا فى المناطق الريفية، مثل استخراج خام الحديد من مناجم الرها، بيد أن إسهامها فى الاقتصاد برمته كان قليلاً. وفيما يخص الفلاحين من السكان الأصليين، بغض النظر عن تغيّر ملاك الأرض، فيبدو أنه لم يطرأ على أحوالهم سوى القليل من التغيير. فبعد الوحشية الأولية التى واكبت الغزو كان الفرنج عادة يعاملون الفلاحين المحليين معاملة حسنة، وذلك بسبب أهميتهم الاقتصادية أساسًا. وكان عليهم أن يدفعوا عوائد على أساس ضريبة الخراج الإسلامية التقليدية، التى كان يمكن أن تصل إلى ثلث المحاصيل الزراعية ونصف المحصول فى الكروم وبساتين الزيتون. وعلى النقيض من الغرب، كانت هناك مساحة قليلة جدًا من الأرض تخضع للملكية الخالصة، وهى «المزرعة البيت» حيث كان القرويون يعملون من أجل سيدهم لوقت محدد كل أسبوع.



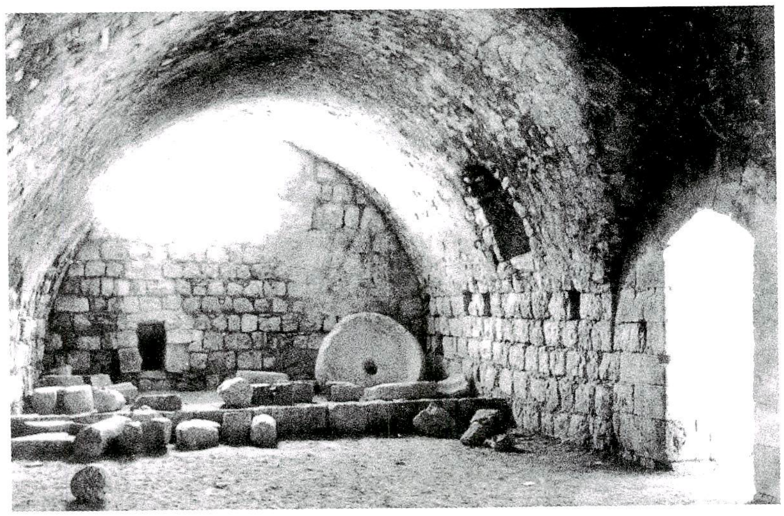
دور البابا إنوسنت الثالث فى تطور الحركة الصليبية لايمكن المبالغة فيه. ولأنه كان التزاما بعمق بالاستيلاء على الأرض المقدسة- فقد كان هو الذى بدأ الحملة الصليبية الرابعة والخامسة- ومع ذلك كان مستعداً لأن يمد العون إلى الحملات الصليبية ضد الهراطقة والخصوم السياسيين للبابوية فى الغرب. ولايقل عن ذلك أهمية أنه طور بشكل حاسم النواحى التبشيرية والمالية والتنظيمية فى الحركة الصليبية.



الفخر فى العائلة. النوافذ فى منور المنشدين الجنوبى بدير تيوكسبورى، الذى منحه هيو ديسبنسر سنة ١٣٤٠-١٣٤٤م بوصية من أمه إليانور دى كلارى. وهى تكون صفًا من الصور التى تمثل عائلتها التى كانت واحدة من العائلات الكثيرة المرتبطة بالحركة الصليبية.



الفروسية المتطورة. فى المنمنمة التى صورت سنة ١٤٩٠م، تبدو الصلبان واضحة، ولكن الملك الفرنسى والذى يغطى حصانه غطاء مزركش فاخر، يقود النبلاء الصليبيين الآخرين فيما يبدو أنه رحلة صيد، مع القليل من مظاهر التوبة التى يجب أن تكون أساسية فى الحركة الصليبية.

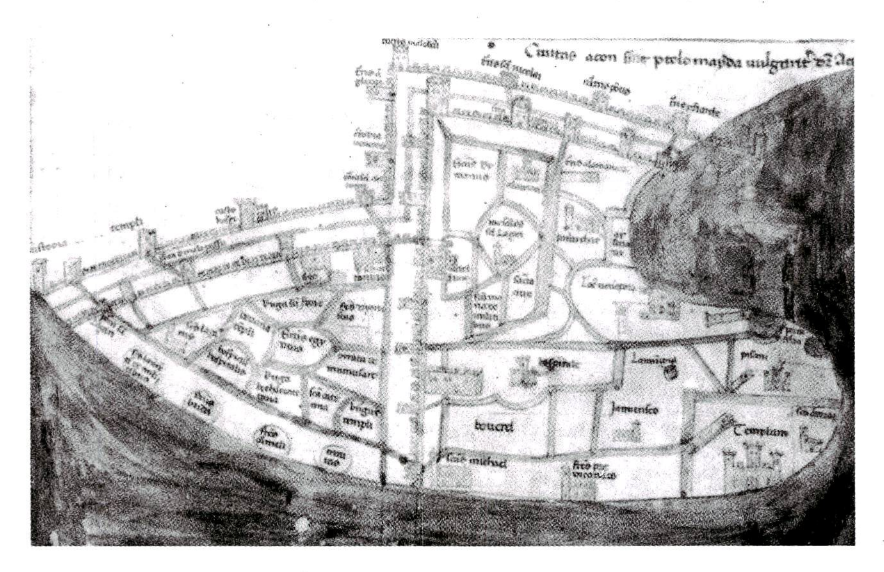


إنتاج زيت الزيتون كان- وما زال باقيا فى بعض المناطق- عماد الاقتصاد الريفى فى شرق المتوسط. ومعظم العناصر تحتوى معصرة زيتون، تدار يدويا أو بحيوان جر. وكان يتم جمع الزيت فى أوعية ضخمة لاستخدامه فى الطهى والإضاءة وفى صناعة الصابون. وبقايا معصرة الزيتون هذه موجودة فى مبنى مستشفى الاسبتارية فى أكوا بيلا بمملكة بيت المقدس.

وبينما استمرت الوظيفة الأساسية للحياة الزراعية دونما تشويش إلى حد كبير، فإن المراكز الحضرية فى شرق المتوسط – ولاسيما ما يقع منها على الساحل– تطورت بشكل عميق. إذ صارت موانئ الشرق اللاتينى مراكز تجارية حيوية واجتذبت قدراً كبيراً من التجارة العالمية. فقد كانت صور وصيدا منفذين للطرق التجارية فى الشرق وكان موقع المستوطنات الفرنجية باعتبارها نقطة التلاقى بين الشرق والغرب يعنى أن المدن التجارية؛ جنوا، وبيزا والبندقية توليها اهتماماً كبيراً. فقد قدَّر الإيطاليون حاجة المستوطنين إلى المساعدة البحرية لغزو الشريط الساحلى ونالوا الثمن لقاء دعمهم. ففى مقابل إسهامهم فى حصار صور تفاوض البنادقة على حق الحصول على ثلث المدينة والأقاليم التابعة لها، فضلاً عن العديد من الامتيازات بما فيها الحصانة المالية والقضائية. وفى أعقاب الترتيبات التى جرى عقدها فى مدن أخرى، كانت الجماعات التجارية تحتل عادة أحياء منفصلة خاصة بها بشكل واضح. وكان الحى الچنوى فى عكا، مثلاً، يحتوى ميداناً مركزياً تحده كنيسة سان لورنس (القديس الراعى لچنوا) وقصراً يضم قاعة محكمة. وكان للحى أيضاً بوابة محصنة، وكذلك مخبز وحوانيت ونزلٌ للتجار الزائرين. وبين الحين والآخر كانت غريزة الإيطاليين التجارية تتفوق على مشاعرهم الدينية– مثل استعدادهم لتجاهل الحظر البابوى على التجارة مع المسلمين فى المواد الخام التى تستخدم فى الحرب– ولكن النقل بالسفن الإيطالية كان حاسماً بالنسبة للمستوطنين اللاتين لأنه كان يوفر لهم خط الحياة الذى يصلهم بالغرب. وبعد الاستيلاء على القدس ارتفع عدد الأوربيين الراغبين فى السفر إلى الشرق كثيراً، وعن طريق نقل الحجاج المسيحيين إلى المنطقة العربية شرق المتوسط ساعد الإيطاليون عدداً كبيراً من الغربيين على زيارة الأماكن المقدسة. كذلك ساعد الحجاج الاقتصاد، سواء عن طريق إنفاق الأموال على تكاليف المعيشة أو عن طريق منح الهبات للمؤسسات الكنسية.

وعلى أية حال، فإن الإيطاليين قدموا معظم ما قدموه من فوائد للمستوطنين فى ضوء الاعتبارات التجارية. إذ إن التدفق الكبير للبضائع عبر موانئ شرق المتوسط ولَّد دخلاً كبيراً للفرنج، خاصة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر، على الرغم من أن المدى الواسع للإعفاءات الضريبية التى حصل عليها التجار الغربيون فإن الحجم الكبير

للتجارة التى شجعوها كان يكفى ويفيض للتعويض عن الامتيازات التى منحت لهم فى المرحلة الأولى. أما التجار من الإمبراطورية البيزنطية، وشمال أفريقيا، وبلاد الشام والعراق فلم تكن لهم مثل تلك الحصانة التى تمتع بها الإيطاليون وكان عليهم أن يدفعوا الضرائب على المبيعات وعلى البضائع الواصلة والمغادرة فى الموانئ. وكانت معظم هذه الرسوم إسلامية الأصل، مما يكشف كيف اتبع المستوطنون الممارسات المحلية، لاسيما عندما كان يثبت لهم أنها مُربحة وكان ميناء عكا هو أكثر ميناء يعج بالحركة فى الشرق الفرنجى. والرحالة المسلم ابن جبير يصف عكا سنة ١١٨٥م بقوله : «**عكا... هى قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة فى عظمها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواقع الأقدام، تستعر كفراً وطغياناً، وتفور خنازير وصلباناً، زفرة قذرة، مملوءة كلها رجساً وعذرة...**».



خريطة مارينو سانودو التى رسمها لعكا. خريطة من القرن ١٤ توضح المدينة قبل سقوطها سنة ١٢٩١م (فى يد الجيش المصرى بقيادة الأشرف خليل بن قلاوون) تبدو الشوارع الرئيسية وقد رسمت بشكل مضبوط تماماً، مثلما كانت الأسوار وأسواق البنادقة والبيازنة. وعلى أية حال، فإن مقر الجمارك حل محله «الميناء الداخلى» الذى لم يوجد أيضا؛ ويفترض أن مصدر هذه الخريطة وغيرها من الخرائط قد استفاد من هذا الرسم قدر الإمكان.

وكـان يتم إنزال البضـائع الواصلة عن طريق البـحـر وتنقل إلى أحد الأسـواق العديدة الموجودة فى الموانئ الرئيسية. أما الأسواق الأصغر فكانت تتعامل فى كل شئ مثل السمك أو الخضـروات، كما تخصصت أسواق غيرها فى تصدير منتجات مثل السكر. وكـان المصـدر الرئيسى لازدهار تجـارة التـوابل؛ إذ كـانت كـمـيـة كـبـيـرة من البضائع الآتية من طرق التجارة الآسيوية تمرُّمن خلال المستوطنات الفرنجية قاصدة الإمبراطورية البيزنطية وأوربا الغربية. وكانت الملابس تمثل الواردات الشائعة من الغرب. وكان الموظفون يزنون البضائع والمواد التى كانت تفرض عليها الضرائب غالبًا بحسب قيمتها، ولكن فى حالة المنتجات ذات الحجم الضخم، مثل النبيذ، والزيت، والغلال ،كانت الضرائب تقدر بحسب الكمية. وقد اختلف مستوى الضرائب من ٤٪ إلى ٢٥٪. وكان يمكن للملك أو لأحد السادة الإقطاعيين أن يكافئ أحد الأفراد بنسبة من الأرباح، أحيانًا على شكل إقطاع نقدى، من ضريبة محددة. وبعد أن تكون هذه الهبات قد استخرجت على يد موظف السوق أو موظف الميناء المختص، كان يجب دفع ما تبقى من النقود إلى الخزانة العامة المحلية وإلى الخزانة المركزية.

ويكشف التطور السـيـاسـى لمملكة بيت المقـدس كـيف وفق الفـرنج بين العـادات الغربية المألوفة والحاجة إلى التأقلم مع الظروف التى واجهتهم فى الشرق. وكانت الإقطاعيات الكبرى تشبه الضياع على الطراز الأوربى حيث كان النبلاء يديرون شئونهم فيما يتصل بإدارة العدالة والسياسة الخارجية. وكان سكان هذه الإقطاعيات، من ثم، خارج نطاق السيطرة الملكية. وكان كثير من السادة الإقطاعيين يحصلون أيضًا على إقطاعات نقدية، وهو ما كان أقل شيوعًا فى الغرب، بالإضافة إلى أملاكهم من الأراضى. وقد ساعدت هذه الإقطاعات النقدية على ضمان صمودهم ماليًا فى مواجهة ما خسروه من الأراضى. وباعتبارهم أتباعًا إقطاعيين للملك كانت الخدمة العسكرية مطلوبة منهم جميعًا، على حين كان يمكن فى الغرب الاستعاضة عن هذه الخدمة بالمال. وكان الملك يحوز الأراضى الأكثر ثراء والتى توفر أكبر قدر من الهيبة بما فى ذلك موانئ صور وعكا، ومدينة القدس طبعًا. وعلى الرغم من أنه فقد بعض الحقوق الملكية

أثناء القرن الثانى عشر، مثل سك العملات والحق فى الحصول على حمولات السفن الغارقة، فإن مكانته بوصفه حاكمًا ممسوحًا بالزيت المقدس، مع قاعدة سلطته الاقتصادية، كانت تعنى أنه طالما كان فردًا قديرًا كان من النادر أن ينجح أتباعه الإقطاعيون فى تحدى سلطته.

وعلى قرب من المحكمة الرئيسية فى المملكة كانت المحكمة العليا، التى كان يحضرها أتباع الملك الإقطاعيون، فإن ثمة مجلسًا كان يعقد أحيانًا ولكنه كان مهمًا لمناقشة الاتجاه السياسى على هيئة برلمان Parlement يحضره النبلاء، وكبار رجال الكنيسة، وقادة النظم الرهبانية العسكرية، وأحيانًا بعض أهالى المدن المهمين، وكانت البرلمانات المؤقتة Parlements توافق على فرض الضرائب العامة غير المعتادة للمساعدة فى دفع تكاليف الحرب، كما حدث فى سنة ١١٦٦م وسنة ١١٨٣م، وربما كانت تناقش اختيار الزوج المناسب – وهو غالبًا ما كان غربيًا– لوريثة مهمة. وكان يمكنهم أيضًا النظر فى المسائل الدبلوماسية، وفى سنة ١١٧١م ناقش أحد الاجتماعات مسألة من الذى يجب طلب المساعدة العسكرية منه فى الغرب: فقد أراد النبلاء إرسال مبعوثين إلى أوربا وصدموا عندما كشف الملك أماريك عن قصده بأن يسافر شخصيًا إلى القسطنطينية سعيا إلى الحصول على مساندة البيزنطيين : واحتجوا فى غضب ولكن الملك كان يمتلك من القوة ما يكفى لتنفيذ خطته.

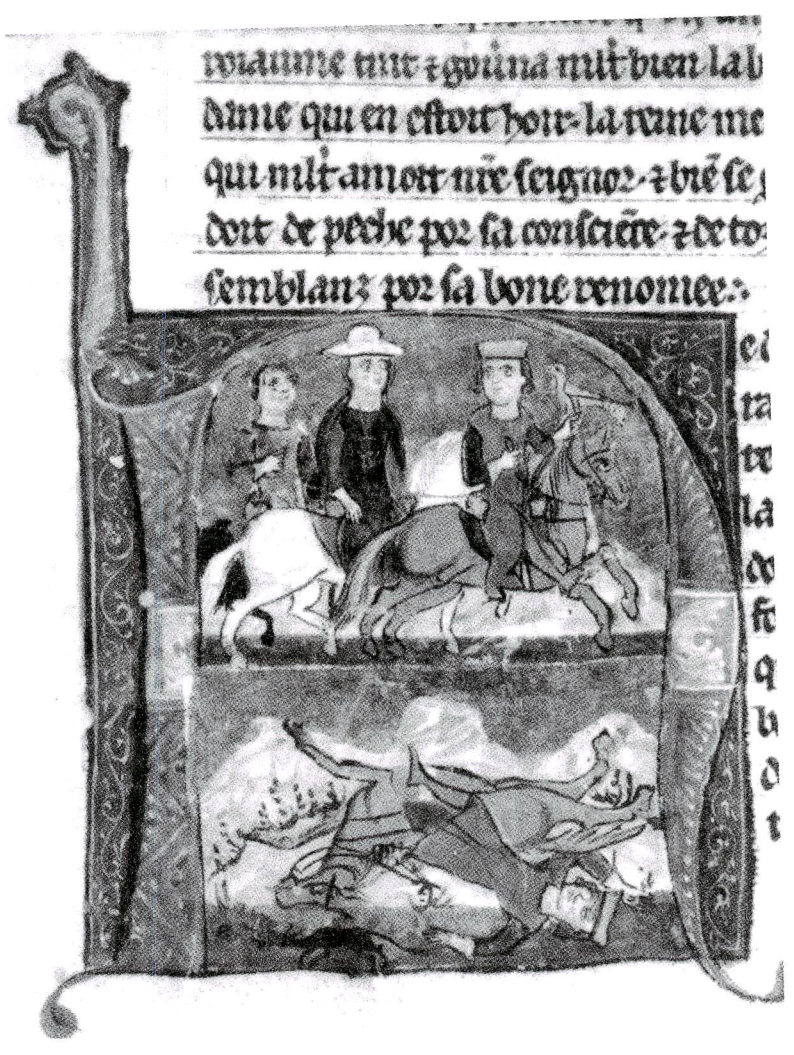
وقبل اعتلاء الملك الأبرص بلدوين الرابع عرش المملكة فى سنة ١١٧٤م، كانت لحكام القدس عامة اليد العليا فى علاقتهم مع النبلاء. إذ كان بوسعهم أن يفرضوا سيطرتهم سواء بالتشريع أو من خلال استخدام الحقوق الملكية فى توزيع الأرض. وثمة مثال على النموذج الأول يتجسد فى القانون الذى أصدره الملك أماريك المسمى assise sur la ligece حوالى ١١٦٦م الذى قرر أن كل الأفصال الإقطاعيين الرئيسيين– المعروفين باسم أفصال المؤخرة – ينبغى عليهم أن يؤدوا عهد الولاء للملك. وقد خلق هذا حلقة وصل مباشرة بين التاج ومعظم الحائزين على إقطاعات مما يمكن أن يؤدى إلى تجنب كبار النبلاء وتجاهلهم. وقد أفاد الملك من هذا الترتيب لأنه كان يستطيع أن

يطلب مؤازرة أفصال المؤخرة إذا ما كان سيدهم مشتبكًا فى صراع معه. وقد كسب أفصال المؤخرة لأن العهود التى قطعوها للملك كانت تعنى أنهم يستطيعون التوجه بشكاواهم ضد سيدهم الإقطاعى إلى الملك مباشرة، حيث كان الوضع السابق لاستقلال كبار الإقطاعيات يسمح للسادة الكبار أن يتصرفوا تجاههم فى حصانة.

ولكن لم يكن من صالح الملك أن يسمح للأعيان أن يصبحوا أقوى من اللازم واستطاع أن يحبط هذا بعدة طرق. فعندما كان يموت فرد دونما وريث كانت إقطاعيته تعود إلى السيطرة الملكية. وإذا أخذنا فى اعتبارنا معدلات الوفيات المرتفعة فى الأرض المقدسة، فإن هذا كان يحدث كثيراً وكان الملوك أحيانًا يفكرون فى تقسيم الأراضى إلى عدد من الإقطاعيات الصغيرة التى تمثل تهديداً أقل. وثمة طريقة أخرى لتقليل قوة النبلاء تمثلت فى إعطائهم حيازات مبعثرة داخل حدود إقطاعات أخرى. ومن ثم كان لابد للخصوم أن يجدوا المزيد من الصعوبة لتشكيل قاعدة للقوة الإقليمية. وربما كانت مثل هذه الممارسات ناجحة تمامًا فى تدعيم قوة التاج، ولكن على أية حال، ومنذ أربعينيات القرن الثانى عشر فصاعداً، كانت التكاليف الباهظة للحفاظ على التحصينات والخسائر الجسيمة الناجمة عن الإغارات الإسلامية تعنى أن النبلاء كانوا مجبرين على التنازل عن الأرض والقلاع إلى الهيئات الدينية ونظم الرهبنة العسكرية.

وثمة ملمح لافت للنظر فى الأسر الحاكمة فى المستوطنات الصليبية خلال القرن الثانى عشر تمثل فى بروز مكانة المرأة. إذ إن بنات الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس (١١١٨-١١٣١م) كن يمثلن مجموعة حركية بشكل خاص. وعندما مات الملك تم تتويج ابنته الكبرى ميلسيند، وزوجها فولك، الذى كان قبل ذلك كونت أنجو، وابنهما القاصر بلدوين حكامًا مشتركين. وعلى الرغم من محاولات فولك للحكم بمفرده فإنه لم يستطع الحصول على ما يكفى للدعم لخلع ميليسند وأجبر على أن يحكم مع الملكة. وعندما مات سنة ١١٤٣م، كان عمر ابنه بلدوين الثالث، ثلاثة عشر عامًا فقط وقامت ميليسند بدور الوصية عليه. ووصل بلدوين إلى السن القانونى سنة ١١٤٥م ولكن أمه رفضت تسليم السلطة وحكمت على مدى سبع سنوات أخرى. وفى سياق مجتمع القرن

الثانى عشر كان هذا لافتًا للنظر: لأن حكم المرأة بنفسها كان أمرًا نادرًا للغاية، مثلما أوضحت المعارضة فى إنجلترا لتتويج ماتيلدا : والواقع أنه فى خارج الشرق اللاتينى، ربما كانت الملكة أوراكا ملكة ليون - قشتالة (١١٠٩-١١٢٦م) هى الوحيدة التى يمكن مقارنتها، بميليسند. وعندما تطور الصراع فى القدس شكلت الأم والابن إدارة منفصلة لكل منهما وأصدر كل منهما المراسيم باسمه. وكان من المعتاد أن يبدو ضروريا للحاكم أن يتولى قيادة القوات فى المعركة، وهو مطلب كان يقضى باستبعاد المرأة، بيد أنه فى مملكة بيت المقدس- التى ربما كانت أكثر إقليم مكشوف فى العالم المسيحى بأسره- استمرت ميليسند فى الإمساك بزمام السلطة. وعينت قائدًا عسكريًا وكان واضحًا أنها حكمت بالسلطة الكافية لإرضاء الرجال البارزين فى المملكة، لأن بلدوين لم يستطع أن يجمع ما يكفى من التأييد ليحل محلها حتى سنة ١١٥٢م. وحتى عندما صارت له اليد العليا أخيرًا، استمرت ميليسند تلعب دورًا مؤثرًا فى حكومة القدس: بيد أن هذه المصاعب لم تكن شيئًا بالمقارنة مع الانتفاضة التى تسببت فيها أختها الصغرى الأميرة آليس، التى حاولت أن تحكم إمارة أنطاكية بعد موت زوجها فى سنة ١١٣٠م. فقد عارض الأميرة معظم الأعيان الكبار المحليون وفى جهودها للبقاء فى السلطة سعت إلى كسب التأييد والدعم من البيزنطيين، والمسلمين فى حلب، وكونت الرها، وكونت طرابلس، وبطريرك أنطاكية. وانتهت فترة انقسام عميق استمرت سبع سنوات عندما تم إجبارها على تسليم السلطة إلى ريمون دى بواتييه، وهو أمير غربى كان النبلاء المحليون قد استدعوه لكى يتزوج ابنتها.



كان الصيد ممارسة شائعة لقضاء الوقت فى جميع مناطق شرق المتوسط. وفى هذا الرسم فى مخطوط من القرن الثالث عشر لمؤرخة وليم الصورى، الملك فولك ملك بيت المقدس يسقط ميتًا بعد أن تعثر حصانه وهو يطارد أرنبًا بريًا خارج أسوار عكا فى نوفمبر ١١٤٣م.

كانت العلاقات بين حكام المستوطنات الفرنجية جيدة تمامًا على الرغم من بروز التوترات على السطح بين الحين والآخر. وكان الشرق اللاتينى يتكون من أربعة أقاليم

مختلفة. وكان لكل منها شخصية متمايزة كما كان قادراً على التصرف المستقل، على الرغم من أنه كان واضحًا أن من صالح المستوطنين أن يتكاتفوا سويًا ضد الأعداء المشتركين. وكانت العلاقات بين القدس وجارتها الشمالية الصغيرة كونتية طرابلس، حميمة فى العادة وكان الكونت تابعًا إقطاعيًا (فصلا) للملك. وكان كونتات الرها يدينون بالولاء للقدس، وبحلول ثلاثينيات القرن الثانى عشر كانوا قد صاروا أيضًا



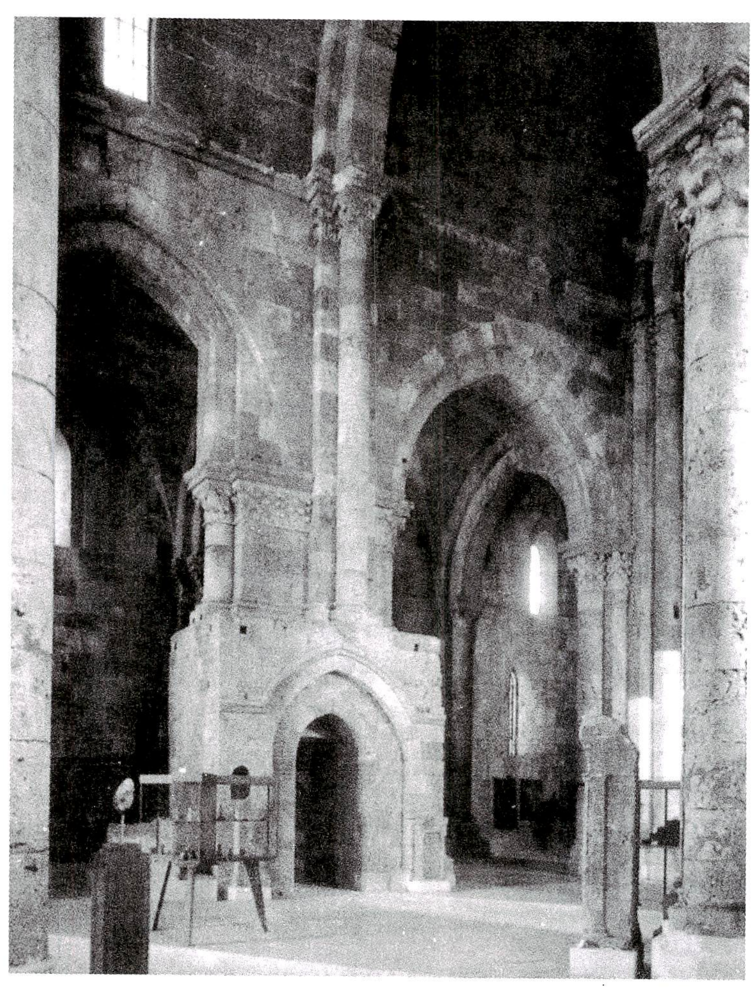
كنيسة سانت آن بالقدس. مثال نادر باق على كنيسة صليبية من القرن الثانى عشر. وكان الموقع بأيدى راهبات بندكتيات وبنى تحت رعاية ملكية حوالى سنة ١١٤٠م عندما كانت إيڤيت، إحدى بنات الملك بلدوين الثانى ؛ عضوة فى جماعة الراهبات البندكتيات.

المقدس ولكنه كان خاضعًا من الناحية النظرية لسيده الأعلى، الإمبراطور البيزنطى كما سنرى، ومع هذا كان الأنطاكيون يحتاجون إلى علاقة قوية مع أولئك الذين فى الجنوب لأنهم غالبًا ما كانوا مضطرين للتوجه إلى القدس طلبًا للمساعدة العسكرية. وفى خمس عشرة مناسبة فيما بين سنة ١١١٠م وسنة ١١٣٧م ساعد حكام بيت المقدس رفاقهم فى الدين بالشمال وعلى مدى ثلاث عشرة سنة من هذه السنين كان الملك وصيًا على الإمارة. ولم تكن العلاقة من جانب واحد تمامًا لأن رجالاً من أنطاكية حاربوا إلى جانب القدس فى سنوات ١١١٣م و ١١٢٩م و١١٣٧م، ولكن من الواضح أن أنطاكية كانت المستوطنة التى تطلب المزيد من المساعدة. ومن الممكن أن نميِّز حافة تنافسية بين المستوطنات الأربع فى وقت الحملة الصليبية الثانية تقريباً. وقد كتب وليم الصورى، وهو مؤرخ عاش فى القرن الثانى عشر بمملكة بيت المقدس، أنه عندما وصل الملك لويس السابع ملك فرنسا إلى أنطاكية فى مارس سنة زاره ممثلون من كل الإمارات اللاتينية بالشرق وحاول كل منهم إقناعه بأن يجعل أراضيه قاعدة له بغض النظر عن حاجات الآخرين.

فى أربعينيات القرن الثانى عشر تحول الموقف العسكرى إلى الأسوأ. وجاءت أول نكسة كبرى لتؤثر على المستوطنين اللاتين فى ديسمبر سنة ١١٤٤م، عندما استولى عماد الدين زنكى، أتابك الموصل المسلم، على مدينة الرها، وعلى الرغم من أن مسيرة جيشين كبيرين عبر آسيا الصغرى هما قوام الحملة الصليبية الثانية، يقودهما لويس السابع وكونراد الثالث ملك ألمانيا، كانت كارثة ، فإن القوات المشتركة للصليبيين والمستوطنين هاجمت دمشق فى يوليو سنة ١١٤٨م. وانهار الحصار فى غضون أسبوع، ويبدو من المحتمل الآن أن الخوف من قوات الإنقاذ المسلمة قد أرغم المسيحيين على ارتكاب خطأ تكتيكى، ولكن هذا التفسير البسيط لم يرض المستوطنين والصليبيين، الذين اتهم كل منهما الآخر بالخيانة وعاد الغربيون إلى ديارهم، تاركين الفرنج يدافعون عن أنفسهم.

كان المستوطنون الشماليون دائمًا يتعرضون لأسوأ الهجمات الإسلامية وبدأ موقفهم يتدهور أكثر فأكثر. وكتب وليم الصورى أن المسيحيين كانوا تحت مثل هذا الضغط لدرجة أنهم كانوا يبدون كما لو أنهم مطحونون بين حجرى الرحى. وعمل خليفة زنكى، نور الدين محمود، جاهدا على جمع الإمارات المسلمة فى شمال بلاد الشام بدلاً من تفرقها، وفى سنة ١١٤٩م قتل الأمير ريمون أمير أنطاكية فى معركة عيناب وأرسلت رأس ريمون إلى الخليفة فى بغداد لبيان وضع نور الدين باعتباره الزعيم المقاتل للمسلمين السنة. وامتد نفوذه جنوبا وفى سنة ١١٥٤م سيطر على دمشق وهو ما كان يعنى أن المسيحيين واجهوا بلاد الشام المسلمة متوحدة للمرة الأولى. وعند هذه النقطة كان الموقف السياسى متوازنًا أخيرًا؛ فقد كان المسلمون خطرًا متصاعدًا على الفرنج، إلا أن المستوطنين وجدوا فى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٣- ١١٦٣) وخليفته أماليك (١١٦٣-١١٧٤م) ملكين قويين على استعداد لمواجهة أعدائهم.

وكان مفتاح سياسة أماريك يرتكز على السيطرة على مصر. فقد كان الخلفاء الفاطميون الشيعة ضعافًا ومع سيطرة نور الدين على دمشق وحلب كان من الضرورى منعه من الاستيلاء على مصر والإحاطة بالمستوطنين برًا. وفيما بين سنة ١١٦٣ وسنة ١١٦٩م قام أماريك. بما لا يقل عن خمس محاولات لغزو مصر. ولكن كان من الواضح أن المستوطنين بحاجة إلى موارد عسكرية أكبر لحماية أنفسهم فى مواجهة العداء الإسلامى المتصاعد، دعك من المشروعات الطموحة والتى دارت بخلدهم مثل الاستيلاء على مصر. وكان أول مكان يسعون إلى الحصول على المساعدة منه أوربا الغربية. وكان سبب وجود الدويلات اللاتينية حراسة الأماكن المقدسة لصالح العالم المسيحى اللاتينى. وكانت صلات القربى الحقيقية للمستوطنين مع رفاقهم فى الدين بأوربا، الذين كانوا يتوقعون منهم الإسهام فى الدفاع عن ميراث المسيح لأنه من الناحية النظرية كانت مصلحة الأرض المقدسة محل اهتمام جميع المسيحيين. وحاول المستوطنون أيضًا جاهدين أن يستغلوا روابطهم العائلية مع النبلاء الغربيين لتشجيع الناس على حمل الصليب.



كاتدرائية سيدتنا فى طرطوس، أكمل كاتدرائية باقية من فترة الحروب الصليبية. وربما يمثل البناء (المركز) أول كنيسة مكرَّسة للعذراء المباركة مريم

ومنذ سنة ١١٦٠م فصاعداً أرسلوا سلسلة من الخطابات والمبعوثين إلى زعماء أوربا الغربية طلباً للمساعدة. وساندت البابوية هذه الالتماسات بإصدار خطابات تدعو إلى حملات صليبية جديدة. وتم إرسال بعض المساعدات المالية إلى منطقة شرق المتوسط، والأهم من ذلك أن عدداً من الحملات الصليبية متوسطة الحجم تمَّ إرسالها

إلى الشرق بقيادة رجال مثل كونت الفلاندرز وكونت نيفر. وكانت المساعدة العسكرية قصيرة المدى من هذا النوع، بطبيعة الحال، محل ترحيب ولكن ما كان المستوطنون يريدونه حقًا حملة صليبية كبيرة. وقد ركزوا اهتمامًا خاصًا على الملك لويس السابع ملك فرنسا والملك هنرى الثانى ملك إنجلترا، ولكن الاختلافات السياسية بين هذين الحاكمين أحبطت جهودهم.

وبقيت الحاجة إلى مساعدة عسكرية أساسية. فإلى أى مكان آخر كان يمكن للمستوطنين أن يولوا وجوههم؟ كانت الدولة البيزنطية إحدى الإجابات، فقد كان البيزنطيون متورطين فى شئون الشرق اللاتينى منذ البداية، وكانوا فى صراع مع بوهيموند أمير تارانتو حتى معاهدة ديفول (١١٠٨م) حيث أقسم بوهيموند على الإخلاص للإمبراطور واعترف به سيداً أعلى على أنطاكية.كما أن وجود جمهرة سكانية كبيرة من الأرثوذكس فى شمال بلاد الشام قد شجع على تورط البيزنطيين فى الإقليم. وقرر الملك بلدوين الثالث أن يقيم علاقات أوثق مع القسطنطينية وسمح فى أواخر سنة ١١٥٠م للبيزنطيين بإحراز موضع قدم لهم شمال الشام بشراء ما تبقى من الأراضى الفرنجية فى الرها. وسرعان ما تطورت العلاقات بين البيزنطيين واللاتين أبعد من ذلك. ففى سنة ١١٥٨م تزوج بلدوين واحدة من الأسرة المالكة البيزنطية، وبعد ذلك بتسع سنوات فعل أماريك الشئ نفسه. وفى هذا الوقت تزوج الإمبراطور مانويل كومنينوس من ماريا أميرة أنطاكية. وقد عززت هذه الزيجات إمكانيات التعاون العسكرى. وكان القصد أن مصر يمكن أن تكون الهدف الأول للتحالف البيزنطى- الفرنجى، ولكن فى بواكير سنة ١١٦٠م أخذ نور الدين البلاد قبل أن يتمكن المسيحيون من تنفيذ اتفاقهم. وقد زاد هذا النجاح الأخير للمسلمين بشدة من التهديد الماثل على مملكة بيت المقدس وفى ضوء الافتقار المستمر إلى مساعدة كبرى من الغرب واصل أماريك سياسته الموالية للبيزنطيين. وسافر إلى القسطنطينية سنة ١١٧١م حيث يحتمل أنه أعلن ولاءه للإمبراطور مانويل. وكانت المرة الأولى التى يقوم فيها أحد ملوك القدس الصليبيين بمثل هذه الرحلة كما أن اللفتة الدرامية التى قام بها أوضحت مدى ما كان يعانيه من يأس. ووصل المزيد من المساعدة البيزنطية إلى منطقة شرق المتوسط سنة ١١٧٧م، بيد أن العلاقات بين القوتين انتهت بموت مانويل سنة ١١٨٠م. ولم تكن العلاقة ناجحة

كثيرًا، على الرغم من أنه فى مناسبات نادرة كان الخوف من التدخل البيزنطى قد أثر على تعامل المسلمين مع المستوطنين، فعلى سبيل المثال، بعد أن كان نور الدين قد سحق الجيش الفرنجي فى شمال بلاد الشام سنة ١١٦٤م، نصحه مساعدوه بأن يستمر فى التوغل داخل إمارة أنطاكية وتدمير من بقى من الفرنج، ولكن نور الدين رفض الخطة لأنه كان مقتنعًا بأن البيزنطيين سوف يردون إذا ما استولى على أراض مسيحية أكثر مما ينبغى.

وكانت سنة ١١٧٤م علامة فارقة لكل من الفرنج وأعدائهم. ففى مايو أتاحت وفاة نور الدين فرصة ذهبية أمام الفرنج، وبضربة حظ خالصة كانوا قد رتبوا لأسطول صقلى لمساعدتهم فى هجوم آخر على مصر. ومن سوء حظهم، أنه ما إن وصل الصقليون إلى شرق المتوسط حتى سقط الملك أماريك صريع المرض ثم مات. وفشلت الحملة وعاد الصقليون إلى ديارهم. هذه الخيبة ارتبطت بحقيقة أن وريث أماريك بلدوين الرابع كان أبرصا، وهو ما كان يعنى أنه عاجز عن الحكم بكفاءة ولايمكنه إنجاب الأولاد. وناضل بلدوين حتى موته سنة ١١٨٥م ولكنه كان يرأس مملكة يتزايد انقسامها. وكانت هذه فترة من تأجيج النيران بكثافة بين الفرقاء المتنافسين من النبلاء الذين كانوا يسعون إلى التلاعب بالملك سيئ الحظ ليخدم أغراضهم الخاصة. ولم ينشأ عن اعتلاء ابن أخيه القاصر بلدوين الخامس سوى القليل من التغيير ومات الطفل فى غضون سنة واحدة. إلا أنه عندما ازداد انقسام الفرنج بدأ العالم المسلم يستعيد قوته. أما مساعد نور الدين فى مصر، صلاح الدين، فقد خلفه وفى سنة ١١٨٦م كان قد شاد تحالفًا بين القوات المسلمة التى استعدت تحت راية الجهاد للتحول ضد الفرنج. وقد احتاج المسيحيون بشدة إلى المساعدة وحاول وفد بقيادة بطريرك القدس وسادة النظم العسكرية الرهبانية أن يقنع حكام أوربا الغربية بالمساعدة فى الدفاع عن الضريح كان المستوطنون يائسين لدرجة أنهم قدموا دون جدوى عرضًا إلى كل من فيليب الثانى ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك إنجلترا بأن تكون لهما السيادة العليا على مملكة بيت المقدس. فقد تُركوا معزولين دونما سند. وفى سنة ١١٨٧م غزاهم صلاح



كنيسة أبو غصن كنيسة القيامة. موضع الحج هذا الذى يرجع للقرن الثانى عشر كان يعرف بأنه المكان الذى ظهر فيه المسيح لتلاميذه عقب صلبه وقيامته. وهذه الصورة تبين السرداب الذى يحوى مذبحاً منصوباً على العين الموجودة به.

الدين وفى ٤ يوليو سحق قوات المستوطنين التى كان يقودها جاى لوزنيان، الذى كان ملكا مشاركا بسبب زواجه من شقيقة بلدوين الرابع، فى معركة حطين. كان افتقار الفرنج إلى القوة البشرية مكشوفًا كما كانت مستوطناتهم بلا دفاع تقريبًا. وفى الشهور التالية فتح صلاح الدين بيت المقدس ودفع اللاتين إلى الساحل تاركًا صور لتكون المدينة الفلسطينية الوحيدة الباقية بأيدى المسيحيين؛ وقد تأثرت طرابلس وأنطاكية بدرجة أقل، على الرغم من أن كلتيهما خسرت ممتلكات على حدودها الشرقية. وكما رأينا، كانت الاستجابة الغربية هى الحملة الصليبية الثالثة.

قبرص :

فى مايو سنة ١١٩١م استولى ريتشارد الأول ملك إنجلترا على قبرص من اسحق كومنينوس، الذى كان عضوًا منشقًا على العائلة الإمبراطورية (البيزنطية). كان ريتشارد مبحرًا فى طريقه إلى الأرض المقدسة عندما اضطر جزء من أسطوله – بما فيه السفينة التى كانت تقل أخته وخطيبته– إلى أن يأوى إلى شاطئ الجزيرة أثناء عاصفة. وقد أدى رد الفعل المعادى من جانب اسحق إلى استخدام ريتشارد القوة وسرعان ما أجبرت قواته القبارصة على الاستسلام. وعلى الرغم من وضعه باعتباره صليبيًا فإن ريتشارد لم يتردد فى أن يأخذ أرضًا من حاكم مسيحى، على الرغم من وضوح حقيقة أنه قد حصل على الأرض لمصلحته الخاصة. ولم يكن الاستيلاء على قبرص عملاً من أعمال الاستعمار الدينى بأية حال، إلا أن الجزيرة كونت علاقة وطيدة جدًا مع المستوطنات الصليبية الأخرى فى شرق المتوسط وقيِّض لها أن تلعب دورًا أساسيًا فى الدفاع عن الأرض المقدسة. وإذا وضعنا فى حسابنا الريح المواتية فإن الرحلة من قبرص إلى سواحل بلاد الشام كان يمكن أن تتم فى يوم واحد. وكان موقعها يعنى أنها كانت قاعدة تموين واضحة للحملات الصليبية. وكان هذا أوضح ما يكون أثناء الحملة الصليبية الأولى للملك لويس التاسع ملك فرنسا. فعندما وصل لويس التاسع إلى شرق المتوسط أمضى ثمانية أشهر على الجزيرة وصحبه الملك هنرى الأول

يقود النبلاء القبارصة عندما قام بغزو مصر فى يونيو ١٢٤٩م. ولم يكن القبارصة الفرنج على الدوام حريصين على مساعدة الحملات، ففى أثناء حملة اللورد إدوارد الإنجليزى سنة ١٢٧١-١٢٧٢م حاول بعضهم أن يجادل بأنه لاينبغى لهم أن يقوموا بالخدمة العسكرية خارج الجزيرة وأنهم قد ساعدوا مليكهم فى أماكن أخرى فى الماضى من منطلق القدرة التطوعية الخالصة. ووافقوا أخيراً على خدمته بالخارج لمدة أربعة أشهر فقط فى السنة.

وقد باع ريتشارد الجزيرة إلى جاى لوزنيان، ملك بيت المقدس السابق، الذى أسس أخوه وخليفته إيمرى سلالة حاكمة حكمت قبرص على مدى ما يقرب من ثلاثمائة سنة. وإذا ما قورنت قبرص بالمستعمرات اللاتينية على الأرض، فإنها كانت أقل عرضة للغارات الإسلامية بكثير، على الرغم من أن الخوف من الهجوم الخارجى تسبب فى أن يبحث إيمرى لوزينيان عن سيادة الإمبراطور الغربى هنرى الرابع فى سنة ١١٩٥م. وصار إيمرى، الذى تم منحه أيضا تاجًا من الإمبراطور الغربى، ملكًا مشاركًا على القدس سنة ١١٩٧م عندما تزوج وريثة العرش إيزابيلا الأولى. وعلى الرغم من أنه أمضى من الوقت فى عكا أكثر مما أمضاه فى نيقوسيا فإن هذا لم يكن يعنى أن المملكتين قد اندمجتا. إذ بقيت مؤسساتهما منفصلة ورفض إيمرى أن يسمح لموارد قبرص المالية أن تستنفد فى الدفاع عن القدس. وعلى أية حال، كان مستعداً لأن يفكر فى استخدام القوة العسكرية للجزيرة لصالح أولئك المستوطنين على أرض فلسطين. ولم ينتج عن زواجه بإيزابيلا أطفال وعندما مات سنة ١٢٠٥م، كانت المملكتان تحت حكم سلالتين حاكمتين مختلفتين لفترة من الوقت.

وفى سبيل تقوية الحكم الفرنجى على قبرص قام آل لوزينيان الأوائل بمنح المئات من الفرسان والسرجندية الراكبين ومواطنى المدن الأراضى والحقوق، وهى سياسة ساعدت أيضًا على تعويض الخسائر التى كانوا خسروها توًا أمام صلاح الدين على أرض فلسطين. ولم تكن هناك إقطاعيات على أرض قبرص وهو ما كان يعنى أن القضاء تحت السيطرة الملكية القوية. وكان آل لوزنيان يتسمون بالقدر الكافى من

التبصر بحيث ضمنوا ألا تكون هناك قلعة أو بلدة مسورة فى حيازة تابع علمانى، وهى ممارسة لم يكن الحكام فى أى مكان آخر بالشرق اللاتينى يستطيعون التفكير فيها بسبب تهديد الهجوم الإسلامى. وقد منعت مثل هذه العوامل النبلاء من بناء قواعد قوة إقليمية وربما تساعدنا على تفسير الهدوء النسبى على الجزيرة، بغض النظر عن الحرب الأهلية التى أججتها عوامل خارجية فيما بين سنة ١٢٢٩ وسنة ١٢٣٣م. وربما كانت القلاع الوحيدة غير الملكية هما قلعتى كولوسى وجاستريا اللتين شكلتا جزءًا من الضياع الممتدة التى كانت بحوزة فرسان الاسبتارية والداوية.

أما السهول الساحلية الخصبة، والوديان ذات المصاطب، واستخدام قنوات الرى، فكانت تعنى أن بوسع قبرص أن تنتج كميات كافية من الحبوب، والسكر، وزيت الزيتون للتصدير. وكان النبيذ منتجًا مهمًا آخر على الرغم من أن بعض التنويعات كانت لزجة لدرجة أن المعاصرين حكوا أنه كان يمكن فردها على الخبز مثل العسل. وتحت حكم آل لوزينيان نما الاقتصاد القبرصى بسرعة، وكانت مدينة ليماسول أول مركز للنشاط التجارى. وقد أسهمت فى هذا مكانة الجزيرة باعتبارها محطة طبيعية يتوقف عندها التجار فى طريقهم إلى أرض الشام وفلسطين كما أسهم فى ذلك الاهتمام المتزايد من جانب الكوميونات التجارية الإيطالية. وكان البنادقة قد حصلوا على امتيازات إبان فترة الحكم البيزنطى، ولكن تحت حكم آل لوزينيان صار الجنوية بارزين بصورة مطردة، لا سيما بعد الحرب الأهلية سنة ١٢٢٩م - ١٢٣٣م. وقد احتاج الملك هنرى الأول (١٢١٨-١٢٥٣م) المساعدة البحرية وساعده الجنوية فى مقابل امتيازات تجارية مهمة. كذلك دخل التجار البيازنة والكتلان وأرمن قليقية فى اتفاقيات تجارية مع القبارصة. وقرب نهاية القرن الثالث عشر بدأت فاماجوستا تتفوق على ليماسول باعتبارها العاصمة التجارية للجزيرة لأنها كانت أقرب بخمسين ميلاً إلى أرض الشام وأكثر مواءمة للتجارة النامية مع بلاد الشام وقليقية. وبعد سقوط عكا سنة ١٢٩١م كان الأوربيون ممنوعين من التجارة المباشرة مع المسلمين، وقد استفاد التجار الغربيون من أياس فى قليقية المسيحية والمسيحيين الشوام الذين كانوا ينقلون البضائع من شرق البحر المتوسط إلى فاماجوستا لكى يساعدوا الأوربيين على شرائها. وصارت قبرص

محطة رئيسية على طريق رئيسى للتجارة العالمية وكان حجم التجارة المتولد عن هذا يعنى أن فاماجوستا صارت مدينة ثرية وعالمية.

كان أحد أكبر التغيرات التى جلبها الغزو الفرنجى هو تأسيس الكنيسة اللاتينية. إذ كانت غالبية السكان المحليين من الروم الأرثوذكس ولكن أحد كبار الأساقفة اللاتين صار هو كبير رجال الكنيسة وكان مطلوبًا من الأساقفة اليونانيين أن يخضعوا لنظرائهم الكاثوليك. كذلك كان الأرثوذكس مجبرين على أن يعترفوا بسيادة البابا، وهو موقف لم يكن أبناء دينهم فى بلاد الشام مجبرين على قبوله. ووافق كبير الأساقفة الأرثوذكس رسميًا على هذا سنة ١٢٦١م، ولكن القساوسة الأدنى مرتبة كانوا أقل استعدادًا لقبول السيادة الكاثوليكية. وكانت هناك لحظات أزمة. وقد جاءت إحداها فى أعقاب إصرار اليونانيين على استخدام الخبز بالخميرة فى طقس الاعتراف (الافخارستيا) لأنه كان يرمز بالنسبة لهم إلى قيامة المسيح، وهو ما أدى إلى مصرع ثلاثة عشر من المؤمنين الأرثوذكس، على حين تم توقيع عقوبة الحرمان على عدد من رفاقهم فى الدين. وكان الأذى الذى لحق بالأرثوذكس قد تفاقم من جراء استيلاء الفرنج على ممتلكاتهم واستخدام الممتلكات التى تخص الكنيسة المحلية. وتشهد نوعية المبانى الديرية والكاتدرائية والكنائس اللاتينية الباقية على أن الكنيسة اللاتينية كانت سائدة أثناء تلك الفترة.



المعمَّد المسقوف فى دير بريمونستراتنسيان ببلابيس فى قبرص من القرن الرابع عشر. وكان البيت قد تأسس قبل سنة ١٢٠٥م على أيدى الرهبان الذين فروا من فلسطين والشام بعد أن كان صلاح الدين قد اجتاح مملكة بيت المقدس ١١٨٧م. وقد صار الدير غاية فى الازدهار خلال القرن الثالث عشر وتشهد بقاياه على فترة سيادة الكنيسة اللاتينية على قبرص.

وعلى مدى ما يزيد على نصف الفترة بين سنة ١٢٠٥م وسنة ١٢٦٧م كانت حكومة التاج فى قبرص تتميز بالأقليات والأوصياء، وكانت إحدى نتائج هذا ظهور أسرة إبلين، التى كانت قد توطدت بالفعل فى مملكة بيت القدس، باعتبارها قوة قادرة فى الشئون القبرصية. وفى حوالى سنة ١٢١٨م صار فيليب إبلين وصيًا على ابن أخيه القاصر، الملك هنرى الأول، وكان لدى فيليب من التأييد ما يكفى لسحق التحدى الذى واجه سلطته من أم هنرى، ولكن الإمبراطور فردريك الثانى، الذى وصل الجزيرة فى سنة ١٢٢٨م، كان مصممًا على كبح سلطة آل إبلين، الذين كان يتزعمهم آنذاك جون أخو فيليب. وكان الإمبراطور حانقًا لأنهم تجاهلوا حقوقه باعتباره السيد الأعلى عندما

تم تتويج هنرى دونما إشارة إليه. وزعم لنفسه الوصاية على الملك الشاب والأرباح العائدة من الممتلكات الملكية. ودعا حنا (چون) إبلين إلى مأدبة، واستقبله بمودة ثم أمر بأن يحيطه عدة رجال مسلحون ويقبضوا عليه. وقد أجبر حنا على التسليم إلى هنرى قبل أن يهرب إلى قلعة سانت هيلاريون فى الجبال الشمالية. وبعد ذلك بوقت قصير، رحل فردريك الثانى إلى بلاد الشام وعندما اضطر إلى العودة لوطنه بسبب غزو بابوى لجنوب إيطاليا، باع حقوق الوصاية على قبرص إلى خمسة من مؤيدى الإمبراطورية. وتلت ذلك حرب أهلية استمرت أربع سنوات عندما ناضل آل إبلين لهزيمة أنصار الإمبراطور فى فلسطين وكذلك فى قبرص. وحاصر فردريك فيلانچيرى، المارشال الإمبراطورى، قلعتهم فى بيروت كما أثار المعارضة ضدهم فى قبرص. وضمن حنا إبلين مساندة الأسطول الجنوى وغالبية السكان القبارصة، وبحلول عام ١٢٣٣م كان قد استأصل القوات الإمبراطورية على الجزيرة. وانتهت السيادة العليا على قبرص سنة ١٢٤٧م عندما أعفى البابا إنوسنت الرابع الملك هنرى من أية عهود أو أيمان كان قد قطعها لفردريك وخضعت مملكة قبرص للحماية المباشرة للبابوية.

وصار ملك قبرص هيو الثالث (١٢٦٧-١٢٨٤م) حاكما على بيت المقدس وكان ذلك فى سنة ١٢٦٩م. وقد تمزقت المناطق الصليبية فى فلسطين باقتتال الفرقاء وكانت جهود هيو لتركيز ما بقى للفرنج من قوة ضد السلطان المملوكى بيبرس بلا طائل، كما سنرى. وبعد سقوط عكا ١٢٩١م تدفق سيل من اللاجئين على قبرص، ودخلت الجزيرة فى عهد جديد قامت أثناءه بدور حيوى باعتبارها الموقع الباقى للمسيحية اللاتينية فى شمال شرق البحر المتوسط والنقطة الواضحة التى جرت منها محاولات إعادة الوجود الصليبى على أرض فلسطين والشام.




فى سنة ١٢١٩م استولت الحملة الصليبية الخامسة على ميناء دمياط المصرى، وتم تسليمه إلى حنا إبلين ملك بيت المقدس. وكانت سيطرته على المدينة قصيرة لأن المسلمين استعادوها أواخر سنة ١٢٢١م ولكن فى هذه لفترة كان حنا قد أكد سلطته بإصدار العملات وعلى أحد وجهى العملة يمكن رؤية رأس متوج مع كلمتى JOHANNES REX الملك حنا وعلى الظهر صليب وكلمة DAMIETA دمياط.




كان حكم هنرى الثانى فى قبرص مضطربًا عندما كان ملكًا على قبرص فيما بين ١٢٨٥م وسنة ١٣٢٤م. وكان هو أيضًا ملك بيت المقدس على الرغم من أنه كان ملكًا باللقب فقط بعد تحرير عكا على أيدى المسلمين سنة ١٢٩١م وهذه العملة الفضية ترجع إلى عهد حكمه فى قبرص وعلى أحد وجهيها يظهر الملك على عرشه وعلى ظهرها ملك قبرص.



قلعة تورينس (كليرمون) قلعة فى مملكة المورة الصليبية. وقد بنى چيوفرى الأول ڤيلهاردوان معظم البناء فيما بين سنة ١٢٢٠م وسنة ١٢٢٣م. وثمة حصن داخلى سداسى الشكل (فى مركز الصورة) كان يضم أماكن المعيشة وفناءً مفتوحًا صغيرا. وإلى يمين هذا يمكن رؤية بداية السور الذى يحيط بساحة أكبر كانت تمتد أسفل التل لتضم الاسطبلات والمخازن.

بلاد اليونان تحت الحكم الفرنجى:

فى ١٢ أبريل سنة ١٢٠٤م سقطت مدينة القسطنطينية فى أيدى الحملة الصليبية الرابعة. ثم أعقب ذلك ثلاثة أيام من السلب والنهب. وقبل الهجوم كان الصليبيون قد قرروا انتخاب إمبراطور لاتينى لحكم ربع الأراضى التى تم الاستيلاء عليها من البيزنطيين وفى مايو سنة ١٢٠٤م تم تتويج الكونت بلدوين أمير الفلاندرز إمبراطوراً. وتم تقسيم ثلاثة أرباع الأراضى الباقية بين البنادقة والصليبيين الآخرين. وكان احتلال الصليبيين للإمبراطورية البيزنطية نتيجة مباشرة للحركة الصليبية، بيد أنه لم يكن هناك شئ دينى فى هذا. وفى حالة الأجزاء البيزنطية التى استولى عليها البنادقة، كانت علاقات المستوطنين الوثيقة مع البندقية والتوجيه السياسى والاقتصادى الذى

قدمته المدينة الأم، من مظاهر العلاقة التى كانت ترتبط فى العادة بالتعريف الأكثر تقليدية للاستعمار. والحقيقة أن ازدهار الأراضى البيزنطية تحت الحكم الفرنجى والسلام النسبى الذى تمتعت به استنزف المستوطنين من الشرق اللاتينى وبذلك أضعف «المستعمرات الدينية» فى منطقة شرق المتوسط.



لأسباب تتعلق بالأمن كان المستوطنون الفرنج فى المناطق الريفية من الإمبراطورية البيزنطية يميلون إلى سكنى الأبراج المحصنة. وكان معظمها يتكون من قبو بالطابق الأرضى مع المدخل وأماكن المعيشة فى الطابق الأول، وما يعلوه، وهذان البرجان فى فيللا على جزيرة إيوبويا (نجروبونتى).

وقد اختلف تأثير الغزو اللاتينى اختلافًا شاسعًا، وكان ذلك راجعًا إلى حد كبير إلى أن الغربيين أنفسهم كانوا من خلفيات متنوعة انعكست فى مناهج الحكم التى فرضوها على السكان الأصليين. إذ كان البيزنطيون معتادين على مجتمع كان فيه كل الرجال الأحرار خاضعين لنفس القانون، بغض النظر عن الوضع الاجتماعى أو الاقتصادى. وقدم اللاتين مجتمعا طبقيا حاداً به قوانين مختلفة لكل من النبلاء، والبورجوازيين، والفلاحين. وقد قُسِّمت الأرض إلى إقطاعيات وعومل البيزنطيون الذين بقوا على إيمانهم بالعقيدة الأرثوذكسية باعتبارهم فلاحين نصف أحرار. وعلى أية حال، فسرعان ما صار التمييز الأساسى بين الغزاة والرعايا مشوشا. إذ كان الفرنج

بحاجة إلى استغلال موارد أملاكهم الجديدة وكانت أبسط طريقة لذلك هى الأخذ بالبناء المالى البيزنطى الموجود. وأفادوا من الأراخنة archontes، أى ملاك الأرض والموظفين الإمبراطوريين السابقين، لكى يخترقوا نظام الضرائب المعقد. وكان الأراخنة فى الواقع هم طبقة النبلاء البيزنطيين وعلى الرغم من أنهم ظلوا منفصلين عن اللاتين من الناحية الدينية والناحية الثقافية، فإن النصف الثانى من القرن الثالث عشر شهد بداية تلقيهم إقطاعيات من المستوطنين الفرنج. ومنذ سنة ١٢٦٢م يوجد دليل على وجود فرسان بيزنطيين يتلقون ألقاباً، وهو ما يوضح أن الأراخنة كانوا قد بدأوا يدخلون فى التراتبية الطبقية الفرنجية. وقد ربط هذا بين مصالح النبلاء المحليين ومصالح المستوطنين وساعد على تعويض الضعف العددى لدى الفرنج فى مواجهة هجمات الدولة البلغارية المعادية فى الشمال والمنفيين البيزنطيين فى آسيا الصغرى وإبيروس. وفيما يتعلق بالأراخنة كان الدخول فى النظام الإقطاعى الفرنجي وسيلة لتحسين وضعهم وربما يساعد على تفسير السبب فى أن البيزنطيين فى المناطق المحتلة نادراً ما تمردوا على السادة الغربيين.

كانت ممتلكات البنادقة تتضمن كريت وموبون وكورون نوب شبه جزيرة (المورة) البلوبونيز، والشاطئ الأوربى لبحر مرمرة. وكانت كريت أهم هذه الممتلكات بسبب موقعها عند نقطة التحكم فى طرق التجارة بين مصر، وبلاد الشام والقسطنطينية. وكان اصطدام البنادقة البيزنطيين أقل من اصطدام الغربيين الآخرين بهم لأنهم كانوا يحتفظون بإدارة مركزية، وامتيازات إمبراطورية، مثل الرسوم المالية، كانت باقية تحت سلطة واحدة وليست موزعة على الأفراد كما كان يحدث فى المناطق الأخرى فى الأراضى البيزنطية التى حكمها الفرنج. وتم انتخاب حاكم بلقب بودستا Podestá لكى يحكم، بيد أن سلطاته كانت محدودة بالتوجيهات الصادرة من البندقية.

ومثلما كان الحال فى الأماكن الأخرى بالشرق لم يحاول الفرنج فرض المذهب الكاثوليكى على رعاياهم الجدد. إذ كان حجم السكان الأرثوذكس سيجعل مثل هذه السياسة أمراً غير عملى على أية حال. وقد انتخب الفرنج واحداً من اللاتين، بطريركاً

للقسطنطينية وجعلوا مكان الأساقفة الأرثوذكس أساقفة من الكاثوليك. وكان رجال الكنيسة الكاثوليك يميلون إلى أن يعيشوا فى المناطق الحضرية، وبالنسبة للعدد القليل من الغربيين الذين عاشوا فى النواحى الريفية- غالبًا فى أبراج مُحصَّنة لأسباب تتعلق بالأمن- كان من الصعب أن يجدوا قسيسًا عارفًا بالمذهب الكاثوليكى. ونتيجة لذلك ربما كان المستوطنون المنعزلون يستخدمون القساوسة البيزنطيين المحليين لإنجاز الخدمات الكنسية لهم وقد أدى هذا إلى درجة من الاصطباغ بالصبغة اليونانية. وعلى أية حال، فإنه من الناحية الثقافية بقى الفرنج منفصلين عن رعاياهم وفى كريت التى يحكمها البنادقة كان الزواج المختلط محرمًا من الناحية النظرية على الأقل.

وقد شجعت خصوبة شبه جزيرة المورة وجزيرة كريت على التوسع الاقتصادى. وقد نما الطلب على تصدير المنتجات ذات الكميات الكثيرة مثل القمح، وزيت الزيتون والصوف والنبيذ وكذلك سلع الرفاهية مثل الحرير، وصار الفرنج أثرياء. ولم يكونوا آمنين بأية، حال. وقد عمل الإمبراطور هنرى الأول (١٢٠٦-١٢١٦م) على تدعيم قبضتهم على تراقيا ولكن فى غضون عقد من الزمان كان البيزنطيون ، الذين يحكمهم إمبراطور فى المنفى بنيقية، قد استعادوا تقريبًا كل الأراضى التى كانوا قد خسروها فى آسيا الصغرى. وقد حال التهديد بحدوث غزو مغولى مؤقتًا دون أن يتم النيقيون عملهم، ولكن فى يوليو سنة ١٢٦١م استرد الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن القسطنطينية للبيزنطيين. وكانت المستوطنات الفرنجية الأخرى أفضل حظًا. إذ كانت آخايا Achaea أكثرها سحرًا، وصار بلاطها تحت حكم أمراء ڤيلهاردوان من أرقى أماكن تجلى القيم الفروسية فى العالم المسيحى. وكان البلاط الأميرى فى أندرافيذا Andravidha يعتبر المدرسة التى يتخرج منها زهرة الفروسية الفرنجية، وهى رؤية عكست العلاقات الثقافية الوثيقة بين المستوطنين ووطنهم الأم. وثمة كاتب فى فترة لاحقة لاحظ أن الفرنسية التى يتحدثون بها فى آخايا كانت بمثل جودة اللغة الفرنسية فى باريس. وقد أظهر الأمير چيوفرى الثانى (١٢٢٩-١٢٤٦م) طراز أهل آخايا عندما ركب عبر شبه جزيرة البلوبونيز مصحوبًا بثمانين فارسًا بالمهاميز الذهبية. وقد أتاحت

فترة من السلام للنبلاء أن يسلوا أنفسهم بالمبارزات والصيد؛ وكانت رسومات الفريسكو الراقية تزين جدران قصورهم، ولم يبق من هذه الثقافة اليوم سوى القليل.

فى سنة ١٢٥٩م، على أية حال، تم أسر خليفة چيوفرى المتوهج، الأمير وليام الثالث (١٢٤٦-١٢٧٨م) على أيدى حكام نيقية فى معركة بيلاجونيا وقبل فك أسره أُجبر على أن يقسم يمين الولاء لأعدائه. وقيِّض لآخايا أن تبقى ولكنها لم تستطع أن تتصرف بشكل مستقل بعد ذلك.

الفرنج فى فلسطين وبلاد الشام، ١١٨٧-١٢٩١م :

فى يوليو سنة ١١٩١م، وبعد الاستيلاء على قبرص، حقق ريتشارد الأول ملك إنجلترا وفيليب الثانى ملك فرنسا نجاحًا ملحوظًا بمساعدة المستوطنين على إعادة الاستيلاء على ميناء عكا. ومع نهاية الحملة الصليبية الثالثة كان الصليبيون قد أمنوا الساحل من صور إلى يافا وسمحت هدنة عقدوها مع صلاح الدين للحجاج بأن يسافروا فى حرية إلى بيت المقدس، حتى ولو لم يتحقق هدف إعادة الاستيلاء على المدينة المقدسة. وقد أتاحت وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣م للصليبيين فرصة لتقوية أنفسهم. وقد تميزت العقود الباكرة من القرن الثالث عشر بالنمو الاقتصادى فى الدويلات الفرنجية، وسلسلة من أزمات ولاية العرش، وعدد من الحملات الصليبية ضد مصر، التى ساد الاعتقاد بأن غزوها هو الطريق الأفضل لإعادة احتلال بيت المقدس.

وكان بقاء مملكة بيت المقدس اقتصاديًا يعتمد على السيطرة الصليبية على عكا. فقد كانت الإسكندرية على مدى معظم القرن الثانى عشر المركز التجارى السائد فى شرق المتوسط، ولكن قرب ثمانينيات القرن الثانى عشر بدأت طرق التجارة الآسيوية تركز على عكا باعتبارها المنفذ الرئيسى لبضائعها. وقد كتب المؤرخ الإنجليزى متى الباريسى أن العوائد الملكية من عكا كانت تساوى خمسين ألف جنيه من الفضة سنويًا حوالى سنة ١٢٤٠م؛ وكان هذا أكثر من دخل ملك إنجلترا فى ذلك الوقت. وحتى لو

ساورنا الشك فى دقة أرقام الدخل فى عكا، فمن المؤكد أن مملكة بيت المقدس كانت غنية. وزادت الجماعات التجارية الإيطالية من اندماجها. وأرسلت بيزا وجنوة والبندقية موظفين دائمين إلى شرق المتوسط. واستفاد التجار من الحجم الزائد فى التجارة كما ضمن الملك مزيداً من الدخل عن طريق الضرائب، ولكن سرعان ما أصبحت الجماعات التجارية من القوة بدرجة جعلتها تمارس نفوذاً مزعجًا على الحياة السياسية : ففى سنة ١٢٥٦م أدت المنافسة التجارية بين الجنوية والبنادقة إلى حرب سان ساباس فى عكا، وهو صراع مدمر اجتذب أيضًا النبلاء الفرنج والنظم الرهبانية العسكرية. وفى الوقت نفسه كان الأمان النسبى على الساحل يعنى ارتفاعًا كبيراً فى عدد السكان بصور وعكا. وانتعشت الجماعات اليهودية فى المناطق الحضرية، إذ اجتذبتهم الفرص الاقتصادية هناك من ناحية، وذابوا فى المهاجرين الذين قرروا الاستيطان فى الأرض المقدسة من ناحية أخرى. وقد ضمت عكا، بصفة خاصة جماعة من المثقفين اليهود.

كان من المفروض أن ينضم الإمبراطور فردريك الثانى إلى الحملة الصليبية الخامسة بعد أن أخذ شارة الصليب فيها، ولكن المشكلات السياسية فى الغرب حالت بينه وبين الرحيل. وعلى أية حال صار فى سنة ١٢٢٥م متورطًا بقوة فى شئون بيت المقدس عندما تزوج إيزابيلا الثانية، وريثة عرش مملكة بيت المقدس. وكانت لتاج القدس هيبة كبيرة وكان قصد فردريك أن يعزز مكانته باعتباره الإمبراطور الرومانى المقدس بانغماسه فى الأرض المقدسة. وبحلول سنة ١٢٢٧م كان قد جمع جيشًا كبيراً للقيام بحملة صليبية ولكن عندما سقط مريضًا، وأجّل رحيله مرة أخرى، أصدر البابا جريجورى التاسع ضده قرار الحرمان الكنسى. وأخيراً خرج الإمبراطور منطلقًا صوب الشرق فى يونيو ١٢٢٨م. وقد عرضنا لأعماله فى قبرص فى السطور السابقة. وقد واجه مزيداً من المصاعب فى بلاد الشام وفلسطين. وماتت إيزابيلا الثانية أثناء ولادتها وزعم أن من حقه الوصاية على ابنه القاصر، كونراد، وبات وصيًا عليه وهو فى الغرب. وكان مصممًا على استعادة سلطة العرش، التى كانت قد تدهورت منذ عهد بلدوين الرابع، بيد أن كبار النبلاء، الذين لم يكونوا راغبين فى التخلى عن سيادتهم، عقدوا العزم على مقاومته. وكان أحد أهم أسلحتهم فى هذا الصراع يتمثل فى مهارتهم فى

الشئون القانونية. وكان هناك تطور مثير هو ظهور مدرسة من المشرعين والقضاة يرتبطون ارتباطا وثيقا بالعائلات الأرستقراطية التى كان بعضهم من أبنائها. وكان أصل هذا يرجع إلى خصوصية الخدمة الإقطاعية فى الشرق اللاتينى، وهى التزام التابع الإقطاعى بتقديم المساعدة والمشورة Conseil بالمثول فى المحكمة أثناء نظر إحدى القضايا إذا ما طُلب منه ذلك. وقد تعززت هيبة التابعين الإقطاعيين الذين كانوا يتمتعون بالمهارة فى هذا السبيل بفضل الحقيقة القائلة بأنه عندما سقطت بيت المقدس ضاعت قوانين المملكة، التى كانت قد كُتبت وحفظت فى خزانة بكنيسة الضريح المقدس. ولم تكن هناك أية مصادر مكتوبة للقانون وبالتالى كانت الذاكرة والعادة هى التى تُملى الأحكام فى العقود الباكرة من القرن الثالث عشر، فى تناقض مباشر مع التطورات التى جرت فى أوربا حيث كان هناك اعتماد متزايد على السجلات المكتوبة بدلاً من الذاكرة. وهناك ظهرت مجموعة من رجال القانون المشهورين، ذوى مهارة فى المرافعة العامة وكانوا يعتمدون، فى البداية على الأقل، على ما تحمله ذاكرتهم عن الإجراءات فى الماضى. وبينما ازدهرت دراسة القانون، تمت كتابة عدد من الكتب القانونية المهمة، وعلى رأسها «كتاب حنا إبلين Livre de Jean d'belin (حوالى سنة ١٢٦٥م)، الذى كتبه ذلك الكونت من يافا الذى رأيناه يصل إلى مصر بمثل هذه الأبهة. وينبغى أن نقلق من أن يربكنا شعور القضاة بأهميتهم على الرغم من أن أحداً لاينكر أنهم لعبوا دوراً بارزاً فى تقرير من يحكم مملكة بيت المقدس فى وقت غيبة الملك أو وجود قاصر على العرش. وقد استغل النبلاء التعليم القانونى الذى حازه بعضهم عندما واجههم فردريك. فقد رفضوا مصادرته لضياع إبلين حول عكا وعارضوا محاولاته لجعل مكانة الفرسان التيوتون تسبق حق الوراثة لسادة تورون. وقد تحول قانون assis sur la ligece الذى كان قد وضع فى القرن الثانى عشر بيد الملك أماليك لتقوية التاج، تحت ظروف جد مختلفة آنذاك، إلى ميزة للنبلاء. وبما أن القانون كان قد قرر أن السيد الإقطاعى لايمكنه أن يقوم بعمل ضد تابع إقطاعى دونما قرار رسمى من



وصول حنا بريين إلى عكا فى سبتمبر ١٢١٠م. وقد سافر حنا إلى شرق المتوسط لكى يتزوج ماريا وريثة عرش بيت المقدس. وكان حنا أكبر سنًا من معظم الغربيين الذين تمت دعوتهم للزواج من وارثات مهمات فى الشرق ولكنه بدأ حياة لافتة باعتباره وصيًا وحاكما فى شرق المتوسط وأنهى أيامه إمبراطورًا على القسطنطينية (١٢٢٨-١٢٣٧م). رسم من ذيل تاريخ وليم الصورى.

محكمته أصرّ النبلاء على أن هذا ينطبق على الملك بقدر ما ينطبق على أى سيد آخر؛ وإذا لم تكن العدالة فى متناولهم أصروا على أنه سيكون من حقهم استخدام القوة لإعادة احتلال أية ضياع مصادرة ويمكنهم أن يسحبوا خدماتهم، وهو ما يعنى من الناحية النظرية ترك الملك بلا قوة. وتمت استعادة ضياع إبلين بالقوة أما فى قضية الفرسان التيوتون فإن احتمال فقدان الخدمة العسكرية أرغم فردريك على التراجع. وعلى أية حال فإن حصاد هذه الفترة كان انعكاسًا لضعف الإمبراطور بقدر ما كان مؤشرًا على قوة النبلاء.

وكان حظ فردريك أوفر كثيراً فى تعامله مع المسلمين. إذ إن غزو الحملة الصليبية الخامسة لمصر كان قد أقلق حكامها الأيوبيين ولأن السلطان الكامل كان يخشى عواقب حملة فردريك، ولأنه كان ضعيفاً داخل حكم الأيوبيين فى مصر والشام، فإنه وافق على التنازل عن السيطرة على بيت المقدس فى فبراير سنة ١٢٢٩م، على الرغم من أن المسلمين احتفظوا بمنطقة المسجد الأقصى ولم يسمحوا بتحصين المدينة. وتم الاتفاق على هدنة مدتها عشر سنوات ووعد فردريك بحماية مصالح السلطان ضد أعدائه جميعًا، سواء كانوا من المسلمين أو المسيحيين. وأجرى فردريك احتفالاً بلبس التاج الإمبراطورى فى الضريح المقدس حتى مع أن وضعه بصفته محروماً من الكنيسة نتج عنه أن المدينة وضعت تحت وطأة التحريم الكنسى من جانب بطريرك بيت المقدس. وقد غادر الشرق فى يونيو سنة ١٢٢٩م، وقد رجمه السكان المحليون بالنفايات وهو فى طريقه إلى ميناء عكا.

ولم يكن رحيل فردريك يعنى نهاية التورط الإمبراطورى فى الشرق اللاتينى؛ فعندما حاول مساعده ريتشارد فيلانجيرى، سنة ١٢٣١م، السيطرة على بيروت، عمل النبلاء على إحباطه على أساس أنهم أقسموا يمين المؤاخاة مع عكا. ومع هذا، استعاد ريتشارد السيطرة على صور وانقسمت المملكة بين الإمبراطوريين وخصومهم، الذين كان يقودهم آل إبلين. وقد استولى ريتشارد على عوائد البنادقة فى صور، وهو ما شجع التجار على الانضمام لصفوف أعدائه. وكان الجنوية معادين بالفعل للإمبراطوريين وعرض ممثلون للجماعتين الإيطاليتين أن يخونوا صور لحساب فريق إبلين. وفى صيف سنة ١٢٤٢م اتحدت هذه القوات لطرد أنصار الإمبراطور من المدينة. وكان هذا يتطلب تبريراً قانونيًا، وقد أنتج القاضى المشرع فيليب النوفاراى (ت ١٢٦٥) والذى كان عميلاً لآل إبلين وهو مصدرنا الرئيسى للمعلومات فى هذه الفترة، مجادلة خيالية لكى يبرر نهاية وصاية فردريك. فقد قال إنه ما إن يصل كونراد السن القانونية- وهو ما لم يحدث حتى أبريل سنة ١٢٤٣م- فإن وصاية والده تصل إلى منتهاها. وبما أن كونراد لم يحضر إلى الشرق ليطالب بالعرش، فإن الحاجة لا تزال قائمة إلى وصى، وتم تعيين أقرب أقاربه فى فلسطين، آليس ملكة قبرص، لتحل محل فردريك. وسرعان ما خسر أنصار الإمبراطور ما بقى لهم من نفوذ ضئيل فى الشرق.

لم تكن مملكة بيت المقدس المستوطنة الوحيدة التى تأثرت بالهبات السياسية. ففى سنة ١٢٠١م بدأ أصحاب المزاعم حول عرش أنطاكيا من أرمينيا وطرابلس منازعاتهم حول عرش أنطاكية وأعقبت ذلك سنوات عديدة من الصراع قبل أن ينتصر بوهيموند الرابع (١٢١٩-١٢٣٣م). وقد حكم كلاً من أنطاكية وطرابلس على الرغم من أن النظام القانونى والإدارى فى كل من المستوطنتين ظل مختلفًا عن الآخر. واختار الأمير الإقامة فى طرابلس وفى غيابه تأثرت أنطاكية بشدة بالجماعة البيزنطية الكبيرة داخلها. لقد كانت الشئون السياسية فى شمال بلاد الشام قد تعقدت أكثر بفعل تأثير النظم الرهبانية العسكرية التى كانت تتخذ لنفسها قواعد فى القلاع القوية- مرقط وبغراس وطرطوس، والكرك دى شيڤالييه، وشاستل بلانك- وكانت تشكل قوات شبه مستقلة فى الإقليم كما سنرى.

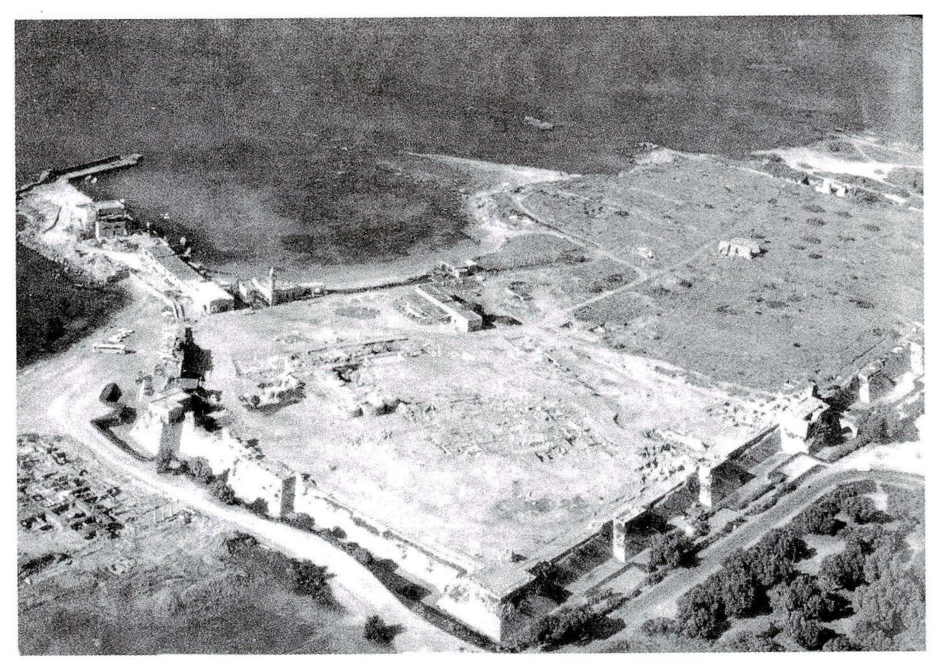
انتهت فترة الازدهار النسبى فى أربعينيات القرن الثالث عشر. إذ انتهك المستوطنون هدنة مع سلطان مصر واكتشفوا أنهم قد أهاجوا عش الدبابير عندما تحالف المسلمون مع الخوارزمية، وهم شعب طرد من وطنه مجبرًا على حياة البداوة بسبب المغول. واسترد المسلمون القدس فى أغسطس ١٢٤٤م وبعد ذلك بشهرين تم سحق القوات الصليبية فى معركة غزة La Farbi التى قُتل فيها ما يزيد على ألف فارس، وقد أدت دعوات كثيرة للمساعدة إلى قيام الحملة الصليبية الأولى للملك لويس التاسع ملك فرنسا. وبعد الكارثة التى أطبقت على الحملة فى مصر، بقى الملك الفرنسى فى فلسطين ونظم إعادة تحصين دفاعات عكا وصيدا ويافا وقيصرية، بثمن باهظ.

وقد أدى غزو لويس لمصر، كما سنرى، إلى حلول الحكم المملوكى محل الأسرة الأيوبية وفى الوقت نفسه تقريبا ظهرت الجيوش المغولية فى المشهد. ففى سنة ١٢٥٨م نهب المغول بغداد وبعد سنتين هاجموا حلب. وصار بوهيموند الرابع حاكم أنطاكية وطرابلس (١٢٥٢-١٢٧٥م) حليفًا لهم، ولكن زعماء بيت المقدس، المحشورين بين المغول والمسلمين، سمحوا للمصريين بالمرور عبر أراضيهم قبل انتصارهم على المغول فى معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م وصارت زعامة المماليك بيد السلطان بيبرس القوى الذى لم يلبث أن فرض سلطته على بلاد الشام.



ييلان كالى (قلعة الأفاعى) قلعة ضخمة من القرن الثالث عشر تقف عالية فوق نهر بيراموس وتطل على سهل أضنة. وكانت القلعة حصناً رئيسياً للحكام الأرمن الذين كانوا يسيطرون على هذا الإقليم، وربما يعود البناء الباقى إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر.

وقد فرضت حاجة المستوطنين للقوة البشرية شكل استجابتهم العسكرية. وكانت الاستراتيچية القائمة على الاحتفاظ بالنقاط القوية المعزولة، وغالبًا ما كانت تحت سيطرة نظم الرهبنة العسكرية، العنصر الأساسى فى الدفاع عن المناطق الفرنجية. إذ لم يكن لدى الصليبيين ما يكفى من القوات لتشكيل جيش ميدانى وتوفير الحاميات الكافية لمواقعهم الحصينة أيضًا، على الرغم من تجديد لويس التاسع الذى تمثل فى تأسيس فرقة عسكرية فرنسية دائمة فى الشرق وهو ما كان تطوراً إيجابيا. وكانت هذه القوة، التى كان جزء كبير من تمويلها يأتى من الملكية الفرنسية، تتألف من حوالى مائة فارس، ومعهم رماة السهام ومعهم



قيصرية من الجنوب الشرقى. استولى الصليبيون على المدينة سنة ١١٠١م ولكن الأسوار الباقية يرجع تاريخ أكثرها إلى العمل الذى أمر به ملك فرنسا لويس التاسع أثناء إقامته هناك فيما بين مارس ١٢٥١م ومايو ١٢٥٢م. ويمكن رؤية بقايا الميناء بوضوح. وعلى حاجز الأمواج الجنوبى تقف قلعة بنيت فى القرن الثالث عشر، وكانت أصلاً منفصلة عن الأرض الرئيسية بخندق ملئ بالماء.



أوائل القرن الرابع عشر. صورة فى مخطوط من تكملة مؤرخة وليم الصورى تبين المسلمين يهاجمون عكا فى أبريل – مايو ١٢٩١م، حفر المهندسون أسفل الأبراج على حين أمطر رماة السهام المدافعين بالمتفجرات والمواد الحارقة. وبعد معركة رهيبة سقطت المدينة فى النهاية بيد السلطان الأشرف خليل بن قلاون فى ١٨ مايو.

مساعدون من المشاة والخيَّالة. وعلى غير شاكلة النظم الرهبانية العسكرية لم تكن هذه القوة الفرنسية مقيدة بالدفاع عن مواقع مفردة ومن ثم كان يمكن استخدامها بطريقة أكثر مرونة. وصار من المعتاد أن يتولى قائدها مكان وكيل مملكة بيت المقدس (أى المندوب الملكى فى المحكمة العليا ومدير القلاع الملكية) وهو ما يوضح مكانة الفرقة الفرنسية فى الشرق. ومع هذا، فإن الفرقة الفرنسية كانت حالة من حالات «أقل مما يجب بعد فوات الأوان». إذ كان الفعل الهجومى الفرنجى محدوداً فى حدود الإغارة عادة، لأن الفرنج بمواردهم المحدودة لم يكونوا قادرين على تحقيق مكاسب إقليمية

دائمة، كما كانوا يتجنبون المعارك الالتحامية عامة. لقد كانت أعداد الصليبيين المتدنية فى الشرق تجعل من غير الممكن التنبؤ بنتائج المعارك، وهو ما كان يحمل لهم من المخاطر قدراً أكبر مما يحمله لأعدائهم.

وقد استغل بيبرس بقيادته الباهرة واستراتيجيته الواعية مشكلات الفرنج العسكرية، وأخذ يقلص بصورة منهجية من مساحة المنطقة الواقعة تحت سيطرتهم. وإذ التزم المستوطنون بشكل سلبى من أشكال الدفاع فإنهم لم يتمكنوا سوى من مشاهدة أراضيهم وهى تتعرض للتدمير والخراب. بل إن قلاعهم التى كانت مركبة فى دفاعاتها بشكل متزايد، مثل مرقط والكرك دى شيڤالييه لم تستطع أن تقاوم قوات العدو الغازية الضخمة. فمن وقت لآخر، كانت تسقط مدينة أو قلعة وتتقلص المساحة التى يسيطر عليها الصليبيون أكثر فأكثر. وبدأ الاقتصاد الفرنجى يتدهور أيضاً. إذ كان الغزو المغولى للعراق وشمال الشام قد قطع طرق التجارة وحل البحر الأسود محل شرق المتوسط باعتباره نقطة النهاية لكثير من التجارة الشرقية. وعانت كل قطاعات المجتمع من القصور المالى. ووجد هيو الثالث ملك قبرص أن مملكة بيت المقدس لايمكن حكمها فى مواجهة مزاعم شارل آنجو الذى كان قد اشترى التاج من أحد من يدعون الحق فى العرش، وقرر أن يركز اهتمامه على قبرص. وفى سنة ١٢٨٧م استعاد خليفته، الملك هنرى الثانى، عكا وتم تتويجه وسط مهرجان كبير تحيط به مظاهر الأبهة؛ بيد أن المماليك كانوا يحكمون الشبكة على المستوطنات الباقية. وفى سنة ١٢٨٧م سقطت طرابلس وفى ٥ أبريل بدأ الهجوم النهائى على عكا. وقام جيش ضخم بشق طريقه عبر أسوار المدينة. وهرب الملك ونبلاؤه إلى قبرص ولكن العديد من المدافعين عن المدينة هلكوا. وفى ٢٨ مايو تم سحق المقاومة الأخيرة وفى غضون ثلاثة أشهر كانت قبضة الصليبيين على الأرض قد انتهت. ولم يعد اللاتين فى شرق المتوسط يحكمون أياً من الأراضى التى كانت ملكاً للمسلمين على الدوام ؛ ومن المثير للسخرية أن الحركة التى عبرت عن نفسها أصلاً من خلال الاستعمار الدينى أخذت حينذاك تستغل الأراضى التى كانت دائماً بحوزة المسيحيين.

(٧)

الفن فى الشرق اللاتينى
١٠٩٨- ١٢٩١م

چاروسلاڤ فولدا

عندما استولت جيوش الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م، نجحت بشكل مدهش فى إنجاز الكثير من الأهداف الرئيسية التى عرضها البابا أوربان الثانى فى خطبته الشهيرة بكليرمون. فقد كان أوربان قد وصف اضطهاد الكنائس المسيحية فى الشرق بصورة حية، مبينًا كيف أن المسلمين(*) قد شوهوا أو دمروا الآثار المسيحية. ودعا حملة السلاح إلى الذهاب لمساعدة إخوتهم فى الأرض المقدسة وتحرير الأماكن المسيحية المقدسة من الوثنيين.

كانت التقاليد الفنية التى جلبها المشاركون فى الحملة الصليبية الأولى معهم من أوربا متنوعة ومستمدة من اللورين، ووادى ميوزيه، ونورماندى، وجزيرة فرنسا Ile de France وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا أواخر القرن الحادى عشر. كذلك حمل الصليبيون أشياء فنية معينة يمكن حملها معهم؛ وهى أشياء أساسية لرحلة طويلة مثل كتب الصلوات وأوانى الطقوس (كئوس القرابين، والمذابح المحمولة، وأوعية حفظ الذخائر الدينية... الخ) ؛ كذلك كانت هناك الرايات المرسومة، والأسلحة والدروع، والعملات بطبيعة الحال، وهى عملات شائعة من ڤالينس ولوا وغيرهما من الأماكن.

(*) استخدم المؤلف كلمة «الكفار» (المترجم)

والحقيقة اللافتة للنظر هى أنه، عندما وصل هؤلاء الصليبيون الأوربيون إلى الأرض المقدسة، فإن الفن الذى تولوا رعايته هناك تغير بشكل سريع ودرامى عن الفن الذى ارتبط بمواطنهم الأصلية. وقد تنوعت التغيرات تبعًا للبيئة والمشروع، وكان من الواضح أن سببها هو السياق الجديد والبيئة الجديدة والوظائف الخاصة التى تم اللجوء إلى الفن لخدمتها. كذلك كانت هناك بيئة غنية متعددة الثقافات اجتماعية- دينية وفنية مختلفة، وتجمع للفنانين ورعاتهم من أصحاب الخلفيات المختلفة المتنوعة؛ كما كانت هناك وسائل جديدة مثل رسم الأيقونات يجب التعامل معها؛ ومواد جديدة مثل الحجارة المحلية؛ والتقاليد الفنية للمسيحيين المحليين وهم البيزنطيون والسريان والأرمن وكذلك الآثار الإسلامية التى كان عليهم أن يتعلموا منها. وفى بعض الأحيان يُسمى فن الفرنج الجديد «الفن الصليبى».

وقد استغرق الأمر عدة سنوات من المستوطنين لتدعيم غزواتهم الناجحة سنة ١٠٩٩م وكانت هناك حاجة للتحصينات وبناء الكنائس فى كل مكان، ولكن القليل جداً من أعمال الفن التصويرى ومعظم ما لدينا من العملات بقى من المستوطنات الشمالية الثلاث فى الرها وأنطاكية وطرابلس : فالتصميم المتأثر كثيراً بالتصميمات البيزنطية جاء من أنطاكية والرها، ولكن التصميمات ذات الجذور الفرنسية القوية (خاصة التولوزية) كانت فى طرابلس. ويمكن أن نراقب النشاط الفنى الفرنجى على نحو أكثر فى مملكة بيت المقدس اللاتينية التى كانت تمتد من بيروت إلى العقبة.

مع الاستيلاء على بيت لحم والقدس والناصرة فى سنة ١٠٩٩م، أعاد الصليبيون فرض السيطرة المسيحية على المواقع الرئيسية المقدسة فى العالم المسيحى- مكان ميلاد المسيح، وموقع الصلب، والضريح المقدس، ومكان التجسد- ووضعوا الأجندة لبعض من أهم الأعمال الفنية التى رعاها الفرنج فى القرن الثانى عشر. وقد قدَّم اثنان من هذه المواقع أيضا أدواراً سياسية مهمة. إذ إن كنيسة الميلاد فى بيت لحم لعبت دور كنيسة التتويج للملوك اللاتين فى الربع الأول من القرن الثانى عشر. أما كنيسة الضريح المقدس فكانت مكان دفن الملوك اللاتين من سنة ١١٠٠م حتى سنة ١١٨٧م كما صارت كنيسة التتويج من سنة ١١٣١م حتى سنة ١١٨٧م.

وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا أهمية الضريح المقدس، فلا غرو أن الاهتمام الفنى قد تركز على هذا الموقع المركب منذ البداية. ففى سنة ١١٠٠م عندما مات جودفرى البويونى، وضعت مقبرته عند مدخل كنيسة آدم أسفل مكان الصلب، وكانت هذه سابقة لكل الملوك الذين خلفوه قبل سنة ١١٨٧م. وفى سنة ١١١٤م، وفى أعقاب القرار الشهير بوضع الرهبان الأوغسطينية فى الضريح المقدس، تم بناء مقر إقامة محاط برواق كبير لهم إلى الشرق من الفناء ذى الأقواس لكنيسة الضريح المقدس البيزنطية التى أعيد بناؤها فى أربعينيات القرن الثانى عشر، والمعروفة باسم triporticus.

وفى الوقت نفسه تقريبًا كان الاهتمام مركزًا على مظلة الضريح المقدس، وهى مبنى صغير يظلل المقبرة التى تقع داخل مبنى آنستاسيس المستدير ذى القبة. وقد ذكر الحاج الروسى دانييل شرنيجوف، الذى زار الأرض المقدسة فى السنوات من ١١٠٦ إلى ١١٠٨م، تمثالاً بالحجم الطبيعى من الفضة للمسيح كان على قمة المظلة حيث وضعه الفرنج. وشهادة دانييل هى مصدرنا الوحيد عما كان بالضرورة أول جهد لاتينى لتجميل الضريح. وعلى أية حال، تمت إعادة زخرفة المظلة بالكامل سنة ١١١٩م بالرخام المنحوت والموزايكو. والرسم الشهير الذى رسمه برنهارد ڤون بريدينباخ، والذى انتشر فى القرن الخامس عشر على شكل قطعة خشبية، وصورة چان ڤان سكوريل المرسومة من عشرينيات القرن السادس عشر يعطيانا فكرة ما عن المظلة، بيد أنهما لايسجلان، لسوء الحظ، تفاصيل برنامج إعادة الزخرفة الذى تم برعاية الفرنج، والتى لانعرفها سوى من تقارير الحجاج اللاحقين. ومما يلفت النظر أن كل الأعمال الباكرة فى كنيسة الضريح المقدس كشف عن ملامح فن يضرب بجذوره فى التراث الأوربى الغربى.

وبينما كان النشاط الفنى يجرى فى القدس تحت رعاية الملك والبطريرك، كان واضحًا أن الحجاج لبيت لحم هم الذين التزموا بتقديم الأيقونات الإيمانية إلى كنيسة الميلاد. ففى الجناح الجنوبى من الكنيسة تم رسم أيقونة للعذراء والطفل Glykophilou-sa على العمود الخامس مباشرة، ويمكن قراءة التاريخ ١١٣٠م إلى جانب الصلوات

والعلامات من بين نقوشها، مما يميز هذا العمل باعتباره أول أثر «صليبى» موجود للرسم يحمل تاريخًا. وهنا ثمة فنان غربى تدرب على أيدى البيزنطيين يمزج الطراز اليوناني للسيدة الجالسة على العرش بالحساسيات الإيطالية تجاه العلاقة الإنسانية بين مريم وابنها، وعلاوة على ذلك، هناك كهف يُشار إليه على أنه خلفية هذا العمل، وهو ما يمكن أن يشير هنا فى بيت لحم إلى الغار الذى شهد ولادة المسيح تحت نقطة تقاطع مبنى الكنيسة. وهكذا، للمرة الأولى، يمكن رؤية فن الأيقونات المخصصة لموضع بعينه فى عمل لحاج رسمه فنان على دراية بالتقاليد البيزنطية والغربية، والمحلية.

ولوحة الفريسكو التى يرجع تاريخها إلى سنة ١١٣٠م مثال مهم على التحول الذى نراه فى الفن الصليبى مع الجيل الثانى من المستوطنين. وكان فوشيه الشارترى قد علق على التحول فى الرؤية فى فقرة شهيرة كتبها فى الوقت الذى استولى فيه الصليبيون تقريبًا على صور سنة ١١٢٤م : «لأننا نحن الذين كنا غربيين قد صرنا الآن شرقيين فذلك الذى كان رومانيًا أو فرنجيًا قد صار فى هذه الأرض من أهل الجليل أو فلسطينيًا. ومن كان من ريمس أو شارتر صار الآن مواطنًا فى صور أو أنطاكية، لقد نسينا بالفعل الأماكن التى ولدنا بها؛ فهذه الأماكن غير معلومة فعلاً لكثير منا أو لم يعد أحد يذكرها».



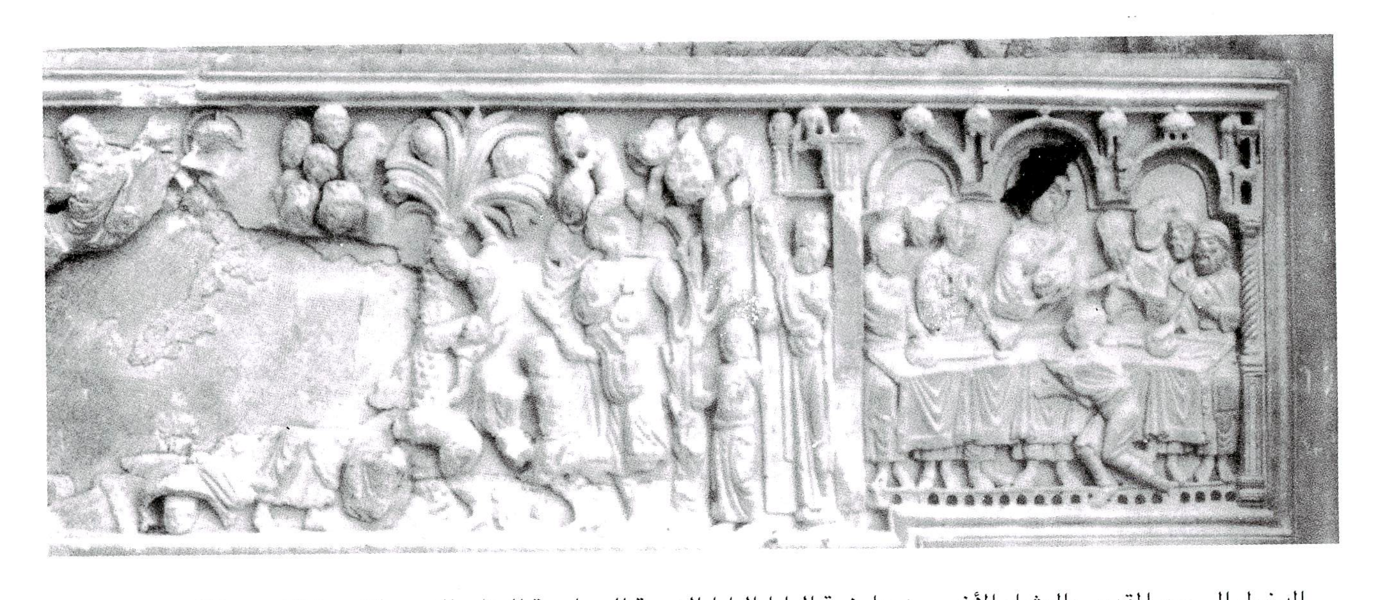
أيقـونـة الـعـذراء والطفل Glykaphilausa، تاريـخـهـا ١١٣٠م على عمود بالجناح الجنوبى من كنيسة الميلاد، ببيت لحم. هذا العمل، وهو أول عمل معروف من أعمال الرسم الأثرية «الصليبية»، تم تنفيذه على يد فنان من أصول إيطالية يعـمل وفق الأسلوب البيزنطى. وهناك ثلاثة شـخـوص راكعـة مرسـومـة أسـفل الصـورة ذات الإطار ربما يكونون من الحجاج هم الذين تكفلوا بعمل الأيقـونة وعـمـدوا إلى أن تكون الشـخـوص الجـالسـة مـرسـومـة فى كـهف، هو غـار الميـلاد الذى يقع على مسافة أمتار قليلة فقط.

وكان الرعاة الذين حفزوا هذا التحول فى الفن بعد سنة ١١٣١م هم بطاركة بيت المقدس، والملك فولك، والملكة ميليسند بشكل خاص، وهما أول الحكام الذين تم تتويجهم بكنيسة الضريح المقدس. إذ كان فولك بانياً عظيماً للقلاع، وكانت جيوشه تحمل شارة المملكة، وهو صندوق الذخائر الذى يضم الصليب الحقيقى، فى كل حملاتها الرئيسية.

وقد صارت الذخائر المقدسة من الأهمية لدرجة أن مركزا مهمًا لصياغة الذهب قد نما فى بيت المقدس إلى جنوب الضريح المقدس لإنتاج صندوق الذخائر ذى الصليب المميز بذراعين لرعاة الحجاج وحُماتهم. وربما كان صندوق ذخائر الصليب الحقيقى الموجود فى بارليتا الآن قد تم صنعه ببيت المقدس حوالى سنة ١١٣٨م.

وعلى أية حال، كان أهم عمل أمر به الملك فولك، هو كتاب المزامير لميليسند ولم يبخل على هذا المخطوط بأية نفقات. وقد تعاون سبعة أشخاص على الأقل لإنتاج هذا المخطوط الفاخر فى أوائل سنة ١١٣٥م. وتضافر فريق من أربعة رسامين (يضم باسيليوس وهو صليبى تدرب على أيدى البيزنطيين وهو الفنان الذى وضع توقيعه على صورة دييسيس) مع خطاط من شمال فرنسا لكتابة التقويم والنص للمزامير باللاتينية، وحفار «صليبى» للعاج لغلاف الكتاب، ومزخرف «صليبى» لحرير كعب الكتاب الذى كان مزخرفًا بخيوط الفضة. وتعكس زخرفة الكتاب ذوق الصليبيين الذى يرى أن الطراز البيزنطى كان مرادفًا للطراز الأرستقراطى بالمصطلحات الفنية، كما أنه يعكس حساسيات ميليسند الدينية الأرثوذكسية. هذا المخطوط أهم عمل موجود من إنتاج خطاطى الضريح المقدس فى القرن الثانى عشر، وهو إلى جانب أيقونة بيت لحم سنة ١١٣٠م، يمثل مرحلة جديدة من الفن الصليبى اندمج فيها الشرق والغرب بصورة واضحة.

كانت الملكة ميليسند شخصية ذات أهمية خارقة للعادة فى المملكة اللاتينية منذ سنة ١١٣١م إلى سنة ١١٦١م؛ فقد كانت ابنة الملك بلدوين الثانى، وزوجة الملك فولك، وأمًا لاثنين من الملوك هما بلدوين الثالث وأماريك؛ ومثلما تمت الإشارة بالفعل فى الفصل ٦، كانت حجة قوية فى مجال السياسة والفن، على الأقل حتى سنة ١١٥٢م، عندما تولى بلدوين الثالث زمام السيطرة. وكانت ميليسند، بوصفها ابنة لأب فرنجى وأم أرمنية، تجسيدًا لمنظور شرقى جديد نراه فى فنون تلك الفترة المزدهرة. وكانت أربعينيات القرن الثانى عشر فترة لافتة للنظر بشكل خاص بسبب رعايتها للفن والفن الصليبى عامة.



الدخول إلى بيت المقدس والعشاء الأخير من عارضة البابا العليا الغربية إلى واجهة الجناح الغربى لكنيسة الضريح المقدس. وصور حياة المسيح على العارضة التاريخية يبدو أنها تشير إلى المواقع المقدسة التى ينبغى للحاج أن يزورها قبل أن يأتى إلى الكنيسة. وكان يتم الاحتفال بالدخول إلى بيت المقدس كل سنة عند البوابة الذهبية فى سور المدينة الشرقى، الذى كان يفتح خصيصًا لمسيرة أحد الشعانين (السعف) قبل أن يمضى القساوسة والحجاج إلى الاحتفال بالعشاء الأخير يوم الخميس المقدس (خميس الصعود) .

ويخبرنا وليم الصورى، المؤرخ الشهير فى الشرق اللاتينى، والذى كتب فى ثمانينيات القرن الثانى عشر، أن ميليسند أمرت ببناءِ دير سان لازاروس فى بيثانى فى مكان مقبرة لازاروس من أجل أختها الصغرى إڤيت. ولابد أنه كانت لميليسند يد فاعلة فى أعمال كبرى أخرى: وربما كان أحد مشروعاتها الباكرة إعادة بناء دير سانت آن عندما كانت إيڤيت تعيش هناك، أى قبل سنة ١١٤٤م. ففى سنة ١١٤١م تم تكريس قبة الصخرة لتكون كنيسة معبد الرب Templum Domini وربما تكون ميليسند قد ساعدت برعاية برنامج جديد تمامًا للزخرفة بالموازيكو إلى جانب أشغال الحديد الفاخرة فى حاجز القضبان الحديدية حول الصخرة بالداخل. وفى بواكير أربعينيات القرن العشرين، انتقل مقر الإقامة الملكى من معبد سليمان Templum Salomonis إلى الجانب الجنوبى من القلعة، وهو إجراء لابد أنها كانت مساهمة فيه بدرجة كبيرة.

كان أبرز مشروعات فترة أربعينيات القرن الثانى عشر، بطبيعة الحال، إعادة بناء كنيسة الضريح المقدس. ويقول المؤرخون عن الكنيسة كلامًا قليلاً بشكل يلفت النظر- كنيسة الحج، والكتدرائية البطريركية، وكنيسة الدولة فى المملكة اللاتينية- ولكن تم تكريسها فى ١٥ يوليو ١١٤٩م، أى بعد خمسين سنة من الغزو الصليبى لبيت المقدس، وبعد رجوع قادة الحملة الصليبية الثانية الفاشلة إلى أوربا بوقت قصير.

ومن الواضح أن خطة إعادة بناء الكنيسة البيزنطية كانت قد تطورت فى أوائل ثلاثينيات القرن الثانى عشر بعد أن انتقلت احتفالات التتويج من بيت لحم إلى بيت المقدس؛ وتم إنجاز العمل الرئيسى فى الأربعينيات من القرن نفسه. وكان البرنامج مؤثرًا ؛ وحسبما سنرى فى الفصل الثامن تمت إعادة تنظيم الأماكن المقدسة فى سياق مجمع معمارى موحد مركزه مظلة الضريح المقدس وتل الجمجمة (مكان الصلب)، وسجن المسيح. ولهذا الغرض تم تقديم خطة لكنيسة على طريق الحج الغربى للجوقة، والمشى المسقوف مع كنائس صغيرة خارجة منه لكى يُدمج مبنى القبة فى مبنى واحد ذى قبتين، وبرج للجرس، ومدخل رئيسى جنوبى جديد. وتم القيام ببرامج زخرفة رئيسية بتيجان أعمدة ذات تصاوير وبدون تصاوير فى الداخل والخارج. وكل الداخل

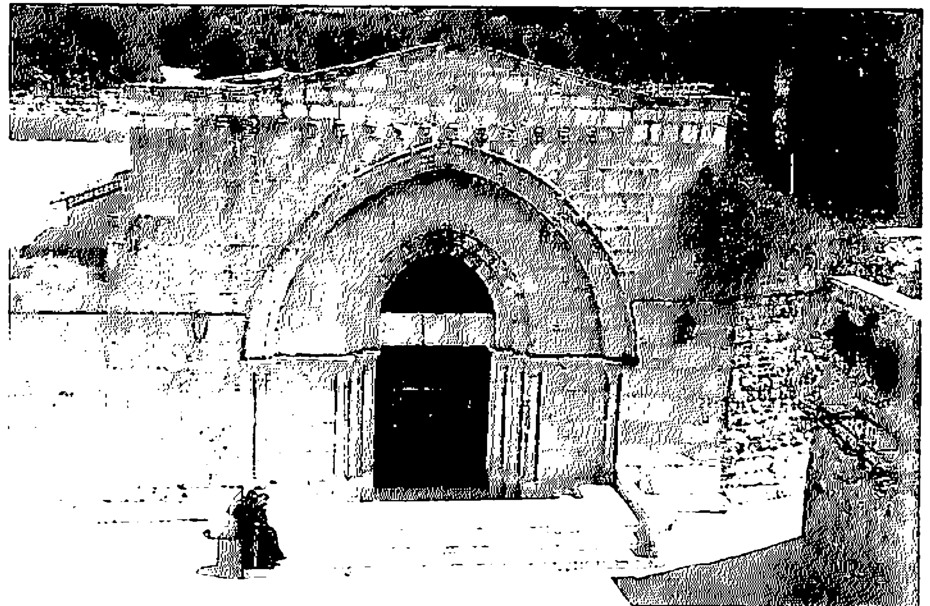
فى الكنيسة وقلايات مكان الصلب خضعت لبرنامج كبير من أعمال الموزايكو لم تبق منها سوى صورة واحدة للمسيح؛ أما موزايكو أناستاسيس فى الجزء الناتئ من الكنيسة شرقًا والمفقود الآن فينعكس على الأقل فى تصميم خاتم البطريرك أماليرك النسلى (١١٥٧-١١٨٠م). وكانت واجهة الجناح الجنوبى مزينة بتصاوير موزايكو لـ Noli me Tangere وعوارض الأبواب المنحوتة الأنيقة، التى كانت مأخوذة عن المصادر الإيطالية. وفوق الباب الشمالى، كانت هناك سلسلة من المشاهد التى توضح حياة المسيح حسب ارتباطها بالأماكن المقدسة الموجودة داخل القدس وحولها. وفوق الباب الأيمن توجد حلية لولبية على شكل كرم عنب على عارضة الباب تصور شجرة الحياة arbor vitae تحت ما يمكن أن يكون صورة للصلب فى الغشاء الأعلى. وعلى كل حال كان البرنامج المعمارى والزخرفى للضريح المقدس غنيًا ومتنوعًا، وثمة إقرار كبير للامتزاج بين الشرق والغرب فى هذا المشروع الصليبى الفريد. وباعتبارها تتويجًا لمهمة طويلة لزخرفة هذا الموقع المقدس الفريد- وهو مشروع ربما لم يتم الانتهاء منه تماما حتى خمسينيات القرن الثانى عشر- فإن الكنيسة الصليبية للضريح المقدس أرست مقياسًا عاليًا للمشروعات التى جاءت فيما بعد فى بيت لحم والناصرة.

وأيا كان دور ميليسند فى إعادة بناء كنيسة الضريح المقدس، فإنها اختفت فجأة من المشهد العام فى أعقاب ارتقاء بلدوين الثالث العرش رغمًا عنها سنة ١١٥٢م. والمشروع التالى الوحيد الذى يمكن أن نربطها به هو مقبرتها الأنيقة الواقعة فى وادى يهو شافاط، داخل مدخل مقبرة العذراء. وقد انعكس كونها امرأة لافتة للنظر فى الصورة الكلامية التى رسمها لها وليم الصورى.

وقد بدأ بلدوين الثالث عهده بطرح عملة ملكية جديدة تميزها صورة لبرج داود، أى قلعة بيت المقدس، حيث كان يمارس السلطة بعيدا عن أمه. وأتبع هذا بنصر

عسكرى كبير سنة ١١٥٣م، وهو الاستيلاء على عسقلان التى كانت قد بقيت بأيدى الفاطميين منذ سنة ١٠٩٩م وفى الوقت نفسه كانت المنظمتان الرهبانيتان العسكريتان فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية قد بدأتا القيام بدور رئيسى فى الدفاع عن الشرق اللاتينى. وأثناء فترة الازدهار والاستقرار النسبى هذه، أقيمت كنائس تكريماً للقديس يوحنا المعمدان فى الرملة، وغزة، وسباسطيا. وكاتدرائية أسباسطيا، التى كانت تضم مقبرة القديس يوحنا، كانت أول كنيسة لاتينية كبرى فى الشرق تحظى بمجموعة من التيجان التاريخية لأعمدة الواجهة، وبطريقة مشابهة لكثير من الكنائس الفرنسية :

وهذه الكنيسة غير عادية بسبب صلاتها المعمارية المباشرة مع كاتدرائية سنس Sens. والحقيقة أن معظم الكنائس اللاتينية قد بنيت على طراز شرق المتوسط والرومانسك بعقود واسعة مدببة، وأسقف مسطحة، مع وجود قبة غالبًا على التقاطع.



مقبرة العذراء فى وادى يهوشافاط ، القدس، أعيد بناؤها خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر. وكانت مقبرة سيدتنا ، بطبيعة الحال، خالية بسبب افتراض وجودها فى السماء، ولكن نساء ملكيات أخريات ، من المقيمات ومن الحاجات الزائرات على السواء، كن مدفونات بها. وكانت الملكة ميليسند أبرزهن وقد تم إعداد غرفة دفن أنيقة لها، فى المدخل وأسفل عشرين درجة سلم على اليمين.

ولم يكن معروفًا عن بلدوين الثالث رعايته للفن، ولكن أخاه الأصغر أماليك، كان راعيًا للفن، فبعد أن ارتقى العرش سنة ١١٦٣م بوقت قصير؛ سعى أماليك لعقد تحالف جديد مع البيزنطيين ضد الفاطميين في مصر. وإذ كان هذا القصد في عقله، قدم طرازًا جديداً من العملة يؤكد على مبنى القبة البيزنطي أناستاسيس في كنيسة الضريح المقدس، وأمر بتصميم الشعارات الملكية الخاصة به وفق الخطوط البيزنطية، كما تزوج أميرة بيزنطية، هي ماريا سنة ١١٦٧م. أما أهم إنجازاته الفنية فكان أيضا عملاً مهمًا من الأعمال السياسية والدبلوماسية الكنسية، وفيما بين سنة ١١٦٧م وسنة ١١٦٩م انضم أماليك إلى الإمبراطور مانويل كومنين والأسقف رالف أسقف بيت لحم في رعاية عملية إعادة تزيين كاملة لكنيسة الميلاد.

كان البرنامج الفريد للموزايكو ورسوم الفريسكو الذي تم تنفيذه في بيت لحم مشروعًا مشتركًا تم فيه الجمع بين التقاليد الأرثوذكسية والصليبية من حيث الرعاة، والفنانون والأهداف مما حقق نتائج فنية مثمرة. وثمة نقش ثنائي اللغة باللاتينية واليونانية على السور الجنوبي لحرم الكنيسة بقيت منه الآن شذرات قليلة، يسجل مهمة التجديد. فالنص اللاتيني امتدح الملك أماليك باعتباره «صديقًا كريمًا»، رفيق شرف، عدوًا لغير المتدينين» والإمبراطور مانويل باعتباره «مانحًا كريمًا وحاكما ورعًا» ورالف باعتباره «كريمًا ..جديرًا بعرش الأسقف» وأشارت النسخة اليونانية إلى المانحين الثلاثة وحددت إفرايم باعتباره فنان الموزايكو الذي أنهى هذا العمل سنة ١١٦٩م.

كان البرنامج ضخمًا، على مقياس يتماشى مع داخل كنيسة الضريح المقدس. وأعمال الموزايكو التي تصور العذراء والطفل، ومشاهد الأعياد في حياة المسيح، والميلاد- وكلها متأثرة جداً بالأسلوب وفن الأيقونات البيزنطي - كانت قد وضعت في الجزء المستدير الناتئ من الكنيسة، وفي أجنحة الكنيسة وفي الكهف على التوالي. وكانت هناك صور أسفل صحن الكنيسة (الحائط الجنوبي) وستة مجالس إقليمية (الحائط الشمالي). وفيما بين نوافذ منور الكنيسة كانت الزوايا المنفرجة تتقدم صوب الجزء الناتئ ؛ وأسفل المجالس كانت توجد صور نصفية لأسلاف المسيح. وعلى الحائط

الغربى الداخلى كانت صورة كبيرة لشجرة الأذى Tree of Jesse. وعلى أعمدة الصحن بالأسفل، تمت إضافة أيقونات إيمانية جديدة لقديسين غربيين وشرقيين منفذة بالفريسكو لكى تكمل الصور التى رسمت من قبل.

كان هذا المشروع علامة بارزة فى التطور الفنى الصليبى لأن فنانين كثيرين من خلفيات متنوعة أسهموا فيه. فقد كان باسيليوس فنان الموزايكو الذى رسم الملائكة فى صحن الكنيسة أرثوذكسيا شاميًا. وهناك فنان بندقى كان اسمه زان، أى حنا، يبدو أنه كان يعمل فى الجناح الجنوبى للكنيسة. أما إفرايم فكان راهبا يونانيًا أرثوذكسيًا وفنان موزايكو، ويبدو أنه كان يشرف على العمل. وهكذا فإنه بالنسبة لبرنامج رئيسى للرسم الضخم فى واحد من أكثر المواضع قدسية فى العالم المسيحى، نجد فريقًا متعدد الثقافات من الفنانين يعمل سويًا تحت رعاية فرنجية بيزنطية مشتركة. ويذكرنا دمج العناصر الشرقية والغربية فى الأسلوب وفى فن الأيقونات بمخطوط كتاب المزامير الذى صنع من أجل ميليسند، ولكنه يحدث هنا على نطاق أكبر كثيرًا. وهنا يمتزج الموزايكو المتأثر جدًا بالأسلوب البيزنطى واللغة اليونانية التى كتبت بها أغلب النصوص المجلس مع المضمون الأرثوذكسى السوريانى فى هذه النصوص، إلى جانب عناصر صليبية قوية – مثل الشجرة المحرمة، واستخدام نقوش ثنائية اللغة، واستخدام اللغة اللاتينية لكتابة النص فى صورة المجامع المسكونية السبعة، بل وفكرة نقش يُعرِّف الرعاة والفنانين– لإنتاج عمل غنى، متناغم، وذى نوعية راقية بشكل لافت للنظر.

ومن الواضح أن العمل الذى أُنجز فى بيت لحم كان حافزًا على تنويعة من برامج الزخرفة بالفريسكو (الرسوم الجصيَّة)– فى أبو غوش بالكنيسة الموجودة عند مدخل بوابة دمشق، وفى بيثانى، بل فى الشمال بالكرك شيڤاليه– بيد أنه لم يكن هناك برنامج للزخرفة بالموزايكو. ومن ثم، فالمدهش أن نجد أن أهم المشروعات الفنية اللاحقة فى المملكة اللاتينية قد تم تنفيذها بأعمال النحت خلال السنوات الأخيرة التى سبقت فتح المسلمين القدس سنة ١١٨٧م. فقد زين الاسبتارية الكنيسة الملحقة بقلعتهم فى بلڤوار أوائل سبعينيات القرن الثانى عشر بمنحوتات أنيقة كما كان الداوية رعاة ورشة

كبيرة ومهمة بمنطقة المعبد فى السبعينيات والثمانينيات من القرن الثانى عشر. وعلى أية حال، كان أهم إنجاز تم فى سبعينيات القرن الثانى عشر المشروع الذى تم تحت رعاية كبير أساقفة الناصرة لإعادة بناء وتزيين كنيسة البشارة فى الموضع المقدس لبيت العذراء، حيث تجسد المسيح.



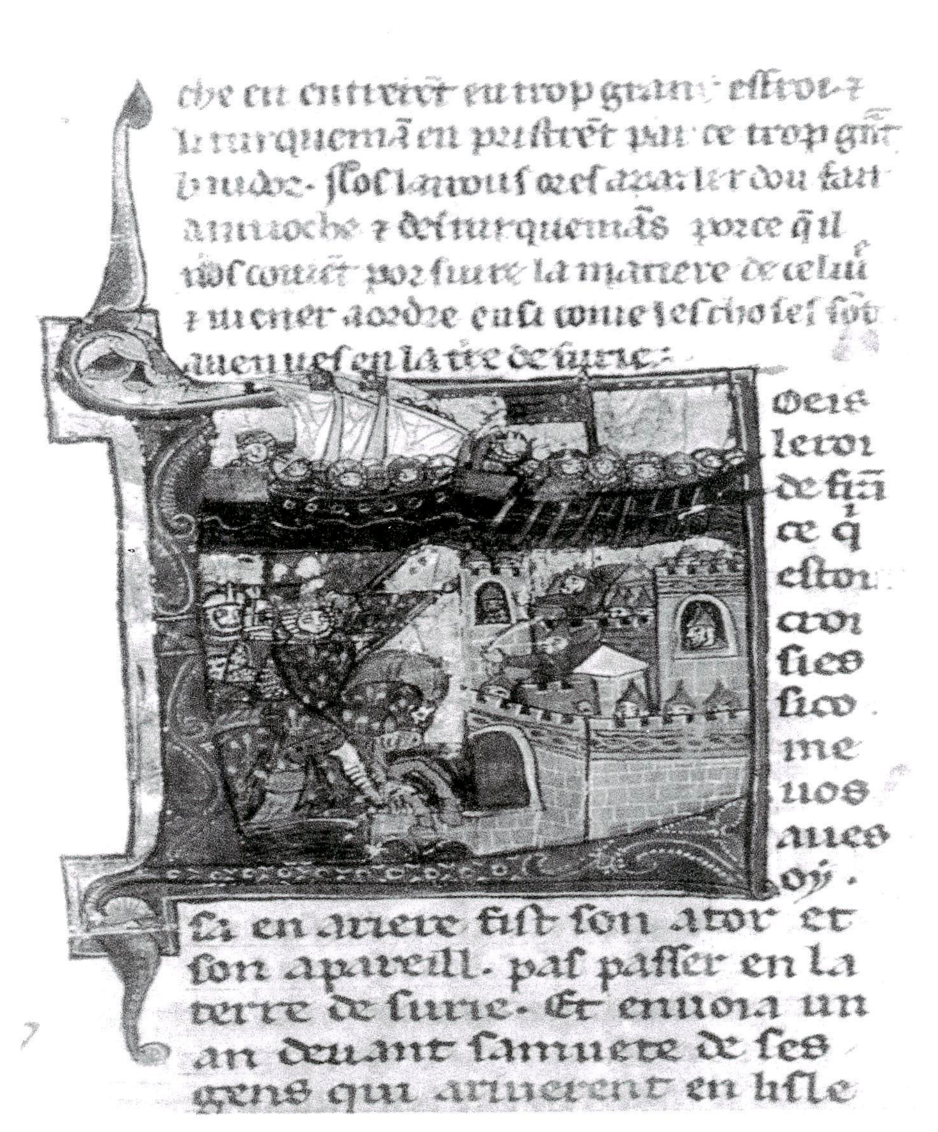
يسارًا : ظهر إحدى العملات الأولى المنتظمة التى أصدرها الملك بلدوين الثالث ، عملة الدنيير من سبيكة ذهبية. وبرج داود المنقوش داخل دائرة داخلية على شكل الخرز كان مقر الإقامة الملكى فى بيت المقدس، حيث أجبر بلدوين أمه، الملكة ميلتسند على التخلى عن حكم المملكة سنة ١١٥٢م.

يمينًا : ظهر دنيير من سبيكة ذهبية مع معدن رخيص من عهد أماليك ، الذى غير التصميم فى ستينيات القرن الثانى عشر. ومثل أخيه بلدوين الثالث اختار موتيفة معمارية ، هى صورة داخل مبنى القبة أناستاسيس ، بحيث يؤكد على القلب البيزنطى لكنيسة الضريح المقدس. وقد استمر طراز العملة هذا فى القرن الثالث عشر.

كانت كنيسة البشارة الكنيسة اللاتينية الوحيدة التى حظيت ببرنامج كامل من أعمال النحت على طريقة النماذج الفرنسية فى القرن الثانى عشر بمداخلها : رفادة تصور المسيح متوجًا وهو يتجسد مع الملائكة وأحجار العقود تحمل علامات دائرة البروج الفلكية، وعلى كلا جانبى المدخل قامت تماثيل الحواريين والأنبياء. وكانت أشد

أعمال النحت إبداعا من نصيب الداخل، حيث أُعطيت المظلة فوق الكهف سلسلة من تيجان الأعمدة المضلَّعة اللافتة. وكانت تحكى أحداثًا من حياة الحواريين الذين كانوا قد أسسوا هذه الكنيسة فى الناصرة، حسبما يقول المأثور الدينى، تكريماً للعذراء. وعلاوة على ذلك ظهرت على دعامات الكنيسة حول مكان الضريح مباشرة تيجان مستطيلة أكبر حجمًا. ومن المحتمل تماماً أن هؤلاء النحاتين كانوا «صليبيين» أى من المستوطنين الفرنج المولودين فى الشرق اللاتينى، وقد تعلموا حرفتهم على أيدى معلمين فرنسيين، يعملون بأسلوب متحرك مرن فى الحجارة المحلية تحت تأثير التقاليد المسيحية المحلية وكذلك بتأثير النحت المعمارى لدى المسلمين.

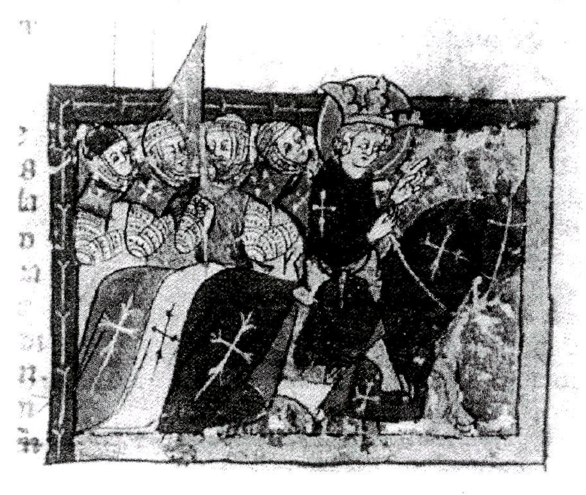
لقد كان خياراً جسوراً أن تتم زخرفة الموضع المقدس فى الناصرة بالنحت الظاهر أساسًا، مع الأخذ فى الاعتبار أن كان سيتم تلوين النحت بطبيعة الحال. ومن الواضح أنه كان خياراً لكى يعطى الناصرة هوية متمايزة مناقضة للمشروعات الأكثر تأثراً بالمؤثرات البيزنطية فى بيت المقدس وبيت لحم. وأخيراً كان ذلك خياراً أملى مستوى جديداً من النضج والتطور داخل نطاق النشاط الفنى الصليبى: إذ إن المزج بين الوسيلة الغربية المتمايزة بتأثير الأسلوب الشرقى وعناصر فن الأيقونات فى خدمة برنامج قد تناغم بشكل خاص مع موقع مقدس فريد، قبل ذلك كانت أهم الإنجازات فى الفن الصليبى يمكن أن توجد فى الرسم- سواء فى المنمنمات أو فى الرسم الضخم- وفى العمارة. وعلى أية حال، صار النحت المجسّد فى سبعينيات وثمانينيات القرن الثانى عشر الوسيلة الجديدة البارزة.


che en entrerent en trop grant esfroi et
li turquemans en prisent par ce trop grant
hardece. Si vos lairons ore a parler dou fait
antioche et des turquemans porce quil
nos covient por suivre la matere de celui
et en mener a ordre ensi come les choses sont
avenues en la terre de surie.
Oez le roi de france que estoit a ... sies si come vos aves oy.
Si en ariere fist son ator et
son apareill. pas passer en la
terre de surie. Et envoia un
an devant sannuere de ses
gens qui arriverent en lisle

الفروسية المتطورة. لويس التاسع فى حصار دمياط بمصر ١٢٤٩م، فى مصور بمخطوط رسم فى عكا تحت الحكم الصليبى على الساحل الفلسطينى حوالى ١٢٨٠م. وعلى الرغم من التقوى المعروفة عن لويس فإن الرسام لم يضع أى صليب، والمشهد ملئ بشعاره «الزنبقة».



بطرس الناسك. هذا الرسم مأخوذ من مخطوط يحكى قصة الحملات الصليبية عنوانه Pasazia et auxilia terre sancte الذى يشكل أطول جزء من نسخة باللغة العامية لكتاب التاريخ الكبير Chronlogia magna أوائل القرن الرابع عشر، وهو نوع من تاريخ العالم المختصر



فى الوقت الذى قام به لويس بحملته، كانت الأغانى الصليبية، لاسيما تلك التى كتبها الشاعر الباريسى روتبيف، قد صارت أكثر سياسية. وكانت الموضوعات المألوفة لا تزال تطرح على أية حال، ولازال الشاعر يأسى لأن أنبل الرعاة وأكثرهم كرمًا قد صحبوا الملك إلى فلسطين وتركوه دونما دعم مالى.



روح الفرسان التيوتون : كان إنتاج هبات مغرقة فى الرمزية للأضرحة والمزارات من ملامح بروسيا تحت حكم الفرسان فى القرن الرابع عشر. وهذه القطعة من النوع المعروف باسم Schreinmadonnas يرجع تاريخها إلى حوالى سنة ١٤٠٠م. حينما تكون مغلقة تبدو على صورة العذراء راعية منظمة الفرسان التيوتون، ممسكة بتفاحة فى يدها اليسرى على حين يرتكز طفلها على ركبتها. وعندما تُفتح يكشف جسدها عن صورة الرب مصلوباً. وثمة فارس تيوتونى ذو شعر رمادى ولحية رمادية بين المتعبدين (فى أقصى اليمين).



بطرس يرفع الأرملة تابيثا فى يافا، من تاج عمود من كنيسة البشارة بالناصرة. النحت المجسَّم فى الناصرة، ربما يرجع تاريخه إلى سبعينيات القرن الثانى عشر، كان أكبر مشروع من هذا النوع فى أى موقع مقدس رئيسى وهو بعض أفضل الأعمال التى ترجع إلى القرن الثانى عشر فى أى مكان. ومن الواضح أن كبير أساقفة الناصرة قد حدد ملامح هذه الوسيلة لكى تميِّز كنيسته والمكان المقدس عن مثيله فى القدس وبيت لحم.

فى أعقاب موت الملك أماليك سنة ١١٧٤م، تدهورت أحوال الشرق اللاتينى بشكل شديد. وحاول الملك بلدوين الرابع أن يدفع صلاح الدين، ولكنه سقط فى براثن مرض البرص سنة ١١٨٥م. وقد حكم خليفته بلدوين الخامس أقل من عامين قبل أن يموت فى الثامنة من عمره. وقد جهز النحاتون من ورشة فرسان الداوية أكثر مقبرة ملكية مزخرفة على الإطلاق للملك الصبى سنة ١١٨٦-١١٨٧م. وعمل آخرون على مشروع لإعادة بناء وزخرفة موضع العشاء الربانى الأخير فى كنيسة القديسة مريم على جبل صهيون. وهذا الموقع المهم واحد من آخر المشروعات الصليبية قبل أن يدخل المسلمون بيت المقدس، وأحد المواقع القليلة التى تعكس بعض التأثير القوطى الأصيل على الشكل الشرق متوسطى- الرومانسك للفن الصليبى فى القرن الثانى عشر.

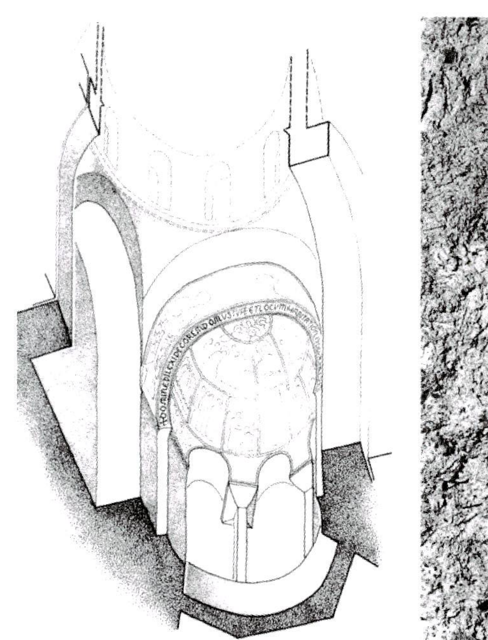
وعقب الهزيمة الكارثية التى نزلت على المستوطنين الفرنج عند قرون حطين فى الرابع من يوليو ١١٨٧م فقدوا بيت المقدس فى الثانى من أكتوبر ١١٨٧م. وقد نزلت بالشرق اللاتينى، والفن الصليبى، ضربة قاسية، كادت أن تكون قاضية، على يد صلاح الدين، ليس فقط بسبب خسارة الأرض والموارد، ولكن أيضا بسبب التدمير والتشتت. فعندما أخذت بيت المقدس كتب المؤرخ عماد الدين الأصبهانى يقول إن بيت المقدس تطهرت من نجس الفرنج الجهنميين.

ولكى يستمر المستوطنون الفرنج كان ينبغى إعادة بناء القابلية للحياة على المستوى السياسى والكنسى والتجارى وإعادة الاستقرار. وقد أعادت الحملة الصليبية الثالثة بصورة جزئية على الأقل المملكة اللاتينية وتمت إضافة مكون رئيسى جديد إلى الشرق اللاتينى مع غزو قبرص سنة ١١٩١م على يد ريتشارد الأول ملك إنجلترا، ولكن لم يتم الاستيلاء على الأماكن المقدسة الرئيسية.

وقد استمر الفن الصليبى بعد سنة ١١٨٧م، لاسيما بعد إعادة الاستيلاء على عكا سنة ١١٩١م، بيد أن ظروفه وسياقه قد تغيرت بشكل أساسى. فقد تحولت مراكز إنتاجه بشكل درامى: إذ صار ميناء عكا وميناء صور آنذاك المدينتين الرئيسيتين لأنه لم يعد هناك تركيز على الأماكن المقدسة فى الداخل. وقد نقل جميع الرعاة الأساسيين

أماكن إقامتهم: بطريرك بيت المقدس، والاسبتارية والداوية قد نقلوا مقار قياداتهم إلى عكا، ولم يعد الملك يقيم بالضرورة فى المملكة اللاتينية : ففى بعض الأحيان كان يعيش فى قبرص. وقد امتدت الرعاية، ولم تعد قاصرة على الأرستقراطيين ورجال الكنيسة، وإنما امتدت إلى البورجوازية: وقد انضم التجار والجنود من المدن التجارية والموانئ على امتداد الساحل إلى الملك والبطريرك. وهكذا فإنه بينما استمرت الوظيفة الدينية لبعض الفن الصليبى فى الاستخدام الطقسى والأغراض الدينية، برزت أغراض غير دينية علمانية جديدة. ولم يعد الفن الصليبى أقل ارتباطًا بجذوره فى الشرق اللاتينى، وبالضريح المقدس على وجه الخصوص، وصار بدرجة أكبر جزءًا من اللغة المشتركة تجاريًا وفنيًا فى عالم البحر المتوسط فى القرن الثالث عشر.





كنيسة سان فرنسيس فى كاليندرخان كاميى، باستنبول (يسارًا) إعادة بناء برنامج الرسم (يمينًا) الفرنسيسكان يشهدون المعجزات. زيارة سان فرنسيس إلى مصر سنة ١٢١٩م لمواجهة السلطان لاشك فى أنها حفزت تقديسه فى الشرق اللاتينى. وتحمل الرسومات فى هذه الكنيسة شبهًا قريبًا بأسلوب الكتاب المقدس بمكتبة الأرسينال.

ومن الواضح أن هناك خطوط استمرار واهية بقيت من تطورات القرن الثانى عشر. إذ كان رسم المخطوطات يُنتج بواسطة أماكن النسخ فى عكا وربما فى أنطاكية فى تسعينيات القرن الثانى عشر. وثمة كتاب قداس موجود الآن فى نابلس وربما كان من عمل فنان من جنوب إيطاليا كان يعمل فى عكا حسب تراث حجرة النسخ فى الضريح المقدس. وثمة نسخة ضخمة من الكتاب المقدس، موجودة الآن فى سان دانييلى ديل فرويلى، تُظهر طرازًا يحمل التأثيرات البيزنطية والأرمنية بل والسوريانية وفن الأيقونات فى سلسلة من الحروف الاستهلالية التاريخية لا شبيه لها فى بيت المقدس أو الغرب. وتبقى الإمكانية أن الملامح الفريدة لهذا الفنان يمكن أن نفسرها فى سياق أنطاكية، على الرغم من غياب أمثلة يمكن مقارنتها بها ترجع إلى هذه الفترة.

ولأن الأماكن المقدسة بقيت بأيدى المسلمين بعد الحملة الصليبية الثالثة، أرسل البابا إنوسنت الثالث حملة صليبية أخرى إلى الشرق سنة ١٢٠٢م. وكما رأينا، تم تحويلها إلى القسطنطينية وبرزت إلى الوجود مناطق جديدة فى الشرق الأدنى بعد سنة ١٢٠٤م. وقد نجم عن الإمبراطورية اللاتينية، التى كانت تضم القسطنطينية وبلاد اليونان التى استولى عليها الفرنج، وبناء الكثير من القلاع ولكن ما بقى على الكنائس من رسوم أو نحت كان قليلاً. ويبقى السؤال مطروحا دونما إجابة عما إذا كانت هناك نمنمة للمخطوطات أو رسم أيقونات، ولكن هناك لوحة فريسكو رئيسية مع صور لسان فرنسيس موجودة بكنيسة كاليندرخانة كاميى فى القسطنطينية، يرجع تاريخها إلى سنة ١٢٥٠م تقريبًا. وقد تم إرسال كميات ضخمة من الأسلاب التى أخذت أثناء نهب القسطنطينية على أيدى المشاركين فى الحملة الصليبية الرابعة إلى أوربا، وكان جزء منها على شكل صناديق الذخائر المقدسة وغيرها من المشغولات الذهبية بشكل خاص، وهو ما عوض جزئيًا انقطاع الهدايا التى كان يجئ بها الحجاج من بيت المقدس بعد سنة ١١٨٧م. وعلى الرغم من الفدية التى دفعها لويس التاسع فى مقابل «تاج الشوك» فى أربعينيات القرن الثالث عشر، فإن هناك أدلة قليلة على أن صناعة الأشغال المعدنية الفرنجية المزدهرة تطورت فى الإمبراطورية اللاتينية قبل أن تموت.

وفى المملكة اللاتينية، بقيت الحاجة لبناء القلاع تحظى بالأولوية القصوى حتى عندما كانت الهدنة بين المسلمين والفرنج تحافظ على السلام القلق. وقد وسَّع الفرسان الاسبتارية ودعموا قوة قلعتهم الكبيرة فى الكرك دى شيڤالييه، ربما بعد وقت قصير من زلزال حدث سنة ١٢٠٢م ؛ ففى ذلك الوقت تمت إضافة النظام الكامل للأسوار الخارجية والأبراج وتمت إعادة



اثنان من الحواريين مرسومانُ فى سنة ١٢٠٠ تقريبا على عقد غرفة شمالية شرقية، ربما كانت غرفة المقدسات وملابس الكهنة فى كنيسة حصن الاسبتارية فى مرقط. والمشهد يصور عيد العنصرة (عيد الخمسين)، والحواريون الاثنا عشر يجلسون على أريكتين يستقبلون الروح القدس فى ألسنة اللهب. والحواريان المرسومان هنا يعكسان النماذج البيزنطية القياسية من حيث الأسلوب وفن الأيقونات.

بناء الكنيسة الرئيسية بالإضافة إلى ذلك بمدخل جديد وتم عمل لوحة بالفريسكو لعيد العنصرة فى المعبد لكنيسة خارجية على جانبها الشمالى. والرسوم فى الكرك دى شيڤالييه وفى كنيسة قلعة مرقط، والتى رُسمت فى العقد الأول من القرن الثالث عشر، مهمة لأنها توضح أن النظم الرهبانية العسكرية وخاصة الاسبتارية كانت ترعى فنون التجسيد لجنودها. وإلى الجنوب، بنى الداوية قلعة الحج **Chastel Pélerin** فى شتاء

سنة ١٢١٧-١٢١٨م، على أيدى القوة البشرية التى وفرتها حملة صليبية كان يقودها أندرو الثانى ملك المجر وليوپولد الرابع ملك النمسا. وثمة كنيسة مستديرة لافتة للنظر، هى الآن أنقاض خربة، تعتبر أهم المكونات المعمارية المميزة فى هذه القلعة، ولكن الزخارف النحتية الوحيدة التى بقيت منها ثلاثة رؤوس منحوتة بحساسية على الطراز القوطى فوق النتوءات البارزة من القاعة الكبيرة. وأخيرًا، تم بناء قلعة مونتفورت على التلال شمال غرب عكا فى وقت حملة فردريك الثانى الصليبية أواخر عشرينيات القرن الثالث عشر، لتكون مقر قيادة الفرسان التيوتون. وكانت قلعة مونتفورت واحدة من أوليات القلاع الصليبية التى يتم الكشف عنها بالحفريات الأثرية؛ وقد عُثر على تنويعة من الأشياء فى موقع الحفر، بما فى ذلك تمثال على مقياس صغير ونحت مورق على مقياس كبير على قطع صخرية تستخدم فى العقود، وشظايا من الزجاج الذى يستخدم فى النوافذ ذات الزجاج الملون.

وبعد سنة ١٢٠٤م، انطلقت عدة حملات لمساعدة الصليبيين فى الأرض المقدسة. ومن المثير للسخرية أن حملة فردريك الثانى، الذى وقعت عليه عقوبة الحرمان الكنسى مرتين، كانت الحملة الوحيدة بين هذه الحملات التى حصلت على المواقع المقدسة، لا عن طريق الغزو، وإنما عن طريق الدبلوماسية ففى فبراير سنة ١٢٢٩م وقع اتفاقية مع السلطان الكامل أعاد الصليبيون بمقتضاها احتلال الأماكن المقدسة فى مدينة القدس، وبيت لحم، واللد والناصرة، ولكن من الواضح أنه لم يكن مسموحًا بأيـة أبنية جديدة أو بأى نشاط فنى كبير فى هذه المواقع بحسب شروط الاتفاق.

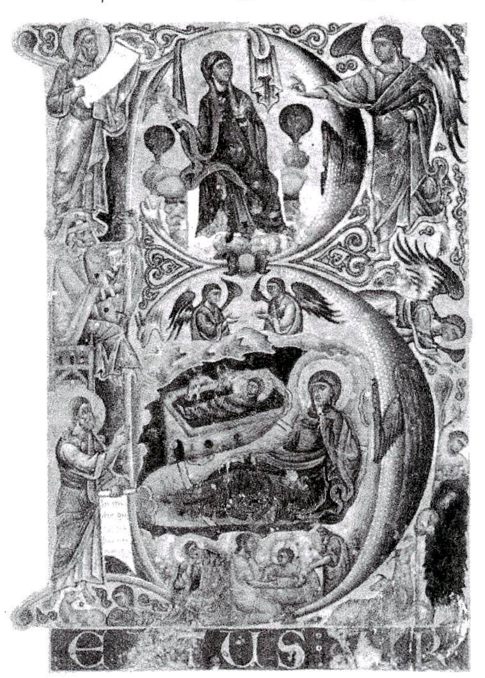
وما هو معروف عن الأعمال الفنية المهمة المرتبطة بالمملكة اللاتينية يرجع إلى أواخر عشرينيات القرن الثالث عشر حتى أوائل أربعينيات القرن نفسه. ومن الواضح أن نمنمة المخطوطات ورسمها استمرت مع إنتاج كتاب المزامير الخاص بريتشارد Riccardian Psalter وكتاب للقداس موجود الآن بالمكتبة البريطانية ؛كذلك تم تنفيذ الكتاب الأسقفى لأباميا Ponifical of Apamea، ولكن لم تكن به أية زخارف تصويرية. وثمة ذخائر مقدسة مهمة، فى صناديق الذخائر المقدسة المناسبة صنعت فى المملكة

اللاتينية، وربما فى برومهولم ووستمينستر. وقد أمر فيليب أوبيجنى بأن يُنقش شاهد قبره، ويزخرف، وأن يوضع خارج مدخل كنيسة الضريح المقدس مباشرة سنة ١٢٣٦م، وهو آخر دفن صليبى معروف فى هذا المكان المقدس.

وعندما انتهت هدنة سنة ١٢٢٩م، استؤنفت العداوات وفى شهر أغسطس ١٢٤٤م اجتاح الخوارزمية بيت المقدس. ولم يبق مفتوحًا أمام الصليبيين بعدها من الأماكن المقدسة الكبرى سوى بيت لحم والناصرة بعد ذلك. وفى أعقاب هذه الكارثة التى حلت بالصليبيين جاء الملك لويس التاسع لمساعدة الصليبيين سنة ١٢٤٨م. وعندما فشل هجومه على مصر، ذهب إلى المملكة اللاتينية حيث أقام لمدة أربع سنوات، يعيد بناء التحصينات فى عكا، وقيصرية، ويافا، كما بنى قلعة جديدة فى صيدا. وكان للويس تأثير قوى على إعادة الانتعاش للمملكة دينيًا وفنيًا. فمن الناحية الدينية أظهر الملك تدينه المثالى بزيارته الرمزية لموقع الناصرة المقدس سنة ١٢٥١م، بحيث أعاد تقرير مركزية هذه الأماكن بالنسبة للمسيحية الأوربية. أما على المستوى الفنى فمن الواضح أن لويس التاسع هو المسئول عن نفخ حياة جديدة فى فن الرسم الصليبى بعكا.

وهناك مخطوطان رئيسيان تم إنتاجهما فى عكا أثناء إقامة لويس التاسع فيها يعيدان تعريف ما سيبدو عليه فن الرسم الصليبى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر. كانت نسخة الكتاب المقدس المعروفة باسم Arsenal Bible عبارة عن منتخبات من نصوص العهد القديم مترجمة إلى اللغة الفرنسية القديمة، تم تجميعها بفضل برنامج ملكى لزخرفة الصفحات الأولى.هذه المنمنمات على الصفحات أسست روابط قوية مع سانت شاپل فى باريس، وأوضحت المثل العليا الملكية فى الأرض المقدسة كما احتفت بالنساء القويات فى العهد القديم، ربما باعتبارهن متشابهات مع مارجريت زوجة لويس الجسورة، التى صحبته فى حملة صليبية ودفعت الفدية لإطلاق سراحه من سجنه فى مصر. ومن حيث الأسلوب تكون نسخة الأرسينال للكتاب المقدس خليطًا من موضوعات زخرفة الزجاج القوطى والشكل المتأثر بالأسلوب البيزنطى الذى نفذه فنان صليبى تدرب حسب التراث الفرنسى- الإيطالى. وهى قريبة الشبه مع جوانب من لوحات الفريسكو التى تصور سان فرنسيس بالقسطنطينية.

وتوجد نفس الخصائص الرسمية الإيطالية- الفرنجية المتأثرة بالبيزنطيين بقوة فى المخطوط الثانى من مخطوطى عكا، وهو مخطوط **Perugia Missal** وهذا المخطوط مهم بسبب أسلوبه الذى يتشابه مع أسلوب نسخة الأرسينال للكتاب المقدس ويتشابه تماماً مع رسم الأيقونات الموجود الآن فى الأعمال المحفوظة بدير سانت كاترين فى شبه جزيرة سيناء المصرية ؛ قارن حادثة الصلب فى المخطوط مع أيقونة عن الصلب فى سيناء ذات خصائص أسلوبية وأيقونوجرافية متشابهة للغاية. وفضلاً عن ذلك، فإن تقويم «البيروجيا ميسال» يحتفظ بمدخل لإحياء ذكرى نصه : **Dedicatio ecclesie Acconensis** فى ١٢ يوليو، وهو دليل صريح على أن هذا المخطوط قد كُتب وتمت زخرفته على يد فنان صليبى فى عكا حوالى سنة ١٢٥٠م.



الحرف الاستهلالى (B) EATUS VIR ، من كتاب المزامير لريتشارد، الذى ربما يكون آخر مخطوط موجود تم تنفيذه فى بيت المقدس قبل فتح الخوارزمية لها سنة ١٢٤٤م. نبوءة أشعيا وحبقوق بقدوم المسيح، التى تحققت فى المشاهد الرئيسية التى تصور البشارة والتجسد. إن فن الأيقونات والأسلوب بيزنطى واضح وربما يكون من عمل رسام صقلى مكلف من سيد ألمانى، ربما كان هو الإمبراطور فردريك الثانى.

ويتضح ظهور رسم الأيقونات باعتباره وسيلة جديدة مهمة للفن الصليبى على أوضح ما يكون فيما بين سنة ١٢٥٠ وسنة ١٢٩١م. وبينما كانت الأيقونات المرسومة من أجل الرعاة الفرنج موجودة بالفعل فى القرن الثانى عشر، فقد حدث منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر أن العدد الأكبر منها بقى منها بدير سانت كاترين فى سيناء. ومن بين كل أعمال الرسم الصليبية، فإن هذه الأيقونات أكثرها إشكالية من حيث تحديد خلفية الفنان، ومكان التنفيذ، والراعى، والوظيفة ولكنها تمدنا أيضًا ببعض من أهم الأعمال الصليبية تألقًا فى هذه الفترة. وثمة أيقونة ثنائية على أحد جانبيها حادثة الصلب والأناستاسيس على الجانب الآخر تقوم مثالاً على هذا. وربما كانت من عمل فنان من أصول بندقية، لأن الأيقونة مزيج بين عناصر بيزنطية وفرنجية، كما أن النقوش كبيرة وهى نصوص لاتينية صممت بأناقة، فضلاً عن أن الأسلوب المعبر مع الميول الخطية القوية قريب من النموذج البيزنطى الذى كانت الأيقونة نسخة منه.

وتكشف بعض الأيقونات الصليبية عن أيدى عدة رسامين مختلفين، وهناك لوح ثلاثى موجود الآن فى سانت كاترين يحمل صورة العذراء متوجة والطفل تحف به الملائكة باعتبارها الصورة الداخلية المركزية، تختلط مع مجموعة غير عادية من المشاهد الأربعة لحياة المسيح بحيث تعكس أفراح العذراء وأحزانها، على الجزء الداخلى من الجانبين. ومن الواضح أن أسلوب مشاهد حياة المسيح يرتبط عن قرب مع منمنمات نسخة الأرسينال، حيث تم رسم العذراء المتوجة والطفل بيد رسام صليبى بطريقة الرسم الإيطالية فى القرن الثالث عشر تحت تأثير الأيقونات البيزنطية.

وتشكل صورة العذراء والطفل على اللوح الثلاثى نقطة مرجعية لواحدة من أكبر مشكلات الفن الصليبى بعد سنة ١٢٥٠م. كيف يتصل تنوع فن الرسم الصليبى بالفن البيزنطى (فى القسطنطينية وفى الأقاليم)، والأرمنى، والإيطالى (maniera Greca) والقبرصى (Maniera Cypria) فى هذه الفترة، وكذلك بفن «اللغة الشائعة»، أى الفن الواقع تمامًا تحت التأثير البيزنطى، ولكنها غير بيزنطية الأصل بشكل واضح، والتى لايمكن أن نعرف لها مكانًا محددًا للإنتاج، أو سياقًا فنيًا معينًا، أو راعيًا؟ إن صورة

العذراء والطفل المرسومة على اللوح الثلاثى، مثلاً، واضح أنها صليبية من حيث خلطها المكونات الفنية، وربما جاءت من عكا؛ لأن صورة كاهن مادونا فى واشنطن DC كان يفترض أنها من القسطنطينية وأنها فى جوهرها بيزنطية على حين أن پوشكين مادونا فى موسكو تُعرَّف بأنها المانييرا جريكا (إيطالى) ، ويقال إنها من بيزا . وفى مقابل هذه الأمثلة المهمة من خمسينيات القرن الثالث عشر وستينياته، لوحة ميللون مادونا الشهيرة فى معرض الفنون الوطنى بواشنطن Dc، والتى تبدو أنها كانت من الأعمال الشائعة، أين تم عملها، ولحساب من ، ولأى غرض؟



أيقونة تاريخها منتصف القرن الثالث عشر لسانت مارينا من طرابلس، وسانت مارينا الشامية هى عذراء عاشت فى القرن الخامس ودخل أبوها ديراً فى وادى قاديشا وأخذها معه. والأيقونة لافتة للنظر بسبب زخرفتها بالجص التصويرى البارز والتصميمات المصبوغة بالألوان على إطارها، والتى يقلد كل منها تغطيات معدنية أكثر تكلفة. والمقارنة مع لوحات الفريسكو الموجودة فى مار مارينا، جنوب طرابلس، تشى بأنها كانت مصنوعة فى الإقليم حيث أصل تقديس سانت مارينا.

وعلى الرغم من هذه المشكلة الصعبة تم إحراز الكثير من التقدم فى دراسة الأيقونات الصليبية، مما كشف عن تنوع لم يكن متخيلاً من قبل عن أصولها. وإلى جانب الأيقونات المنسوبة إلى عكا على أرضية أسلوبية وإلى سيناء على أساس

الأيقونوجرافية المرتبطة بمكان محدد فى الفترة من ١٢٥٠ إلى ١٢٩١م لدينا أيضًا أيقونات صليبية تم افتراض نسبتها إلى اللد (أيقونة لسان چورچ موجودة الآن فى المتحف البريطانى) والرصافة (أيقونة لسان سرجيوس موجودة الآن فى دير سانت كاترين بسيناء) وإلى وادى قاديشا بالقرب من طرابلس (سانت مارينا، موجودة الآن فى مجموعة مينيل، هوستون). وثمة أيقونات إشكالية أخرى، مثلا الأيقونات العديدة فى هودجيتريا للعذراء والطفل موجودة الآن بدير سانت كاترين، ربما تُلقى ضوءًا مهمًا على التطورات المعاصرة فى قبرص.

وبعد أن عاد لويس التاسع إلى فرنسا سنة ١٢٥٤م، تدهورت القوة الفرنجية بشكل مطرد فى مواجهة الغزوات المملوكية التى لاتتوقف. وفى هذه الأوقات الخطيرة، يلفت النظر أن النشاط الفنى استمر فى عكا، والواقع أن فنًا علمانيًا جديدًا قد تطور. إذ إن المستوطنين الذين عزلوا عن المسيحيين فى داخل بلاد الشام وفلسطين، وصاروا فى عزلة متزايدة، تصاعد اعتمادهم على الفنانين الذين جاءوا من الغرب. وآخر فنان صليبى كبير تم التعرف عليه حتى الآن كان مزوق المخطوطات الذى جاء من باريس بعد سنة ١٢٧٦م وعمل فى عكا خلال السنوات العشر الأخيرة من وجودها. ولأنه كان رئيسًا لورشة كبيرة منتجة، فإن «السيد من الاسبتارية» أنتج تنويعة من الكتب المزودة بالرسوم، معظمها علمانى، لأعضاء من تنظيم فرسان سان چون (القديس يوحنا) وغيرهم. وقد تضمن إنتاجه مخطوطات مصورة لتاريخ ما وراء البحار لوليم الصورى، والتاريخ العالمى، وكتاب قيصر، بل وحتى كتاب قوانين حنا إبلين **Livre des Assises**، وكلها باللهجة المحلية الدارجة، أى الفرنسية القديمة. وكان أسلوبه فرنسيًا قوطيًا خالصًا يرجع إلى سبعينيات القرن الثالث عشر، أسهم فيها الجو الشرقى بجوانب جديدة من اللون وفن الأيقونات وقد بقيت آخر دورة مخطوط له غير مكتملة، ولم نعثر على عمل من صنعه فى أى مكان آخر؛ وربما نسأل ماذا لو كان قد مات أثناء الحصار النهائى لعكا فى مايو١٢٩١م.

ومن أولئك الفرنج الذين نجوا من حصار عكا، استقر عدد فى قبرص حيث أقام الاسبتارية والداوية مقار قيادتهم. واستمرت الثقافة الفرنجية شرق المتوسط حية فى قبرص تحت حكم آل



الصليبيون الأوائل يهاجمون أنطاكية، صورة فى مخطوط ترجمة فرنسية لتاريخ وليم الصورى. والرسام الفرنسى، الذى كان يعمل فى عكا بأسلوب قوطى باريسى خالص خلال العقد الأخير من عمر المملكة اللاتينية، قد مُنح لقب «السيد من فرسان الاسبتارية» لأن من ضمن رعاته كان هناك عضو بارز من رهبان القديس يوحنا.

لوزنيان، وفى بلاد اليونان التى احتلها الفرنج، وبعد سنة ١٣٠٩م على جزيرة رودس. بيد أن الفن الصليبى متعدد الثقافات والعالمى الذى كان يميز المستوطنات على الساحل الشامى والفلسطينى، وخاصة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس، لم تمسه أبدا التطورات التى جرت فى هذه الظروف المحلية سواء من حيث الكم أو من حيث الكيف، أو من حيث الغنى والتنوع. لقد استمر الشرق اللاتينى قائمًا وإن تغيرت الظروف بشكل واضح بعد سنة ١٢٩١م، ولكن الفن الصليبى لم يستمر فى الحياة.



واحد من زوج شمعدانات فضية من القرن الثالث عشر من كنيسة الميلاد فى بيت لحم. هذا مثال أولى عن نوع الأشياء الطقسية التى سيتم العثور عليها فى جميع الكنائس الكبرى تحت حكم اللاتين، على الرغم من أن ما بقى منها قليل. وقد تم النقش باللاتينية على هذا الشمعدان بنص التحذير التالى «ملعون من يحملنى بعيداً عن مكان كنيسة الميلاد فى بيت لحم».

وقد تطور الفن الصليبى فى جميع الوسائط خلال القرن الثانى عشر، ولكنه ازدهر فى القرن الثالث عشر من خلال العمارة والرسم أساساً. وبعد سنة ١١٨٧م كان لا يزال واقعًا تحت التأثير البيزنطى القوى ومن حين لآخر ارتبطت به جوانب شامية

وأرمنية امتزجت مع مكونات أوربية غربية مهمة، ولاسيما التقاليد الفرنسية والإيطالية، لإنتاج ظاهرة إقليمية متعددة الثقافات ومتمايزة. وبينما شارك الفن الصليبى فى الأنماط الفنية الشائعة فى عالم البحر المتوسط، فإنه لم يفقد هويته. وعلى الرغم من أن ملامح معينة فى الفن الصليبى– وفنانين صليبيين بعينهم– كانت تبدو بقوة على أنها ملامح استعمارية، فإنه لم يكن فنًا استعماريًا.

كان تطور الفن الصليبى أقل تماسكا على نحو واضح بين سنة ١١٨٧م وسنة ١٢٥٠م عن ذى قبل، ولكن إعادة تأسيس مركز للرسم الصليبى فى عكا بين ١٢٥٠م و١٢٩١م أعطى بؤرة جديدة وحيوية جديدة للمشروع. وبينما كانت هناك للفن الصليبى فى القرن الثانى عشر أماكن مقدسة فى القدس وبيت لحم والناصرة، فإن جانب الحج بعد ١٢٥٠م، بل بعد ١١٨٧م فى الواقع ؛ تدهور بشكل حاد. وفى القرن الثالث عشر صار الفن الصليبى فنًا للموانئ التجارية المزدهرة وخاصة ميناء عكا. وحقيقة أن القليل جدًا من هذه الأعمال الفنية نجا من عوادى الزمان هى شهادة على سياسة التدمير «والتنظيف» من الوجود الفرنجى فى الأراضى الإسلامية. وقد حظيت الأماكن المسيحية بالتسامح بعد سنة ١٢٩١م، ولكن فى الناصرة وغيرها كان الشرط «ألا يوضع حجر فوق حجر لإعادة بناء الكنيسة».

وفى النهاية فشلت الحملات الصليبية فى تحقيق الأهداف التى كان أوربان قد أعلنها فى كليرمون سنة ١٠٩٥م. ولكن بشكل جماعى أنتج الصليبيون فنًا كان عظيمًا ومركبًا، وهذا الإنجاز بقى حتى اليوم على الأقل.

(٨)

العمارة فى الشرق اللاتينى
١٠٩٨-١٥٧١م

دينيس برينجل

خمسة قرون تقريبًا من التطور المعمارى، من الرومانسك إلى عصر النهضة، ممثلة فى مبانى المستوطنين الصليبيين بمنطقة شرق المتوسط وعلى جزيرة قبرص. وبالنظر إلى الخلفية الثقافية المختلطة للقادمين إلى المنطقة وتنوع الثقافات المحلية وتقاليد البناء التى واجهوها فى الشرق، ربما يكون أكثر ما يدعو إلى الدهشة أنه يبدو أن هناك أساليب متماسكة ومتمايزة قد ظهرت بالفعل. وربما كان العامل المشترك هنا يتمثل فى مواد البناء التى كانت متاحة.

كان بعضها مادة البناء التقليدية فى العصور الوسطى فى شتى أرجاء منطقة شرق المتوسط. فالحجر الجيرى والحجر الرملى كانا موجودين ويسهل الحصول عليهما، والبازلت فى جبل الدروز (جنوب دمشق) وشرق الجليل وممر حمص.كذلك كان الطباشير والحجر الجيرى ينتجان الجير اللازم للملاط والصقل، وغالبًا ما كانت المحاجر موجودة بالقرب من مواقع البناء، على الرغم من أن الحجر السلس الأرقى ربما كان يتم نقله عدة كيلو مترات. ففى بلفوار بالجليل (١١٦٨-١١٨٧م) مثلاً، بينما كانت معظم أجزاء القلعة مُشيدة من الحجر البازلت الذى تم قطعه من المحاجر المحيطة، أما كنيسة القلعة فقد بنيت من الحجر الجيرى الأبيض الفاخر الذى تم جلبه من جبل حرمون الصغير، على بعد حوالى خمسة عشر كيلو متر.

وفى بلاد الشام وفلسطين كان هناك نوع أكثر صلابة من الحجر الجيرى يسمى «الحجر النارى» يستخدم عادة لبناء الحوائط والأسوار، على حين كان النوع الأكثر نعومة المعروف باسم «الحجر الملكى» هو الحجر السلس المفضل لبناء الزوايا الخارجية، والأبواب، والنوافذ والزخارف المنحوتة. وفى بعض المناطق، مثل بيت لحم، كان الحجر الجيرى شبه مرمرى، مما يسمح باستخدامه بديلاً للرخام. وعلى أية حال، كان كل الرخام الفاخر المستخدم فى آثار مثل المقابر الملكية فى الضريح المقدس أو النحت المعمارى المتقن المرتبط بمنطقة المعبد مأخوذًا من الأعمدة الأثرية القديمة أو التوابيت الأثرية التى كانت قد استوردت أثناء الفترة الرومانية والبيزنطية.كذلك كانت الأعمدة الأسطوانية القديمة، سواء من الرخام أو الجرانيت، تستخدم على أيدى الفرنج، مثلما استخدمها الفاطميون قبلهم، لكى تضيف مزيدًا من الصلابة لأعمال الميناء والتحصينات فى عكا، وعسقلان، وصيدا، ويافا وقيصرية.

وكانت عمليات إزالة الغابات متقدمة تمامًا زمن الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى. وفى العصور الوسطى كانت الأخشاب المناسبة للبناء لاتوجد نتيجة لذلك سوى فى جيوب منعزلة: مثل غابات الأرز على جبل لبنان أو فى غابات الصنوبر الشهيرة فى حلب وخارج بيروت، والتى كان يُسمح للأسقف أن يأخذ منها العوارض الخشبية لكاتدرائيته سنة ١١٨٤م. وهناك أبنية معينة، مثل المسجد الأقصى، وقبة الصخرة فى بيت المقدس،



كنيسة الميلاد، بيت لحم. الكنيسة القائمة يرجع تاريخها إلى عهد الإمبراطور چستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) ومنذ سنة ١١٣٠م فصاعداً كانت الأعمدة تطلى بتصاوير للقديسين الشرقيين والغربيين، وفى ستينيات القرن الثانى عشر كانت الحوائط تغطى بالموزايكو برعاية مشتركة من الملك أماليريك والإمبراطور مانويل الأول كومنينوس.

وكنيسة الميلاد فى بيت لحم، كانت مسقوفة بأسقف مصنوعة من الأخشاب التى كانت قد استوردت فى العصر البيزنطى وعندما تم إصلاح السقف فى بيت لحم حوالى

سنة ١٤٨٠م، كان لابد من إحضار الخشب من البندقية. وعمومًا فعلى الرغم من أن الخشب كان غالبًا ما يُستخدم أثناء التشييد فى السقالات ومركز العقود والأقواس، وعلى الرغم من أن بعض المبانى كانت بها ملامح من الخشب، مثل الأدوار الخفية (المسروقة) فى أبراج قلعة يغمور، وقلعة توكلا شمال الشام، والشرفات البارزة فى قلعة چدين فى الجليل، فإن المادة الأكثر اعتيادًا للأرضيات والأسقف والشرفات، والدرج كان الحجر. وهذا يعطى المهندس الصليبى فى شرق المتوسط شخصية خاصة، ربما أكثر مما تعطيه أية مادة أخرى، وهى شخصية فرضت نفسها على حاج ألمانى إلى بيت المقدس سنة ١١٧٢م، فقد لاحظ: «إن البيوت... لاتنتهى بأسقف عالية مدببة على طرازنا، ولكنها مستوية ذات شكل مسطح».

ولابد أن الخشب كان يستخدم أيضًا فى الأجزاء الداخلية من البيوت والقلاع والكنائس ؛ ولكن هذه نادرًا ما نجت من عوادى الزمان. كما أن معظم المشغولات المعدنية قد اندثرت، على الرغم من أن الحواجز المصنوعة من الحديد المشغول التى كانت تحيط بقبة الصخرة، سواء فى الموقع أو فى المتحف الإسلامى المجاور، وقطع أخرى مشابهة يمكن أن نراها وقد أعيد استخدامها فى مساجد القاهرة.

وعلى الرغم من أن رعاة أعمال البناء معروفون أحيانًا لنا، سواء بالتسجيل الوثائقى أو حتى من خلال النقوش، فمن النادر أن نعرف البنائين أنفسهم. وهناك كتابات باليونانية والعربية فى ديرغوزيبا الأرثوذكسى بين القدس وأريحا، تعرف بأولئك الذين أعادوا بناء الدير سنة ١١٧٩م باعتبارهم من المسيحيين الشوام: إبراهيم وإخوته، وأبناء موسى من الجفنة. والواقع، أنه يبدو أن جمهرة قاطعى الأحجار المهرة فى جميع أرجاء الشرق اللاتينى كان منهم اليونانيون والأرمن (الذين تظهر علامات الحجارين منهم على كنيسة البشارة فى الناصرة) والمسيحيون الشوام، وكذلك الفرنج.

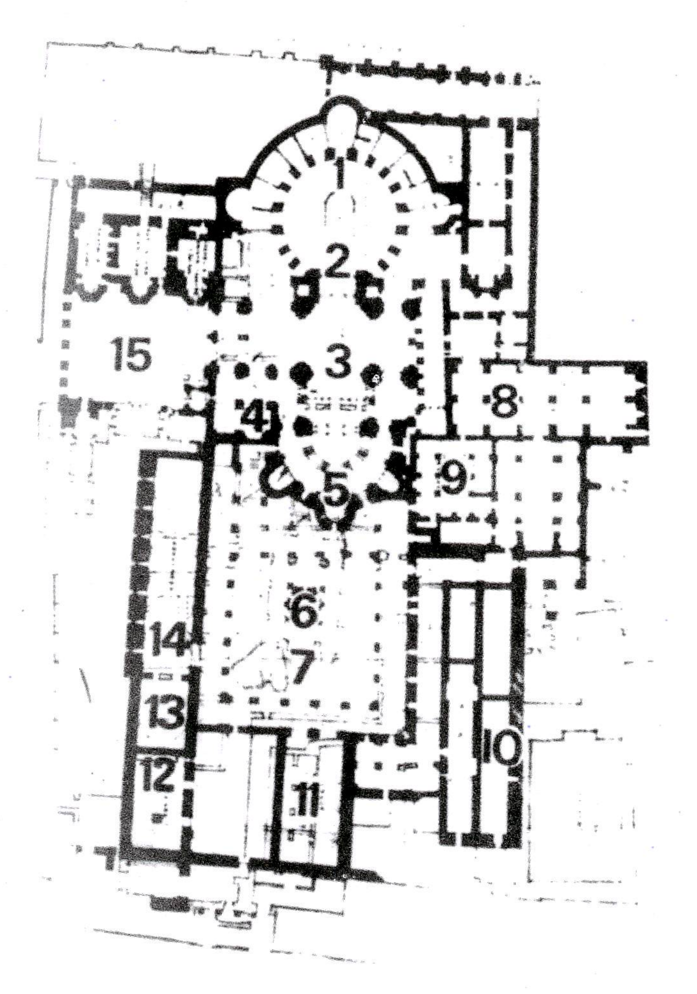
مملكة بيت المقدس، كونتية طرابلس والرها، وإمارة أنطاكية.

أدت القيود الإسلامية على بناء الكنائس الجديدة والأعداد المتضائلة والموارد المتدهورة للجماعات المسيحية المحلية إلى أن مباني الكنائس التي واجهها الصليبيون الذين وصلوا إلى بلاد الشام وفلسطين كانت صغيرة بوجه عام كما كانت أعدادها قليلة. وخلال عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠٢١م) تم تدمير معظم الكنائس الواقعة داخل مناطق النفوذ الفاطمي، بما في ذلك كنيسة الضريح المقدس (أو القيامة) نفسها.

وفي سنة ١٠٣٦م، على أية حال، سُمح للبيزنطيين بإعادة بناء الضريح المقدس. وأُعيد بناء كنائس أرثوذكسية أخرى خلال هذه الفترة حول بيت المقدس بما في ذلك دير الصليب (حوالي سنة ١٠٢٠-١٠٣٨م) وكنائس القديس حنا في عين كارم وسباسطيا .كذلك أعاد اليعاقبة بناء كنيسة القديسة مريم في عبود سنة ١٠٥٨م، وأعاد الرهبان البندكتيون الإيطاليون بناء كنائس سانت مريم اللاتينية والقديسة مريم المجدلية (للراهبات) في بيت المقدس.

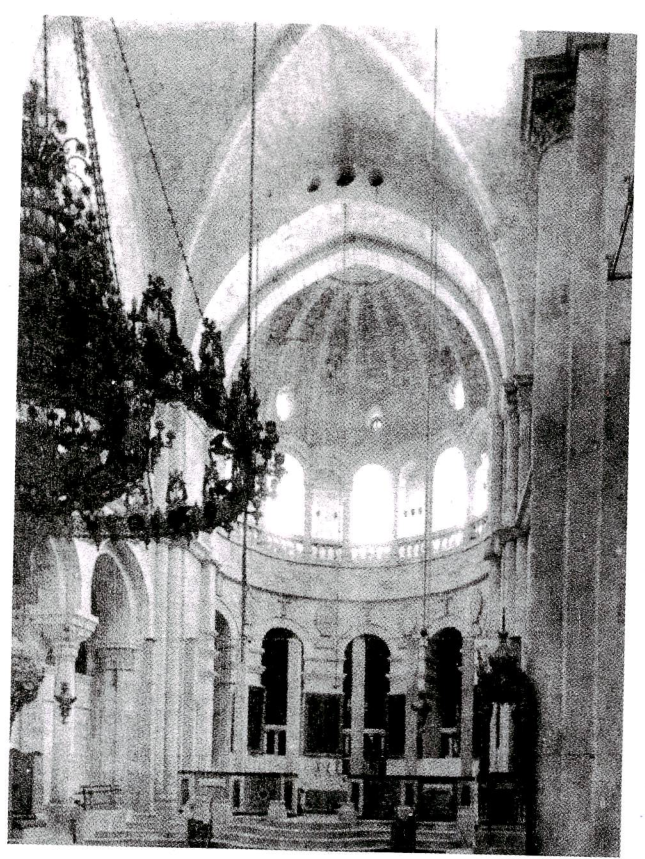
وكانت فرصة إعادة البناء في أعقاب أي غزو صليبي فرصة يغتنمها اللاتين كما يغتنمها المسيحيون المحليون بالمثل. وفي ستينيات القرن الثاني عشر، أعيد بناء كاتدرائية سانت چيمس الأرمنية كما تم توسيعها بفناء جديد باتجاه الجنوب. وعلى الرغم من أن التخطيط العام لهذه الكنيسة كانت تمليه بوضوح متطلبات الطقوس الأرمنية، فإن معظم الصنعة التي نراها على تيجان الأعمدة وعلى البوابات مشابهة لتلك التي نجدها على المباني الفرنجية في تلك الفترة؛ وعلاوة على ذلك، فإن أعمال الحجارين على الفناء تشي بأن أعمال التشييد نفسها كانت منظمة بحسب الخطوط الأوربية الغربية. وربما يعود تاريخ الكنيسة اليعقوبية كنيسة مريم المجدلية، في الحي اليهودي سابقًا إلى القرن الثاني عشر أيضًا.

كانت الستينيات والسبعينيات من القرن الثانى عشر، فترة شهدت علاقات ودية نسبيًا بين الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس والملك بلدوين الثالث والملك أمالريك مما شجع على إعادة بناء عدد من الكنائس الأرثوذكسية والأديرة، بما فيها كنيسة شوزيبا القديس إلياس (قرب بيت لحم)، وكنيسة يوحنا المعمدان بجوار نهر الأردن، وسانت مارى من القلمون بالقرب من أريحا. أما الكنائس الأرثوذكسية التى أعيد بناؤها فى القدس فقد ضمت الكنائس الصغيرة ذات القباب وهى كنيسة ميخائيل كبير الملائكة ودير العدس بالإضافة إلى كنيسة سان نيقولاس وسانت تكلا. وفى بيت لحم، تم تجديد الرسوم والموزايكو فى كنيسة الميلاد التى يرجع تاريخها إلى القرن السادس، بمساعدة إمبراطورية، حتى مع أن الكنيسة كانت تحت سلطة الأسقف اللاتينى. والواقع، أنه فى بيت لحم، مثلما كان الحال فى الضريح المقدس وفى كاتدرائية سان چورچ فى اللد، يبدو أن جماعات القساوسة الأرثوذكس واللاتين قد عاشوا جنبًا إلى جنب فى القرن الثانى عشر.

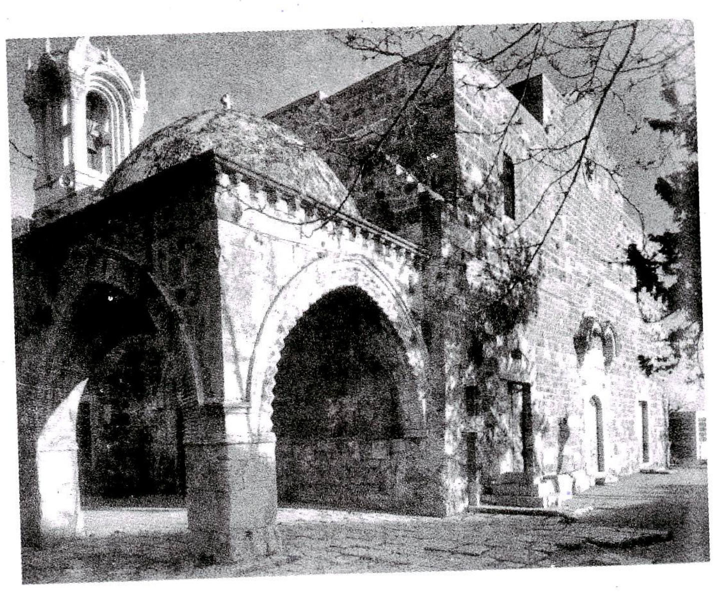


مخطط لكنيسة الضريح المقدس فى القرن الثانى عشر ودير الرهبان الأوغسطينيين ١- مظلة تحيط بمقبرة المسيح؛ ٢- مبنى القبة ٣- المعبر وشرفة الكورس ٤- كنيسة الصلب ٥- الجزء الناتئ من المبنى الدائرى ٦- كنيسة سانت هيلينا ٧- رواق الرهبان ٧- أماكن النوم (أعلى) ١١- مبنى اجتماع الرهبان ١٢- المطبخ ١- حجرة الطعام ١- فناء الكنيسة.

كانت كنيسة الضريح المقدس لاتمثل فقط الكاتدرائية البطريركية فى بيت المقدس ولكنها كانت أقدس الأماكن المقدسة جميعًا، فهى موضع موت المسيح ودفنه وقيامته. وفيما بين سنة ١٠٤٢م وسنة ١٠٤٨م كان مبنى القبة الذى يغطى مقبرة المسيح قد أعيد بناؤه ككنيسة



شرفة الكورس فى كنيسة الضريح المقدس ببيت المقدس. وقد أضيف هذا إلى مبنى القبة البيزنطى الذى يحيط بمقبرة المسيح وتم تكريسه فى ١٥ يوليو ١١٤٩م، بعد خمسين سنة بالضبط من استيلاء الصليبيين على المدينة. وقد أعاد الأرثوذكس بناء الجزء الناتئ، بمساعدة روسية بعد أن حاق بالكنيسة دمار خطير من جراء الحريق سنة ١٨٠٨م.



كتدرائية جبيل، كما أعيد بناؤها فى أعقاب زلزال سنة ١١٧٠م مع مكان التعميد فى الهواء الطلق ملحقًا بالجانب الشمالى.

على أيدى البيزنطيين الذين أضافوا رواقًا، وجزءًا بارزًا مستديرًا باتجاه الشرق. وفى أثناء النصف الأول من القرن الثانى عشر، كبَّر اللاتين المبنى بإزالة الجزء الناتئ وبناء شرفة منشدين جديدة وجناح باتجاه الشرق، ومن ثم جعلت كل المواقع التقليدية المرتبطة بآلام المسيح، مثل سجن المسيح، ومكان الصلب، والجولجوثا، ومكان التكريس (المسح بالزيت)، تحت سقف واحد. وإلى الشرق من هذا، وفى موضع البازيليكا الكبيرة التى شُيدت على يد قسطنطين الأول (١٣٣٥م) ودُمِّرت بأوامر من الحاكم بأمر الله الفاطمى (١٠٠٩م)، أقاموا مبنى منعزلاً تحيط به مبان ديرية للرهبان الذين يخدمون الكنيسة. وكان هذا المبنى يغطى كنيسة صغيرة تحت الأرض لسانت هيلانة، بنيت لتخليد ذكرى العثور على بقايا صليب الصلبوت.

ولانعرف شيئًا عن عمارة الكاتدرائية البطريركية فى أنطاكية. وعلى أية حال، فإن الكثير من الكاتدرائيات لكبار الأساقفة والأساقفة اللاتين نجت من عوادى الزمن أو تم

التعرف عليها من السجلات القديمة أو الأثرية. وكانت أعظمها كاتدرائيتا رئيس أساقفة صور والناصرة. وقياس الأخيرة حوالى ٦٨ × ٣٠ متراً. ولم يتبق من المبنى الآن سوى أطلال قليلة، وذلك فى أعقاب تدميرها بأوامر من السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٣م، وبناء كنيسة جديدة في موضعها سنة ١٩٥٩-١٩٦٩م. وعلى أية حال، يبدو أنها كانت على طراز البازيليكا ذات الأجنحة الثلاثة ولها سبعة ممرات، تنتهى بثلاثة مبان نصف دائرية منعزلة تماماً ؛ وكان الممر الشرقى من صحن الكنيسة مربعاً تقريباً، مما يوحى بأنه ربما كان مغطى بقبة أو منارة بالزجاج الملون. وكانت دعامات صحن الكنيسة على شكل الصليب، ويتصل بها عمود على كل وجه، مثلما كان الحال بالنسبة لأعمدة الممرات. وكان الجانب الشمالى يحتوى على مظلة تغطى كهف البشارة (أو منزل العذراء). أما كاتدرائية صور فكانت ذات حجم مقارب، ولكنها كانت ذات أجنحة بارزة.

ويبدو أن الكنائس الكاتدرائية الأخرى كانت أكثر تواضعاً فى بنائها، ففى قيصرية تم الكشف عن أطلال الكاتدرائية سنة ١٩٦٠-١٩٦١م. ومقياس المبنى كله لايزيد عن ٥٥ × ٢٢ متراً، له ثلاثة أجنحة بمبان نصف دائرة بارزة شرقية. وهى تشترك مع غيرها من الكنائس الأصغر حجماً فى أن عقوده كانت مسنودة على دعامات مستطيلة مع عمود فى كل واجهة؛ ومن الواضح أن صحن الكنيسة كان قائماً على عقود متصلة، وربما كانت الأجنحة كذلك. وثمة آثار على وجود رصيف تم رصفه ببقايا قطع الموزايكو وشذرات الرخام. ومن المحتمل أنه تم استكمال المبنى فى منتصف القرن الثانى عشر، ولكن الناحية الشرقية يبدو أنها قد بُنيت من جديد، ربما بعد الدمار الذى حاق بها سنة ١١٩١م أو فى سنة ١٢١٩-١٢٢٠م. والأعمدة الجديدة تختلف عن الأعمدة القديمة، ولم تتناسب بالضبط مع قواعدها. وبينما كانت عملية إعادة البناء جارية، تم بناء الجزء نصف الدائرى أمام حرم الكنيسة بشكل مؤقت لإتاحة استمرار الخدمات الدينية دونما مقاطعة.

وكانت الكاتدرائيات ذات الحجم والطراز المشابه قد بنيت فى القرن الثانى عشر فى بيروت وجبيل (جبلة) وطرطوس والكرك فى موآب والخليل واللد. وفى الخليل كان

لابد من ضغط خطة البناء لكى تتناسب مع المنطقة الهيرودية أعلى الكهف الذى دفن فيه البطاركة وزوجاتهم وربما يرجع تاريخ المبنى الحالى إلى ما بعد سنة ١١٢٠م عندما تم بالصدفة اكتشاف مدخل الكهف على يد واحد من الرهبان الأوغسطينيين، وتمت استعادة رفاة كل من إبراهيم واسحق ويعقوب وذخائرهم المقدسة.

كذلك فإن الكاتدرائية الموجودة بجبلة ذات تخطيط مستدير على نحو غير منتظم، ويحتمل أن هذا ناجم عن أنها حلت محل بناء أقدم وجوداً. وحسبما كان التخطيط الأصلى من ١١١٥ فصاعداً، لابد أنها كانت عبارة عن مبنى ذى ثلاثة أجنحة وستة ممرات، وتنتهى الناحية الشرقية بمبنى نصف دائرى بارز، وعقود صحن الكنيسة محمولة على دعامات مستطيلة ممدودة تتصل بأعمدة على واجهتها الشرقية وواجهتها الغربية، والصحن نو عقود برميلية الشكل، أما الأجنحة فعقودها متقاطعة. وعلى أية حال، لحق دمار شديد بالمبنى بفعل زلزال وقع سنة ١١٧٠م، وبعده تمت إعادة النصف الشرقى من المبنى فقط. وكما هو الحال فى قيصرية، وفى عملية إعادة البناء، التى تركزت هنا على الجناح الجنوبى، تم استبدال الدعامات بأخرى مستطيلة، وقد ألحق بالجانب الشمالى من البهو الثالث، ومن الواضح أنه يسبق تاريخ زلزال ١١٧٠م،مبنى المعمودية فى الهواء المطلق، ويتكون من ثلاثة أقواس ذات حليات زخرفية تسند قبة على نتوءات بارزة.

ويمكن أن نرى قدراً من التطور فى سباسطيا التى ربما تكون قد بُنيت فى سبعينيات القرن الثانى عشر. وكانت الكنيسة مستطيلة الشكل (٥٤× ٢٦ متراً)، ولها مبنى مركزى نصف دائرى بارز، كانت واجهته الخارجية مزخرفة، كما هو الحال فى بيروت، مع أعمدة مستديرة. أما الصحن المركزى فقد كانت له أربعة ممرات، يبدو أن ثلاثة منها قد غطتها عقود سداسية، على حين يبدو أن الممر الثانى من الشرق كان يشكل جناحًا دائريا تغطيها قبة أو منارة بزجاج. وكانت دعامات الصحن التى تسند العقود قد استبدلت بأزواج من الأعمدة الحرة، كانت تحمل منور الكنيسة والعقود الرباعية المدببة للممرات. وتشى الدراسة الحديثة لنوريث كنعان- كيدار بأن هذا المبنى

ربما كان تم تصميمه وبناؤه على يد شخص ما على أُلفة بكاتدرائية السين Sens، التى كان رئيس أساقفتها، وليم، وهو المتبرع لكنيسة سباسطيا فى سبعينيات القرن الثانى عشر. وتنتمى إلى الفترة نفسها أيضًا الكنيسة القريبة من بئر يعقوب التى تشبهها من حيث طرازها على الرغم من اختلاف مخططها.

وفى طرطوس ربما كانت الكاتدرائية قد بدأت فى الربع الثانى من القرن الثانى عشر، بيد أنها لم تكتمل سوى فى وقت ما فى القرن الثالث عشر ؛ وهكذا تظهر تيجان الأعمدة فى الصحن تقدمًا فى الطراز، من الرومانسك فى الناحية الشرقية إلى الطراز القوطى الباكر فى الغرب. وفى عدد من المناسبات فى القرن الثانى عشر اضطر المستوطنون الفرنج فى مدن مثل يافا، واللد، والناصرة إلى اللجوء لأسطح الكنائس عندما كانوا يتعرضون لهجوم من المسلمين. وعلى أية حال، تبدو كاتدرائية طرطوس فريدة بين الكنائس اللاتينية الباقية من حيث إظهارها للأدلة على التحصينات. وهناك زوج من غرف المقدسات تشبهان الأبراج تبرزان من الركن الشمالى الشرقى والركن الجنوبى الشرقى من المبنى، ومن الواضح أن القصد منهما كان توفير التغطية والحماية، كما أن الدعامات الملحقة بالأسوار الشمالية والجنوبية ربما كانت تدعم كوات إطلاق القذائف على المهاجمين التى كانت تستخدم لنفس الغرض (كما هو الحال فى كنيسة سانت مارى- دى - لا - مير بكمارجو). كذلك وجد كاميل إينلارت دليلاً على وجود زوج من الأبراج على ممرات الجناح الغربى. هذا التحويل للكنيسة إلى قلعة صغيرة يظهر أن تاريخه يرجع إلى ستينيات القرن الثالث عشر، عندما كانت طرطوس تحت تهديد المماليك.

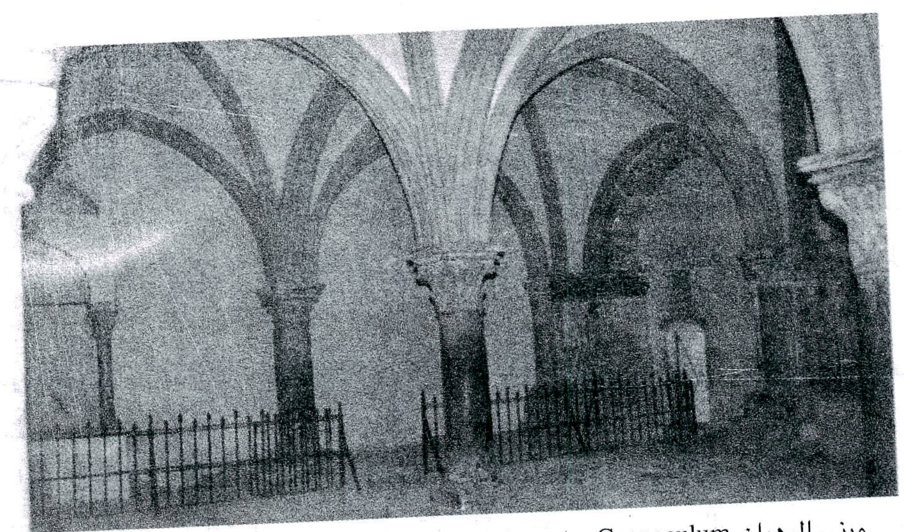


كتدرائية طرطوس، من ناحية الجنوب الغربى تظهر الدعامات الحامية على امتداد الحائط وغرفة المقدسات التى كانت بمثابة برج حماية دفاعى فى الركن الجنوبى الشرقى.

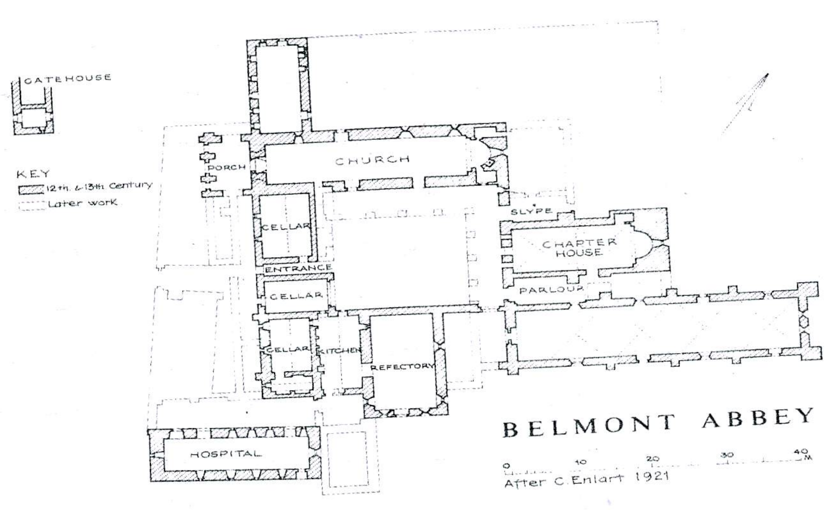
ويعكس توزيع الكنائس الأبرشية توزيع المستوطنين الفرنج، باستثناء مناطق مخصوصة معينة، مثل أراضى القدس وعكا حيث كان الاستيطان فى الريف على نطاق واسع، ويبدو أن الغربيين قد تمركزوا فى المدن بأعداد أصغر من أعدادهم فى الريف، والقلاع والأديرية الريفية. ففى غزة، والرملة، ونابلس كانت الكنائس الأبرشية تنافس الكنائس الكاتدرائية بحجمها على الرغم من أنه فى غزة ربما يشك المرء فيما إذا كان السكان قد ملأوا المبنى، وتوجد الكنائس الأبرشية الصغيرة ذات الأجنحة الثلاثة فى أميون، والبيرة، والقبيبة، وييبنا، وبيت نوبة، وصغرية، وطيبرية وقايمون. وعلى أية حال، فإن كنائس القرى كانت فى أغلب الأحيان مبانى بسيطة تشبه الصندوق ذات صحن بأقواس برميلية الشكل أو متقاطعة، ومبنى بارز نصف دائرى؛ ومثل هذه الكنائس توجد فى فاهمه وسنجيل، وبايتين ودابوريا وزيرعين وعمواس وفى مدينتى طبرية وبيروت.

وثمة عنصر مهم آخر فى المؤسسة الدينية اللاتينية فى الشرق كانت النظم الديرية تقدمه. ففى القرن الثانى عشر، أعاد الرهبان الأوغسطينيون بناء كنيسة الصعود على جبل الزيتون على مخطط ثمانى الأضلاع، تماثل قبة الصخرة (التى حولها الصليبيون إلى معبد الرب) وكانوا يقومون بخدمتها أيضا. وفى وادى الأردن تم بناء كنيسة جديدة فوق السرداب البيزنطى الذى يضم مقبرة العذراء، ومبانى الدير البندكتى لسانت أن الذى كانت تخدمه الراهبات البندكتيات. وأكبر كنيسة فى القدس بعد الضريح المقدس هى كنيسة مريم على جبل الزيتون، التى بُنيت على الموقع المفترض لنوم العذراء. وكل ما تبقى منها الآن كنيسة فى القاعة الجنوبية التى كانت بالضرورة تطل على حرم الكنيسة الرئيسية وترتبط بالغرفة العليا التى جرى فيها العشاء الأخير. والعقود المضلَّعة على الطراز القوطى الباكر فى هذا المبنى ربما تم تعديلها أواخر القرن الرابع عشر عندما آلت الكنيسة إلى الرهبان الفرنسيسكان، ولكن الآراء تنقسم حول ما إذا كان تاريخها الأصلى يعود إلى السنوات السابقة مباشرة على سنة ١١٨٧م أو إلى الفترة القصيرة التى أعيدت فيها القدس إلى الصليبيين بين سنة ١٢٢٩م وسنة ١٢٤٤م.

وخارج القدس، كان الرهبان البندكتيون يمتلكون كنيسة كبرى على جبل طابور، فى موضع التجلى (تغير هيئة المسيح على الجبل)، وفى سنة ١١٤٣م، أسست الراهبات البندكتيات، تحت رعاية الملك فولك والملكة ميليسند، دير سان لازاروس فى بيثانى لتضم كلاً من الكنيسة البيزنطية القديمة، المكرسة الآن للقديسة مريم المجدلية ومارثا، وكنيسة جديدة لسان لازاروس، بنيت فوق المقبرة نفسها ومرتبطة برواق جديد للرهبان ومبان ديرية جديدة.



مبنى الرهبان Coenaculum على جبل صهيون بالقدس. كانت الكنيسة تشغل جزءا من قاعة كنيسة مريم على جبل صهيون. وهى تخليد لذكرى الغرفة العليا التى تناول فيها المسيح العشاء الأخير مع الحواريين ونزول الروح القدس عليهم فى عيد الخمسين (العنصرة)



مخطط دير بلاموند بالقرب من طرابلس، أسس سنة ١١٥٧م

أسس الرهبان السسترشيان من موريموند ديراً تابعًا فى بلمونت بالقرب من طرابلس سنة ١١٥٧م، وديراً آخر يسمى دير الخلاص قرب بيت المقدس سنة ١١٦١م.كذلك تم تأسيس دير آخر سُمى سان چون فى الغابات بعين كارم سنة ١١٦٩م. وهناك تشابه عائلى فى الإنجاز المتواضع لهذه الأديرة الثلاثة، بكنائس ذات قلاية واحدة والمبانى الديرية المشيدة حول فناء مستطيل صغير أو رواق مستطيل صغير. وهناك القليل تشترك فيه مع الطراز العادى للخطة السسترشيانية التى وُجدت فى الغرب. ويوجد مخطط أكثر كلاسيكية لكنيسة سسترشيانية يتمثل فى المبنى الذى يتخذ شكل الصليب شيده الرهبان البريمونستراتيين فوق مقبرة النبى صمويل على جبل الفرح شمال غرب القدس. وفيما بين سنة ١٢٢٠م تقريبًا وسنة ١٢٨٣م؛ بنى الرهبان الكرمليون أيضًا كنيسة صغيرة ورواقًا للرهبان فى وادى السياح على الحافة الغربية لجبل الكرمل.

وتستحق عمارة الكنائس لدى النظم الرهبانية العسكرية ذكرًا خاصًا. وعلى الرغم من وجود عدد من كنائس الاسبتارية والداوية الباقية فى الغرب لها مخططات دائرية أو مضلَّعة، فمن الواضح أنها تقليد للمبنى ذى القبة فى الضريح المقدس (أو مبنى قبة الصخرة فى كنائس الداوية). وفى الشرق اللاتينى كانت كنائسهم فى أغلب الأحيان مستطيلة الشكل. وتماثلها كنائس القلاع الاسبتارية فى الكرك دى شيڤالييه، ومرقط، وبلڤوار وكنائسهم فى بيت جبرين، والمستشفى الألمانى فى القدس، (سانت مارى للألمان) وأبو غوش. وقد بنيت هذه الأخيرة حوالى سنة ١١٤٠م لتخليد ذكرى تجلى المسيح بعد قيامته على الطريق إلى عمواس؛ ومن الواضح تمامًا أنها كانت مرتبطة بمحطة فى الطريق لخدمة إحدى طرق الحجاج فى القرن الثانى عشر. وبالمثل فإن كنائس قلاع الداوية فى طرطوس وصافيتا كانت مستطيلة، وكانت كنيسة قلعة صافيتا على شكل البرج الحصين، ولكن الكنيسة التى بنيت فى قلعة عتليت فى وقت ما بعد سنة ١٢١٨م كان لها اثنى عشر ضلعًا وربما كانت كنيسة قلعة صفد (١٢٤٠-١٢٦٠م) مضلَّعة أيضًا.

وبالإضافة إلى المباني الدينية، شيد المستوطنون اللاتين سلسلة من المباني العلمانية طوال الفترة التي احتلوا فيها شرق المتوسط. فبخلاف القلاع، لم تحظ هذه المباني سوى بالقليل من اهتمام الباحثين نسبياً، ويعود السبب في ذلك من ناحية إلى أن الكثير من هذه المباني تدخل ضمن الهندسة المدنية لا العمارة، ومن ناحية أخرى إلى نقص العلامات التشخيصية المعمارية، مثل العلامات التي يضعها النحاتون أو الحجّارون، وهو ما يعني أنه غالبًا ما يصعب التأكد من أن بناءً ما كان من عمل الفرنج أم بناه المسلمون.

كانت معظم المدن والبلدات في الشرق اللاتيني موجودة قبل الغزو الصليبي، وهو ما يصدق أيضًا على أسوار المدن. وبالتالي فإنه من النادر أن يرد ذكر عن أعمال البناء في الأسوار في القرن الثاني عشر. وبعد سنة ١١٨٧م، على أية حال، تقلصت السيطرة الفرنجية بحيث اقتصرت على شريط ساحلي رفيع وقد بُذل جهدٌ أكبر كثيراً لتقوية دفاعات مدن مثل عسقلان وبيروت، وصور، وصيدا، وعكا، وقيصرية، وطرطوس وغالبا ما كان هذا بمساعدة مباشرة من الغرب.

وكانت معظم المدن تعتمد في إمدادات المياه على الصهاريج والآبار، على الرغم من أنه في حالة صور وأنطاكية وقيصرية والقدس، كانت هناك إمدادات للمياه عن طريق القنوات. وقد بقيت الأسواق المغطاة التي يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر في القدس، حيث تحمل بعض واجهات الحوانيت الحروف SCA ANNA، مما يوضح أنها كانت ملكًا لدير سانت آن للراهبات. وفي عكا لا يزال موجوداً جزء من مبنى الجمارك الملكي Chaine ضمن خان العمدان الذي يرجع تاريخه إلى العصر العثماني. أما أعمال الموانئ الصليبية، والتي اشتملت على ما تم في الفترة العباسية والفترة الفاطمية، فلا تزال باقية في صيدا، وصور، وقيصرية وأرسوف وعكا؛ كما تم الكشف عن حمام يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر في بلدة مجاورة لقلعة الداوية التي تسمى قلعة الحجاج Chastel Pélerin.

ويوحى الدليل الوثائقى والأثرى بوجود نمطين مختلفين من البيوت الحضرية. النمط الأصلى مغلق على الشارع الخارجى وتنفتح غرفه الرئيسية على فناء مركزى، يحتوى على صهريج لتخزين مياه الأمطار النازلة على الأسطح، وهو ما تشهد عليه المصادر المكتوبة فى القدس، وتشهد عليه الحفريات وما تقدمه من أمثلة فى قيصرية. ومن الواضح أن بيوت قيصرية قد بنيت فى القرن الحادى عشر، ولكنها توسعت وتم الحفاظ عليها بأيدى الوافدين الجدد من الفرنج فى القرن الثانى عشر. والنمط الثانى من المنازل يشبه تلك المنازل التى وجدت فى الغرب بالمناطق التى تقع على حدود البحر المتوسط، وبها الحوانيت والأسواق أو الرباع Loggia تفتح على الشارع بمستوى الأرض وبها عدة طوابق من الشقق السكنية، أو بيوت التدفئة الشمسية أعلى المنزل. وهناك أمثلة مسجلة في بيت المقدس، وعكا، وقيصرية ونابلس.



جــزء مــن شـارع السـوق المغطى الذى كـانت الملكة مـيليسند قد بنتـه سنة ١١٥٢م. وبعد عقدين من الزمان كتب ثيودوريك الألمانى الذى زار القدس حاجًا: «كل شـوارعهـا تقريبًا مرصوفة بالأحجار الكبيرة والكثير منها مغطاة بعقود حجرية، مع نوافذ هنا وهناك لكى تسمح بدخول الضوء».

وعلى الرغم من أنه فى معظم الحالات كان سكان المدن يبنون فوق بنية تحتية موجودة قبل الغزو الصليبى، فقد حدثت بعض إنشاءات حديثة أيضًا. ففى عكا تم بناء ضاحية مونتموسارد الجديدة وتسويرها رسميًا بحلول سنة ١٢١٢م، مما زاد فى حجم المدينة بنصف حجمها السابق. وربما تم بناء الحى المسوَّر الملحق بقلعة الحجاج المملوكة لفرسان الداوية فيما بين سنة ١٢٢٠ وسنة ١٢٦٥م، عندما خرَّبها السلطان بيبرس. كذلك نجد «مدنًا فرنجية جديدة»، كانت على الرغم من أنها زراعية أساسًا تمتلك محاكم للمواطنين وتجارًا متخصصين بين سكانها، مما يشير إلى أنها كانت فى الواقع مدنًا لم تكتمل بعد. ففى القبيبة والبيرة، والزيب، كانت للمستوطنات خطط منتظمة، وبها البيوت مبنية ومفتوحة على شارع رئيس ولها امتداد من الأرض خلفها، وفى الشوبك شرق الأردن والمعلية فى الجليل كانت المستوطنات مبنية داخل أسوار القلعة الملكية.

وفى الريف نجد فى السجل الأثرى سلسلة من أنماط المبانى العلمانية. ويمكن أن نصنفها إلى فئات من حيث وظيفتها على النحو التالى: القلاع التى كانت بحوزة كبار السادة أو المنظمات الرهبانية العسكرية؛ القلاع الصغيرة أو بيوت الضياع شبه الحصينة– وهى ما تعادل ما يسمى masion forte فى الفرنسية أو moated manor-house بالإنجليزية– وكان يمتلكها السادة الأقل شأنًا، والفرسان، أو ضباط الصف ؛ ومراكز الضياع أو مبانى المحاكم Curiae، التى كان يشغلها موظفو الضيعة، أو ناظر الضيعة، أو أعيان القرية. ومساكن القرية العادية سكنها الفرنج والسكان الأصليون. وعلى أية حال، فإن الربط بين هذه الفئات ليس سهلاً، لأن الكثير منها خرائب وغير موثق.

وثمة بيوت قروية قليلة باقية، على الرغم من إجراء حفريات جزئية. وتحمل البنايات المشيدة على نحو أكثر صلابة فى مدينة القبيبة «الجديدة» طبيعة حضرية، وفيها حوانيت بالدور الأرضى، وأماكن للسكان فى الأدوار العليا. وهناك عدد من البيوت ذات القاعات، وثمة أمثلة على هذا فى خربة البرج، وكندة، وبيت عيتاب. وكان هذا الأخير

فى الأصل مبنى من طابقين أبعاده ٣,١٣×٢٩متراً، وله باب يتم الدفاع عنه من خلال كوة وسلم داخل السور يؤدى إلى القاعة الموجودة فى الطابق الأول. وفى مرحلة ثانية، تم دمجه فى مبنى المحكمة الذى يتألف من أربعة صفوف مقامة حول فناء مربع له مدخل جنوبى. وفى ذلك الحين كان يتم الدخول إلى الفناء عن طريق سلم خارجى مباشرة، وفى سنة ١١٦١م باع الفارس چون چوثمان بيت عيتاب إلى كنيسة الضريح المقدس لكى يدفع فديته إلى المسلمين. ويبدو محتملاً أن القاعة كانت المركز الذى يمارس منه سيادته.

وثمة مبانى محاكم أخرى نعرفها، ومن المحتمل أن بعضها أيضا كان عبارة عن مراكز للسيادة الإقطاعية. ولكن أحدها، وكان مبنيًا على أراضى قرية أكوا بيللا، غرب القدس يبدو أنه كان مبنى كنسيًا، ومن المحتمل تمامًا أنه كان من أملاك الاسبتارية المخصصة لأغراض الاستشفاء، وكان الاسبتارية يمتلكون القرية فى ستينيات القرن الثانى عشر. وهناك مبنى آخر، تم بناؤه فى الرام، شمال بيت المقدس، ربما يكون محكمة ناظر الضريح المقدس، وكان سكان «المدينة الجديدة» مضطرين إلى دفع إيجاراتهم. ومن ثم فإن الشكل العام للمبنى ليس مؤشراً يعول عليه فى معرفة وظيفة ما للمبنى، خاصة عندما لايتبقى سوى القليل.

ولابد أن القلاع التى كانت تمثل مراكز السيادة الإقطاعية كانت تتشابه فى وظائفها إلى حد كبير مع مبانى المحاكم والقاعات؛ ويتمثل الاختلاف الرئيسى فى درجة دفاعاتها. والواقع أن بعض القلاع يبدو أنها تطورت من بناءات صغيرة حصينة أو شبه محصنة. ففى قلاع سانت إلياس (الطيبة) وبلمونت (سوبا)، مثلاً، شمال شرق وغرب القدس على التوالى، هناك عنبر داخلى أصلى، يتكون من مبنى محكمة تتوفر له الشروط الدنيا للدفاع النشط، وفيما بعد تمت إحاطته بسور خارجى حصين مضلَّع بمنحدر زلق، على امتداد محيطه.

كانت الأبراج هى أكثر ما يمكن الدفاع عنه بين الأبنية، وقد تم توثيق خمسة وسبعين برجًا منها فى مملكة بيت المقدس وحدها، وكان بعضها منعزلاً بصورة

واضحة، وبعضها كان يحيط بها سور يطوقها ؛ وقد تطور البعض الآخر بمضى الزمن إلى قلاع كاملة النمو، كما هو الحال فى طرابلس واللاترون ومجدل يابا وقلعة الشقيف أرنون. وعلى أية حال، يبدو أيضا أن الكثير من الأبراج كانت ذات أغراض سكنية. وهذا واضح بشكل خاص فى حالة الأبراج الأكبر حجمًا مثل برج الأسقف فى بيت لحم، ويرجى ناظر الضياع فى الرام وفى البيرة، والأبراج الموجودة فى قلاع عيبيلين، وقلعة الجدين، وقاقون، ومد الدير، وبرج الأحمر وأم الطيبة. والواقع أن بناء هذه الأبراج العام مشابه لبناء مبنى القاعة، الذى كان يضم منطقة معيشة فوق سرداب ذى عقود وأسفل سقف شرفة مسطح، كما أن تحليل مناطقها الداخلية يظهر أنها غالبًا ما كانت متقاربة مع منازل القاعات من حيث الحجم. أما الأبراج الأصغر حجمًا (أى أقل من ٦٠ إلى ٧٠ مترًا مربعًا داخليًا) فربما كانت تؤدى سلسلة واسعة من الوظائف، فقد كانت مثلاً تستخدم ملاجئ أو مراكز استطلاع. بل إن برجًا صغيرًا نسبيًا مثل ذلك الموجود فى جبع، الذى تم بيعه إلى دير سانت مارى على جبل صهيون من الفارس أماليك فرانكليو (floruit 1171-9) كان به بيت شمس فوق طابقه الأول.

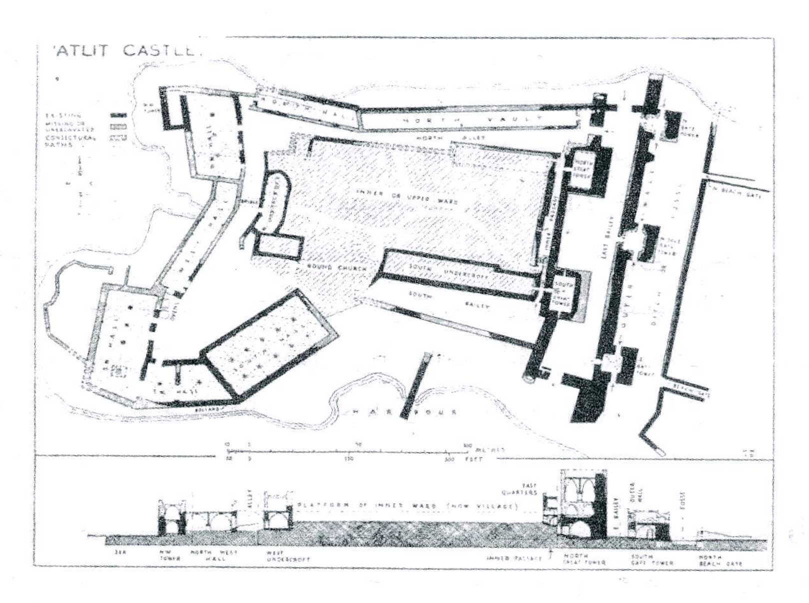
ويبدو أن قلاعًا أخرى قد أُخذت منذ البداية بمفهوم الاعتبارات العسكرية وليس باعتبارات السكنى. ومن بين الأمثلة على هذه القلاع ذات الأبراج الأربعة التى يصفها وليم الصورى ويقول إنها قد بنيت للإحاطة بعسقلان فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الثانى عشر ؛ وهى قلعة تل الصافى، وقلعة يبنا، وقلعة بيت جبرين، وربما غزة. ففى سنة ١١٣٦م تم منح بيت جبرين إلى فرسان الاسبتارية. ولابد أن حاميتها بالتالى كانت تتكون من مجموعة من الفرسان الذين يعيشون فى جماعة، ولهم غرف للنوم، وصالة طعام، ومطبخ وكنيسة صغيرة ملحقة بالقلعة وغير ذلك من المبانى الديرية تُحيط بالفناء المركزى. ونجد نمطًا مشابهًا من التخطيط فى قلعة الاسبتارية بلفوار التى شغلوها فى وقت لاحق، والتى كان بناؤها من سنة ١١٦٨م فصاعداً، حيث كان الجناح الداخلى ذو الأبراج الأربعة له برج خامس بمدخل منحن أُضيف إليه، وجناح خارجى يضم مبانى الخدمات والإقامة لأفراد الحامية. وعلى أية حال، لم تكن مثل هذه القلاع قاصرة على النظم الرهبانية العسكرية، لأن قلعة تل الصافى وقلعة يبنا كانتا قد مُنحتا

إلى ملاك علمانيين، كما كانت قلعة دير البلح وقلعة المعلّية اللتان وجدتا بحلول سنة ١١٦٠م، من القلاع الملكية. وقد يفترض أن هذه القلاع كانت تضم بالضرورة قاعة، وغرفًا، وكنيسة صغيرة، ومطبخًا للسيد أو صاحب القلعة. أما قلعة القُرين وقلعة جودين اللتان بناهما الفرسان التيوتون فى الجليل أوائل القرن الثالث عشر على النمط الذى عرفته قلاع أراضى الراين، ببرج رئيسى ومبنى سكنى ملحق بهما يحيط بهما سور واق عال، فهما تكشفان أيضًا عن أنه فى تخطيط القلاع كانت النظم الرهبانية العسكرية معتادة على توفيق أنماط القلاع العلمانية مع حاجاتهم.

وأثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر، تم إحراز عدة مراحل متقدمة فى فن التحصين فى الشرق اللاتينى. وكان من ضمنها تطور بوابات أكثر تعقيدًا، يتم الدفاع عنها بمزيج واسع النطاق من البوابات، والشعريات الحديدية التى تحمى مدخل الحصن، وحفر القتل، غالبًا مثلما كان الحال فى بلفوار، وصور وصهيون، وطرطوس، والقدس، وقيصرية، مع مدخل غير مباشر أو مدخل منحن، وقد بنيت الأسوار الواقية وبها صفان من فتحات رمى السهام على مستويات مختلفة مع كوى لرمى القذائف أعلى السور لمنع المهاجمين من الاقتراب من القاعدة. أما أهم ما تم إحرازه من تقدم فقد كان، على أية حال، يتعلق بتكاثر التحصينات الخارجية، المصممة لإبقاء العدو وأبراج الحصار ومنجنيقاته القاذفة للأحجار على بعد مسافة من الأسوار الرئيسية. وهناك تطورات مشابهة كانت تجرى أيضا فى أوربا الغربية، على الرغم من أنها كانت متخلفة عن الشرق حيث كان الفرنج بالفعل قد واجهوا تخطيطًا «تركيزيًا» عندما فرضوا الحصار للمرة الأولى على أماكن مثل القدس (١٠٩٩م) وعكا (١١٠٣م) وصور (١١٢٤) وعسقلان (١١٥٣م). وفى القلاع كان التخطيط على أساس الدفاع المتمركز فى بلفوار وبلمونت قبل سنة ١١٨٧م، وفى الداروم كان موجودًا بحلول سنة ١١٩٢م. وعلى أية حال، فإن بعض القلاع التى تمتعت بخطط تركيز قوية لم تتخذ شكلها النهائى سوى فى القرن الثالث عشر، ومن بينها قلعة الكرك دى شيفالييه وقلعة مرقط المملوكتان للاسبتارية وقلعة



البرج الفرنجي المحصن، الذى أضيف إلى قلعة صهيون البيزنطية فيما بين ١١٠٨م و١١٣٢م والبرج الضخم الذى يرتفع ٢٢ متراً بأسوار تبلغ أكثر من أربعة أمتار سُمكًا، لايمثل فقط تقوية مهمة للسور الشرقى المكشوف من القلعة، ولكنه احتوى أيضا على أماكن للإقامة فى الطابق الأعلى.



مخطط أرضى وقسم من قلعة عثليت التى بناها الداوية من ١٢١٧م ١٢١٨م فصاعداً على موقع يحيط به البحر بين حيفا وقيصرية، وقد برهنت الدفاعات المتمركزة على فعاليتها بحيث كانت القلعة واحدة من المواقع الفرنجية الحصينة بمملكة بيت المقدس وبقيت حتى هجرت سنة ١٢٦١م.

عثليت وقلعة طرطوس المملوكتان للداوية، ولم يحدث أبداً أن تم الاستيلاء على قلعة طرطوس بالهجوم عنوة.

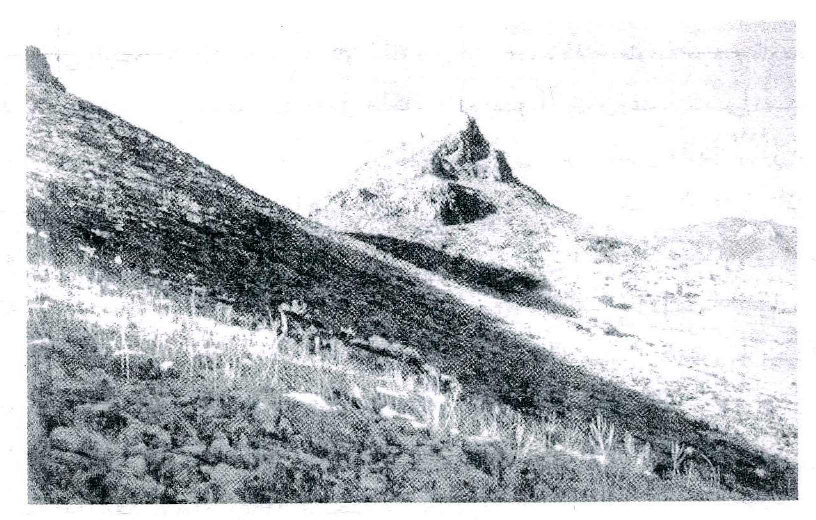
وربما لاتزال أطلال بنايات أخرى من زمن الاحتلال الصليبى موجودة فى الريف؛ ومن بينها طواحين الماء الأفقية والسدود والصهاريج، والقناطر والطرق، والاصطبلات، والمطابخ، والمؤسسات الصناعية التى تنتج السكر، والملح، وزيت الزيتون والحديد والزجاج والجير.

أرمينيا الصغرى (١١٠٠-١١٠٢ / ١٣٧٥م)

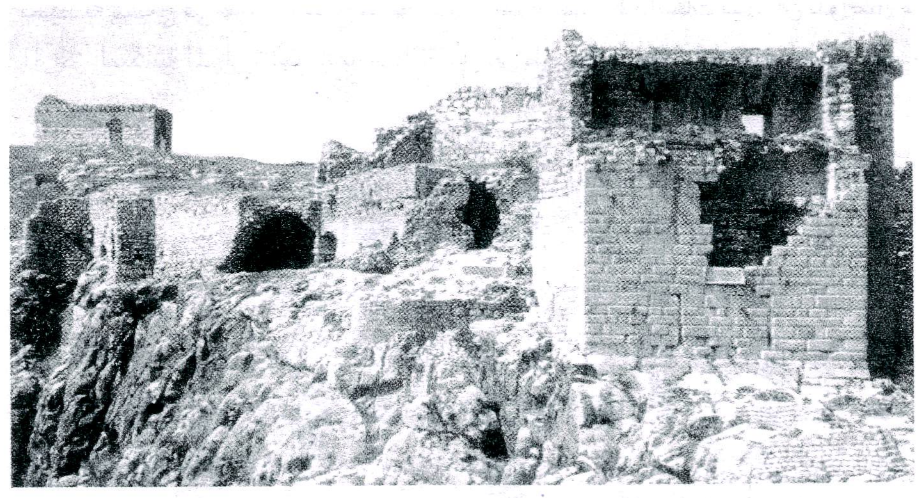
استوطن قليقية عدد متزايد من الأرمن منذ منتصف القرن الحادى عشر فصاعداً، تحت حماية الإمبراطور البيزنطى. ففى يناير ١١٩٩م، قام البارون ليو

الروبينى بتوحيد أسرته مع الهيثوميين الموالين لبيزنطة وتم تتويجه ملكًا. وعلى الرغم من أن المملكة استمرت حتى سنة ١٣٧٥م، فإنها بقيت مختلطة تمامًا من الناحية الثقافية. وإذ كانت قليقية ولاية بيزنطية سابقة استوطنها الأتراك جزئيًا بالفعل، فقد استعمر الفرنج المناطق الساحلية الجنوبية والشرقية من قليقية منذ سنة ١٠٩٧م؛ ومنذ تسعينيات القرن الثانى عشر فصاعداً، تم منح البنادقة والچنوية، والنظم الرهبانية العسكرية، مساحات من الأراضى. وعلى الرغم من أن الملك هيثوم الأول كان قادراً على الوصول إلى تفاهم مع المغول فى أربعينيات القرن الثالث عشر، فإن سلاطين المماليك كانوا هم الذين يمثلون أعظم خطر، وهم الذين قضوا فى النهاية على المملكة سنة ١٣٧٥م.

وينعكس تاريخ أرمينيا الصغرى العاصف وتنوعها الثقافى على عمارتها. والمبانى التى تركت أوضح بصمة على الأرض هى الحصون. وعلى أية حال، فإن تاريخ هذه الحصون وإسهامها الثقافى لم يقفا على أرض صلبة سوى منذ فترة قريبة، بفضل أعمال روبرت إدواردز. ومن بين الخصائص التى تميز الأعمال الأرمنية: التخطيط غير المنتظم، والنطاق الدائرى المحيط بالموقع، تتابع الأسوار بحيث يكون هناك سور أسفل السور الآخر؛ انحدار قاعدة السور ؛ نقص الأبراج المحصنة، والشرفات ذات الفتحات بالحواجز المستديرة فى أعلاها، ومقسمة إلى أقسام بواسطة أبراج مبنية فيما بينها، نقص فى الخنادق، وبوابات ذات مداخل غير مباشرة تؤدى إليها، وأبواب ذات عوارض وبقضبان سحب، تسبقها كوى مستطيلة، ومبانى بوابات تحتوى إما على مدخل منحن أو فرچات محصنة لإطلاق القذائف ذات قواعد مستوية ورؤوس مستديرة مقطوعة من حجر واحد؛ مع تفضيل للعقود المدببة. وتحتوى معظم القلاع أيضا على كنيسة صغيرة وصهريج.



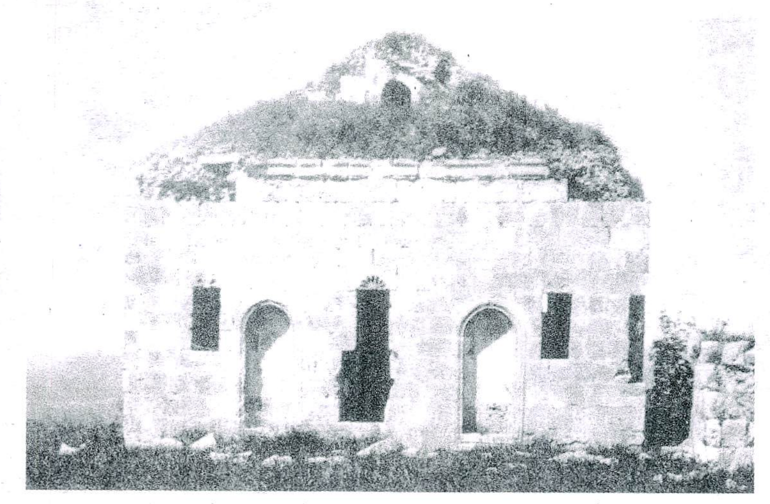
قلعة سيس، بالقرب من قوزان، التى حلت محل أناڤارزا عاصمة لقليقية تحت حكم الروبينين حوالى سنة ١١٩٠م وكانت مقر البطريرك الأرمنى منذ ١٢٩٢م والتخطيط غير المنتظم يتبع النطاق الدائرى بروز الحجر الجيرى على ما يزيد على ٦٨٠ متراً.



الحصن المنيع الفرنجى **donjon**، أضيف إلى قلعة أناڤارزا بين سنة ١٠٩٨م وسنة ١١٠٨م فى تاريخ يسبق بناء القلعة على أيدى البارونيين الأرمنيين ثوروس الأول وليو الثانى.

وعلى الرغم من أنه غالبًا ما كان يُفترض أن معظم قلاع قليقية يرجع تاريخها إلى الفترة السابقة على تتويج ليو الأول ملكًا، فإنه يبدو الآن أن عددًا كبيرًا منها يرجع تاريخه إلى الفترة السابقة عندما كان الهيثوميون والروبينيون المتنافسون يوطدون أنفسهم فى الإقليم. وكثير من القلاع تضم أعمالاً من فترات مختلفة. ففى «أناڤارزا»، مثلا، يسبق تاريخ القلعة الحملة الصليبية الأولى، التى أضاف المشاركون فيها إلى القلعة ببناء برج حصين **donjon** على جزء من الموقع؛ والفترة الأرمنية النهائية ممثلة فى التعديلات التى أجريت عليها فيما بعد، والتى يحدد أحد النقوش تاريخها بسنة ١١٨٧-١١٨٨م. وكانت قلعة جزيرة كوريكوس من عمل البيزنطيين فى بواكير القرن الثانى عشر، وقد أصلحها كل من ليو الأول وهيثوم الأول. وثمة قلاع أخرى، مثل بغراس وسيليفكى، تبدو أعمالا فرنجية فى جوهرها.

وبالإضافة إلى القلاع الأكبر، التى كانت تستخدم كمقرات بارونية أو ملكية، ومواقع للحاميات كذلك، تم تسجيل أبنية محصنة أخرى. وهى تضم مواقع مراقبة، تتكون من مبنى يحيط به سياج فى مواضع تتيح مسح الطرق بشكل يتيح للحاميات فيها أن تتواصل مع المراكز السكانية المجاورة إما بإشارات النار، أو عن طريق الرسل، ومنازل الضياع التى تشبه



الحائط الشرقى للكنيسة البارونية التى بناها ثوروس الأول بقلعة أناڤارزا سنة ١١١١م، كما صورها جريتود بل سنة ١٩٠٥م

فى وظيفتها بيوت القاعات والأبراج التى تنتمى إلى سادة الضياع أو حائزى الإقطاعات التى كانت موجودة فى فلسطين وبلاد الشام زمن الصليبيين. وواحدة من مثل هذه القلاع، عبارة عن مبنى من طابقين، مقياسها الكلى ١٨ × ٨,٥ متراً، وهى قلعة بيلين كيسليك كاليسى، مع مدخل بالطابق الأرضى فى أحد الجوانب الأطول، يمكن الدفاع عنها من خلال كوى مستطيلة . وثمة درج فى قبو ذى عقود برميلية الشكل يؤدى إلى منطقة المعيشة الرئيسية كانت إضاءتها تتم من خلال نوافذ مستطيلة. وفى جوسنى وفى مكانين يسميان سيناب، أحدهما بالقرب من لامبرون والآخر بالقرب من ساندير، نجد فى بيوت الضياع أبراجًا مستديرة، أو دعامات مرتبطة بالأركان.

ولدواعى الأمن، يبدو أن المجتمع الأرمنى فى قليقية كان قائمًا بصفة أساسية على القلاع، وكان كثير منها قائمًا فى الأماكن العالية من جبال طوروس. وكان الاستيطان على الساحل أو فى السهل محدوداً، وباستثناء سيس (التى دمرها المماليك سنة ١٢٦٦م)، وطرسوس، وأضنة، والمصيصة، التى ورد ذكرها على أن بها الكنائس، ولم يكن الاستيطان الحضرى عاديًا. والواقع أن الكنيسة الوحيدة التى قُيِّض لها البقاء، هى كنيسة سان بول (أو العذراء) فى طرسوس، ذات طابع غربى، ويبدو أنها بنيت خلال العقود الأولى من القرن الثانى عشر. ولها ثلاثة أجنحة ذات عقود برميلية الشكل، تقوم على دعامات من الأعمدة.

ومعظم ما بقى من الكنائس الأرمينية والكنائس الصغيرة موجودة فى القلاع. وإحدى أهم الكنائس هى الكنيسة التى بناها ثوروس الأول تكريمًا لأسلافه فى السور الجنوبى لقصره فى أناڤارزا سنة ١١١١م. ومن سوء الحظ أن هذا قد صار خربًا بشكل سيئ منذ تسجيله على يد جرترود بل سنة ١٩٠٥م. وقد بُنيت بالحجر المربع الناعم مع قلب مصبوب من المسلح المصنوع من كسر الحجر. وكان المخطط مستطيل الشكل، بثلاثة أجنحة ذات عقود برميلية تنتهى بنتوءات نصف دائرية تحيط بالمبنى. وكانت الأروقة من ثلاثة ممرات، مقامة على دعامات مستقيمة مسطحة ذات قواعد مزخرفة. وكان الداخل مُزينًا فى الأصل بالفريسكو. وكان لكل من الباب الغربى والباب

الجنوبى عتبة عليا مقوسة لتريح الباب، مكونة إلى حد كبير من المنهوبات القديمة. كذلك كانت للواجهة الغربية نوافذ تضئ الأجنحة وكانت هناك فتحات فى الجملون؛ وكانت زوايا المبنى الخارجية معززة بشرائط مُزيَّنة من الأعمدة المستطيلة، وكان هناك نقش يسجل اسم البنَّاء أسفل الأفريز. وفى فترة ثانية تم إضافة غرفة بارزة نصف دائرية إلى الجانب الشمالى من الكنيسة.

فى سادنير تم تكريس كنيسة سمبات الكونستابل سنة ١٢٥١م. ويشبه مخططها العام مخطط كنيسة ثوروس، ولكن حظها من الحفظ أقل منها، إذ انهارت عقودها، ولكن ربما كانت على شكل قاعة مسقفة بقبة بدلاً من العقود برميلية الشكل. والغرف البارزة نصف المستديرة على الجوانب منفصلة عن الأجنحة وصحن الكنيسة بحيث تشكل غرفًا صغيرة ذات عقود برميلية لها شكل غرف المقدسات وملابس الكهنة. وكان للكنيسة أيضًا كنيسة صغيرة جانبية بارزة أو ممر يؤدى إلى الكنيسة تمت إضافته فى الجهة الجنوبية.

وتشكل الكنائس الصغيرة فئة أكثر عدداً من المبانى الكنسية. وتتكون معظمها من صحن ذى عقود برميلية، ومبنى بارز شبه دائرى، سواء كان بارزًا من المبنى أو تم تدويره من الخارج. وفى بعض الأحيان، كما هو الحال فى ماران، وسيم، وميدان، ومانسيلنيك، كان يشكل جزءا من الدائرة الدفاعية.

قبرص ١١٩١-١٥٧١م

تضم قبرص، حيث استمرت السيطرة الفرنجية على مدى ما يقرب من أربعة قرون، أوسع تطور معمارى شهدته أية منطقة استوطنها الصليبيون وأكثرها امتداداً، من كنيسة سانت صوفيا ذات الطراز القوطى الباكر فى نيقوسيا إلى واجهة قصر البروفيديتورى Palazzo del Provveditore الذى بنى فى عصر النهضة (١٥٥٢م) بفاما جوستا، وبينما كانت نيقوسيا مركز الإدارة الملكية والكنسية، أخذت فاماجوستا على

الساحل الشرقى دور عكا باعتبارها المركز التجارى الرئيسى للغرب فى شرق المتوسط؛ وعلى الرغم من سرقة الأحجار من مبانيها لبناء ميناء بورسعيد فى منتصف القرن التاسع عشر، فإن أسوارها المحيطة بالمدن ما تزال تضم معظم المجموعة الاستثنائية من الكنائس اللاتينية الباقية فى أى مكان من الشرق خارج القدس.

ويُعزى فضل بداية العمل فى كنيسة سانت صوفيا الكاتدرائية بنيقوسيا إلى كبير الأساقفة ايستورج المونتيجوى (١٢١٧-١٢٤٩م) على الرغم من أن هناك بعض الأدلة التى توحى بأن البناء كان قد بدأ قبل ذلك. ولم يحدث قبل سنة ١٣١٩م على أية حال، أن كان صحن الكنيسة والمجاز المؤدى إليها قد اكتملا عندما أتم خليفته چيوڤانى دلكونتى العمل، وسنة ١٣٢٦م عندما انتهى تشييد المبنى نهائيًا. والشكل هو شكل كاتدرائيات فرنسا القرن الثالث عشر، مع اختلاف أن الأسطح فوق العقود لم تكن من الأخشاب ولكنها ذات شرفات حسب العادة فى منطقة شرق المتوسط؛ وعلاوة على ذلك لم تُستكمل الأبراج الغربية أبدًا.

وكان للمبنى صحن وأجنحة ذات خمسة ممرات تنتهى إلى شرفة مدورة للكورس ولها ممشى. ودعامات الصحن أسطوانية، على حين أن عقود الممشى محمولة على أربعة عواميد أثرية أُعيد استخدامها وكانت هناك خمس كنائس صغيرة إضافية ملحقة بالكنيسة، بما فى ذلك كنيسة السيدة (١٢٧٠م) فى الجناح الجنوبى من الكنيسة، وكنيسة مكرسة لسان نيكولاس فى الجناح الشمالى، وكنيسة توماس أكويناس أيضًا فى الجنوب، وكانت هذه الأخيرة قد زخرفت فى أواخر القرن الخامس عشر برسومات «أساطير العالم اللاهوتى المقدس» (أكويناس).

كانت كنيسة سان نيكولاس الكاتدرائية فى فاماجوستا قد بدأ العمل فيها حوالى سنة ١٣٠٠م، ويسجل نقش غرب الباب الجنوبى استئناف العمل فيها بناء على تعليمات



شرفة الكورس جوقة المنشدين فى كنيسة سانت صوفيا الكاتدرائية، نيقوسيا، يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر.

الأسقف بلدوين لامبرت سنة ١٣١١م. وإذا ما حكمنا من اتساق طرازها القوطى الفرنسى الواثق يبدو أن البناء الرئيسى وقد اكتمل إبان النصف الأول من القرن. والنظرة الأولى لواجهته الجنوبية، ببواباتها الثلاث الكبيرة بمظلاتها المثلثة الزوايا، ونافذتها التى تعلوها عجلة سداسية الضوء، وأبراج أجراسها التى كانت ذائعة الصيت فيما مضى، تذكرنا بكنيسة ريمس (عشرينات وثلاثينيات القرن الثالث عشر)؛ والواقع أن الإشارة الضمنية ربما كانت مقصودة، طالما أن ملك قبرص من آل لوزينان قد توج فى هذا المكان ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية. وكما هو الحال مع معظم

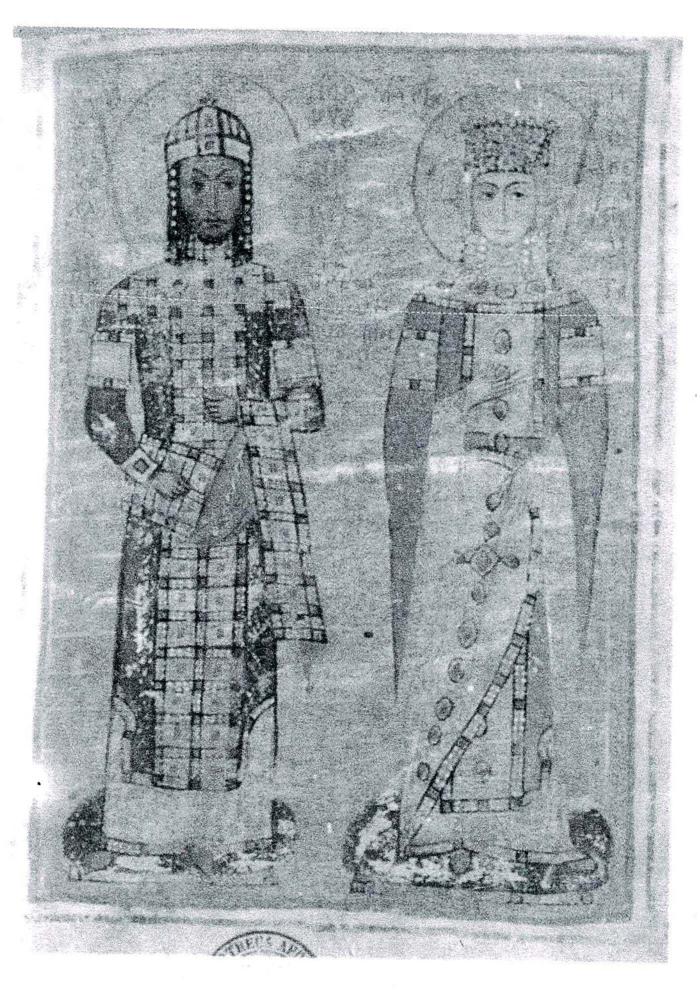
البنايات اللاتينية فى الشرق على أية حال، لم تكن التأثيرات الغربية مقصورة على مصدر واحد، كما أن تفصيل الداخل يحمل ما هو أكثر من العناصر المشتركة مع العمارة الجميلة لكنيسة سان أوربان فى تروى التى بدأ العمل فيها سنة ١٢٦٢م.

من بين الكنائس الثمانين التى قيل إنها كانت فى نيقوسيا سنة ١٥٦٧م، لم يتبق سوى نصف دستة أو نحوها. وهى تتضمن دير سيدتنا فى صور الذى بناه البندكتيون أوائل القرن الرابع عشر (وهو الآن كنيسة مريم العذراء للأرمن)، وكنيسة سانت كاترين القوطية الطراز المزخرفة التى بنيت فى أواخر القرن الرابع عشر (وهى الآن مسجد حيدر باشا). وثمة تدهور فى مستويات البناء يمكن ملاحظته فى الواجهة الجنوبية التى بُنيت أوائل القرن السادس عشر لكنيسة سان نيقولاس المطرانية الأرثوذكسية (المعروفة الآن باسم البدستان). وموضعها جنوب فناء كنيسة سانت صوفيا؛ على حين يمثل الداخل مزيجًا من الطراز اليونانى والقوطى المتأخر الغربى وطراز عصر النهضة، وتبدو محاولة البنائين تقليد الباب الغربى الرئيسى للكاتدرائية مسطحة ولاحياة فيها.

وبينما كانت الطرز الغربية سائدة فى المدينتين الرئيسيتين، حتى فى كنائس الأرثوذكس والنساطرة والأرمن، فإن طرازًا أكثر بيزنطية ساد فى المناطق الريفية. وعلى أية حال، كانت لبعض الكنائس الريفية كنائس صغيرة مضافة إليها لكى يستخدمها المهاجرون اللاتين: مثلما هو الحال فى كنيسة لعائلة فى جبليتس بكيتى وكنيسة دير سان چون لامباديستيس فى كالابنايوتيس، وثمة كنيسة صغيرة مبنية على ضيعة ملكية فى بيرجا سنة ١٤٢١م لاتتميز فقط بأنها تحمل اسم الحجَّار «باسوجيس»، البارز على الباب الجنوبى، ولكنها مزخرفة فى الداخل بالرسوم، ومن ضمنها رسم يمثل حادثة الصلب مع تصوير الملك يانوس وزوجته شارلوت البوربونية راكعين. وفى بنايات أخرى، مثل كنيسة مورفو اليونانية، التى تضم قبة ذات عقود قوطية وزخرفة توريقات، يمكن التعرف على طراز فرنجى- بيزنطى.

وبقيت أديرة لاتينية ريفية قليلة. وأكثرها روعة دير بيلابيس، المبنى على جرف صخرى يطل على الساحل الشمالى شرق كيرينيا. وقد كان فى الأصل ديرًا أوغسطينيًا، أسسه الملك أيمرى (١١٩٤-١٢٠٥م)، ثم اتخذ الدستور البريمونتستراتنسى تحت قيادة كبير الأساقفة تييرى النيقوسى (١٢٠٦-١٢١١م). وإذ أفاد الدير من الهبات الكريمة التى منحها الملك هيو الثالث (١٢٦٧-١٢٨٤م) وخلفاؤه، ازدادت ثروته وعظم نفوذه. والمبانى قائمة حول فناء مستطيل، تمت إضافة دير ذى عقود إليه فى القرن الرابع عشر. أما الكنيسة، التى يرجع تاريخها إلى أوائل القرن الثالث عشر، فتقع إلى الجنوب؛ ولها صحن بممرين بأجنحة على الجانبين، وتقاطع بأجنحة بارزة ومذبح بارز. وفى الشرق كانت أماكن النوم، فوق غرفة اجتماع الرهبان وسرداب ذى عقود برميلية. أما المائدة فكانت ناحية الشمال وصف قلايا الرهبان فى الغرب، وخلفها كان يوجد فناء المطبخ ؛ وفى مكان ما على هذا الجانب ربما كانت توجد أماكن إقامة ضيوف الملك التى نعرف أن الملك هيو الرابع (١٣٢٤-١٣٥٩م) قد بناها لاستخدامه الخاص.

ولايبقى من أقدم قلعة لاتينية فى قبرص سوى الخندق المحفور فى الصخر، الذى بناه فرسان الداوية فى كاستريا سنة ١١٩١م. وثمة قلعة باكرة أخرى، لم نعرفها سوى من الحفريات الأثرية، هى قلعة سارندا كولونيس فى بافوس. ومن الواضح أنها بنيت عقب سنة ١١٩١م مباشرة ودمرها زلزال سنة ١٢٢٢م. وعلى الرغم من أنها نُسبت إلى الاسبتارية، بسبب تشابهها مع قلعة بلڤوار، فإن الأدلة ليست حاسمة. وكان لها مخطط دفاعى مركز. كان العنبر الداخلى مستطيلاً مع أبراج مستطيلة فى الأركان وبرج مستدير فى جهة الشرق يحتوى على مدخل منحنٍ أسفل كنيسة صغيرة. وكان بالسور الخارج تنويعة من الأبراج مختلفة الأشكال، بما فى ذلك الأسطوانية والمستطيلة، والمثلثة، وما يشبه مقدم السفينة، والمضلعة ؛ كذلك كان للبوابة الخارجية المستطيلة مدخل منحن، وكان الدخول إليها عن طريق قنطرة خشبية فوق الخندق المحفور فى الصخر. ويشى بناء معمل السكر فى سرداب القلعة بأنه فى أعقاب استكمالها مباشرة كانت تستخدم باعتبارها مركز الضيعة، أيا كان الغرض الأصلى منها.



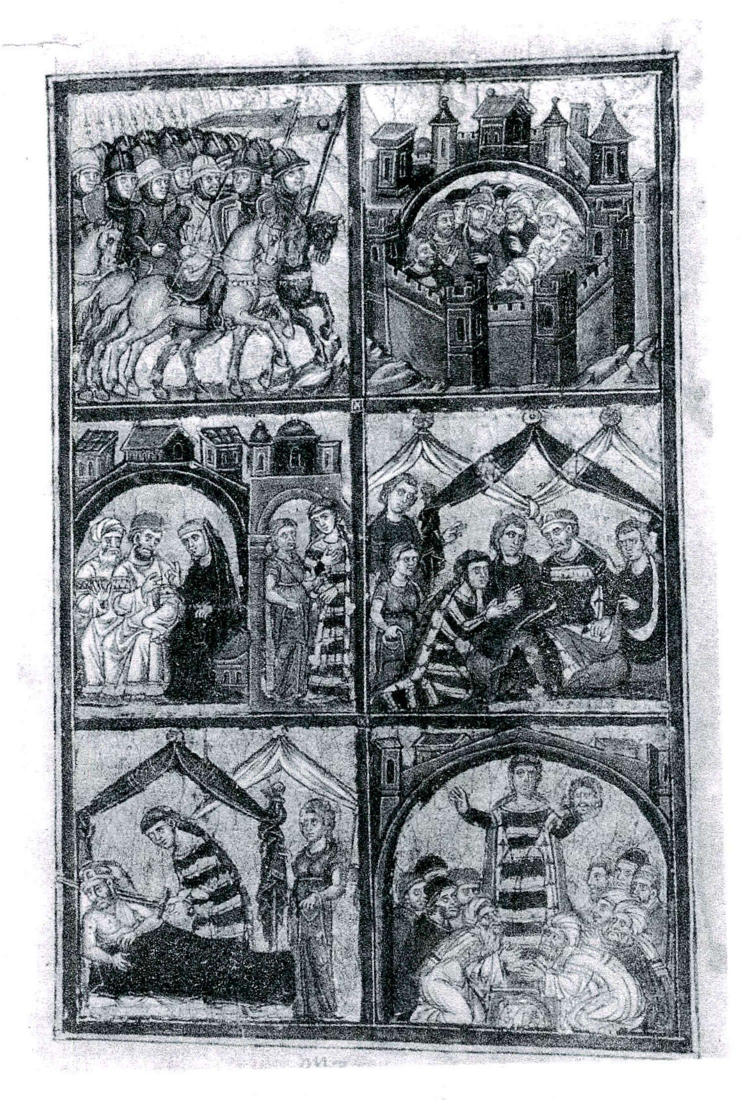
الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠م) وزوجته الفرنجية، ماريا الأنطاكية، تزوج الاثنان يوم عيد الميلاد ١١٦١م كجزء من العلاقات المتنامية بين المستوطنين الصليبيين والبيزنطيين خلال هذه الفترة



نمنمة فى كتاب المزامير المصنوع للملكة ميليسند وقع عليه عند قدمى المسيح الرسام الذى رسمه، باسيليوس الذى كان واحداً من أربعة يعملون فى الكتاب. وثمة صورة مستلهمة من الفن البيزنطى تشير إلى يوم الدينونة وفيها مريم العذراء ويوحنا المعمدان يتشاوران مع المسيح، وكانت هذه آخر الرسومات الأربع والعشرين فى الكتاب.



الغلاف الأمامى من العاج لكتاب المزامير للملكة ميليسند به ميداليات عن حياة الملك داود والفضائل والرذائل فى الفواصل، وكانت المشاهد من حياة داود اختياراً مناسباً، لأنها تعكس محتويات المخطوط، أى المزامير، وموضوع الملكية فى الأرض المقدسة. وقد صُمم الغلاف العاجى بحيث يحاكى النسيج، وقد تم طلاؤه بالذهب ورسمه ليعطى انطباعا بالسخاء.



صفحة الغلاف لسفر جوديث من نسخة الأرسينال للكتاب المقدس، أبرز ما هو موجود من إنتاج عكا. فى المخطوطات من زمن إقامة الملك لويس التاسع فى المدينة. فالاختيارات العشرون من العهد القديم تمت ترجمتها إلى الفرنسية وتضمنت نصوصًا من أسفار جوديث، وأستير وروث التى تركز على البطلات فى الأرض المقدسة، وربما كانت تحية لزوجة لويس مارجريت التى صحبته فى الحملة الصليبية.

كان قصب السكر محصولاً نقدياً مهمًا فى الجزء الجنوبى الغربى من قبرص تحت حكم الصليبيين. وتقع قلعة الاسبتارية فى كولوس، وقد بناها السيد چاك الميللى سنة ١٤٤م، فى مركز ضيعة لإنتاج قصب السكر، وبالقرب من مصنع للسكر. وفى كوكليا (بافوس القديمة) كان هناك معملان لتكرير السكر تديرهما الطواحين المائية لعصر القصب، وهناك بقايا من التنانير لغلى السائل وبلورة السكر فى قوالب من الصينى، تم العثور عليها فى الحفائر بالقرب من بيت ملكى فى الضيعة. وهناك مصنع آخر، كان فى منتصف القرن السادس عشر ملكًا لعائلة كورنارو فى البندقية، لا يزال باقيًا فى إيبيسكوبى.

وفى قبرص تحت الحكم الصليبى، يبدو أن كل القلاع، باستثناء تلك التى تنتمى إلى النظم الرهبانية العسكرية، كانت تحت السيطرة الملكية المباشرة، ففى كيرينيا، ورث آل لوزنيان قلعة بيزنطية مساحتها حوالى ثمانين مترًا مربعًا، وفى أركانها أبراج أسطوانية الشكل وسور خارجى أو حائط فى الجهة الجنوبية، وتدافع عنها أبراج على شكل مقدمة السفينة. وفى القرن الثالث عشر، أعادوا بناء الأسوار الشمالية والشرقية التى كانت بمواجهة البحر، وأضافوا أسوارًا خارجية جديدة إلى ناحية البر فى الجنوب والغرب تحتوى على ممرات مستديرة تؤدى إلى فتحات رمى السهام؛ ومن المفترض أنه كانت للقلعة أبراج فى الأركان، ولكن برجًا واحدًا فقط على شكل حرف D فى الشمال الشرقى هو الذى نجا من عوادى الزمان. وأماكن السكنى الملكية تقع فى الجهة الغربية، بحيث تسيطر على المدخل، وهناك كنيسة صغيرة أعلى البوابة الداخلية، وكانت المرحلة اللاتينية الأخيرة فى سنة ١٤٤-١٦٠م، عندما حوَّل البنادقة القلعة إلى حصن مدفعية نظامى بإعادة بناء السور الغربى، وردموا ما بين السورين المزدوجين، وأضافوا معاقل مستديرة فى الركن الشمالى الغربى وفى الركن الجنوبى الشرقى، ومعقلا بزاوية فى الجنوب الغربى.

كذلك أفادت القلاع الملكية فى الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر فى مجال كيرينيا- وهى سانت هيلاريون، والقنطرة، وبوفاڤنتو- من المواقع

الحصينة فى الأزمنة البيزنطية. وكانت مخططاتها غير منتظمة، مع سلسلة من الأسوار التى روعى فيها أن تناسب الطبوجرافيا الطبيعية. والمخططات الأكثر نظامية نجدها فى قلعة جيمس الأول بسيجورى (١٣٩١م) ذات الشكل المستطيل والأبراج فى الأركان، ويحيط بها خندق، وكذلك فى لاكاڤا بالقرب من نيقوسيا.

وفى فترة حكم البنادقة، كان هناك اهتمام خاص لتحسين دفاعات المدينتين الرئيسيتين ففى فاماجوستا تمت الموجة الأولى من أشغال التحسين فيما بين ١٤٩٢م إلى ١٤٩٦م، وقد شملت زيادة سُمك أسوار حوائط قلعة لوزينيان وإضافة معاقل مستديرة إليها لخدمة دفاعات المدفعية ؛ كذلك تم تزويد سور المدينة بمعاقل مستديرة ومعها المدفعية من فوق تطلق نيرانها أعلى منحدر زلق وبنادق أخرى فى حجرات حصينة فى جوانبها لتغطى السور. أما الموجة الثانية من الأشغال (١٤٤٤-١٥٦٥م)، فقد شملت المعقل ذا الأضلاع الثمانية المسمى ديامانتى باستيون فى الركن الشمالى الشرقى والبوابة الأرضية فى الجنوب الغربى، والتى تسبقها ساحة منفصلة تحتوى على بوابتين خارجيتين بزوايا قائمة على البوابة الداخلية ومارتنجوا باستيون فى الركن الشمالى الغربى، وهو معقل ذو زوايا لحماية المدفعية فى هذا الجناح. وقد انشغل عدد من أفضل الإيطاليين الشماليين الخبراء فى دفاعات المدفعية فى تصميم هذه الأشغال، وكان منهم ميشيل سان ميشيلى وابن أخيه جيانچيرولامو، الذى مات فى فاماجوستا ١٨٥٥م.

أما فى نيقوسيا، فإن السور المستدير، ذا الأبراج المستديرة، والبوابات الثمانى، والخندق الذى بناه بطرس الثانى فى سنة ١٥٧٢م، كان فى نظر المهندسين البنادقة طويلاً أكثر من اللازم بحيث لايمكن الدفاع عنه بكفاءة، ولذلك تمت إزالته، مع كل ما كان يقع خارجه، وحل محله سور دائرى أصغر كثيرًا يحيط بمركز المدينة. وإذ تم بناؤه بتوجيه من جويليو ساڤورنانو، كانت له ثلاث بوابات وأحد عشر معقلاً بزوايا ولها غرف محصنة صممت كل منها لتضم مائتى رجل وأربع قطع مدفعية. وكان الخندق والأشغال الخارجية لاتزال غير مكتملين عندما سقطت نيقوسيا بيد الأتراك فى ٩ سبتمبر ١٥٧٠م، وتمثل أسوار نيقوسيا اليوم أحد أرقى الأمثلة على التحصينات الإيطالية فى عصر النهضة والباقية خارج إيطاليا.



التصميم الدائرى للأسوار التى بناها البنادقة لنيقوسيا (١٣٦٧-١٣٧٠م) يمكن تقييمها بأفضل شكل من الجو. وشكل الشوارع داخل التحصينات ما يزال يعكس الجزء الداخلى من مدينة العصور الوسطى.

التصحيح اللغوى : عايدى جمعة
الإشـــراف الفنى : حسن كامل